



رجـــاء النقـــاش

الطبعـة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

النـاشر : مركز الأهـرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهـرام - شارع الجلاء - القـاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

المحتــويات

صفحة

مقـــدمـة

منذ سنوات طويلة وأنا ألاحظ أن كثيرين من أبناء الأجيال العربية الجديدة ، حتى بين المتعلمين وخريجي الجامعات ، ينظرون إلى الأدب والفكر والثقافة نظرة سلبية ، فهم يتصورون أن الثقافة بصورة عامة هى « شيء ثقيل الظل » ، مرهق للعقل والنفس ، ولذلك فإن الثقافة الخفيفة وحدها هى التى تثير اهتمام الأجيال الجديدة ، وهذه الثقافة الخفيفة هى الأفلام الترفيهية والغناء والموسيقى السهلة والعروض المسرحية الضاحكة ، أما وسائل الثقافة العميقة الجادة ، وعلى رأسها الكتاب ، فقد أصبحت من الأمور التى يحسن بالإنسان أن يبتعد عنها حفاظا على صحته ومعنوياته من الضعف والاعتلال . ولاشك عندى أن شباب هذه الأيام ليسوا هم وحدهم المسئولين عن هذه الظاهرة السلبية فى حياتنا الثقافية ، فكثيرون من الأدباء والكتّاب قد ساهموا فى خلق هذه الظاهرة ، وذلك عندما اتجه هؤلاء الأدباء والكتّاب إلى التعقيد فى التعبير والتفكير ، حتى أصبحت الثقافة العامة وكأنها نوع من الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة على إنسان بريء لا ذنب له ولا جريمة .

والحقيقة أن الجيل السابق من أدبائنا قد أدركوا منذ البداية أهمية التبسيط فيما يكتبون ، وأدركوا ضرورة إثارة شغف القارىء بالثقافة ، حتى يمكن لهذا القارىء أن يدخل إلى عالم الثقافة بلا خوف ولا إحساس بأنه مقبل على شيء ثقيل مقبض للنفس مثير للهموم قليل النفع فى الحياة . ومن هنا كانت كتابات طه حسين والحكيم والمازنى وزكى مبارك والعقاد وأحمد أمين وسلامة موسى والزيات وغيرهم هى كلها كتابات تحرص على توفير المتعة للقارىء وتيسير الأمور على عقله ومشاعره ، وقد بذل هؤلاء الكتاب والمفكرون جميعا جهدا كبيرا فى التعبير السهل عن أفكارهم مهما كانت هذه الأفكار صعبة وعميقة ، فالمهمة الأساسية للكاتب هى أن يكون أداة توصيل جيدة وممتعة بين القارىء والأفكار المختلفة ، أما إذا حاول الكاتب أن يكون مصدراً لتعذيب القارىء بالاصطلاحات الصعبة ،

والتعبيرات المعقدة ، فإنه يصبح مثل المعلم الذى يحمل الكرباج لتلاميذه ، ويحاول أن يفرض عليهم ألوان المعرفة بالعنف والقوة والعقوبة البدنية الصارمة ، وقد أثبتت التجارب الإنسانية المختلفة أن هذا الأسلوب لم ينجح فى خدمة العلم والثقافة ، بل كان على الدوام أسلوبا يؤدى إلى نتائج عكسية غير مطلوبة .

وهذا الكتاب الذى يسعدنى أن أقدمه إلى الجيل الجديد من الشباب هو محاولة من بين محاولات عديدة لإزالة الأوهام التى تتصل بأمور الثقافة وفروعها المختلفة من أدب وفن وفكر ، فليس صحيحا أن الثقافة شىء منفصل عن حياة الإنسان بأفراحها وأحزانها المتنوعة ، وليس صحيحا أن المثقفين هم قوم يعيشون فى منطقة معزولة عن الدنيا ، وأنهم مجموعة من الكهنة الغامضين الذين لا يعرف سرهم أحد ، بل الحقيقة هى أن الثقافة تعبير عن مشاكل الإنسان وهمومه ، وأن المثقفين يحبون ويكرهون ويتألمون ويواجهون نفس المشاكل المادية والمعنوية التى يتعرض لها الناس جميعا ، ومحاولة الكشف عن بعض هذه المعانى فى حياة الثقافة والمثقفين هى موضوع هذا الكتاب ، ولست أخفى أن هدفى الصريح من تأليفه هو أن أثير عند الشباب شغفا بالثقافة وشهية للقراءة وإحساسا بأن عالم الثقافة هو نفسه عالم الحياة التى يعيشها كل إنسان ولكن فى صورة صريحة ونقية وصادقة ، فالتجارب المختلفة التى يعيشها المثقفون ويعبرون عنها ، هى نفسها التجارب التى يعيشها الإنسان فى كل مكان ، بما فيها من خطأ وصواب وألم ونشوة ، ونجاح وإحباط .

ولو استطاع هذا الكتاب أن يثير فى الشباب حماسا للثقافة ورغبة فى مزيد من الإطلاع والقراءة فإننى أكون قد حققت ما أهدف إليه بتأليفه وتقديمه إلى القراء . وخلاصة ما أهدف إليه هو خلق صداقة حميمة بين الشباب وبين عالم الثقافة والأدب والفن ، وأنا على يقين أن تعميق الميول الثقافية للإنسان فى مجتمعنا هو هدف من أشرف الأهداف ، لأن انتشار الثقافة بصورة صحيحة يعنى أن مجتمعنا يستطيع أن يتخطى كثيرا من الأسوار والعقبات التى تحول بينه وبين النهضة والتقدم والفهم الصحيح لهذا العصر الصعب الذى نعيش فيه .

إن هذا الكتاب محاولة للتحريض على مزيد من القراءة ، واقتحام عالم الثقافة بنشوة وحماس ، وبلا خوف أو إحساس بالملل والضيق ... فالثقافة هى العنصر

الذى يجعل حياتنا أجمل ، وسلوكنا أرقى ، وذوقنا أرفع ، وعقلنا قادراً على التصرف الصحيح فى كل المشاكل الخاصة والعامة .

أرجو أن يساهم هذا الكتاب فى تحقيق هذا التحريض على حب الثقافة واكتشاف ما فيها من دفء وحنان وسعادة روحية غامرة .

إن هذا الهدف هو جزء من أحلامى ، والأحلام قوة دافعة فى حياة الإنسان ، حتى لو لم تتحقق هذه الأحلام بصورة كاملة .

وقد اخترت عنوان الكتاب من واقع الشخصيات المعروضة على صفحاته ، فهم عباقرة أو مجانين ، وبين العبقرية والجنون خيط رفيع ، فالعبقرية استثناء وخروج على المألوف ، وكذلك الجنون ، ولكن العبقرية تبنى وتضيف عناصر إيجابية إلى حياة صاحبها وحياة الناس ، أما الجنون فهو تدمير لصاحبه ومحاولة لتدمير الآخرين . ولعلنا بالفهم والمعرفة الصحيحة نستطيع أن نقف فى وجه الجنون وما يترتب عليه من سلبيات ، ونستطيع كذلك أن نستفيد من العبقرية ونتعلم منها ونستنير بما تقدمه من أفكار وأضواء جديدة على مشاكل الإنسان والحياة .

وسوف يجد القارىء أنه ينتقل فى هذا الكتاب بين العصور القديمة والعصر الحديث ، وبين الوطن العربى وأوطان العالم المختلفة ، وبين الأدب والسياسة ، والحضارة والفن ، وأحداث التاريخ وأخلاق الناس ، فمنهج الكتاب يقوم على أساس هذه السياحة الروحية المتنوعة ، بين الحياة والفن والتاريخ ، ولعل هذه الرحلة تكشف لنا فى آخر الأمر صفحات من جهود البشر فى مختلف العصور ، من أجل الوصول إلى الخير والسعادة والجمال ، والإنسان فى كل هذه الجهود يصيب مرة ويخطىء مرة أخرى ، ويضع يده على الينابيع الصافية مرة ، ويسبب لنفسه ولغيره الألم والعذاب مرات ومرات ، والحياة مع ذلك كله تمضى ، والإنسان يفرح ويحزن ، والمثل الأعلى للسعادة مطلوب فى كل الأحوال ، حتى وإن لم يتحقق بصورته الكاملة فى جيل من الأجيال .

رجـــاء النقـاش



سافو
أول شاعرة فى التاريخ

هـى أول شاعرة معروفة فى تاريخ الإنسانية كله ، فلم يعرف الأدب العالمى شاعرة أخرى قبلها ، ولم تلحق بها شاعرة إلاّ بعد وفاتها بمئات السنين ، ورغم أن حضارة الإنسان قد عرفت بعدها شاعرات كثيرات ، إلاّ أنها ظلت حتى الآن ألمع اسم فى تاريخ الأدب النسائى كله ، وظلت على الدوام شخصية فريدة متميزة ، تثير الإعجاب والاهتمام ، وتثير فى أحيان أخرى نوعا من الحسد والغيرة ، مما أدى بأعدائها والرافضين لها إلى القيام بمحاولات مستمرة لتشويهها وتلطيخ سمعتها والإدعاء بأنها لم تكن شاعرة

حساسة مبدعة محبة للجمال ، بل كانت شخصية منحرفة ، وكان اسمها عنوانا على السلوك الشاذ فى تاريخ النساء .

تلك هى الشاعرة اليونانية « سافو » .

وقد عاشت هذه الشاعرة فى الفترة الممتدة بين سنة ٦١٠ و ٥٦٠ قبل ميلاد المسيح ، أى منذ ألفين وخمسمائة سنة على التقريب ، أما مكان ميلادها فهو جزيرة لسبوس اليونانية .

وقد كانت « سافو » فى عصرها والعصور التالية لها فى الحضارة القديمة أشهر امرأة فى اليونان كلها ، وكانت أشعارها وأغانيها تدور على كل لسان ، وكان أبرز رجال اليونان فى الفكر والسياسة والثقافة ينظرون إليها نظرة إكبار وتقدير ، ومن بين هؤلاء كان صولون حاكم أثينا وواضع قوانينها العادلة وأحد أسبق رجال التشريع فى تاريخ الإنسانية ، وقد كان صولون المعروف بحكمته واتساع عقله وسلامة تفكيره يقول : « إننى أريد أن أحفظ أشعار « سافو » ثم أموت ، أى أنه كان يعتبر حفظ أشعار « سافو » هو قمة السعادة ، وأن الوصول إلى هذه السعادة كان كافيا لشعور الإنسان بأنه حقق هدفه من الحياة ، أما سقراط ، أعظم فلاسفة العالم القديم فكان يسمى « سافو » باسم « الجميلة » ، وكان أفلاطون ، تلميذ سقراط النابغة ، يقول مشيراً إلى الأساطير اليونانية :

« يقولون إن ربات الشعر تسع ، ألا ما أعظم غباءهم ، فليعلموا أن « سافو » ابنة مدينة لسبوس هى العاشرة » .

وإذا علمنا أن ربات الفنون عند اليونان ، كن جميعا من صنع الأساطير الخيالية ، وأن « سافو » كان لها وجود فعلى ، فإن معنى ذلك أن أفلاطون قد رفع « سافو » من مستوى الواقع الإنسانى الملموس إلى مستوى الأساطير .

ويقول عنها سترابون ، أحد المؤرخين اليونانيين الكبار ، كما يروى لنا ويل ديورانت فى كتابه « قصة الحضارة » ، الجزء الأول من المجلد الثانى ترجمة محمد بدران :

« كانت « سافو » امرأة فذة عجيبة ، لأنى لا أعرف أنه قد وجدت فى جميع

العصور التى وصل إلينا علمها امرأة أوتيت معشار ما أوتيت من النبوغ فى فن الشعر » .

ويقول ديورانت نفسه : إن الأقدمين إذا ذكروا لفظ « الشاعر » فإنما يعنون بهذا اللفظ هوميروس مؤلف الالياذة ، كذلك كان العالم اليونانى كله إذا نطق فيه أحدهم بلفظ « الشاعرة » أدرك الجميع أن المقصودة بذلك هى « سافو » .

وإذا تتبعنا حياة « سافو » بعد ذلك ، عرفنا أنها قد نضجت فى سن مبكرة ، وأنها أصبحت معروفة بقدرتها الفنية العالية قبل أن تبلغ العشرين من عمرها ، ورغم أن أشعارها المعروفة تدور كلها حول الحب والجمال والطبيعة ، إلاّ أنها مع ذلك كانت تعمل بالحياة العامة ، وكان لها نشاط سياسى مؤثر ، وقد أدى بها هذا الأمر إلى التعرض للنفى من مدينتها لسبوس مرتين ، كانت الأولى وهى فى التاسعة عشرة ، وكانت الثانية وهى فى الحادية والعشرين ، وكان حكام مدينتها يخافون من تأثيرها على الرأى العام ، والتفاف الناس حولها ، وجرأتها الدائمة فى إعلان أفكارها السياسية ، ومعارضتها لكل ما ترى فيه شراً وخطراً على أهلها وشعبها .

وهكذا لم يمنعها اهتمامها بعاطفة الحب ، وما يدور حولها من مشاعر وأحاسيس ، من أن تكون صاحبة رأى ، وأن تشارك فى الحياة العامة مشاركة جدية وإيجابية ، وبذلك ضربت « سافو » مثلا تاريخيا مبكرا للفنان الذى يرفض أن يسجن نفسه فى مشاعره الخاصة وعواطفه الذاتية ، وأن يعيش فى عزلة عما يدور حوله من أحداث ، وما يعانيه الناس من هموم ومشاكل .

وقد عادت « سافو » من منفاها الثانى بعد خمس سنوات ، وذلك بعد أن أصبح اسمها على كل لسان فى مدينتها لسبوس ، وبعد عودتها أصبحت من القوة بحيث لم يعد أحد قادراً على أن يمسها بسوء أو ينفيها مرة أخرى ، فقد تحولت إلى شخصية بارزة فى المدينة ، وأصبحت زعيمة للفن والذوق والتأثير الوجدانى على الجميع ، وقد تزوجت من تاجر ثرى فى مدينتها اسمه أندروس ، وأنجبت منه ابنتها الوحيدة كلايس ، وكانت تقول عنها إنها تشبه « الزهرة الذهبية » وأنها « لا يمكن أن تفرط فيها ولو أعطيت بدلا منها تاج مدينتها الغالية ، وقد توفى

زوجها بعد سنوات قليلة من الزواج ، وورثت عنه ثروة ضخمة أتاحت لها أن تقضى بقية حياتها فى رخاء كبير .

وقامت « سافو » بعد ذلك بفتح أول مدرسة معروفة فى التاريخ لتعليم الفتيات فنون الشعر والموسيقى والرقص والسلوك المهذب ، وكانت « سافو » فى هذه المدرسة هى الأستاذة الأولى والوحيدة ، ذلك لأنها لم تكن فقط شاعرة ، بل كانت ذات موهبة موسيقية كبيرة ، وكانت صاحبة صوت جميل جذاب ، ولذلك كانت تكتب قصائدها وتلحنها وتغنيها ، ومن المعروف أنها أضافت وزنا جديدا إلى الأوزان الشعرية التى كانت شائعة فى عصرها ، وقد أصبح هذا الوزن معروفا حتى الآن باسمها وهو « الوزن السافونى » .

وكانت علاقة « سافو » بتلميذات مدرستها علاقة حميمة مليئة بالعاطفة القوية ، مما أطلق الشائعات المختلفة ضدها ، وكان أهم هذه الشائعات هو اتهامها بالشذوذ . حتى لقد أصبحت كلمة الشذوذ عند المرأة منسوبة إلى مدينة لسبوس وهى مدينة الشاعرة « سافو » ، فالمرأة يقال لها فى اللغات الأوروبية « ليسبيان » نسبة إلى مدينة لسبوس ، وكان الأساس فى إطلاق هذه الصفة هو ما تردد عن نوع العلاقات القائمة بين « سافو » وتلميذاتها فى المدرسة التى افتتحتها الشاعرة وأشرفت عليها وتولت التعليم الفنى فيها ، كذلك اعتمدت هذه الشائعات على بعض ما بقى من شعر « سافو » ، فقد قالت عن نفسها وهى تتحدث عن تلميذات مدرستها : « إن الحب لهن يهز قلبى كما تهز الريح القوية أشجار البلوط » ، وقالت لإحدى تلميذاتها : « لقد أحببتك يا أفيس من زمن بعيد » ، وعندما تزوجت أفيس هذه كتبت « سافو » قصيدة تعبر عن ألمها العاطفى لفراق تلميذتها العزيزة وفى هذه القصيدة تقول : « إنه سعيد ذلك الرجل الذى يجلس ويراك بعينيه أمامه .. إنه يجلس بالقرب منك ويستمع إليك وهو معقود اللسان ، وأنت تتحدثين حديثك الفضى وتضحكين ضحك الحبيب فى غير صوت عال » . ثم تقول « سافو » بعد ذلك فى نفس القصيدة : « إن هذا وحده يكفى لأن يثير قلبى المجروح فى صدرى ويملأ نفسى بالاضطراب ، لأنى إذا رأيتك لحظة قصيرة خشع صوتى من فورى ، وانعقد لسانى ، وسرت فى ضلوعى نار يحس بها كل من حولى ، ولا تبصر عيناى منها شيئا ، وتطن فى أذنى أمواج من الصوت عالية ويتصبب جسمى عرقا

فيجرى أنهارا . وترتجف جميع أعضائى ، ويصبح لونى أكثر اصفرارا من لون العشب فى الخريف ، وتنتابنى آلام الموت المترصد لى فاضطرب وأضل فى سكرات الحب » .

واضطرت الفتاة أفيس بعد الزواج إلى أن تترك المدرسة وهى تقول لأستاذتها : « واحسرتاه ما أتعس حظنا ! أقسم لك يا « سافو » أن فراقى إياك كان على الرغم منى» ، ولكن « سافو » أخذت فى تهدئة تلميذتها فقالت لها : « سيرى فى طريقك منشرحة الصدر . ولكن اذكرينى لأنك تعرفين هيامى بك . ألا ما أعز وأجمل الأيام التى قضيناها معا » . وتنتهى قصيدة « سافو » بهذه الكلمات « لن أرى أفيس بعد اليوم ولا فرق عندى بين هذا وبين الموت » !!

بسبب هذه اللغة العاطفية الحارة فى قصائد « سافو » التى تحدثت فيها عن علاقتها بتلميذاتها نشأت تلك الشائعات عن شذوذ الشاعرة . ولكن الباحثين المعتدلين المحايدين يرون رأيا آخر ، فقد كانت الشاعرة حقا محبة لتلميذاتها وفية لهن ، تأخذ عملها فى تدريبهن على الغناء والموسيقى والشعر والرقص مآخذ الجد ، وكانت أشعارها العاطفية حول تلميذاتها صادقة فى التعبير عن العواطف الطبيعية والتى تنشأ عن عمق الألفة والتفاهم والمشاركة فى الاحساس بجمال الطبيعة وجمال المشاعر الإنسانية المختلفة ، وكان هذا هو مصدر النغمة العاطفية العالية فى قصائدها .

وهذه النظرية فى تفسير قصائد « سافو » حول تلميذاتها أقرب إلى الصواب من نظرية الشذوذ والانحراف ، فقد كانت « سافو » شخصية بارزة معروفة فى المجتمع ، وكان من الصعب أن تلقى بنفسها فى مواطن الشبهات التى يستنكرها الجميع ، كما أن المجتمع من ناحية أخرى لم يعترض على ذهاب الفتيات من كل الفئات إلى مدرسة « سافو » ، ولو أن هذه المدرسة كانت مشبوهة لما سمحت العائلات المختلفة لبناتها بالتعليم فيها ، كذلك فإن الفتيات اللواتى كن يتعلمن عند « سافو » قد خرج معظمهن من المدرسة إلى بيت الزوجية ، فلو أن المدرسة كانت متهمة بهذا الشذوذ فى عصرها ، لما تزوجت تلميذة واحدة من تلميذاتها ، ولكان الرجال قد أضربوا عن الزواج من هؤلاء الفتيات وانصرفوا عنهن انصرافا نهائيا كاملا . ولقد كانت مدرسة « سافو » مدرسة علنية تعمل فى النور أمام عيون

الجميع ، وقد كان من المستحيل أن يسمح المجتمع بوجود مثل هذه المدرسة العلنية المعروفة ، لو كانت مدرسة للانحرافات والفضائح والشذوذ .

لقد كانت عواطف « سافو » الحارة المتدفقة نحو تلميذاتها جزءا من عواطفها نحو الجمال والطبيعة ، وجزءا من إيمانها بالحب الحقيقى فى كل صوره ، فقد كانت شاعرة تهتز نفسها دائما للحب والجمال ، وكان شعرها كله يدور حول هذا المحور الخالد ، ومن هنا استطاع هذا الشعر أن يحفظ اسم الشاعرة على مر الزمان ، رغم أن الكثير من هذا الشعر قد ضاع ، ولم يبق منه إلا القليل ، ومع ذلك فهذا القليل قد جعل منها أول وأعظم شاعرة عاطفية فى تاريخ الأدب العالمى ، والمعروف أن ما بقى من شعرها لا يزيد على ستمائة بيت ، وهذا القليل الباقى من شعرها تعرض لحروب متصلة ودائمة ، فقد بلغ من قوة أعدائها والذين أساءوا فهمها أن الكنيسة أمرت سنة ١٠٧٣ ميلادية بإحراق أشعارها جميعا ، ورغم هذا الحريق فقد احتفظ الناس فى وجدانهم بما بقى من هذا الشعر وحرصوا عليه أشد الحرص .

وقد كان لمصر فضل كبير على أشعار « سافو » ، ففى سنة ١٨٩٧ اكتشف الباحثون عن الآثار بعض التوابيت القديمة فى الفيوم تم استخدام الورق فى صناعتها ، وعند البحث فى أوراق هذه التوابيت تبين أنها تحتوى على عدد من قصائد « سافو » التى أصبحت جزءا من أشعارها المعروفة الآن .

وقد قيل إن « سافو » ماتت منتحرة بسبب أزمة عاطفية تعرضت لها ، وقصة الانتحار هذه قصة غير ثابتة رغم ترددها على أقلام الكثيرين من الكتاب والمؤرخين ، ويدفعنا إلى عدم تصديقها ما كانت تتصف به « سافو » من واقعية فيما وصل إلينا من كتاباتها . فقد رفضت الزواج من رجل أحبها وطلب يدها ، وقالت له فى تبرير رفضها إن العمر قد تقدم بها .. « وقد خط الزمن على جسدى خطوطا كثيرة ، ولم يعد الحب يسرع إلىّ بما يحمله من هدايا » ، وطلبت « سافو » بعد ذلك من الرجل الذى تقدم إليها أن يختار له زوجة « أكثر شبابا وأصغر سنا » .

هذه الواقعية فى التصرف والسلوك والتفكير تدل على أن « سافو » لم تكن

من النوع « الانتحارى » ، بل كانت – على حرارة عواطفها – صاحبة نفس طيبة راضية بما تأتى به الأيام .

أما قصائد « سافو » القليلة التى وصلت إلينا ففيها الكثير من الجمال والجاذبية والبساطة ، وقد أتيح لهذه الأشعار ترجمة رقيقة إلى العربية قدمها الدكتور عبد الغفار مكاوى فى كتابه القيم « سافو ـ شاعرة الحب والجمال عند اليونان » ، ومن أشعار « سافو » قولها عن الحبيب البعيد المنال : « إنه مثل التفاحة الحلوة التى تحمر على الطرف الأعلى للغصن ، والتى تركها من يجنى التفاح .. لم ينسها ، ولكنه لم يستطع لعلوها أن يصل إليها » .

ومن قصائدها أيضاً :

الآن قد غاب القمر
وكذلك الكواكب السبعة
انتصف الليل
وزمن الانتظار فات
وأنا
أنام وحدى

ومن هذه القصائد :

كما يطير الطفل إلى أمه
كذلك طرت

□ □ □

تلك هى أول شاعرة عرفها التاريخ ، وقد كانت وما زالت إلى اليوم رمزا للتعبير الحار الصادق عن عاطفة الحب التى هى ـ فى صورنها السامية ـ أرقى عواطف الإنسان .



ثـورة العاشـــقين

هـــذه أغرب ثورة فى التاريخ ، وهى الثورة الوحيدة من نوعها ، فلم يكن لهذه الثورة علاقة بالسياسة ، ولم يكن زعماؤها من الطامحين للسلطة ، بل كانوا على عكس ذلك من الكارهين للسياسة والهاربين من المناصب ، وكانت رغبتهم الأساسية هى أن يعيشوا أحرارا يستمتعون بالحياة ، ويتبادلون الحب دون أن يكون عليهم رقيب ، ودون أن يتدخل أحد فى حياتهم أو يفرض عليهم قيودا من أى نوع .

وقد اندلعت « ثورة العاشقين » هذه فى روما فى عصر الإمبراطور

« أغسطس » . وأغسطس هو نفسه أوكتافيوس الذى حارب انطونيو وكليوباتره وانتصر عليهما فى موقعة « أكتيوم » البحرية سنة ٣٢ قبل الميلاد . وانتهت هذه المعركة كما هو معروف بانتحار انطونيو وكليوباتره ، واستيلاء أوكتافيوس على مصر ونقله لكنوزها المادية الوفيرة إلى روما . واستقر الحكم لأوكتافيوس بغير منافس ، وظل يحكم الإمبراطورية الرومانية ما يزيد على أربعين سنة بعد ذلك ، حيث توفى سنة ١٤ بعد الميلاد وقد وصل إلى السادسة والسبعين.

وبعد أن استقر الحكم لأوكتافيوس ، وأطلق عليه الناس اسم « أغسطس » وهى كلمة تعنى « الكبير » أو « العظيم » أراد هذا الحاكم الفذ أن يعيد النظام إلى الإمبراطورية الرومانية الواسعة ، وأن يضع لها قوانين اقتصادية وأمنية تضمن لها الازدهار وتحقق السعادة للمواطنين . وكان هذا الحاكم قويا وطموحا ، يعيش حياة ليس فيها ترف ولا رفاهية ، فلم يكن يأكل سوى الطعام البسيط مثل الجبن والخضراوات والخبز الجاف ، وذلك لأنه كان يشكو من عدة أمراض تهدد حياته ، وكان يعالج نفسه بالتقشف الشديد فى الطعام ، والتزام البساطة فى كل أساليب حياته المختلفة ، وبذلك استطاع أن يحافظ على صحته وصفاء ذهنه وقوة إرادته ، واستطاع أن يحكم بلاده وإمبراطوريته فترة طويلة نجح فيها نجاحا نادرا تشهد به صفحات التاريخ ، فى ذلك الزمن البعيد منذ ألفى عام تقريبا .

وقد حقق « أغسطس » إنجازات كبيرة فى مجال الاقتصاد والعمران والحياة الاجتماعية . وكان هذا الإمبراطور يدرك أن كل إصلاحاته لن يكون لها قيمة إذا لم يكن هناك نظام أخلاقى راسخ يلتزم به الأفراد ، وبدون هذا النظام الأخلاقى يمكن أن ينهار المجتمع ، وأن تصبح الإصلاحات الكبرى التى قام بها الامبراطور عبثا لا فائدة منه .

وكانت روما فى تلك الأيام وثنية ، ولم يكن هناك سوى أقلية من اليهود ، أما المسيحية فلم تكن قد ظهرت بعد بما تحمله من مبادىء أخلاقية لتنظيم العلاقة بين الناس ، مما جعل « أغسطس » يفكر فى وضع نظام أخلاقى يلتزم به الناس حتى لا تعم الفوضى ويشيع الانحلال .

ولذلك فقد حرص « أغسطس » على أن يضع قوانين واضحة دقيقة تنظم

العلاقات الإنسانية فى المجتمع مثل الزواج والميراث وما إلى ذلك ، وكانت هذه القوانين تشدد العقوبات على الانحرافات الأخلاقية . ومن طرائف هذه القوانين أنها كانت تشجع على زيادة النسل ، وتعطى للأم التى تنجب ثلاثة أبناء امتيازات كبيرة واسعة ، وكان الهدف من ذلك هو تشجيع الرومان على الإنجاب ، بعد أن شاع بينهم الترف والبحث عن الحياة الناعمة الخالية من المسئولية ، والتى لا تميل إلى الزواج أو تحمل عبء الأطفال . وقد أحس « أغسطس » بالخطر الزاحف على روما نتيجة لهذا السلوك الذى بدأ ينتشر فى المجتمع ، فأخذ يقاومه بقوانينه المختلفة التى سنت عقوبات مشددة على العلاقات غير الشرعية ، ووضعت إغراءات مادية ومعنوية كثيرة للزواج وبناء الأسرة وإنجاب الأطفال .

ونجحت قوانين « أغسطس » فى فرض نوع من القيم الأخلاقية على المجتمع الرومانى ، وساد النظام حياة الناس بعد أن كانت الفوضى قد ملأت البلاد وسيطرت على العلاقات الإنسانية . وارتبط بذلك كله ما اتجه إليه « أغسطس » من تشجيع للأدباء والفنانين والشعراء ، ودعوتهم إلى تأييد النظام الجديد ، والكتابة عنه حتى يتحمس له الناس ، ويقبلوا عليه طائعين . وأصبحت مدينة روما مليئة بالمؤلفين والشعراء حتى لقد قال الشاعر الرومانى الشهير « جوفنال » : « إن من الأسباب التى تضطره إلى أن يعيش فى الريف هو أن يفر من الشعراء الذين تزدحم بهم روما » .

لقد كانت عوامل السلام والرخاء التى سادت فى عهد الامبراطور « أغسطس » سببا قويا من أسباب ازدهار الفنون والآداب فى هذا العصر ، وكانت سببا فى ازدهار أساليب الترف والرفاهية فى حياة الرومانيين ، وكان الامبراطور شديد القلق من أن يتجه هذا كل بالمجتمع الرومانى إلى الفساد والانحلال ، فالرخاء الشديد ينتج عنه الفراغ ، والفراغ لابد أن يؤدى بأصحابه إلى البحث عن أساليب للاستمتاع بالحياة حتى لو انتهى ذلك كله إلى اللهو الشديد ، والإغراق فى ملذات الحياة المختلفة ، والتراخى عن أداء الواجبات التى ينبغى على المواطنين أن يتحملوها .

ولذلك كان الامبراطور يريد من الشعراء الذين يبذل لهم كل ما يستطيع من أساليب التشجيع المادى والمعنوى ، أن يهتموا بالحديث عن الأهداف الجدية للحياة

والإنسان ، وأن يلفتوا نظر المواطنين إلى معانى العمل والإنتاج وما تعطيه هذه المعانى لحياة الإنسان من بهجة وقيمة رفيعة . وظهر فى روما شعراء كبار من هذا النوع ، كان على رأسهم « فرجيل » الذى ملأ أشعاره بتمجيد حياة الريف والزراعة ، حيث يعيش الإنسان مع أفراح الطبيعة ، ويكتشف أسرار الجمال فيها كل يوم ، وحيث يجد الإنسان هواء نقيا طلقا ، فيمتلئ جسمه بالعافية والصحة ، وتتفتح مشاعره للحياة بما يتجدد فيها دائما من التفاؤل والأمل . كذلك كتب « فرجيل » ملحمة شعرية كبيرة هى « الإنيادة » سار فيها على طريق الشاعر اليونانى العظيم « هوميروس » فى ملحمته « الإلياذة » ، وكان هدف « فرجيل » من كتابة « الإنيادة » هو أن يعيد إلى ذاكرة الرومانيين أمجاد ماضيهم ، على أمل أن يدفعهم ذلك إلى الإحساس بأنهم ينتمون إلى حضارة عظيمة ، وأنهم مطالبون بأن يجعلوا من حاضرهم امتدادا لهذا الماضى الجميل ، وذلك بدلا من أن يعيشوا حياة سطحية سهلة لانفع فيها ، مبتعدين بذلك عن العمل والإنتاج والحياة الجادة ، مما يهددهم بتبديد ما يملكونه من تاريخ مضىء وتراث مشرق عظيم .

وهكذا أستعان الامبراطور « أغسطس » بالقوانين التى سنها وبالشعر والفنون التى لقيت منه تشجيعا كبيرا واسعا ، وذلك بهدف خلق مجتمع مستقر يسوده النظام والأخلاق ويتجه الناس فيه إلى العمل والإنتاج ، بدلا من أن يذوب هذا المجتمع ويتحلل بسبب ما تحقق له من الرخاء والسلام ، وتحت إغراء ما تدفق عليه من أموال وكنوز وثروات واسعة جاءت إليه من البلاد التى ضمتها روما إليها فى الشرق والغرب . فقد كانت روما فى ذلك الحين ، منذ ألفى عام ، هى أقوى دولة فى العالم ، وكان « السلام الرومانى » معناه أن قوة روما لا تجد من يعارضها أو يقف فى وجهها ، فهى الحاكمة بأمرها فى أوروبا كلها ، وهى الحاكمة بأمرها فى كل دول الشرق المطلة على البحر الأبيض ، وكلمتها مسموعة وأمرها مطاع فى كل مكان .

فى وسط هذا الجو كله ظهر ما أطلق عليه بعض المؤرخين والباحثين اسم « ثورة العاشقين » . فقد كان هناك فى المجتمع الرومانى من يرى أن الإنسان قد جاء إلى هذه الدنيا ليستمتع بالحياة ، وبما أفاضت به الطبيعة عليه من أسباب الرفاهية والسعادة ، وكان أصحاب هذا الاتجاه يرون فى القوانين الصارمة التى

فرضها الإمبراطور « أغسطس » لتنظيم الحياة الأخلاقية والاجتماعية نوعا من التشدد والتزمت لا نتيجة له إلا جعل الحياة شاقة وعسيرة وغير محتملة ، ومن هنا اندفع أصحاب هذا الاتجاه إلى الانغماس فى متع الحياة ، وتوسعوا فى إقامة الحفلات اللاهية ، والعلاقات العاطفية الواسعة ، وجعلوا من حياتهم كلها لحظات مليئة بالمسرات ، دون أن يعبأوا بما يدعو إليه الإمبراطور من اعتدال والتزام بقوانين الأخلاق الصارمة .

وقد اتيح لهذه الجماعات المحبة للحياة ، أن تجد زعيمها فى أحد الشعراء الكبار الموهوبين الذين ظهروا فى هذه الفترة ، وهو الشاعر « أوفيد » . وقد ولد « أوفيد » سنة ٤٣ قبل الميلاد ، وتوفى سنة ١٨ بعد الميلاد ، أى أنه عاش اثنين وستين عاما . وكان « أوفيد » من أسرة رومانية غنية ، وأراد له أبوه أن يتعلم تعليما راقيا يتيح له أن يكون رجلا من رجال الدولة البارزين . وتعلم « أوفيد » كما أراد له أبوه ، واشتغل فترة قليلة بالقضاء ، ولكنه اعتزل ذلك كله ليتفرغ للشعر الذى كان يحس أنه ولد من أجله ، وأنه لا يستطيع أن يقوم بعمل آخر سواه فى هذه الحياة ، فقد كان صاحب موهبة وكانت الأنغام الرائعة والصور الجميلة تتدفق عليه بقوة وغزارة ، فيكف يمكن له أن يعمل بأى عمل آخر ، وكيف لا يتفرغ لهذه الموهبة الطبيعية الرفيعة ، خاصة بعد أن مات أبوه وترك له ثروة كبيرة تتيح له الفراغ الكامل ، حيث لم يكن مضطرا إلى الكدح من أجل الرزق ، مادام العيش السعيد الرخى موفورا له من ثروته الموروثة ، دون أى جهد أو عناء .

وأخذ « أوفيد » فى كتابة أشعار مختلفة يدعو فيها إلى الحب وإلى الاستمتاع بالحياة ، دون أن يتقيد الإنسان بأى قيد ، ودون أن يفكر فى هموم الدنيا والمجتمع . كان شاعراً داعيا للتحرر والتفاؤل والبهجة ، ولعله كان فى أعماقه يحس أن هذا العالم الصعب القاسى لا يستحق من الإنسان أن يبالى به ، فالنهاية معروفة وهى الموت ، والفرصة محدودة وهى الحياة القصيرة التى نعيشها ، وعلى الإنسان أن يستفيد من هذه الفرصة حتى النهاية .

وكتب « أوفيد » أشعارا كثيرة ، وكان أهمها « التحولات » أو « مسخ الكائنات » ، وفى هذا الكتاب يروى الأساطير اليونانية الكبرى فى صياغة شعرية جميلة راقية ، وهو يصور من خلال هذه الأساطير كل العواطف والعواصف

والصراعات الكبرى فى حياة الإنسان ، من حب وغيرة وتنافس وانتقام ورغبات أخرى عنيفة تسيطر على الإنسان وتتحكم فى موافقة وتصرفاته . أما كتابه الثانى الشهير فهو « فن الهوى » وفيه يتحدث عن كل صور الحب التى يمكن أن يتخيلها شاعر موهوب متحرر من القيود مثل هذا الشاعر الكبير . وفى « فن الهوى » محاولة جريئة لتعليم الرجال والنساء كيف يعشقون وكيف يكسبون معارك الحب ، وينتصرون على كل المنافسين . فللرجال فى « فن الهوى » دروس فى كيفية السيطرة على المرأة وإغرائها والاحتفاظ بقلبها حتى لا تتحول إلى إنسان آخر ، وفى « فن الهوى » أيضا دروس للمرأة فى كيفية الوصول إلى قلب حبيبها والاحتفاظ به حتى لا يقع فى يد امرأة أخرى منافسة .

ولقد كانت هذه الموضوعات كفيلة بأن تجعل « فن الهوى » كتابا رخيصا من تلك الكتب الشائعة فى كل عصر وزمان . والتى تحتال لكى تحقق الرواج والنجاح المادى لصاحبها بالحديث عن الحب والجنس ، وهما سلعة لها جمهورها الكبير على الدوام ، حتى لو كان هذا الجمهور يستهلك هذه السلعة فى السر ، ويلعنها بعد ذلك أمام الناس ، ولكنه مع ذلك يقبل عليها ويشعر بفضول شديد لمعرفة ما تعبر عنه مثل هذه الكتب .

وقد ظل « فن الهوى » كتابا خالدا على مر العصور والأجيال ، ولم يتعرض إلى ما تتعرض له أمثال هذه الكتب من النسيان والإهمال ، والسبب فى ذلك أن « أوفيد » كان شاعرا موهوبا ، وأنه استطاع أن يتناول هذا الموضوع المتصل بالحب والجنس تناولا فنيا جميلا استخدم فيه أعذب أنغام الشعر ، وقدم فيه أجمل الصور الفنية ، وتحدث فيه بجرأة وصراحة عن خبايا المشاعر الإنسانية العميقة ، والتى تختفى عادة فى داخل العقل والشعور ، ويحاول الجميع سترها عن العيون .

وقد أتيح لهذين الكتابين الكبيرين : « التحولات » أو « مسخ الكائنات » و « فن الهوى » أن يجدا من يترجمهما إلى اللغة العربية ترجمة رفيعة راقية ، وكان هذا المترجم هو الدكتور ثروت عكاشة الذى قضى سنوات طويلة عاكفا على هذين العملين الأدبيين المثيرين حتى قدمهما منذ سنوات إلى المكتبة العربية ، فى لغة أدبية شديدة الدقة والعذوبة والجمال .

ونعود للشاعر « أوفيد » داعية الحب والجمال والمتعة ، فى مجتمع أراد له الإمبراطور « أغسطس » أن يكون مجتمع النظام والإنتاج والسلوك الأخلاقى السليم .

لقد خلق « أوفيد » أنصارا متعددين له ، وأصبح هؤلاء الأنصار ممن يرددون شعره ويعيشون كما يريد بهم هذا الشعر أن يعيشوا ، أى أنهم كانوا يطلبون الحب بكل الوسائل والأساليب ، وكانوا يبحثون عن متعة الحياة فى أى مكان ، غير عابئين بقوانين الإمبراطور الصارمة . ولم يكن أنصار « أوفيد » من الرجال فقط ، بل كان هناك كثيرات من نساء عصره يتحمسن له ويرددن شعره ويتأثرن بدعوته ، وكان من بينهم حفيدة الإمبراطور واسمها « يوليا » وقيل إنها كانت على علاقة بالشاعر « أوفيد » وأنها كانت تقيم فى قصرها حفلات حمراء صاخبة ، تحقق فيها فلسفة شاعرها فى الدعوة إلى الاستمتاع بمباهج الحياة ومسرات الحب .

وامتلأت روما بأنصار الشاعر الذين يؤمنون بمذهبه فى البهجة والمتعة وحب الحياة ولم يكن كل هؤلاء الأنصار من الأبرياء ، بل لقد انحرف الكثيرون منهم إلى نوع من المبالغة فى طلب المتعة إلى حد الانحلال والإفراط ، وكان من بين هؤلاء بل على رأسهم جميعا « يوليا » حفيدة الإمبراطور .

ماذا يفعل الإمبراطور فى هذا الشاعر الجميل الموهوب « أوفيد » ؟ .. لقد أصبح شعر « أوفيد » خطرا على روما من وجهة نظر الإمبراطور ، وأصبح خطراً على كل جهود الإصلاح التى يبذلها الإمبراطور ، والتى يريد من خلالها خلق المجتمع الرومانى المثالى المتمسك بالفضائل العالية ، والمنصرف إلى العمل والإنتاج والمتعة الهادئة البريئة .

لقد كان الإمبراطور صديقا للشاعر « أوفيد » وكان يحبه ويحب فنه الجميل ، ولكنه كان يريد من هذا الشاعر أن يكون قوة للبناء لا قوة تساند الانحلال والتدهور والانصراف الكامل إلى الاستمتاع بالحياة والعلاقات العاطفية الحرة ، والسهر حتى الصباح ، والحفلات الصاخبة وما إلى ذلك ، ففى هذا كله خطر شديد على المجتمع ، وفيه هدم لكل أحلام الإمبراطور ، فى الإصلاح والنظام والاستقرار والتماسك الاجتماعى .

وهنا اتخذ الإمبراطور قراره القاسى بنفى « أوفيد » من روما إلى مدينة « تومى » الواقعة على البحر ، وهى الآن المدينة التى تسمى باسم « كونستانزا » وتوجد فى رومانيا . وقد حزن الشاعر « أوفيد » كثيرا لقرار نفيه وتحديد إقامته فى مدينة واحدة يصفها فيقول إنها : « مكان مقفر موحش خال من الأشجار لا ينبت فيه شىء ، ويحجب عنه ضباب البحر الأسود ضوء الشمس ، أما البرد فيشتد فيه حتى تبقى ثلوج الشتاء فى بعض السنين طوال فصل الصيف » .

كان الشاعر قد وصل إلى الواحدة والخمسين من عمره عندما تلقى قرار الإمبراطور بنفيه من روما إلى تلك المدينة الموحشة على البحر الأسود ، وحاول الشاعر بعد تنفيذه لقرار النفى أن يستعطف الإمبراطور ويستميل قلبه فيغفر له ويعفو عنه ، ولكن الإمبراطور لم يتأثر بمحاولات الشاعر الحزين التعس . وظل أوفيد فى منفاه حتى مات سنة ١٨ ميلادية ، وكان فى الثانية والستين من عمره ، وتحققت له أمنيته الأخيرة فدفن فى روما كما أراد وليس فى مدينة المنفى البعيدة .

وهكذا قاد « أوفيد » ثورة العاشقين فى روما ، فكتب للرجال والنساء أجمل قصائد الحب ، بل وكتب الكثير من القصائد المكشوفة الجريئة البذيئة ، وكان الكثيرون يحفظون هذه القصائد ويرددونها ويجدون فيها متعة كبيرة ، فهى قصائد « تحرضهم » على المتعة والبهجة وحب الحياة والإقبال عليها بنهم ، مع التحرر من كل القيود والتقاليد . وقد أدت هذه القصائد إلى شيوع حياة المرح والسهر والعلاقات العاطفية المتحررة ، وكان على الشاعر « أوفيد » زعيم « ثورة العاشقين » أن يدفع الثمن ، لأن هذه الثورة كانت خطرا شديدا على النظام الاجتماعى الذى تعب الإمبراطور « أغسطس » فى بنائه وفرضه على الناس . وكان الثمن الذى دفعه « أوفيد » هو النفى من مدينته الحبيبة روما ، والحياة فى عزلة قاسية باردة فى مدينة بعيدة حتى الموت .

لقد كان شعره حرا طليقا ، وكان شعرا جميلا ساحرا ، وكان فى شعره يدعو إلى الحب ، ولم يكن يدعو إلى ذلك الحب القائم على الوفاء والإخلاص بل كان الحب عنده يقوم على المهارة والقدرة على الانتقال الحر بين ألوان الجمال المختلفة . وكان لهذا الشعر تأثيره الواسع على أخلاق الناس ، فى عصر كان مليئا بالرغبة فى التحرر والانطلاق والثورة على الجمود .

وتمر الأيام والأجيال وينسى الناس ما فى شعر « أوفيد » من دعوة إلى التحرر المطلق الذى يبلغ حد الفوضى والاستهتار ، ولكنهم يذكرون ما بقى فى شعر « أوفيد » من جمال عذب ، وصور فنية رائعة ، وإحساس مشتعل بما فى الحياة من بهجة ودعوة إلى التفاؤل والإقبال على الدنيا فى حرارة ونشوة .

لقد انتهى « أوفيد » الفوضوى المعادى لكل نظام أخلاقى سليم ، وبقى « أوفيد » الشاعر الفنان ، حيث اجتازت أشعاره أكثر من ألفى سنة لتصل إلى عصرنا الحالى وهى أشد نضارة وأكثر حيوية مما كانت عليه فى سالف العصور والأزمان .



كاليجولا
إمبراطور الدماء والعطور

كلما فتحنا صفحات التاريخ القديم للإنسانية ، وجدنا أن هذا التاريخ يمتلىء بألوان عجيبة من الظلم يصل بعضها إلى حد الجنون . وقد عاش الإنسان آلاف السنين وهو يقاوم الظلم ، ويحاول أن ينتصر عليه ، بحيث تصبح حياة الناس خاضعة لبعض القوانين الأساسية التى تحقق العدالة ، وتمنع القسوة والطغيان والعبث بمصائر الناس وقطع رقابهم بسبب وبدون سبب . ومن المؤسف حقا أننا لا نستطيع أن نقول إن الإنسانية فى العصر الحديث قد استطاعت أن تتخلص من كل مظاهر الظلم ، فمازال الظلم منتشرا فى

المجتمعات المختلفة ، فالبيض يضطهدون السود ويقتلونهم ويحرمونهم من سائر حقوق الإنسان كما يحدث فى جنوب أفريقيا ، والأغنياء يضطهدون الفقراء ويتحكمون فى أرزاقهم ويفرضون عليهم كثيرا من الأوضاع القاسية ، وهذا الصراع الدامى بين الأغنياء والفقراء تمثله العلاقة القائمة الآن بين الدول الغربية المتقدمة ودول العالم الثالث التى تجاهد للدفاع عن رغيف الخبز وعن فرصتها فى الحياة ، فتجد نفسها غارقة فى الديون وتجد حياتها مليئة بالأزمات الصحية والنفسية والثقافية ، أما الأزمات الاقتصادية فهى أزمات متجددة لا تكاد تنتهى فى هذه البلاد التعسة التى نسميها باسم العالم الثالث ، ولعل الصحيح أن نسميها باسم العالم البائس المطحون ..

ومعنى ذلك أن كفاح الإنسان من أجل العدالة مازال قائما منذ فجر التاريخ إلى الآن ..

وأقوى أسباب الظلم هو أن يتحكم فى المجتمعات الإنسانية أشخاص لا يردعهم قانون ، ولا يستطيع أن يسألهم أحد عما يفعلون ، وتؤدى بهم السلطة المطلقة إلى فساد مطلق لا يقيم وزنا لدماء الناس أو أعراضهم أو أموالهم ، أو حقهم فى أن يعيشوا آمنين مطمئنين ماداموا لم يخطئوا أو يرتكبوا أى جريمة فى حق الآخرين ..

وهذه قصة إمبراطور رومانى تقدم لنا صفحة من تاريخ الظلم ، هى صفحة مليئة بالقسوة والعنف وعدم المبالاة بأى معنى من معانى الرحمة والعدالة واحترام كرامة الإنسان ..

هذا الإمبراطور استطاع أن يحكم روما منذ حوالى ألفى سنة ، وبالتحديد فى السنوات الأربع الممتدة من سنة ٣٧ ميلادية إلى سنة ٤١ . وكانت روما فى تلك الفترة تحكم أوروبا كلها ، كما كانت تحكم المنطقة التى نسميها الآن بالشرق الأوسط ، والتى تضم تركيا والشام والعراق ومصر والمغرب .. فقد كانت الإمبراطورية الرومانية فى هذا العصر سيدة العالم المعروف كله ، يسيطر جنودها على معظم بلاد الأرض القديمة ، باستثناء تلك البلاد البعيدة عن روما مركز الامبراطورية مثل الهند والصين .

وجاء هذا الإمبراطور الرومانى إلى السلطة ، لأنه من سلالة حكام الرومان المعروفين مثل انطونيو واكتافيوس . وقد نشأ فى صباه بين جنود الإمبراطورية الرومانية ، وعاش معهم حياتهم ولبس ملابسهم ، واطلق عليه هؤلاء الجنود اسم « كاليجولا » ومعناه « الحذاء الصغير » ، فقد كان جنود الجيش يلبسون حذاء نصفيا أشبه « بالصندل » الذى يلبسه بعضنا فى الصيف ، وكان « كاليجولا » يلبس هذا الحذاء وهو صغير ، فأطلق الجنود عليه هذا الاسم من باب التدليل و « الدلع » . وقد أصبح هذا الإمبراطور مشهورا باسم « كاليجولا » ، واختفى اسمه الأصلى وهو « جايوس » . وقد تولى السلطة ، وأصبح إمبراطورا وهو فى الخامسة والعشرين من عمره ، واستمر فى الحكم أربع سنوات ملأها بالدم والتحكم غير المحدود فى رقاب الناس .

بدأ « كاليجولا » حكمه بأسلوب فتن المواطنين وأجتذبهم إليه ، فتوسع فى ممارسة الديموقراطية ، حيث أعطى سلطات واسعة لمجلس الشيوخ الرومانى ، وافرج عن المسجونين وأعاد المنفيين إلى بلادهم ، وخفف الضرائب على المواطنين ، ووزع على الناس أموالا طائلة ، وكان يحب التمثيل ، فاغدق المكافآت والهدايا على الممثلين ، وظن الناس أنهم سيعيشون مع هذا الإمبراطور الجديد عصرا من عصور الأحلام السعيدة ، والحياة المطمئنة المليئة بالنظام والعدالة والتقدم والرخاء . ولكن هذه الأوضاع الهادئة السعيدة لم تستمر أكثر من ثلاثة أشهر فى بداية حكم « كاليجولا » ثم انقلب الحال ، ليرى الناس أن الإمبراطور الذى يحكمهم هو فى حقيقته إنسان متوحش مريض باعصابه ، متعطش للدماء ، شديد القسوة ، وان هذا الإمبراطور حاكم مجنون لا يقف فى طريقه أى قانون أو التزام أخلاقى من أى نوع .

لقد اكتشف هذا الامبراطور فى الشهور الثلاثة من حكمه أن كلمته مطاعة ومسموعة ، وأنه يستطيع أن يفعل أى شىء فى أى وقت ، ومن هنا تسلل سم السلطة المطلقة إلى عقله وأعصابه ، فبدأ يتصرف تحت تأثير هذا السم ، وأصبحت كل قراراته وأحكامه صادرة عن إحساسه الجنونى بأنه يملك الدنيا ومن عليها وأن أحدا لا يستطيع أن يقول له : لا .. أو يعترض على تصرفاته ، أو حتى يحاول أن يفهم مغزى هذه التصرفات ، بطرح أى سؤال حولها ..

وتوالت تصرفاته المجنونة المثيرة للفزع فى قلوب المواطنين ..

فقد أرغم أعضاء مجلس الشيوخ على أن يقبّلوا قدميه ، بعد أن كان قد أوهمهم أنه سوف يعطيهم سلطة واسعة لمناقشة أمور الدولة واتخاذ القرارات المناسبة والتى تتفق مع المصلحة العامة ، وادعى أنه سوف يحترم هذه القرارات ويلتزم بها ويعمل على تنفيذها . ولكن سرعان ماسلب من أعضاء مجلس الشيوخ هؤلاء كل حق لهم ، وفرض عليهم أن ينفذوا قراراته التى يتخذها وحده دون الرجوع إلى أحد ، وجعل منهم أشبه بالعبيد فى طاعته ، والاستماع إليه مع تقبيل أقدامه كلما التقوا به على أن يشكروه بعد ذلك على أنه سمح لهم بأن يقبلوا هذه الأقدام الكريمة .. فتلك نعمة يجب أن يسعدوا بها ويقدموا عليها كل الشكر والعرفان !!

أما سلوكه بالنسبة للنساء فكان بالغ الغرابة والشذوذ . فقد أمر بطلاق أخته درازيللا ليتزوجها هو .. ثم ماتت هذه الأخت فحزن عليها أشد الحزن .. ولكن حزنه لم يمنعه من أن يأمر بتطليق زوجات كثيرات من أزواجهن ليصبحن أزواجا له أو عشيقات .. وذات مرة حضر زفاف إحدى النساء الشهيرات فى روما ، وفى ليلة الزفاف أعجبته العروس ، فأخذها معه إلى قصره وتزوج منها ، أو بالأحرى عاش معها حياة الأزواج ، فلم يكن هذا الإمبراطور ليعرف قانونا أو قاعدة يبنى عليها تصرفاته أو علاقاته المختلفة ..

وازدادت أموره غرابة وشذوذا يوما بعد يوم .. كان لا يستحم بالماء بل كان يستحم بالعطور .. وكان مسرفا إلى الحد الذى أدى إلى إفلاس خزينة الدولة تماما ، ومن إسرافه أنه أقام مرة وليمة من ولائمه ، وتكلفت هذه الوليمة ما يساوى مليونين من الدولارات بأرقامنا العصرية .. وكان يحب أن يقف فى شرفة قصره ويلقى بالنقود الذهبية والفضية على الناس ، ثم يستمتع بعد ذلك بمنظرِ الناس وهم يتزاحمون إلى حد القتال على التقاط النقود التى يلقيها الإمبراطور !!

ونجد تفصيلا دقيقا لحياة هذا الإمبراطور المجنون فى كتب التاريخ المختلفة التى تعرضت لتاريخ روما القديمة ، وعلى رأس هذه الكتب « قصة الحضارة » للمؤرخ الأمريكى الكبير ويل ديورانت (الجزء الثانى من المجلد الثالث ـ ترجمة محمد بدران) .

ومن أعمال هذا الإمبراطور أنه قرر يوما تقديم جميع « الصلع » من المساجين طعاما للوحوش التى كان يربيها ليستمتع بألعابها المختلفة ، وبذلك أقام هذا الإمبراطور أول سيرك دموى فى التاريخ ، لأنه لم يكن يقوم بإعدام « الصلع » ، قبل تقديمهم للوحوش ، بل كان قراره هو تقديم هؤلاء المساكين أحياء للوحوش حتى تقوم بقتلهم وأكلهم فى نفس الوقت .. والغريب أنه كان هو نفسه أصلع . وعندما كان يحتاج إلى مزيد من الأموال كان يختار عددا من الأغنياء ويتهمهم - جزافا - بالخيانة ويعدمهم ويستولى على أموالهم ، وكان يقرر ذلك وينفذه بلا محاكمة ولا اتهام ، ولا مقدمات أخرى من أى نوع !

ووصل جنونه إلى قمته عندما اختار حصانه المفضل « انستاتس » ليجعل منه عضوا فى مجلس الشيوخ ، ثم اختاره بعد ذلك ليكون وليا للعهد ووارثا لعرش الإمبراطورية !!!

وأصيب بالأرق فكان يجرى فى أروقة قصره طيلة الليل يصرخ وينتظر شروق الشمس ..

وانتهى به الأمر إلى تأليه نفسه .. وطالب الناس بعبادته ، كما كان المصريون يعبدون الفراعنة ، وفرض الضرائب على كل شىء وعلى كل إنسان .. حتى على العاهرات ، ويقول ويل ديورانت فى « قصة الحضارة » إن هذه الضريبة حسب قانون الإمبراطور المجنون تظل قائمة على « من كانت يوما عاهرا حتى وإن تزوجت وتابت وابتعدت عن مهنتها الرخيصة ، فقانون الإمبراطور يلزمها بالضريبة مدى الحياة » !

وكان إحساسه بأن سلطته مطلقة ونهائية يدفعه إلى تطبيق قوانين هى من وحى خياله وجنونه ، فقد كان يقول لبعض ناصحيه : « إن فى مقدورى أن أفعل أى شىء بأى إنسان » ، ويقول ديورانت فى « قصة الحضارة » أيضا : « إنه ذكر لضيوفه فى إحدى الولائم أن فى وسعه أن يقتلهم كلهم وهم متكئون فى مقاعدهم ، وكان وهو يحتضن زوجته أو عشيقته يقول لها ضاحكا : سوف يسقط هذا الرأس الجميل من فوق رقبتك بكلمة تخرج من فمى » !!

وقد كتب الفنان الفرنسى الكبير ألبير كامى مسرحية عن هذا الإمبراطور

المجنون هى مسرحية « كاليجولا » ، وحاول كامى أن يجد تفسيرا فلسفيا لشخصية هذا الإمبراطور ومواقفه المختلفة ، وكان تفسير كامى قائما على أن « كاليجولا » كان يتصرف بوحى من إحساسه بأنه حر حرية مطلقة ، وأن هذه الحرية المطلقة ليست إلاّ عبثا ، لأنها تؤدى إلى الغرق فى الدم ، والإحساس بوحشة الحياة ووحشيتها أيضا ، فالحرية عند كامى هى حرية المسئولية المقيدة التى تقوم على الالتزام بتحقيق السعادة واحترام مصالح الآخرين والعمل على التقليل من الإحساس بمأساة الحياة ..

على أن الصفحات الدامية التى يمثلها « كاليجولا » فى التاريخ تعلمنا أشياء كثيرة .. فهى تعلمنا أن السلطة المطلقة تؤدى دائما إلى الجرائم الدامية ، وتقود الإنسان إلى أخطاء فادحة لا علاج لها ، وحتى لو كان الإنسان مليئا بالخير كما كان « كاليجولا » فى أول حكمه ، فإن هذا الخير لابد أن يفسد ويغرق فى الانحراف الشديد ، مادامت السلطة التى يملكها ليس عليها قيود ، وليس هناك قانون يحد منها ، وليس هناك من يراجع صاحب هذه السلطة فى قراراته ويصححها له إن كانت خاطئة . وقد أكدت الحياة الحديثة ، والأنظمة السياسية العصرية صدق هذه الظاهرة ، وهى أن السلطة المطلقة تقود المجتمعات إلى كوارث متلاحقة لا علاج لها ، ومن هذه الأنظمة التى عرفها العصر الحديث النظام النازى الذى كان يتزعمه هتلر فى المانيا من ١٩٣٣ إلى ١٩٤٥ ، فقد أدت السلطة المطلق إلى انهيار ألمانيا ، وانتهت هذه السلطة بمجموعة من الكوارث الحادة المتلاحقة فى حياة هذا الشعب . وهذا هو نفسه ماحدث فى ايطاليا الفاشية تحت زعامة موسولينى ، وهى زعامة عاشت مدة أطول من زعامة هتلر ، فقد حكم موسولينى ايطاليا من ١٩٢٢ إلى ١٩٤٥ وانتهى الأمر بكوارث عديدة أصابت ايطاليا ومازالت تعانى منها إلى الآن .

والحقيقة الأخرى التى نتعلمها من قصة « كاليجولا » هى أن السلطة المطلقة ليست وبالا على المجتمعات فقط ، بل هى مأساة لأصحابها أيضا ، حيث لابد أن تقودهم هذه السلطة غير المقيدة بقانون أو مبدأ إلى الدمار والفجيعة ، ويندر أن يكون هناك طاغية - على مر التاريخ - قد سلم من طغيانه أو أفلت من نتائج هذا الطغيان ، و « كاليجولا » نفسه قد انتهى به الأمر إلى أن يموت مقتولا على يد

أحد ضباط حرسه المقربين منه ، فقد قام هذا الضابط واسمه كاسيوس كائيريا بقتل « كاليجولا » سرا ذات ليلة انتقاما منه ، وخلاصا من أحكامه المجنونة وفساده وتسلطه الدموى على الناس ..

والحكمة الأخيرة التى نخرج بها من قصة « كاليجولا » ، هى أن الصفحات الدامية القائمة على العنف والقسوة فى تاريخ الإنسان أكثر من تلك الصفحات الجميلة المشرقة القائمة على العدل والقانون واحترام الناس والمحافظة على كرامة البشر .. إن معظم صفحات التاريخ الإنسانى مكتوبة بالدم ، ومازال الإنسان حتى يومنا هذا يعمل ويكافح حتى يتخلص من الظلم الذى ينشر ظلاله فى شتى بقاع العالم ، ويملأ الدنيا والقلب الإنسانى بالأحزان فى كل مكان .



تشاترتون
الصغار يفضلون الانتحار

الشاعر الحقيقى إنسان حساس ينظر إلى الحياة والناس بقلبه وعاطفته ، ويحب أن يعيش فى عالم يسانده ولا يعانده ، وبعض الشعراء إذا وجدوا الدنيا أمامهم صعبة وعسيرة واجهوها بالعزم والارادة القوية والتمرد عليها ، مثلما فعل شاعرنا العربى الكبير أبو الطيب المتنبى ، فقد وقف هذا الشاعر فى وجه ظروف صعبة منها الفقر والسجن والحسد الكبير الذى كان يشعر به نحوه كثيرون من أدباء عصره ، بعد أن أصبح المتنبى نجماً لامعاً يطغى بنوره على الجميع ، وقد ظل المتنبى يحارب ويتحدى ، حتى

انتهى الأمر بأن قتلته عصابة من أعدائه ثم فروا هاربين فى الظلام ، ومازالت جريمة مقتل المتنبى بعد مرور أكثر من ألف عام على وقوعها جريمة غامضة لا أحد يعرف تفاصيلها الدقيقة إلى الآن .

وبعد وفاة المتنبى بحوالى سبعين عاما ولد شاعر عربى عظيم آخر هو أبو العلاء المعرى ، وكان المعرى من أشد المعجبين بالمتنبى ، فحفظ أشعاره وكتب شرحا وتفسيرا لها ، ويبدو أن المعرى* قد فهم حياة المتنبى جيدا ، وتعلم منها درسا واحدا ، وهو أن معاندة الحياة والناس أمر لا جدوى منه ، ونهاية المتنبى المفجعة درس لا ينسى فى هذا المجال ، ولذلك فقد اختار المعرى أن يبتعد عن الدنيا ، وأن يعتزل فى بيته المتواضع فى قريته معرة النعمان ، لا يطلب شيئا من أحد ، ولا يأكل اللحوم ، ويكتفى بأبسط الطعام وأخشن الثياب ، حتى مات بعد أن تجاوز الثمانين وقد نفض يده من الصراعات المختلفة ، وارتفع فوقها بعفته وكرامته وكبريائه ، فكان تمرده على الحياة فريداً من نوعه ، حيث اعتزل ، واستبسل فى الدفاع عن هذه العزلة ولم يقبل أى إغراء للخروج منها .

ولكن هناك شعراء آخرين انهزموا فى صراعهم مع الدنيا ، ولم يتحملوا لهيب المعركة المستمرة مع المتاعب والمنغصات ، فآثروا أن ينسحبوا من الحياة كلها بالانتحار . ومن هؤلاء الشعراء شاعر إنجليزى شاب عاش فى القرن الثامن عشر ، ويعتبر أشهر المنتحرين بين الشعراء فى الأدب العالمى كله . هذا الشاعر الشاب هو « توماس تشاترتون » الذى ولد فى ٢٠ نوفمبر ١٧٥٢ وانتحر فى ٢٤ أغسطس سنة ١٧٧٠ . أى أن هذا الشاعر الموهوب قد اختار الانتحار وهو فى سن الثامنة عشرة من عمره .

والغريب أن « تشاترتون » قد حظى بعد انتحاره باهتمام أدبى واسع ، حتى أصبح فى آخر الأمر نجماً من نجوم الأدب الانجليزى بل والأدب العالمى كله ، أما فى حياته القصيرة ، فقد لقى ألوانا من العذاب والاضطهاد ، وتعرض للمحنة بعد المحنة ، فى رزقه ورزق أهله ، ثم فى أدبه الذى لم يحظ باعتراف من أحد ، وعندما حظى ببعض الاعتراف من الصحف الانجليزية ، اعتبره أصحاب هذه الصحف هاويا لا يستحق أجرا عما يكتبه ، ورفض أصحاب هذه الصحف أن

يكافئوه على جهوده الأدبية ، رغم أنهم كانوا يستغلون ثمار هذه الجهود وينشرونها في أماكن بارزة من صحفهم .

ونعود إلى قصة الشاعر الموهوب من البداية .

كان والد الشاعر مغنياً في فرقة موسيقية ، يعمل في كنيسة بلدته وهي بريستول ، وكان رجلا محباً للفن والثقافة ، مولعاً بجمع العملات القديمة ، وقد توفي هذا الأب قبل ميلاد ابنه بشهور قليلة ، ولذلك فعندما ولد الشاعر اختارت له أمه اسم أبيه الراحل وهو « توماس » . وكانت الأم شديدة الحب لطفلها ، مليئة بالحنان نحوه ، مهتمة أشد الاهتمام بأن تربية أحسن تربية ، كانت تعيش في ظروف اقتصادية بالغة الصعوبة ، ولم تكن انجلترا في ذلك العصر قد عرفت الرفاهية والثراء الواسع الذى عرفته فيما بعد ، عندما استعمرت أنحاء كبيرة من العالم ، وبدأت تنقل ثروات البلاد الخاضعة لها وتستثمرها وتستفيد منها ، ولذلك كانت انجلترا في ذلك العصر - القرن الثامن عشر - مليئة بالطبقات الشعبية الفقيرة المسحوقة ، ولم تكن تعرف الرفاهية فيها إلاّ طبقة محدودة من أبناء الارستقراطية الانجليزية التى كانت تتكون في معظمها من الاقطاعيين أصحاب الأرض ، أو من التجار أصحاب الحوانيت والسفن التى تجوب البحار ، وتنقل البضائع المختلفة من ميناء إلى ميناء .

فماذا تفعل أسرة هذا الطفل الصغير ، وكانت هذه الأسرة تتكون من الأم وابنتها مارى ثم هذا الابن الذى جاء إلى الدنيا بعد وفاة أبيه ؟! ماذا تفعل الأم المسكينة المخلصة في تحقيق أهدافها العزيزة عليها ، وهي تعليم الأبن وإعداده أحسن الإعداد لمواجهة الحياة ؟ .. لقد كافحت الأم ، واستعانت بالميراث الصغير المحدود الذى تركه الأب ، وضيقت على نفسها وعلى أسرتها حتى تتيح للابن أن يتعلم كما تحب وتتمنى .

ولكن الطفل الصغير كان محيرا لأهله . فقد كان كثير البكاء ، يعاني من « السرحان » الطويل وكأنه غائب عن العالم لا يحس بما حوله . وكان لا يستجيب حتى سن الثامنة لأى تعليم ، واعتبره البعض « أغبى طفل في العالم » واعتبره آخرون متخلفا عقليا لا أمل فيه .

وكثيرون من الذين كتبوا عن « تشاترتون » يعبرون عن دهشتهم لهذه الأعراض التى ظهرت على الطفل الصغير ، من الغباوة إلى البلاهة ، وخاصة عندما يقارنون هذه الطفولة ، بما أظهره الشاعر بعد ذلك من نبوغ عجيب .

والمسألة فى حقيقتها ليست لغزاً يثير الحيرة ، بالظروف التى نشأ فيها الطفل ، فلقد ولد فى جو حزين ، بسبب وفاة أبيه قبل مولده ، بل إن الشهور القليلة التى قضاها الطفل فى بطن أمه بعد وفاة الأب لابد أن تكون قد تركت تأثيرها على تكوينه العصبى ، حتى قبل أن يرى نور الحياة ، فلقد كانت الأم فى هذه الشهور ، التى يستكمل فيها الجنين تكوينه ، تعانى من حزن شديد وهم متصل بسبب غياب الأب ، وقد تحدث العلماء كثيراً عن حساسية الأم الحامل لكل ما يجرى حولها ويتصل بها ، وأكد العلماء أيضا ، أن حالة الأم النفسية تؤثر كثيراً على الجنين ، وهذا ما حدث بالنسبة للطفل « تشاترتون » ، فقد حملته أمه وهى فى حالة عنيفة من الاضطراب العصبى ، وكانت تحمل فى نفسها هماً قوياً سيطر عليها بصورة كاملة ، وإذا كان الأب قد تركها ورحل عن الدنيا وهى فى الشهور الأخيرة من الحمل ، فإن هذه الأم لم تكن تعانى من صدمة فقدان الزوج فقط ولكنها كانت تعرف أنه لم يترك لها قبل رحيله ما يعينها لكى تواجه الحياة ، وتتغلب على المصاعب المادية القاسية التى تنتظرها .

هذه هى حالة الأم عندما كان طفلها جنينا فى بطنها يتكون ويستعد للحياة . ولم تكن الحال فى الأسرة أسعد عندما جاء الطفل إلى الدنيا ، والذى لا شك فيه أن التوتر الدائم الذى كانت تعانى منه الأسرة قد انعكس على أعصاب الطفل الصغير . فقد كانت الهموم و المشاكل هى الغذاء اليومى للأسرة البائسة ، والأطفال ـ على عكس ما يتصور البعض ـ شديدو الحساسية للأجواء التى تحيط بهم ، وهذا الطفل على وجه الخصوص قد ولد بقدرة إضافية فى الاحساس والشعور ، هى قدرة الشاعر التى هى موهبة طبيعية يمنحها الله لصاحبها منذ البداية ، وهى قدرة لا يتعلمها الإنسان أو يكتسبها من تجاربه المختلفة ، لأنها تولد معه منذ اللحظة التى يفتح فيها عينيه على الدنيا .

هذا الجو داخل الأسرة ، وهذه الهموم التى عانتها الأم ، قد أصابت الطفل بما يشبه الصدمة القوية ، مما جعله فى طفولته كثير البكاء ، ميالا إلى شرود

الذهن ، غير قادر على استيعاب أى درس يتلقاه ، فقال أساتذته عنه إنه لا يصلح للتعليم وطردوه من المدرسة . وكان ذلك أمرا محزنا جدا بالنسبة للأم ، وقدرت هذه الأم أن ابنها سوف يكون عديم النفع ، وأنه سوف يصبح عبئا عليها إلى النهاية ، وكانت تحلم بأن تجعل منه رجلا ناضجا ونافعا يملأ عليها حياتها وحياة الأسرة . ثم وقعت المفاجأة !

فى الثامنة من العمر ، تفتح الصبى « توماس تشاترتون » على المعرفة ، وتعلم القراءة والكتابة بسرعة مذهلة ، وبدأ الطفل الباكى صاحب الذهن الشارد ، يبدى من مظاهر الذكاء والنباهة مالفت أنظار الجميع ، بل لقد بدأ يكتب الشعر ، ولم تمض سنوات قليلة حتى أصبح مشهورا فى مدينته بريستول ، بما أظهره من النبوغ ، وبما أصبح معروفا عنه من ميل شديد إلى المطالعة فى نهم كبير .

وكان « تشاترتون » قد اكتشف حقيقة نفسه ، وأدرك قيمة المواهب الكامنة فيه ، ولكن المجتمع الانجليزى فى ذلك الحين لم يكن مفتوح الصدر للموهبين الفقراء ، وكان من الصعب على عبقرية مبكرة مثل عبقرية « تشاترتون » أن تشق طريقها بسهولة ، فيكف يصدق الناس أن فتى لم يصل إلى الخامسة عشرة من عمره يمكن أن يكتب شعرا جميلا بديعا مثل الشعر الذى كان يتدفق عليه ؟ وكيف تمتد الأيدى الحانية إلى الصبى الفقير لتنتشله من فقره ، وتتيح له الفرصة الكاملة للتعبير عن نفسه الموهوبة المليئة بالقصائد الجميلة ، والأنغام العذبة الرائعة ؟

لم يكن مجتمع القرن الثامن عشر ، هو ذلك المجتمع الكريم المتفتح ، الذى يأخذ بيد الموهبين ، حتى لو كانوا من أفقر طبقات الشعب ، فإما أن يكون صاحب الموهبة من الأغنياء والقادرين ، أو يكون من بين الذين يجدون الحماية من أحد هؤلاء الذين يملكون المال والسلطان ، أما إذا كان فقيرا لا يحميه أحد ، بالإضافة إلى تلك « العلة » الجديدة ، وهى صغر السن بالنسبة لـ « تشاترتون » ، بحيث يصعب تصديق قدرته على أن يبدع فى مثل سنة هذا الشعر الجميل .. كل ذلك جعل الطريق أمام « تشاترتون » مسدودا ، بحيث كان عليه أن يبحث عن حل لأزمته الفريدة .

وفكر الصبى العبقرى « تشاترتون » فى حيلة يكسر بها الأسوار المحيطة به ،

ويلفت أنظار الناس ، ولم يكن صعبا على خياله الخصب أن يخترع قصة يمكن قبولها وتصديقها من الجميع ، فقد أشاع الفتى الموهوب أنه عثر على مخطوطات قديمة كانت مكدسة فى كنيسة بلدته ومهملة على مدى القرون ، وأنه قد عثر فى هذه المخطوطات على قصائد مهمة مكتوبة منذ القرن الخامس عشر ، أى قبل عصره بثلاثة قرون تقريبا ، وأشاع « تشاترتون » أن القصائد التى عثر عليها هى من تأليف قسيس كان يعيش فى ذلك الزمن البعيد واسمه توماس راولى ، وأن بعض هذه القصائد هى من تأليف شخص آخر هو وليم كانينج الذى كان فى ذلك العصر محافظا لمدينة بريستول ، وبدأ الناس يهتمون باكتشافات « تشاترتون » وأخذت الصحف تنشر نماذج عديدة من هذه الاكتشافات الأدبية المدهشة ، وإن كان البعض قد بدأ يثير الشكوك حول صحة هذه الأشعار ، وصحة نسبتها إلى الشخصين اللذين زعم « تشاترتون » أنهما كتبا هذه الأشعار فى القرن الخامس عشر .

وفى عصر « تشاترتون » كانت « موضة » المخطوطات القديمة رائجة ، وكان هناك بعض الأثرياء ممن يحبون تشجيع حركة إحياء المخطوطات القديمة ، ويدفعون الأموال فى تشجيع الذين يهتمون بهذه المخطوطات ، وكان أمل « تشاترتون » هو أن يجد واحدا من هؤلاء الأثريا يتحمس له ، ويساعد اكتشافته الأدبية الغزيرة ، والتى هى فى حقيقتها أشعار كتبها الشاب الصغير الموهوب ، ونسبها إلى الآخرين .

وطرق الشاعر أبواب عدد من الأثرياء المشهورين باهتماماتهم الأدبية ، وتجاوب معه واحد منهم اسمه هوراس ولبول ، مما جعل « تشاترتون » يحس بالتفاؤل ، ويأمل فى غد مليء بالرخاء والشهرة والمجد ، على يد هذا الثرى الأديب ، ولكن ولبول سرعان ما انقلب على « تشاترتون » عندما نبهه بعض الأدباء إلى أن مخطوطات الشاعر الشاب لا تدعو إلى الثقة فى صحتها ، وكانت النتيجة هى انصراف الثرى الأديب عن الشاعر الشاب وإهماله له .

ولم ييأس « تشاترتون » الذى كان قد بدأ ينشر باسمه الصريح بعض انتاجه الأدبى من شعر ونثر ، وخطر على باله أنه يمكن أن يخرج من هذه الأزمة كلها بالسفر إلى العاصمة لندن ، فمادامت الصحف قد بدأت تنشر له باسمه ، ومادامت

قصائده التى نسبها إلى الآخرين تثير الاعجاب والاهتمام ، وإن كانت تثير فى نفس الوقت شكوكا وتساؤلات عديدة .. مادام قد أثار هذا كله فى الحياة الأدبية الانجليزية ، فلابد أن العاصمة سوف تستقبله استقبالا طيبا وتفتح له مجالات النشر والشهرة وتقدم إليه المال الذى يحتاج إليه هو وأسرته .

وفى لندن عاش « تشاترتون » خمسة أشهر متصلة ، وكان قد أصبح فى الثامنة عشرة من عمره ، وكتب فى هذه الفترة مجموعة كبيرة من القصائد الرائعة التى نسبها إلى توماس راولى ، وحاول أن ينشرها ويستفيد من العائد المادى لها ، ولكن آماله خابت ، فقد انصرف الناس عن الاهتمام به ، وباكتشافاته الأدبية ، وبدأ الصحفيون يعاملونه معاملة بالغة القسوة ، فقد أظهروا الاستعداد لأن ينشروا له مايكتبه باسمه ، ولكن دون مقابل ، ويكفيه فخرا من وجهة نظرهم أنه ، وهو الشاب الصغير ، ينشر فى صحفهم الهامة المعروفة .

وضاقت الدنيا بالشاب العبقرى الموهوب ، ولم يجد مخرجا من أزمته ، وكان الفتى العبقرى ، رغم قسوة الدنيا عليه ، يتمتع بإحساس عميق بالكبرياء والكرامة ، فلم يطق ما كان يعانيه من تجاهل ، ووجد نفسه غارقا فى ظروف مادية قاسية ومستحيلة ، ولم يجد فى نفسه قدرة على أن يمد يده إلى الآخرين فيما يشبه التسول ، ولم يسترح إطلاقا لفكرة « الصعلكة » فى أنحاء لندن ، ليأكل على موائد الآخرين ويتلقى الإحسان منهم ، لقد جاء إلى العاصمة ليعيش عن طريق موهبته الغنية الخصبة ، ولم يجىء إليها ليتحول إلى شريد ضائع فى شوارع المدينة الكبيرة .

وتجمعت الأحزان على القلب الصغير الموهوب ، ولم يكن « تشاترتون » واسع الحيلة ، خبيرا بتجارب الحياة ، قادرا على مصارعتها وتحمل متاعبها والصبر عليها وانتظار ما لابد أن يطرأ مع الأيام من تحولات ، وقد كانت موهبته الرفيعة كفيلة - مع الصبر والتحمل - أن تجعل الحظ العابس ينقلب إلى حظ حسن يبتسم فى وجهه .

ولكنه كان شابا بسيطا ، يتركز كل ذكائه ونبوغه على شىء واحد هو كتابة

الشعر الرائع ، فى عصر لم يكن يقدر المواهب العالية تقديرا كافيا ، وفى بيئة صعبة ، زادها سوء حال أسرته صعوبة ومشقة .

فماذا يفعل الشاعر الشاب الحساس فى مواجهة الأزمة الصعبة ؟ .. لقد أغلق باب حجرته التى كان يسكن فيها وشرب كمية من السم قضت عليه ، فمات فى سن الثامنة عشرة منتحرا من شدة اليأس الذى سيطر على نفسه الكريمة الحساسة .

وبعد انتحاره أخذ الباحثون والدارسون للأدب يعيدون النظر فى انتاجه ، وفى تلك الأشعار الجميلة التى كانت ينسبها للآخرين ، وقد أثبتت الدراسات الأدبية أن هذه الكتابات هى كلها من إبداع « تشاترتون » وحده . ومن هنا بدأ هذا العبقرى الصغير المنتحر يحتل مكانته الرفيعة فى تاريخ الأدب الانجليزى والأدب الانسانى .

لقد وصل إلى المجد الذى كان يحلم به ، ولكن بعد أن قضى على حياته بيديه ، وابتلع السم القاتل وفضل ذلك على قسوة الحياة واستهانتها بموهبته الجميلة .



موليير
الضاحك الحزين

ارتقى لويس الرابع عشر عرش فرنسا وهو فى الخامسة من عمره ، وامتد حكمه لبلاده اثنتين وسبعين سنة هى الفترة الواقعة بين ١٦٤٣ و ١٧١٥ ، وفى عصره ازدهرت الآداب والفنون . وكان هذا الملك مستبدا طاغية حتى اشتهر عنه أنه كان يقول « أنا الدولة » ، وكان أعوانه يطلقون عليه اسم « الملك الشمس » ، ولكنه رغم ذلك كله كان محباً للثقافة ، وكان يمد يده بالتشجيع المادى والمعنوى للفنانين الموهوبين فى عصره ، ولقى المسرح على وجه الخصوص اهتماما كبيرا من لويس الرابع عشر ، وكان هذا الاهتمام بالمسرح

أمرا له مغزاه ، لأن ذلك العصر كان مليئا بالمتزمتين الذين كانوا يستغلون الدين في رفض المسرح وإنكاره والاعتراض على كل المشتغلين به ، ولذلك كان موقف لويس الرابع عشر جريئا في مواجهة هؤلاء المتزمتين ، فقد كان الممثلون في ذلك العصر محرومين من رعاية رجال الدين ، وكانوا محرومين بأمر الكنيسة من الحصول على أي وظيفة محترمة ، وكان الزواج منهم يعتبر أمرا غير شرعي من الناحية الدينية ، كما أنهم كانوا محرومين من الدفن عند الوفاة في مقابر المسيحيين المؤمنين .

وقبل وصول لويس الرابع عشر إلى الحكم بعامين كان الوزير الفرنسي الشهير ريشيليو قد أصدر قرارات تخفف من هذه الأوضاع ، وتعترف بأن المسرح هو لون من ألوان الترفيه المباح ، كما تعترف بمهنة التمثيل كمهنة محترمة غير مخلة بشرف من يحترفها ، كما أنها مهنة لايجوز أن تضر بمكانة صاحبها وقيمته في المجتمع .

وجاء لويس الرابع عشر بعد ذلك ليتوسع في هذا الأمر ، ويقدم المعونة سرا وعلانية للمسرح وأهله ، فقد كان من عشاق هذا الفن والمتحمسين له ، ولذلك دخل معركة هادئة ضد المتزمتين باسم الدين ، لأن مركزه لم يكن يسمح له أن يدخل معهم في معركة علنية صريحة ، ولم يكن المتزمتون من جانبهم قادرين على الدخول في معركة مكشوفة ضد هذا الملك ذي القبضة الحديدية في الدولة والمجتمع . إلاّ أن هؤلاء المتزمتين لم يجدوا حرجا في أن يدخلوا معركة عنيفة ضد أعظم فنان ساخر في هذا العصر ، وهو « موليير » ، فصبوا عليه غضبهم وسخطهم وملأوا حياته بالمتاعب والمصاعب ، وحاولوا أن يلطخوا سمعته وشرفه واسمه بكل الاتهامات المشينة التي لم يكن لها أي نصيب من الصحة ، وظل هؤلاء المتزمتون يطاردون « موليير » حتى وفاته .

وذات يوم سأل لويس الرابع عشر الناقد بوالو عن أعظم فنان في عصره ، فقال له بوالو بغير تردد : إنه « موليير » يا مولاي .

ولد « موليير » في ١٥ يناير سنة ١٦٢٢ في البيت الذي تحول إلى مبنى من مباني باريس وعنوانه الآن هو « ٩٦ شارع سانت أونريه » ، وفي واجهة هذا

المبنى توجد عبارة مكتوبة بحروف من الذهب تقول « أقيم هذا البيت فوق موقع البيت الذى ولد فيه موليير » . وهكذا يحافظ الفرنسيون على تراثهم صغيرا كان أو كبيرا ، حتى لو اضطروا أن يهدموا أثرا من الآثار فإنهم يحاولون المحافظة على ذكراه بمثل هذا الأسلوب الذى تصرفوا به مع بيت « موليير » العظيم .

كان والد « موليير » صانع أثاث وفنان ديكور ، وكان يعمل فى القصر الملكى مسئولا عن حجرة نوم الملك وسريره ، وكانت هذه الوظيفة من الوظائف الثابتة والمحترمة فى القصر ، وقد أراد والد « موليير » لابنه أن يرث هذه الوظيفة ، فيضمن بذلك حياته ومستقبله ، فهى وظيفة يتمناها الكثيرون ويحلمون بها ، وأراد الوالد أن يجعل من ابنه جديرا بالوظيفة ، فأتاح له فرصة التعليم فى أحسن المعاهد والكليات الموجودة فى هذا العصر ، فلم يكن مقبولا أن يكون الانسان موظفا فى القصر ، حتى لو كان مسئولا عن حجرة نوم الملك وسريره ، دون أن يكون لديه من التعليم والثقافة ما يسمح له بأن يكون واحدا من الذين يدخلون القصر الملكى ويترددون عليه .

واجتهد « موليير » فى تعليمه ، فدرس اللاتينية واليونانية والآداب القديمة ، ثم تخصص فى دراسة القانون ونال شهادة تؤهله للعمل بالمحاماة . وما كاد ينتهى من تعليمه حتى نال وظيفته التى أرادها له أبوه فى القصر ، ولكنه سئم هذه الوظيفة بسرعة ، وشعر أن لديه ميولا أخرى مختلفة ، تؤهله لعمل آخر يحبه حتى لو ضحى بوظيفته المريحة التى تضمن له حياة هادئة ومستقبلا شديد الاطمئنان ، فضحى بوظيفته غير نادم ، واتجه إلى فن التمثيل ، رغم أن والده كان غاضبا من هذا القرار غير الحكيم فى نظره ، والذى سوف يؤدى إلى شقاء الابن وتعاسته وفقره . كان اختيار « موليير » للتمثيل قرارا اتخذه بعد لقائه بالسيدة مادلين بيجار التى كانت من عشاق المسرح ، وقد تأثر بها « موليير » أشد التأثر ، وأنشأ معها فرقة مسرحية ، هى نفسها التى تطورت فيما بعد وأصبحت معروفة باسم « الكوميدى فرانسيز » ، وأصبحت الآن من أكبر الفرق المسرحية المحترمة فى العالم كله .

وحاولت الفرقة الجديدة أن تقدم أعمالها فى باريس ، فكانت النتيجة هى الفشل والإفلاس والديون ، ودخل « موليير » السجن بسبب هذه الديون ، فقد كان الممثل

الأول فى الفرقة وكان مديرا لها فى نفس الوقت ، ولم يخرج « موليير » من سجنه إلا بفضل ابيه الذى دفع ديون الفرقة على أمل أن يتوب الابن عن هذه المهنة الملعونة ويعود إلى صوابه .

ولكن « موليير » كان قد عرف طريقه ، وقرر ألاّ يتراجع ، فقد وجد نفسه فى المسرح ، وما كان باستطاعته أن يقوم بعمل آخر . وأعاد « موليير » تكوين الفرقة ، واتجه بها إلى الأقاليم بعيدا عن باريس ، وفى الأقاليم حقق « موليير » وفرقته نجاحا ملموسا عوضه عن عذاب باريس ، وبقى فى جولاته الإقليمية أكثر من عشر سنوات كان يمثل فيها المسرحيات المعروفة فى عصره ، ولم يكن حتى ذلك الحين يكتب شيئا للمسرح ، بل كان يكتفى بالتمثيل والاخراج والادارة . وبعد أن وقفت الفرقة على أقدامها وتحسنت أحوالها المادية وأصبح لها قدر من المكانة والسمعة الفنية ، قرر « موليير » أن يعود إلى باريس بعد أن غاب عنها طويلا .

وعادت الفرقة إلى باريس ١٦٥٨ ، وكان الملك لويس الرابع عشر قد وصل إلى العشرين من عمره ، وانتهت وصاية أمه عليه ، وفتح الملك قصر « اللوفر » لتمثل فيه فرقة « موليير » وحضر عروضها بنفسه ، وقدم لموليير التشجيع والتأييد .

كان « موليير » فى السادسة والثلاثين من عمره ، وكان يحس وهو يقوم بأدوار البطولة فى المآسى المسرحية المعروفة أن الناس تضحك من تمثيله ، وترى فيه فنانا خلق للمرح والسخرية والكوميديا ولم يخلق للمآسى والدموع ، بينما كان « موليير » يحس فى أعماقه أنه ملىء بالحزن ، بعد ما مر به من تجارب الحياة القاسية وبعد ماعاناه من الفشل والكفاح الصعب من أجل الوصول إلى أولى درجات النجاح ، وكان يحس أن فى داخله انسانا يميل إلى الأسى أكثر مما يميل إلى المرح . ولكن الجمهور كان له رأى آخر ، وكان يرى فيه فنانا ضاحكا قبل كل شىء .

وتجمعت فى حياة « موليير » عناصر مختلفة تفاعلت فى شخصيته وكشفت عن مواهبه العظيمة .

كانت لديه الخبرة الواسعة بفن التمثيل ونصوص المسرح وذوق الجمهور .

وكانت لديه موهبته الفنية الكامنة التى لم يتعجل أبدا فى إظهارها والتعبير عنها بالكتابة للمسرح ، مكتفيا بتقديم نصوص الآخرين .

وكانت لديه المعرفة الواسعة بالمجتمع الذى يعيش فيه وبالنماذج الإنسانية المختلفة فى هذا المجتمع ، وبالأخلاق السائدة فى عصره بما فيها من خير وشر .

وكان هناك صراع فى نفسه بين أحزانه الداخلية الكثيرة ، وما كان يراه الناس فيه من قدرة على السخرية والمرح وخلق الابتسامات على الوجوه . وكان هناك التحدى الكبير ، فهو مسئول عن فرقة من خمسين فنانا وفنانة تتوقف حياتهم جميعا على استمرار العمل ونجاحه .

وتفجرت عبقرية « موليير » بعد التقاء هذه العناصر جميعا فى شخصيته . وبدأ يكتب روائعه التى عرفتها فرنسا وعرفها العالم كله ، ومنها « المتحذلقات » و « طرطوف » و « البخيل » و « عدو البشر » .

وبدأت معارك جديدة فى حياة « موليير » لم تنته إلا بوفاته .

كانت « المتحذلقات » أول أعماله ، وقد كتبها سنة ١٦٥٩ وهو فى السابعة والثلاثين ، وفيها يوجه سهام نقده وسخريته اللاذعة إلى الحذلقة والتكلف والتظاهر ، وكانت كلها من الصفات السائدة فى مجتمع باريس ، وخاصة بين نساء الطبقة الأرستقراطية والطبقة الوسطى .

فتاتان ترفضان الزواج من سيدين كريمين ، لأنهما لايتقنان فنون الغزل ، ولا يتشدقان بالألفاظ الضخمة ، ولايتضمن حديثهما عبارات غير مفهومة باللغة اللاتينية تدل على أنهما من أهل الثقافة الواسعة والمعرفة العميقة . ثم يقوم خادمان بارتداء ملابس السادة والتقدم إلى الفتاتين ، والتظاهر بكل ما تحلم به هاتان الفتاتان فى العاشق المثالى ، فيتحدثان بكلام غامض ، وينثران عبارات الغزل الملىء بالزخرف اللفظى على الفتاتين ، فتقع الفتاتان أسيرتين فى حب الخادمين ، تصوراً منهما أن هذين الخادمين هما شابان عصريان يتمتعان بمعرفة الأساليب الرشيقة والقدرة على الحديث المناسب فى الحب والحياة . وأخيرا تكتشف الفتاتان اللعبة الساخرة ، وتعرفان الحقيقة بعد أن سقطتا فى الامتحان سقوطا ساحقا مما يفضح السطحية والتفاهة فى تفكيرهما ونظرتهما للأمور .

ولم تكن هذه هى المسرحية الوحيدة التى قدمها « موليير » ضد التفاهة والتكلف والبعد عن الطبيعة والفطرة والذوق السليم البسيط ، فقد ظل « موليير » حتى نهاية حياته يشن حملة قوية وعنيفة ضد الحذلقة والتظاهر . لقد كان « موليير » يحلم بعصر جديد وإنسان جديد يقومان على الصدق والأمانة والفطرة الطبيعية وانعدام التكلف ، فالتكلف كذب وتزوير يشوهان السلوك الإنسانى ويؤثران أسوأ التأثير فى العلاقات بين الناس .

وقد هزت مسرحية « المتحذلقات » مجتمع باريس ، وأعجب بها لويس الرابع عشر ، وأحس الناس أن فنا جديدا يولد ويتخذ مادته الأساسية من حياة الناس ، ويحارب مظاهر النعومة والميوعة والضعف التى أصابت المجتمعات الراقية فى باريس ، وأوشكت أن تجعل من هذه المدينة عالما من الخمول والكسل والنفاق والكذب والادعاء ، وإن كان ذلك كله يختفى تحت ستار شفاف من الأزياء الراقية والعطور النفاذة واللسان الذى ينطلق بالألفاظ الضخمة بينما القلب خال من أى شعور جميل ، والعقل بعيد عن أى فكر أصيل .

على أن معركة « موليير » ضد الافتعال والتظاهر والسطحية كانت مجرد بداية . فقد اتجه الفنان الكبير بعد ذلك إلى خوض معركته الأساسية ضد النفاق الذى يستغل الدين ، وينحرف به عن أهدافه الرئيسية فى الارتفاع بروح الانسان وسلوكه وتعامله مع الآخرين .

وجاءت مسرحية « طرطوف » التى قدمها موليير سنة ١٦٦٤ وكأنها قذيفة موجهة إلى الذين يتظاهرون بالتقوى والفضيلة ، ويتسترون وراء الدين لتحقيق مصالحهم غير المشروعة والتى يرفضها الدين وترفضها الأخلاق الكريمة فى كل شرع وقانون . وشخصية « طرطوف » التى صورها « موليير » فى مسرحيته الرائعة ، هى شخصية رجل يتظاهر بالتقوى الدينية العالية فيستضيفه « أورجون » الرجل الطيب الكريم فى بيته ، أملا فى أن يكون « طرطوف » مثلا أعلى لزوجته وأولاده ، وتمضى أحداث المسرحية فى طرافة وسخرية وقوة فنية وفكرية لنكتشف أن « طرطوف » هذا هو رجل انتهازى فاسق ، يريد الاستيلاء على أموال « أورجون » وإغراء زوجته على أن تقيم معه علاقة غير شريفة ، وهكذا انكشف أمر « طرطوف » وظهرت حقيقته الفاسدة أمام الجميع ، فطرده صاحب البيت

وتخلص منه ، وينتهى به الأمر إلى السجن لأنه فى حقيقته كان مجرما سابقا يختفى فى زى الزاهدين لكى يهرب من يد العدالة .

وقامت قيامة المتزمتين ضد « موليير » وأصدر الكاهن بيير روليه على الناس بيانا يقول فيه : « إن موليير هذا شيطان متجسد فى ثوب رجل . وهو أشهر مخلوق فاسق عاش على الأرض إلى الآن » .

وقال روليه فى بيانه : « إن جزاء موليير على تأليف طرطوف هو أن يتم حرقه على الخازوق ليذوق من الآن نار الجحيم » ، وقد رد « موليير » على هذه الحملة بأن مسرحيته لاتهدف أبدا إلى نقد الايمان والدين الصادق ، وإنما هدفها الأول والوحيد هو نقد النفاق والتجارة بالدين حيث ينبغى أن يكون الدين خالصا لوجه الله ، وألاّ تشوبه أى شائبة من المنفعة أو الاستغلال السيىء . وقد كان هذا الهدف واضحا كل الوضوح فى مسرحية « طرطوف » ، فالفنان الكبير فى مسرحيته لم يقف ضد الدين وإنما يقف ضد التجارة بالدين ، وضد الذين يتسترون بالمظاهر الدينية وهم فى أعماقهم أشرار ، وأعداء حقيقيون لله والإنسان .

ومع ذلك كله فقد استمرت الحملة العنيفة ضد « موليير » من جانب المتزمتين ، وأصدر رئيس أساقفة باريس حظرا دينيا يمنع الجميع من قراءة مسرحية « طرطوف » أو سماعها أو تمثيلها سرا أو علانية ، وأعلن « موليير » ردا على هذا الحظر أنه سوف يعتزل المسرح نهائيا إذا استمرت هذه الحملة الظالمة عليه وعلى مسرحيته .

واستمرت الحملة ضد « موليير » من جانب المتزمتين ولم تهدأ أبدا ، وأصدر أحد هؤلاء المتزمتين واسمه روشمون بيانا منشورا قال فيه :

« بينما يحرص الملك النبيل لويس الرابع عشر كل الحرص على صيانة الدين ، فإن موليير يعمل على هدمه ، مما يؤكد أن موليير لايستحق سوى العقاب العلنى على جريمته »..

ماذا كان موقف الملك من هذه الحملة الواسعة على أعظم فنان فى عصره وهو « موليير » ؟

لقد كان الملك يحب « موليير » ويجد فى فنه متعة رائعة ، ويحرص على عرض مسرحياته فى القصر الملكى ويشاهد المسرحية الواحدة مرات عديدة وليس مرة واحدة . ولكن الملك لم يشأ أن يدخل فى مواجهات صريحة مع المتزمتين ، فكان ينصح « موليير » بالصبر وطول البال ، وعندما هبت العاصفة فى وجه مسرحية « طرطوف » رأى إيقاف عرضها لفترة من الوقت حتى تنتهى العاصفة ، ثم أمر بإعادة عرضها بعد فترة ، لقد كان الملك قويا وقادرا على سحق المتزمتين ، ولكنه كان فى نفس الوقت يعرف أن السياسة لها ضروراتها وأحكامها ، وأنه ليس من السياسة فى شىء أن يظهر الحاكم بمظهر المعارضة الصريحة الحادة لهؤلاء الذين يتمسحون فى الدين ، فقد يؤدى مثل هذا الموقف إلى فقدان الرأى العام البسيط ثقته بالحاكم ، وينتهى إلى أن يتصور الناس أن هذا الحاكم إنما يعارض الدين ، ويقف منه موقف الرفض والانكار . ولا يوجد حاكم سليم الادراك فى أصول الحكم والسياسة يرضى لنفسه هذه الصورة فى ذهن مواطنيه ، فالحاكم القوى لابد أن يكون مثلا أعلى فى احترام المشاعر العامة للناس والحرص عليها ، وخاصة فى مجال المشاعر الدينية .

وقد كان لويس الرابع عشر من الحكام الذين يعرفون كيف يتعاملون مع المشاعر العامة السائدة ، وكان من الذين يحرصون كل الحرص على عدم الاصطدام بما يحمله الناس من إجلال واحترام لرجال الدين . ولكن هذا الملك القوى الداهية لم يكن فى أعماقه راضيا عن استغلال الدين فى أمور هى فى جوهرها خارجة تماما على نطاق الدين ، وكان الملك يدرك بعقله الثاقب وحبه للثقافة والفنون أن « موليير » لم يهاجم الدين على الإطلاق فى مسرحياته المختلفة وعلى رأسها « طرطوف » و « دون جوان » ، وأن هذا الفنان إنما يشن حملته بصدق وأمانة على النفاق والرياء ، وعلى الرجال الذين يتسترون بالدين ليحققوا أغراضا دنيوية نفعية لا ترضى عنها السماء ولا الأرض . وقد أمر الملك بإيقاف عرض مسرحيات « موليير » الشائكة لفترة من الوقت ، ولكنه عاد وسمح بعرضها وأظهر تعاطفه معها وإعجابه بصاحبها وأغدق عليه المكافآت وألوان الحماية ، وسمح لفرقته المسرحية بأن يتحول اسمها إلى « فرقة الملك » وأن تقدم عروضها بانتظام فى القصر الملكى .

كان « موليير » يتألق فى عمله كاتبا فنانا ، وشاعرا مسرحيا مبدعا ، وممثلا لم تعرف مسارح فرنسا قبله ولا بعده من أضحك الناس على عيوبهم مثلما فعل هذا الفنان الكبير ، وكان « موليير » لايكف عن العمل بصورة دائمة متصلة حتى يحقق لفرقته النجاح ، ويضمن لإفرادها جميعا حياة مناسبة ، وقد أحبه أفراد فرقته حبا خالصا ووثقوا به ثقة كاملة ، وقدروا له حرصه على خدمتهم ورعايتهم بصورة غير مألوفة .

وكان هذا الجهد الكبير الذى بذله « موليير » يستنفد قواه وصحته وسعادته الشخصية يوما بعد يوم . وفى ليلة من ليالى فبراير ١٦٧٣ ، وكان الفنان الكبير فى الواحدة والخمسين من عمره ، أحس بالتعب الشديد ، وحاولت زوجته وأصدقاؤه منعه من التمثيل فى تلك الليلة ، وطلبوا منه أن يؤجل عرض مسرحيته « مريض الوهم » عدة أيام حتى يسترد عافيته ، ولكن الإحساس بالمسئولية عند « موليير » دفعه إلى الرفض ، وقال لزوجته وأصحابه :

« كيف تريدون منى أن اتوقف ؟ إن هناك خمسين فردا فى فرقتى المسرحية ، يأخذون أجرهم يوما بيوم من عروضنا الفنية ، ولو توقفت عن العمل فلن يجدوا طعامهم ولا طعام أولادهم ، فماذا يفعل هؤلاء إذا توقفنا عن التمثيل ؟ إننى سوف ألوم نفسى لوما شديدا على أننى أهملت توفير القوت لهم يوما واحدا مادام فى طاقتى أن أقف على خشبة المسرح » .

وأصر « موليير » على أن يذهب إلى المسرح فى مساء السابع عشر من فبراير سنة ١٦٧٣ ، وأدى دوره ، وفى نهاية المسرحية شعر بالألم الحاد ، فتماسك ، وأنهى العرض المسرحى بأكمله ، ولكنه سقط فوق خشبة المسرح وقد أصابته نوبة سعال عنيف ، فنقلوه إلى منزله وتبين أنه أصيب بانفجار فى أحد الشرايين فمات بعد ساعات من الألم الشديد .

وجاءت لحظة انتقام جديدة من رئيس أساقفة باريس ، فقد رفض السماح بدفن « موليير » فى مقابر المسيحيين لأنه كان يعده خارجا على الدين ، وهنا لم تجد زوجته أرماند سوى أن تذهب للملك وترتمى على قدميه ، وتطلب منه التدخل لإنهاء هذا الفصل الأخير من مأساة الفنان العظيم الذى كان موضع الحب والتقدير

من الملك طيلة حياته ، وتأثر الملك وأصدر أمره فى السر إلى رئيس الأساقفة بتغيير موقفه ، واضطر رئيس الأساقفة أن يقبل على مضض الأمر السرى للملك ، واتخذ قراره كما يحدثنا ويل ديورانت فى كتابه « قصة الحضارة » « بألاّ يؤخذ جثمان موليير إلى الكنيسة لإجراء الشعائر الدينية ، ولكنه سمح بدفنه فى هدوء بعد الغروب فى ركن قصى من مقبرة سان جوزيف فى شارع مونمارتر »(*) .

وهكذا انتهت حياة هذا الضاحك الحزين ليمتد أثره إلى الثقافة العالمية كلها ، ويصبح واحدا من أكبر عباقرة التاريخ الذين يقدمون فى فنهم الضاحك الساخر أعمق أحزان القلب البشرى وأصدق الهموم التى يحس بها الانسان فى حياته ، رغم اختلاف الأجيال والعصور ، وكما يقول ويل ديورانت : « إن فرنسا تحب موليير ومازالت تمثل مسرحياته ، كما تحب انجلترا شيكسبير وتمثل مسرحياته ، ولكن الذى ينتمى إلى فرنسا ليس موليير الكاتب فقط ، بل الإنسان : مدير الفرقة الوفى الذى أرهق نفسه دائما بالعمل المستمر ، والمسرحى الذى يخفى أحزانه بالضحك ، والممثل العليل الذى ظل يواصل حتى الموت حربه على الفقر والتعصب والخرافة » .

(*) قصة الحضارة ـ ويل ديورانت ـ الجزء ٣١ ، ترحمة فؤاد أندراوس ومراجعة على أدهم .



رصاصة فى قلب بوشكين

عرفت روسيا فى القرن الماضى شاعرا من أعظم شعرائها ، بل من أعظم شعراء الدنيا هو « ألكسندر بوشكين » ، والروس يضعون « بوشكين » فى نفس المكانة الرفيعة التى يضع فيها الانجليز شاعرهم الأعظم شيكسبير ، وإذا كان « بوشكين » قريبا من شيكسبير فى المكانة الأدبية ، فإن الشاعرين يختلفان اختلافا كبيرا فيما يتصل بالأحداث التى مرت بكل واحد منهما ، فقد عاش شيكسبير على وفاق مع عصره ، ولم يخض معارك كبيرة فى حياته ، واستطاع أن يعطى كل جهده لأدبه وأن يحظى بإعجاب معاصريه

حكاما ومحكومين ، ولم يتعرض لآلام ومنغصات عنيفة تهز حياته وتؤثر فى أعصابه ، وكانت نهايته طبيعية ليس فيها أى عنصر من عناصر المأساة أو الفجيعة ، أما حياة « بوشكين » فقد كانت على عكس ذلك حياة عاصفة ، مليئة بالمشاكل والمنغصات الكثيرة ، وقد انتهت هذه الحياة نهاية أليمة ، حيث مات قتيلا فى حادثة مفتعلة ، فى الثامنة والثلاثين من عمره ، فقد ولد سنة ١٧٩٩ وكان مقتله سنة ١٨٣٧ .

و « بوشكين » هو ابن لأسرة روسية ارستقراطية كانت على جانب من الثراء والثقافة ، وهذه الأسرة تنتمى فى أصولها الأولى إلى الحبشة ، فقد كانت أم « بوشكين » هى حفيدة شخص اسمه إبراهيم هانيبال . وكان هانيبال هذا صبيا حبشيا اختطفه تجار الرقيق من بلاده ، واشتراه سفير روسيا فى تركيا ، ووجد السفير الروسى فى الصبى الحبشى ملامح الذكاء والنجابة ، فأهداه إلى امبراطور روسيا المعروف باسم « بطرس الأكبر » ، والذى يعتبر أول امبراطور روسى يحاول إدخال الحضارة الغربية إلى بلاده ، ويعمل على تطويرها ونهضتها وإخراجها من عصور الظلام والتخلف ، وقد عاش بطرس الأكبر بين سنة ١٦٧٢ وسنة ١٧٢٥ . ويعتبر أخطر أباطرة روسيا الذين انتقلوا بها نقلة حضارية واسعة فى كل جوانب الحياة .

وجد بطرس الأكبر فى الصبى الحبشى الذى أهداه إليه سفيره فى تركيا مالفت نظره وأثار إعجابه ، فقرر رعايته والاهتمام به ، وهو الذى أعطاه اسمه الغريب : إبراهيم هانيبال ، وتولاه بالتربية والتعليم ، وجعله ضمن أفراد حاشيته ، واختار له الامبراطور زوجة من بنات الارستقراطية الروسية ، ومن سلالة هذا الحبشى جاء إلى الحياة الشاعر الكبير « بوشكين » .

كان « بوشكين » يحمل فى ملامحه بعض ماورثه من الأصول الحبشية ، فقد كان لونه يميل إلى السمرة ، وكان وجهه بصورة عامة يتميز بهذه الملامح الإفريقية المعروفة مثل الشعر المجعد والشفتين الغليظتين . وقد ظهرت ملامح النبوغ المبكر فى شخصية « بوشكين » ، فكان فى صباه كثير القراءة والاطلاع ، وكانت مكتبة والده مليئة بالكتب الفرنسية على عادة الارستقراطية الروسية فى

ذلك الحين ، وكانت هذه المكتبة تضم أهم نماذج ذلك الأدب الأوروبى المتميز ، والذى كان له فى روسيا تأثير كبير ، فقد كانت روسيا تتطلع فى نهضتها الحضارية إلى فرنسا وتعتبرها المثل الأعلى الذى يمكن أن تحصل منه على الثقافة وسائر مظاهر التقدم . ويروى شقيق « بوشكين » الأصغر بعض ذكريات صباه ، فيقول إن « بوشكين » كان يتسلل فى الليل إلى مكتبة أبيه التى لم تكن تضم سوى هذه الكتب الفرنسية ، وأن « بوشكين » وهو فى الحادية عشرة استطاع أن يحفظ عن ظهر قلب كثيرا من روائع الأدب الفرنسى ، خاصة وأنه كان يتمتع منذ صباه بذكاء خارق وذاكرة بالغة القوة .

ولم يكد « بوشكين » يبلغ العشرين من عمره حتى كان شاعرا كبيرا تتردد أشعاره فى أوساط المثقفين الروس ، وكان جانب هام من شعره يتناول قضية الحرية ، ويعبر عنها بقوة وأصالة ، ولم يكن مثل هذا الشعر يفلت من الرقابة الشديدة التى كانت مفروضة على الأدب والفكر فى عصر « بوشكين » ، ومع ذلك فقد انتشرت أشعار « بوشكين » بين الناس ، وأخذوا يتناقلونها سرا ، مما أغضب القيصر الروسى « اسكندر الأول » وأعوانه ، فتقرر نفى الشاعر إلى جنوب روسيا ، وبقى فى منفاه خمس سنوات امتدت من ١٨٢٠ إلى ١٨٢٥ ، ولم يكن « بوشكين » يشعر بالضيق من هذا النفى ، بل كان يحس بنوع من التحرر والانطلاق ، بعيدا عن العاصمة الروسية ، وكانت هذه العاصمة هى مدينة بطرسبرج فى ذلك الحين ، وقد أصبح اسمها الآن ليننجراد ، وكان ابتعاد « بوشكين » عن العاصمة فرصة واسعة له ، استطاع من خلالها أن يواصل مطالعاته ، وأن يكتب الكثير من أشعاره ، وأن يعيش حياته بعيدا عن الرقابة والقيود الصارمة التى كانت السلطة تفرضها عليه فى العاصمة . واضطر « بوشكين » إلى العودة للعاصمة بعد وفاة اسكندر الأول الذى اضطهده وطارده ، وقد تولى السلطة بعد هذا القيصر أخوه « قسطنطين » لفترة قصيرة ، ثم استقر الحكم فى يد الأخ الثالث « نيقولا » ، وفى عصر هذا القيصر الأخير عاش بوشكين بقية حياته ، وتعرض لأعنف الأزمات ، وانتهى به الأمر إلى المأساة الفاجعة التى قضت عليه .

كان نيقولا من أكبر الطغاة الذين عرفتهم روسيا ، وقد وقعت فى أوائل

عصره ثورة شهيرة أرادت أن تطيح به وتقضى على طغيانه ، وسميت هذه الثورة باسم ثورة « الديسمبريين » لأنها وقعت فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٢٥ ، وقد فشلت هذه الثورة ، وعامل القيصر المشتركين فيها معاملة بالغة العنف والقسوة ، فأعدم بعضهم ، ونفى البعض الآخر إلى سيبيريا ، وكان « بوشكين » على علاقة طيبة بعدد من زعماء الديسمبريين ، وأخذ البعض يدسون له عند القيصر ويحرضون على معاقبته ، ولكن هذه الاتهامات لم تجد دليلا جديا يمكن من خلاله توقيع العقوبة على الشاعر الكبير ، فقد كانت الشبهات تحوم حوله لمجرد صداقته لبعض زعماء الثورة ، ولم يكن أمام « بوشكين » لكى ينجو من العقاب القاسى للقيصر الطاغية إلاّ أن يطلب منه العفو ، وقد رأى نيقولا أن يعفو عنه بالفعل ، وسمح للشاعر بمقابلته ، وحاول فى هذه المقابلة أن يغريه بأن يكون شاعر القيصر ، وأن يقوم بالدفاع عنه وعن الدولة فى أشعاره وكتاباته المختلفة .

ولقد كان مثل هذا الاتجاه فى الدفاع عن القيصر الطاغية ومواقفه المعادية للحرية وتقدم البلاد ونهضتها ، ومحاولته فرض سلطانه على الشعب بالعنف والإرهاب والقسوة .. كان مثل هذا الاتجاه أبعد ما يكون عن قلب « بوشكين » وعقله ، فهو شاعر يؤمن بالحرية ، ويريد للشعب أن ينهض ويتقدم ، ويشعر أن القيصر يكره كل ما من شأنه أن يرتفع بمستوى الشعب ويمنحه مزيدا من الحقوق . وكان « بوشكين » يدعو فى كتاباته إلى ترقية الشعب عن طريق الثقافة ، أما القيصر فكان له رأى آخر عبر عنه فى رسالة أرسلها إلى « بوشكين » وترجمها عن الروسية الأستاذ نجاتى صدقى ، وقد جاء فى هذه الرسالة العجيبة على لسان القيصر موجها الكلام إلى « بوشكين » :

« إن قولك بجعل الثقافة والنبوغ قاعدتين أساسيتين للتقدم هو قول يمثل خطرا ضد الأمن العام ، وهو تهمة يمكن أن تقودك إلى حافة الهاوية ، وعليك أن تفهم أن السلوك الحسن ، والخدمة المتواصلة المدعومة بالطاعة والإخلاص هما أفضل من الثقافة وتنوير الأذهان ، فالشاب المطيع هو النموذج الصحيح للتربية القومية ، وليس ذلك الشاب الذى تتقاذفه أمواج العلوم والثقافات ، فعلى هذه المبادىء يجب أن تقوم التربية القومية ، ولا أظنك إلاّ فهمت قصدى وأنت الشاعر صاحب العقل الذكى » .

تلك هى كلمات القيصر إلى الشاعر الكبير ، وقد أدرك « بوشكين » بعد هذه الرسالة بوضوح أن القيصر ينذره ويهدده ويتوعده ، ويفرض عليه أن يبقى حبيسا فى قفص من الذهب لايستطيع أن يتمرد عليه ، وأن هذا القيصر يضمر له شرا كبيرا ، وإن كان يتظاهر برعايته والاهتمام به . وقد حاول « بوشكين » أن يستأذن القيصر فى السفر إلى فرنسا أو أى بلد أوروبى آخر لبعض الوقت فرفض القيصر طلبه ، وحاول أن يستأذنه فى ترك العاصمة إلى الريف لعله يجد بعض الراحة والفراغ للانتاج الأدبى فرفض القيصر طلبه أيضا . وهكذا أصبح الشاعر الكبير سجينا بصورة غير رسمية داخل عاصمة بلاده ، وقد فرض عليه القيصر أن يعرض إنتاجه الأدبى على القيصر نفسه ليقرأه قبل نشره بحجة إعفائه من قيود الرقابة على الانتاج الأدبى والفكرى ، والحقيقة أن القيصر كان يريد أن يخنق الشاعر ويقيده ويحول بينه وبين التعبير عن نفسه المنطلقة وأفكاره الحرة .

إن قصة الصراع بين القيصر نيقولا والشاعر « بوشكين » هى من أعجب قصص الصراع بين الطغاة والشعراء على مدى التاريخ كله ، فلقد كان القيصر شديد الخوف من موهبة الشاعر الكبير ، شديد الحقد على هذه الموهبة ، لا يطمئن أبدا إلى سلطته المطلقة مع وجود شاعر يميل بعقله وقلبه إلى الحرية ، ويتعاطف مع أبناء الشعب ، ويتمتع بموهبة عالية كبيرة يمكن أن تجذب إليها الناس وتخلق حولها رأيا عاما قويا يتأثر بما تدعو إليه من آراء وأفكار ، خاصة وأن هذه الآراء والأفكار تظهر فى شكل فنى رفيع بالغ الجمال والسحر .

كان القيصر نيقولا يخاف من الشاعر « بوشكين » ومن تأثيره الفكرى ، وكان إلى جانب ذلك يحقد عليه ويشعر نحوه بكثير من الغيرة والكراهية ، فإذا كان القيصر يملك كل أبهة السلطة والثروة والتحكم المطلق فى مصائر الناس ، فقد كان « بوشكين » « قيصر » آخر ولكن على قلوب الناس وعقولهم ، وكان الشاعر الكبير يحتل مكانته الرفيعة فى عصره بغير قوة يملكها ، وبغير أسلحة أو جنود يفرضون إرهابهم على الناس ، فقد كان الشاعر قيصرا وامبراطورا باختيار الناس وإرادتهم ومحبتهم لفنه الجميل .

وقد نتساءل هنا : لماذا لم يفلت الشاعر نهائيا من قبضة القيصر نيقولا ،

ويبتعد عنه ويعيش لفنه حرا طليقا بعيدا عن أجواء السلطة التى تضغط عليه وتحاول أن تخنقه ؟ والإجابة هى أن « بوشكين » لم يكن يستطيع ذلك بأى صورة من الصور ، فقد كان فردا من أفراد الطبقة الأرستقراطية ، وكانت هذه الطبقة تعتبر جزءا من النظام الذى كان قائما فى ذلك الحين ، وكان « بوشكين » بحكم وضعه الاجتماعى موظفا من كبار موظفى الدولة ، وفردا من أفراد حاشية القيصر ، ولم يكن له خيار فى شىء من ذلك كله ، وقد حاول الاستقالة من وظيفته والخروج نهائيا من الحاشية القيصرية ، ولكن القيصر رد على هذه الاستقالة بقوله : « الأفضل لك أن تبقى فى خدمتنا من أن تبقى لنفسك » ، وقال القيصر لوزير داخليته : « إننى أسامح بوشكين هذه المرة للجرأة التى أبداها فى طلب الاستقالة من خدمتنا ، وأطلب منك أن تدعوه للمثول بين يدى لافهمه أن لكل شىء نهاية » ، وعندما التقى « بوشكين » بالقيصر قال له القيصر فى تهديد صريح : « إننا نخيرك بين الإقامة فى العاصمة ، والاستقالة مع كل ما يترتب عليها من نتائج » .

وهكذا عجز الشاعر عن التحرر من طغيان القيصر الذى أصر على الاحتفاظ بالشاعر فى قبضته ، لا حباً فيه ولكن خوفاً منه وحقداً عليه واشفاقاً من تأثيره الواسع على الناس .

وبدأت مأساة « بوشكين » تتجه إلى نهايتها المحتومة ، فقد أراد الشاعر أن يخفف عن نفسه الضغوط فقرر الزواج ، لعله يستطيع من خلال حياة عائلية سعيدة أن يجد جزيرة يرتاح فيها ويهدأ ، بعيدا عن أحقاد القيصر ورقابته المستمرة عليه . واختار « بوشكين » فتاة من طبقته هى ناتاليا جونتشاروفا ، وكان عمره آنذاك ٣٢ سنة ، وكانت الزوجة فتاة بالغة الجمال ، وإن لم تكن واسعة الثقافة ، فقد كان تعليمها هو التعليم الارستقراطى الذى يؤهلها لحياة تلك الطبقة المليئة بالحفلات والعلاقات الاجتماعية والاهتمام بالمظاهر والشكليات .

وأصبح « بوشكين » وزوجته الجميلة وجهين دائمين فى حفلات البلاط القيصرى ، وكانت الزوجة سعيدة بذلك ، أما زوجها الشاعر الكبير فكان يضيق بهذا الجو الخانق ويحاول بكل قوته أن يفلت منه ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل

ذلك بأى صورة من الصور ، فاستسلم للأمر الواقع ، وهو يكتم فى نفسه آلاما لا يتحملها إلاّ أصحاب النفوس الكبيرة والإرادة القوية والكبرياء الذى لا تجدى معه الشكوى والأنين .

أما حياته الزوجية فقد وصفها « بوشكين » بقوله فى رسالة لأحد أصدقائه : « إننى سعيد فى حياتى الجديدة سعادة لا توصف ، ورغبتى الوحيدة ألاّ يتغير شىء فى أسلوب حياتى البيتية ، لأننى لا أتوقع أفضل مما أنا عليه ، ولا أبالغ إن قلت لك إننى أشعر وكأننى ولدت من جديد » .

وفى نفس هذا الوقت كانت سمعة الشاعر الأدبية ترتفع حتى أصبح نجما ساطعا لا يدانيه فى سماء الأدب والفن نجم آخر ، كما أنجب بعد زواجه ولدين وابنتين .

ولكن الزوجة الجميلة ناتاليا كانت لسوء الحظ هى المدخل الجديد لأعداء الشاعر ، وعلى رأسهم القيصر للإساءة إلى الشاعر وخلق المنغصات المستمرة فى حياته .

كان القيصر يبدى إعجابه بناتاليا الجميلة ، ويحرص على حضورها إلى حفلات القصر ، كما كان يحرص على أن يشاركها الرقص بنفسه .

ثم ظهر فى الأوساط الارستقراطية شاب فرنسى هارب من باريس اسمه دانتس ، وكان فتى جميلا لم يتجاوز الرابعة والعشرين ، ولكنه كان تافه العقل ، ليس له من الثقافة إلاّ تلك القشور المطلوبة للحياة وسط الطبقة الارستقراطية والمشاركة فى حفلاتها الصاخبة ، فقد كان أنيق المظهر مدربا أحسن التدريب على أحاديث الصالونات ومعاملة النساء برقة وشياكة وخداع وتملق . وقد انضم دانتس الفرنسى هذا بسرعة إلى البلاط الروسى وأصبح ضابطا فى الحرس الامبراطورى ، بل لقد تحمس له سفير هولندا فى روسيا واسمه هيكرن فتبناه ، لأن هذا السفير لم يكن لديه أولاد ، فأصبح دانتس أبنا له بالتبنى .

وبدأ كل الحاقدين على « بوشكين » وعلى رأسهم القيصر يستغلون دانتس كأداة لطعن الشاعر الكبير طعنة قاتلة .

التقى دانتس بزوجة « بوشكين » فأعجب بها وظل يطاردها ويطارحها الغرام بعنف ووقاحة ، وكان « بوشكين » على ثقة من عفاف زوجته وشرفها ، فلم يعبأ كثيرا بالأمر ، ولكن المسألة أصبحت حديثا متصلا للمجتمع الارستقراطى فى روسيا ، فتارة يتهمون ناتاليا زوجة الشاعر بأنها محظية للقيصر ، وتارة أخرى يتهمونها بأنها على علاقة آثمة بالشاب الفرنسى دانتس .

وذات يوم تلقى « بوشكين » رسالة بغير توقيع تقول له إنه أصبح عضواً بارز فى جمعية « أصحاب القرون » بل أصبح مساعدا لرئيس الجمعية ، وتعبير « أصحاب القرون » معروف فى العامية المصرية كما هو معروف فى لغات العالم كله ، والمقصود به هو الأزواج المخدوعون الذين تخونهم زوجاتهم وهم يتغافلون عن ذلك ، أو لا يعلمون به أصلا .

وأحس « بوشكين » أن سمعته قد أصبحت فى الوحل ، ورغم ثقته بزوجته ، فإنه لم يتحمل هذا الأذى الشديد الذى يتعرض له ، والذى وصل إلى حد الكتابة إليه بهذا الاتهام المؤلم الذى لاهدف له إلاّ إهانته وإثارة غيرته وامتحان رجولته .

وعرف « بوشكين » الذين يقفون وراء هذه الإهانة ، وعلى رأسهم دانتس الفرنسى ، فطلب من دانتس هذا أن يبارزه ، ووافق دانتس ، وعلم القيصر بالقصة ، وكانت المبارزة قد تم منعها قانونيا ، ومع ذلك فلم يعط القيصر أى تعليمات بمنع المبارزة ، بل قيل إنه أعطى تعليمات عكسية للشرطة ، بحيث تذهب قوة منها إلى مكان غير مكان المبارزة ، بحجة أنها أخطأت ولم تعرف الموقع الصحيح للمبارزة .

وحاول عدد من محبى « بوشكين » منعه من هذه المبارزة فلم يستطيعوا ، وذهب « بوشكين » إلى المبارزة دون علم زوجته ، وكما يقول الكاتب الفرنسى هنرى ترويا فى كتابه عن « بوشكين » ترجمة الدكتور فؤاد أيوب : « لقد ذهب بوشكين إلى المبارزة بعد أن ارتدى أجمل ثيابه ، وتعطر وتناول معطفه ، وخرج ، ولسوء الحظ انتهت المبارزة باصابة بوشكين إصابة قاتلة فى بطنه ، وقد كانت المبارزة فى ٢٧ يناير سنة ١٨٣٧ ، وقضى بعدها بوشكين يومين يعانى

من آلام قاسية ، ولم تنفع جهود الأطباء فى إنقاذه ، فمات متأثرا بجرحه القاتل فى ٢٩ يناير ١٨٣٧ ، وكان فى الثامنة والثلاثين من عمره » .

وهكذا انتهى هذا الشاعر العظيم ضحية للأحقاد الكثيرة التى أحاطت به فى تلك الطبقة الارستقراطية ، التى لم تكن تعرف سوى العبث واللهو والترف والاحتفال بالمظاهر ، ولم تكن تطيق النبوغ والفن الأصيل والفكر الحر .ولم يستطع « بوشكين » أن يتحمل المطاردة المستمرة له فى كل شىء حتى فى سمعته وشرفه ، فاندفع محاولا أن ينتقم لنفسه ، ولكن قوة الحقد عليه والإصرار على تدميره كانت أقوى من كل شىء ، خاصة أن الذى كان يغذيها ويشعل نارها هو القيصر نفسه وأعوانه من رجال البلاط ونسائه .

وإذا كانت حياة الشاعر العظيم قد انتهت هذه النهاية المفجعة فإن أدبه مازال يفيض بالقوة المتجددة والسحر الدائم ، وأعماله الرائعة تمثل أدبا خالدا يقبل عليه القراء كل يوم دون ضيق أو ملل ، كما تقدمه السينما والمسرح وتصدر عنه روائع الباليه والأعمال الموسيقية العظيمة ، ومن هذه الأعمال « ابنة الضابط » و « الفارس النحاسى » و « أوجين أو ينجين » و « الليالى المصرية » ، وغيرها من روائع الأدب العالمى الذى سوف يظل مشرقا بالنضارة والجمال جيلا بعد جيل .

أما الذين تآمروا على « بوشكين » وعلى رأسهم القيصر الطاغية نيقولا ، والشاب الفرنسى التافه دانتس ، وأفراد حاشية القيصر من أبناء الارستقراطية الروسية السطحية المستهترة .. فقد ذهبوا جميعا إلى سلة مهملات التاريخ ، ولا يذكرهم أحد إلاّ بالاحتقار والاشمئزاز والرفض والاستنكار ، وسيظل ما يبهج روح الشاعر العظيم ويعزيها هو أن صوته العالى - كما يقول عن نفسه - سيظل دائما قادرا على النفاذ إلى قلوب الأجيال القادمة .



جوته
عاشق يتحدى العالم

كان الأديب الألمانى الكبير « جوته » هو أهم أدباء ألمانيا ، وأكثرهم شهرة وتأثيرا فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، بل لا يزال هذا الأديب الكبير رغم مرور أكثر من مائة وخمسين عاما على وفاته هو أكثر الأدباء الألمان شهرة وأهمية ، فهو فى الأدب الألمانى مثله مثل شكسبير فى الأدب الانجليزى ، ومثل تولستوى أو دستويفسكى فى الأدب الروسى ، ومثل المتنبى أو طه حسين فى الأدب العربى ، فهناك إجماع على قيمته الأدبية ، وأهمية أعماله المختلفة وعلى رأسها « آلام فرتر »

و « فاوست » ، ومازالت هذه الأعمال تحتل مكانها فى مقدمة الأعمال الخالدة فى الأدب الألمانى ، بل والأدب الانسانى كله .

ولا تكاد توجد لغة حية من لغات العالم إلاّ وقد تمت ترجمة هذين العملين الكبيرين إليها ، وقد تمت ترجمتهما إلى اللغة العربية منذ أكثر من نصف قرن بقلم أديبين من أكبر أدبائنا فى العصر الحديث ، فقصة « آلام فرتر » ترجمها أحمد حسن الزيات عن الفرنسية ، أما « فاوست » فترجمها الدكتور محمد عوض محمد عن الألمانية .

وقد عاش « جوته » حتى بلغ الثالثة والثمانين من عمره ، فقد ولد سنة ١٧٤٩ وتوفى سنة ١٨٣٢ ، وكان « جوته » يتمتع بالعافية والصحة القوية طيلة حياته . وقد ساعده على الاحتفاظ بصحته القوية ما كان معروفا عنه من دقة ونظام فى كل تصرفاته ، فلم يكن من أصحاب الإرادة الضعيفة ، ولم يكن يهلك صحته باللهو والترف والسهر ، وقد كان ذلك كله متاحا له بسبب شهرته ونجاحه الأدبى والمادى ومكانته الاجتماعية العالية التى وصل إليها ، فقد منحه الامبراطور الألمانى جوزيف الثانى رتبة « نبيل » وكانت هذه الرتبة ذات قيمة عالية فى عصر « جوته » كما كانت تتيح له الاختلاط بالطبقة الأرستقراطية فى عصره . وكان هذا كله إغراء لجوته بأن ينغمس فى ملذات الحياة الارستقراطية المتاحة له ، مما كان كفيلا بأن يضعف صحته ويحرمه من قوة الجسم التى تمتع بها طيلة حياته ، ويحرمه نتيجة لذلك من صفاء ذهنه وقوة نبوغه وقدرته العالية على الإبداع الفنى ، ولكن « جوته » لم يستسلم لحياة اللهو الارستقراطى وظل ملتزما بالدقة والنظام فى سلوكه وعاداته المختلفة ، واحتفظ بحيويته ونشاطه ليعتمد عليهما فى إنتاج أعماله الأدبية الكبيرة . وقد اشترى لنفسه بيتا جميلا فى مدينة « فايمار » وبقى فى هذا البيت طيلة حياته ، لايترك البيت ولا المدينة الصغيرة التى اختار أن يعيش فيها ، فلم يكن معروفا عنه أنه من هواة السفر والترحال والتجوال فى البلاد الأوروبية أو غيرها من بلاد العالم المختلفة ، ولم يخرج « جوته » من مدينته طيلة حياته إلاّ فى رحلات قليلة محدودة ، أشهرها رحلة قام بها إلى إيطاليا حيث بقى عاما كاملا هناك ، أما معظم سنوات حياته فقد قضاها فى « فايمار » وكانت فى عصره مدينة صغيرة هادئة لاتعانى من الزحام والصخب والضوضاء مما تعانى

منه المدن الكبرى ، ومن هذا الميل إلى الاستقرار فى مكان هادىء واحد ، استطاع « جوته » أن يحصل على صحة النفس والجسم ، وأن يواصل عمله الأدبى بعمق وغزارة حتى آخر ايامه ، فقد ظل يكتب ويعمل حتى قبل وفاته بأسابيع قليلة ، فحياة « جوته » هى مثال للنجاح الذى يتحقق فى حياة الإنسان الموهوب ، إذا اتجه هذا الإنسان إلى التركيز والاستقرار والهدوء الذى يتيح له غزارة الانتاج وعمقه فى نفس الوقت .

ومن الطريف أن « جوته » قد تعرض فى حياته لنقد شديد من بعض المعاصرين له ، بسبب قبوله رتبة « النبيل » من الامبراطور الألمانى ، وبسبب رضائه بإن يكون موظفا فى دوقية « فايمار » تحت لقب « مستشار » لحاكم هذه المدينة الألمانية ، الدوق كارل أوجست . وقد قال الذين انتقدوا « جوته » إن أديبا كبيرا مثله حصل على مكانة عالية ورفيعة بفضل مواهبه الأدبية والفنية والفكرية ، ما كان له أن يقبل بأن يكون تابعا لدوق « فايمار » وموظفا عنده ، وما كان له أن يقبل لقب « نبيل » من الإمبراطور الألمانى ، حتى يصبح بذلك مجرد « حلية » و « زينة » فى بلاط الدوق والامبراطور ، و« جوته » أكبر من ذلك وأعظم شأنا .

إن شكسبير قد وصل فى عصره إلى مرتبة رفيعة عالية كفنان مسرحى أثار الإعجاب الواسع والتقدير الكبير فى البلاط الملكى الانجليزى ، ومع ذلك لم يسع شكسبير على الإطلاق للحصول على لقب أو وظيفة فى القصر الملكى ، بل حرص على مكانته كفنان وأكتفى بقيمته العالية التى نالها من خلال مسرحياته العظيمة ، فالفنان الحقيقى أكبر من كل الألقاب والوظائف التى يمكن أن يسعى إليها أصحاب المواهب الصغيرة المحدودة ، أما الكبار فعليهم أن يحترموا أنفسهم ويرتفعوا بها فوق أى تكريم آخر ، غير التكريم الذى ينالونه من خلال مواهبهم الفنية العالية .

هذه هى وجهة نظر الذين كانوا ينتقدون « جوته » لقبوله وظيفة حكومية أقل من قدره ، ولرضائه بلقب من ألقاب التكريم الرسمى هو لقب « نبيل » ، مما لم يكن « جوته » فى حاجة إليه ، وما كان له أن يقبله أو يرتضيه .

وهذا النقد الذى وجهه بعض المعاصرين إلى « جوته » لم يعبأ به الفنان الكبير ولم يلتفت إليه ، فقد كان « جوته » من الشخصيات التى تتمتع بنزعة عملية واقعية

فيما يتصل بشئون الحياة ، فهو يريد أن يكون على وفاق مع الحياة من حوله ، ولا يريد أبدا أن يدخل فى صراعات خارجية قد تبدد طاقته وتفسد عليه هدوء الروح وصفاء الذهن ، وقد تعرضه لنوع من القلق يسىء إلى حيويته وقوة صحته ، مما يضعف قدرته فى آخر الأمر على أن يتفرغ فى هدوء لأدبه وفنه .

ويبدو أن « جوته » كان يدرك أنه يعيش فى عصر من العصور المليئة بالعواصف العنيفة ، والتغيرات الحادة ، فقد عاصر « جوته » الثورة الفرنسية الكبرى التى هزت أوروبا وأشعلت فيها الحروب المختلفة ، وعاش فى عصر نابليون وما صاحب هذا العصر من تغيرات عنيفة أصابت أوروبا بأكملها ، بل لقد شاهد « جوته » غزو نابليون لألمانيا ، حيث وصل نابليون إلى مدينة « فايمار » التى كان يعيش فيها « جوته » وفى قلبه أمل كبير أن يحصل على الهدوء والاستقرار ، وأن يبتعد عن الهزات والعواصف . وعندما وصل نابليون إلى « فايمار » طلب أن يلتقى بـ « جوته » والتقى به فعلا وعامله أحسن المعاملة ، وقال نابليون بعد لقاء « جوته » كلمته الشهيرة : « هذا رجل » ، فقد أعجب نابليون أشد الاعجاب بشخصية « جوته » بعد أن كان قد قرأ أدبه وأعجب به .

فى هذا العصر المضطرب الملىء بالمشاكل الكثيرة والتغيرات الكبيرة ، ماذا يفعل أديب مثل « جوته » لايملك سوى موهبته الكبيرة ، ولايريد أن يستسلم للجو المضطرب من حوله ، بل يريد أن ينجو منه ، ويبتعد عنه ، ليحقق لنفسه القدرة الصحيحة على التعبير عما يحسه من أفكار وتجارب انسانية ؟

إن « جوته » لم يعبأ كثيرا بمن انتقدوه بسبب قبوله لوظيفة حكومية فى بلاط « فايمار » حيث كانت هذه الوظيفة توفر له قدرا من الأمان والاستقرار ، ولم تكن وظيفة صعبة مجهدة ، بل كانت وظيفة شرفية لايتحمل بسببها أعباء كبيرة ، وكان هدفه من وراء ذلك كله هو أن يعيش فى بيته هادئا ومتفرغا لعمله الفكرى والفنى .

والحقيقة أن التاريخ قد نسى ارتباط « جوته » بالبلاط فى « فايمار » ونسى لقب « النبيل » الذى حصل عليه ذلك الأديب الكبير ، ولم يعد يذكر ذلك كله إلاّ فى سطور قليلة ، لأن الذى بقى للناس من « جوته » هو أعماله العظيمة من أمثال « آلام فرتر » و « فاوست » ، وقد كانت « آلام فرتر » و « فاوست » فاتحة

وتبشيرا بالعصر الحديث ، فـ « آلام فرتر » وداع ورثاء لعصر الخيال والرومانسية فى تاريخ الانسان ، وتنبؤ بأن الإنسان سوف يدخل عصرا آخر هو عصر العقل والاهتمام الواسع بالواقع ، أما « فاوست » فهى تبشير رائع بأن الإنسان سوف يعتمد على العلم اعتمادا كبيرا وسوف يكتشف الكثير من أسرار الطبيعة والنفس عن طريق العلم . وهكذا كان « جوته » العظيم مناديا ينادى بأن عصرا قد انتهى فى تاريخ الإنسان هو عصر السحر والخرافة والخيال ، وأن عصرا جديدا قد بدأ هو عصر العلم والواقعية واقتحام أسرار الطبيعة فى البحر والأرض والفضاء ، وحتى فى جسم الإنسان ونفسه .

ولقد آثر « جوته » أن يعيش فى سلام مع السلطة والناس فى عصره ، حتى يحتفظ بقوة موهبته وعقله من أجل إبداعه الفنى والفكرى ، وابتعد « جوته » عن المعارك والصراعات التى كان يمكن أن تعصف بهدوئه واستقراره وتصبح عقبة كبيرة فى وجه انتاجه وابداعات عقله وروحه .

على أن فى شخصية « جوته » جانبا خاصا لفت أنظار المعاصرين له ، ولفت أنظار الباحثين ، ذلك هو أنه كان صاحب قلب سريع الانفعال بعاطفة الحب ، فلم يكن يكف منذ شبابه الأول عن الاهتمام بالمرأة ، والانتقال من حب مشتعل إلى حب آخر أكثر اشتعالا وأصبح تاريخه العاطفى حافلا بقصص الحب الكثيرة ، وأحاط به عدد كبير من نساء عصره ، فكان يتنقل بينهن كما يتنقل البستانى بين الزهور . لقد كان « جوته » من هؤلاء الفنانين الكبار الذين لايستطيعون العمل بقلب بارد ، فكان يحرص على أن يكون قلبه مشتعلا ، كأنه الشمعة التى على ضوئها يرى الأشياء ، ولا يستطيع أبدا أن يستغنى عن هذه الشمعة ، وإلا فقد الرؤية وعاش فى الظلام .

وكانت هذه نقطة أخرى ينتقده الناس بسببها . فكثرة مغامراته العاطفية لم تكن تليق بمكانته العالية الرفيعة وبأدبه الانسانى البديع . ولكن « جوته » لم يكن يعبأ بهذا النقد كعادته ، فقد كان يعيش حياته بما يحقق له الاتفاق والانسجام مع نفسه وموهبته ، ويحس أنه لو استجاب إلى نقد الناس له ، فسوف يتحول إلى شخص مفتعل غير صادق يعيش تحت تأثير قيود كثيرة لا قيمة لها إلاّ أنها سوف تجفف

ينابيع روحه المتدفقة ، ولذلك فإنه لم يستمع إلى نقد الناس وأطلق لقلبه العنان حتى يحب كما يحلو له ، وفى أى وقت يهتز فيه لمعانى الجمال .

وكانت تجربة حبه الأخير هى أكثر تجاربه العاطفية التى انتقدها الناس وعابوها عليه ، ولكنها كانت فى نفس الوقت أنجح تجاربه العاطفية جميعا ، فقد جاءته وهو فى الأربعين من عمره فتاة صغيرة فى الثالثة والعشرين من العمر أسمها « كريستين فيلبوس » ، وكانت هذه الفتاة عاملة فى أحد المصانع فى مدينة « فايمار » حيث كان « جوته » يعيش ويحتل مكانة إجتماعية عالية ويحظى بشهرة واسعة فى ألمانيا وفى أوروبا كلها ، وجاءت هذه الفتاة البسيطة إلى « جوته » تحمل معها التماسا إليه أن يساعد أخاها فى الحصول على عمل يعيش منه ، وساعدها « جوته » بالفعل ، ولكنه أحس بأن العاملة البسيطة الصغيرة كريستين هى فى نفس الوقت فتاة جميلة ساحرة ، تتفجر بالحيوية والشباب ، فخفق قلبه لها ، وأحبها وصارحها بهذا الحب ، فلم تكن من عادته أن يخفى ما يحس به كلما انفعل بالجمال وتحرك قلبه أمامه . وما كانت كريستين الجميلة البسيطة ترفض هذا الحب أو تهرب منه ، فـ « جوته » رجل ملىء بالصحة والحيوية والحرارة ، وهو نجم النجوم فى عصره ، وموضع الاحترام والهيبة والتقدير من الجميع .

وكان بين كريستين و « جوته » فارق كبير فى العمر يبلغ سبعة عشر عاما ، كما كان « جوته » معروفا بعلاقاته العاطفية الكثيرة السابقة ، ولكن كريستين لم تعبأ بهذا كله ، وتجاوبت مع حب « جوته » لها ، وأصبح موضوع ارتباط « جوته » بهذه الفتاة الصغيرة البسيطة حديثا لمدينة « فايمار » كلها ، واعتبر بلاط المدينة الذى يعمل فيه « جوته » أن هذه العلاقة العاطفية غير لائقة بعضو من أعضاء هذا البلاط ، وفنان كبير له شهرته ومكانته مثل « جوته » . فكيف يرتبط « جوته » العظيم بفتاة أدنى منه بكثير من حيث الطبقة الاجتماعية ؟ إن هذا أمر لايغفره البلاط ، ولا تغفره الطبقة الارستقراطية أو التى تحاول أن تتظاهر بالارستقراطية ، وتتشبث بأذيالها ومظاهرها المختلفة . وبدأت الحرب ضد حب « جوته » الجديد ، وتولت نساء « فايمار » أمر هذه الحرب ، فكان هؤلاء النساء يرفضن استقبال كريستين فى الصالونات الأدبية والحفلات التى كن يقمنها فى المدينة ، وكان هؤلاء النساء يرفضن رفضا كاملا أن يتعاملن مع هذه الفتاة

الجميلة ، لأنها كانت فى نظرهن مجرد عاملة بسيطة لاترتقى فى مقامها إلى أن تكون سيدة تختلط بالطبقة الراقية وتنتمى إليها .

ولكن « جوته » لم يتأثر بهذه الحرب فتمسك بفتاته الجميلة كريستين ، وانتقلت كريستين لتعيش فى بيته ، ويبدو أنها كانت تحس بالمشكلة التى خلقتها لنفسها وللفنان الكبير « جوته » بحبها له ، فرضيت أن تعيش فى منزل الفنان العظيم وكأنها مديرة لهذا البيت ، أو كأنها خادمة فيه ، فاذا كان هناك زائرون لـ « جوته » فى المنزل قامت بخدمتهم ، ولكنها كانت تحرص على ألاّ تجلس مع الزائرين أو تتبادل معهم الأحاديث . لقد رضيت بأن تكون قريبة من حبيبها دون أن تفرض عليه أى التزام بالاعتراف بها أمام الآخرين فقد كانت كريستين صادقة فى حبها ، وكانت راضية بهذا الحب مكتفية به ، لاتريد من الدنيا شيئا آخر .

ومن جانب آخر فإن « جوته » قد واجه العاصفة التى ثارت بسبب حبه لكريستين بعدم المبالاة ، رغم أن هذه العاصفة تحولت إلى نوع من « الفضيحة » فى الأوساط الألمانية ، فكانت موضوعا للحديث والنقد اللاذع ، ولكن ماذا يهم الفنان الكبير من هذا كله ، وهو الذى يحب هذه الفتاة البسيطة ، ويجد فى جمالها الساحر وفى قلبها النقى وإخلاصها الكبير وحرارة عواطفها نحوه .. يجد فى ذلك كله سعادته ، ويجد فيه ما يحرك حيويته الفنية ويشعل قدرته على التفكير والإبداع . وربما كانت كريستين أقل الناس فهما لأدبه وإنتاجه الفكرى والفنى ، وربما لم تكن تتعامل معه على أنه ذلك الفنان الكبير صاحب الشهرة والمجد والنفوذ الواسع ، وكانت تكتفى بالنظر إليه على أنه حبيبها الذى يرتاح إليه قلبها وتجد معه سعادتها كامرأة عاشقة وصادقة ، ولذلك فإنها لم تكن تعبأ بشىء أو تهتم بشىء آخر غير حبها لـ « جوته » .. الرجل الذى يكبرها بكثير ، والذى رفض مجتمعه أن يعترف بها أو يتعاطف مع حبها له وحبه لها.

كان « جوته » يجد مع كريستين صفاء نفسه ، والعودة إلى الطبيعة البسيطة السهلة ، والتخلص من القيود الاجتماعية الثقيلة ، فقد كان معها مجرد إنسان محب ، لايتكلم فى الأدب والفن والفلسفة بل يتكلم فى شئون الحياة العادية ، وفى الخواطر اليومية العابرة التى يمكن أن يتحدث فيها أى حبيبين عاديين .

وبعد عدة سنوات من هذه « الفضيحة العاطفية » كما كان يسميها الناس فى عصر « جوته » ، قرر « جوته » أن يكسر كل التقاليد الزائفة من حوله ، وأن يتحداها ، فأعلن زواجه من كريستين وهو فى الستين من عمره ، أما هى فكانت فى الثالثة والأربعين ، وعاشت معه كريستين بعد الزواج سبع سنوات متصلة ثم ماتت وتركته وحيدا ، بعد أن ذاق معها أجمل العواطف وأصدقها ، رغم ما كان بينهما من فارق فى السن وفارق فى المكانة الاجتماعية . وكان زواج « جوته » من كريستين موضع دهشة كبيرة فى الأوساط الارستقراطية التى عارضت العلاقة منذ البداية ، وقد كانت هذه الأوساط المنافقة تتحمل بعض التحمل أن تكون هناك علاقة غير شرعية بين « جوته » و كريستين ، ولكنها لاتطيق فكرة الزواج ، فالزواج يعطى كريستين قوة شرعية لايحق لها - فى نظر الطبقة الارستقراطية - أن تنالها وهى العاملة البسيطة التى خرجت من بين الطبقات الفقيرة ، لكى تحتل هذه المكانة العالية فى قلب أعظم رجل فى عصره .

إن زواج « جوته » من كريستين كان أبلغ من ألف كتاب فى الرد على هؤلاء الذين يفرقون بين البشر على أساس أوضاعهم الاجتماعية ، وعلى أساس ما يملكون من ثروة أو جاه . وإذا كان « جوته » قد نادى فى أدبه بتمجيد الانسان وتمجيد عواطفه وقدراته العقلية الكبيرة ، فقد كان زواج « جوته » من كريستين تطبيقا عمليا لايمانه العميق بوحدة الانسان والمساواة بين البشر ، وإيمانه بأن الظروف الخارجية المفتعلة لايصح أبدا أن تكون مقياسا للتفرقة بين قلب وقلب وبين روح وروح ، فالتفاهم الانسانى الحقيقى يكسر الحواجز ويحطم القيود ، ويرفع العاملة البسيطة كريستين إلى عرش القلب النابض بالعاطفة الانسانية الخصبة .. قلب « جوته » أعظم رجال عصره ، وواحد من أعظم الرجال فى كل العصور .



مظاهرة نسائية فى باريس

اشتعلت الثورة الفرنسية فى باريس سنة ١٧٨٩ ، وامتلأ هذا العام بالأحداث الكثيرة المثيرة التى كان أهمها استيلاء الجماهير الشعبية الثائرة على « سجن الباستيل » الشهير فى ١٤ يوليو من ذلك العام ، وهو اليوم الذى أصبح عيدا وطنيا لفرنسا تحتفل به كل سنة . وعلى كثرة الأحداث المثيرة التى حفلت بها الثورة الفرنسية فى عامها الأول ، كان هناك حادث غريب متميز هو مظاهرة النساء التى اتجهت يوم ٥ أكتوبر من هذا العام إلى قصر « فرساى » ، حيث كانت الأسرة الملكية الفرنسية تقيم ، وكان على رأس هذه الأسرة الملك لويس

السادس عشر وزوجته الملكة مارى انطوانيت . أما قصر فرساى نفسه فهو قصر ضخم بناه لويس الرابع عشر بالقرب من باريس سنة ١٦٨٢ ، وقد تحول هذا القصر الكبير بعد الثورة الفرنسية والقضاء على الملكية إلى متحف وطنى .

كانت مظاهرة النساء من أغرب أحداث الثورة الفرنسية وأكثرها عنفا وغموضا . وهذه المظاهرة تعتبر أول مظاهرة نسائية فى التاريخ ، وكان هدف هذه المظاهرة هو القبض على الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت ونقلهما إلى باريس . فقد كان وجودهما فى قصر فرساى بعيدا عن العاصمة الفرنسية مصدرا من مصادر القلق الذى يخيف قادة الثورة الفرنسية وجماهيرها المختلفة . فالثورة مشتعلة فى باريس والملك وزوجته بعيدان عن العاصمة يعيشان فى قصر « فرساى » مما يتيح لهما أن يتآمرا على الثورة ، ويقوما بتدبير الخطط المختلفة للسيطرة على الثوار والقضاء عليهم . ومن هنا كان لابد من نقل الملك والملكة إلى باريس حتى يكونا تحت السيطرة الكاملة للثورة ، وحتى يكون فى الإمكان مراقبة أى تصرف يقومان به ، والوقوف فى وجه أى محاولة منهما للتآمر على الثورة ، والإطاحة برؤوس قادتها ووضع حد لها قبل أن تحقق أهدافها الكاملة .

وقد فكر ثوار باريس كثيرا فى الطريقة التى يمكن بها مهاجمة قصر « فرساى » والقبض على الملك والملكة ونقلهما إلى باريس . ولم يكن الأمر سهلا فقد كان هناك جيش يحرس قصر فرساى ويطيع أوامر الملك حتى ذلك الحين ، ولو أن مظاهرة عادية تتكون من الرجال ، مهما كان عدد المشاركين فى هذه المظاهرة ، ذهبت إلى قصر « فرساى » ، لكان بإمكان الملك فى سهولة ويسر أن يأمر بفض هذه المظاهرة بإطلاق النار على المتظاهرين ، وكان من الصعب أن يرفض الجيش الذى يحرس القصر أوامر الملك ، ولو أدى الأمر إلى مذبحة يموت فيها المئات والآلاف ، فقد كان الهجوم على الملك الذى مازال يحتفظ بسلطاته الشرعية أمرا لابد من مقاومته والوقوف فى وجهه من جانب الجيش الذى يحرس الملك وقصره التاريخى « فرساى » .

ومن هنا فكر ثوار فرنسا فى طريقة جديدة للاستيلاء على القصر الملكى

والقبض على الملك والملكة وأسرتهما واقتيادهما إلى باريس . وكانت قيادة الثورة تضم العديد من الأذكياء والمثقفين وأصحاب الدهاء والحيلة ، والذين يملكون فهما واسعا ودقيقا لنفسية الجماهير الثائرة . وكانت الثورة قد أطلقت مواهب الناس وقدراتهم الواسعة على التفكير الحر الجرىء ، ولم يعد الذكاء والنبوغ احتكارا للطبقات الارستقراطية الغنية ، تلك الطبقات التى كانت تحارب الموهوبين من أبناء الطبقات الشعبية وتطاردهم وتحاصرهم وتقضى عليهم ، إلاّ إذا قبل هؤلاء الموهوبون من أبناء الشعب أن يعملوا فى خدمة الارستقراطية لتسليتها والترفيه عنها ، أما الذين كانوا يستخدمون مواهبهم فى تنوير عقول الناس ودعوتهم إلى مبادىء الحرية والدفاع عن حقوقهم الإنسانية ، فإن هؤلاء كان مصيرهم السجن أو النفى من البلاد ، أو التضييق عليهم فى الرزق حتى يختنقوا وتضعف مواهبهم أو تموت . ويكفى أن نشير إلى المفكر الفرنسى الكبير « فولتير » ، والذى مات قبل الثورة الفرنسية بإحدى عشرة سنة ، فقد مات سنة ١٧٧٨ وقامت الثورة سنة ١٧٨٩ . لقد كانت حياة فولتير مليئة بالمتاعب والمصاعب نتيجة لآرائه الحرة ولهجومه المستمر على الطبقات الارستقراطية ، لذلك دخل سجن الباستيل مرتين ، وأرغم على الخروج من بلاده حيث عاش منفيا يتنقل بين ألمانيا وانجلترا وغيرهما من دول أوروبا . وعندما مات رفضت فرنسا دفنه فى باريس ، وإن كانت الثورة الفرنسية قد نقلت جثمانه بعد ذلك إلى مقابر العظماء التى تسمى باسم « البانثيون » .

كان فولتير من المواهب الكبرى التى ظهرت بين الطبقات المتوسطة والشعبية من أبناء فرنسا فاضطهدتها الارستقراطية اضطهادا عنيفا قاسيا ، ولكنه قاوم وتمرد ونجح فى أن يسجل اسمه على صفحات التاريخ ، وأن يترك أثرا واسعا على العقل الفرنسى . ولكن ما أكثر المواهب الأخرى التى قتلتها الأرستقراطية الفرنسية وقضت عليها فى صفوف الشعب ، لأنها كانت تخشى على الدوام من قوة النبوغ والذكاء ، فهذه القوة لابد أن ترفع الناس إلى المطالبة بحقوقهم ، والقضاء على الظلم الذى يتعرضون له ، والكفاح من أجل العدل والحرية .

وعندما اشتعلت الثورة الفرنسية ، تحرر الشعب من القيود المفروضة عليه ، وظهر فى صفوفه المئات من الموهوبين الأذكياء الذين قادوا الثورة وخططوا لها

وعبروا عنها ، وصاغوا القوانين الجديدة التى رسمت خريطة عالم آخر غير عالم الارستقراطية المنهار .

ولذلك لم يكن غريبا أن يصل قادة الثورة إلى تلك الفكرة الذكية ، وهى فكرة المظاهرة النسائية التى تذهب إلى قصر « فرساى » للقبض على الملك والملكة واقتيادهما إلى باريس ليعيشا تحت أعين الثوار .

فالملك لن يستطيع أن يأمر جنوده باطلاق الرصاص على النساء ، وحتى لو تجرأ الملك على إصدار مثل هذا الأمر فقد كان من الصعب أن يستجيب له جنوده ، فليس من الشجاعة ولا الفروسية ولا العسكرية التى تحترم نفسها أن يوجه الضباط والجنود بنادقهم إلى صدور النساء ، ومثل هذا التصرف لو أنه حدث يكون فى حقيقته « عارا » لايمكن أن تمحوه كل مياه المحيطات . وقد وضع قادة الثورة الفرنسية الذين دبروا هذه المظاهرة فى حسابهم إمكانية إطلاق الرصاص على مظاهرة النساء ، وإن كان ذلك أمرا بعيد الاحتمال ، ولو حدث هذا فهو كفيل بالقضاء على النظام الملكى فى فرنسا ، لأن الشعب الفرنسى لن يغفر أبدا للملك وجنوده مثل هذه الجريمة .

وهكذا كان لابد أن تنجح مظاهرة النساء فى جميع الأحوال . فإن لم يطلق الحرس الملكى الرصاص عليها ، فبأستطاعة المظاهرة أن تقتحم القصر وتقود الأسرة الملكية إلى باريس ، وبذلك يتحقق الهدف الأساسى من المظاهرة . وإن أطلق الحراس رصاصهم على المظاهرة فإن ذلك كفيل بأن يقضى على النظام الملكى ، ويسقط شرعيته نهائيا أمام المواطنين الفرنسيين ، وبذلك يتحقق هدف أهم للثورة الفرنسية التى كانت منذ البداية تسعى إلى إعلان الجمهورية ، وتبحث عن الفرصة المناسبة لتحقيق هذا الهدف .

كانت فكرة مظاهرة النساء فكرة بالغة العمق والذكاء . وكان السؤال الطبيعى هو : كيف يمكن تدبير هذه المظاهرة ، وكيف يمكن إثارة نساء باريس للقيام بها ؟

كان لابد من تهيئة الظروف وخلق الجو والأسباب القوية التى تؤدى إلى إطلاق هذه المظاهرة ، ومن هنا تم تدبير موقف لايمكن أن تحتمله نساء باريس ، وكان هذا الموقف هو قطع إمداد العاصمة الفرنسية بالخبز لمدة يومين كاملين ،

ولم تطق نساء باريس صبرا على هذه المجاعة التى أصابت الجميع وافقدت الناس صبرها وقدرتها على الاحتمال .

وتوالت الاحداث بعد ذلك ..

امرأة مجهولة تحصل على طبلة وتدق عليها دقا عنيفا ، فيتجمع حولها عدد كبير من النساء ، ويصرخ الجميع وراء المرأة التى تقود المظاهرة بهتاف واحد هو : « نريد الخبز » . وحتى هذه اللحظة لم تعرف المظاهرة إلى أين تتجه ، ولكن قيادة الثورة الفرنسية استطاعت أن تدفع إلى المظاهرة بعدد من الرجال الذين يلبسون ملابس النساء ويتولون قيادة المظاهرة وتوجيهها . وبفضل هؤلاء الرجال الذين أصبحوا مسيطرين على المظاهرة وهم فى زى النساء اتجهت المظاهرة إلى مبنى البلدية ، واستولت على كميات كبيرة من الأسلحة ، ثم استطاع الذين يقودون المظاهرة أن ينشروا بسرعة بين المتظاهرين أن الهدف هو الذهاب إلى « فرساى » لمطالبة الملك بتوفير الخبز . واتجهت المظاهرة بالفعل إلى « فرساى » ، وكان عدد المشاركات فى المظاهرة يبلغ ثمانية آلاف إمرأة .

وقد علم الملك والملكة بأمر المظاهرة المتجهة إلى « فرساى » قبل وصول المظاهرة إلى القصر بما يزيد على ساعتين ، واجتمع الملك والملكة بالمستشارين لمحاولة الوصول إلى قرار فى الطريقة التى يمكن بها مواجهة هذه المظاهرة الغريبة والمثيرة . وترددت فى الاجتماع آراء مختلفة وغامضة ومتناقضة . ومع هذا الاضطراب فى الرأى عجز الملك عن إتخاذ أى قرار واضح ، وكان أمامه اقتراح بأن يذهب مع أسرته الملكية وحاشيته ومستشاريه إلى قصر آخر بعيد عن « فرساى » اسمه قصر « رامبوييه » ، واستعدت المركبات الملكية بخيولها لنقل الجميع إلى هذا القصر بالفعل ، وكان الانتقال إلى هذا القصر كفيلا بأن يؤدى إلى فشل المظاهرة فى تحقيق هدفها ، وهو اقتحام قصر « فرساى » واقتياد الملك وأسرته إلى باريس .. فعندما تصل المظاهرة إلى « فرساى » فى هذه الحالة فلن تجد فيه الملك ولا أسرته ولا حاشيته ، ولن تعرف قيادة المظاهرة أين يوجد الملك إلاّ بعد أيام يكون الملك فيها قد وجد فرصة أطول للتفكير ، وتكون المظاهرة قد يئست وتشتتت وانتهت إلى الفشل .

ولكن الملك لويس السادس عشر لم يكن معروفا بالحزم والذكاء والقدرة على اتخاذ القرارت السريعة ، وتلك كلها صفات تؤدى إلى الكوارث فى أوقات الأزمات على وجه الخصوص . فالأزمات تحتاج إلى سرعة فى اتخاذ القرارات ، وتحتاج إلى شخصية حازمة تتمتع بالذكاء وحسن الفهم للظروف المحيطة بالإنسان . ولم يكن الملك لويس السادس عشر يتمتع بشىء من هذا كله ، بل كان يظن أنه قد ورث الملك ، وأن هذا « الميراث » يكفى لأن يحتفظ له بتاجه فيستمر فى حكم فرنسا هو والوارثون له من بعده . ولم ينتبه هذا الملك التعس إلى ما حدث فى فرنسا من تغييرات كبيرة ، وماكان يسودها من أوضاع ظالمة لم تعد محتملة من الناس . فقد كان الاقطاعيون يفرضون السخرة على الفلاحين الذين كانوا يعملون لهؤلاء الاقطاعيين بلا مقابل سوى الحد الأدنى من طعامهم الذى يبقى على حياتهم وكأنهم ماشية ليس لها عقل ولا وجدان ، وكان النبلاء يدوسون بأحذيتهم على رؤوس الناس ، وينتهكون حقوقهم وكرامتهم ويدفعون بهم إلى السجون بسبب وبدون سبب ، وكان المجتمع يغلى بالغضب والرفض لهذه الأوضاع غير الانسانية . ولكن الملك لويس السادس عشر لم يكن يدرى بشىء من هذا كله ، وكان يعيش فى قصره الفاخر فى « فرساى » يستمتع بالرفاهية والترف والسهرات الناعمة ، ولايجد حوله من ينبهه إلى خطورة ما يجرى فى صفوف الشعب من أحداث كثيرة تؤدى إلى السخط والغليان ، وأن من الضرورى اتخاذ إجراءات حاسمة لإصلاح شامل لاوضاع البلاد ، حتى لو أدى ذلك إلى التقليل من امتيازات الارستقراطية بأمرائها ونبلائها وغيرهم من أفراد الحاشية التى تعيش فى قصور هؤلاء الأمراء والنبلاء . لقد كان الموقف فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ فرنسا يحتاج إلى شخصية أخرى غير شخصية لويس السادس عشر ، صاحب الذكاء المحدود ، والفهم البطىء ، والاستجابة المتأخرة للأحداث ، والإرادة المترددة التى لاتتيح له اتخاذ القرار الصحيح فى الوقت المناسب .

وها هى الأحداث تجرى من حوله وهو غارق فى التردد وضعف العزيمة ، والجهل بواقع بلاده ، وقلة الحيلة أمام ثمانية آلاف إمرأة تزحف إلى قصره . وقد تصور الملك فى لحظة عابرة أن المطر الشديد الذى انهمر على رؤوس المتظاهرات ، سوف يقوم بدور الحاجز الطبيعى بينه وبين هذه المظاهرة ، وسوف يفرض على المتظاهرات العودة إلى باريس ، ولكن عنف الاندفاع الثورى عند

المتظاهرات وقوة الإرادة عند الذين يقودون المظاهرة من الرجال الذين يلبسون ثياب النساء ، جعل المتظاهرات يلتصقن ببعضهم البعض ، ويزددن قوة وعنفا ، وكأنهن لايحاربن الملك والملكة وحدهما وإنما يحاربن الطبيعة فى نفس الوقت .

ووصلت المظاهرة إلى قصر « فرساى » بعد ست ساعات قطعتها فى السير من باريس إلى قصر الملك ، وهناك اقتحمت المظاهرة القصر ذا المائة غرفة ، وسيطرت عليه ، أمام عجز كامل من الحرس الملكى الذى لم يستطع أبدا أن يرفع أسلحته إلى صدور النساء ، خاصة وأن هؤلاء النساء أبدين شجاعة غير عادية . وأضطر الملك والملكة للخروج إلى إحدى شرفات القصر ، وكانت الهتافات تدوى بضرورة ذهاب الملك والملكة إلى باريس . وانقضى الليل كله والمظاهرة الضخمة تحيط بالقصر الملكى وتسيطر على مداخله ومخارجه ، وبعد فترة انتظار مخيفة ، أعلن الملك فى أوراق ألقيت على المتظاهرات أنه سوف يذهب مع أسرته إلى باريس .

وما كان هذا القرار الذى أعلنه الملك كافيا لتهدئة المظاهرة ، فبقيت المتظاهرات حول القصر طيلة الليل وصباح اليوم التالى . وفى الساعة الثانية بعد ظهر يوم ٦ أكتوبر خرج الملك فى إحدى العربات مع الملكة وابنهما « ولى العهد » وابنتهما متجهين إلى باريس ، فى حراسة المظاهرة النسائية الضخمة ، وبعيدا عن أى صورة من صور التكريم الذى تعودت عليه هذه الأسرة ، حيث كان يحيط بها فى كل خطوة من خطواتها حراسة متميزة ومواكب زاهية بالفخامة والضخامة .

وبعد ست ساعات وصل موكب الأسرة الملكية إلى باريس محاطا بالمظاهرة النسائية التى جمعت أشكالا وألوانا من النساء ، كان بينهن بائعات السمك وبائعات الزهور ، وأنماط أخرى من أكثر النساء تواضعا وبساطة ، وكان بعضهن من بائعات الهوى فى الشوارع والنوادى الليلية .

لقد كانت النساء المشاركات فى هذه المظاهرة بمظهرهن البائس وثيابهن الرثة ، وما بدا فى سلوكهن من قسوة وعنف فى معاملة الأسرة الملكية .. كان هؤلاء النساء هن ثمرة للمجتمع الظالم الذى صنعه الملك وطبقته الارستقراطية العابثة اللاهية . وها هى حركة التاريخ تؤدى إلى انفجار شعبى لم يستطع أحد

أن يسيطر عليه ، وها هى الأسرة الملكية تخرج من قصرها أسيرة لثمانية آلاف امرة غاضبة ، يبحثن عن الخبز والكرامة ، ويطالبن بقيام مجتمع جديد يوفر لهن حقوق الانسان وشرف الحياة .

وبعد أن وصلت الأسرة الملكية إلى باريس فرضت عليها قيادة الثورة الفرنسية أن تقيم فى قصر « التويلرى » فى قلب العاصمة الفرنسية ، وكان هذا القصر فى ذلك الحين مهجورا منذ مائة سنة ، ولم يكن فيه أى إمكانيات لإقامة أى أسرة متواضعة فضلا عن أسرة ملكية . ومع ذلك قام العمال فى سرعة بإعداد عدد من غرف النوم البسيطة لكى تقضى فيها الأسرة الملكية ليلتها التعسة ، ثم أجرى إصلاح محدود للقصر بعد ذلك ، وظلت الأسرة الملكية تقيم فيه إقامة السجين ، حتى تصاعدت أحداث الثورة الفرنسية يوما بعد يوم ، وانتهى الأمر بمحاكمة الملك لويس السادس عشر وإعدامه فى ٢١ يناير سنة ١٧٩٢ ، أى بعد مظاهرة النساء التى حملته إلى باريس بحوالى عامين .. أما مارى انطوانيت فقد تم إعدامها فى ٥ أكتوبر سنة ١٧٩٢ ، أى بعد ثلاثة أعوام من مظاهرة النساء التاريخية .

لقد كانت مظاهرة نساء فرنسا فى ٥ أكتوبر ١٧٨٩ بداية النهاية للنظام الملكى فى فرنسا ، وكانت بداية النهاية للنظام القديم كله ، وهو النظام الذى كان يقوم على التمييز الكامل بين الناس ، وإعطاء الأقلية الأرستقراطية كل شيء ، وحرمان الأغلبية الشعبية من أبسط حقوقها الإنسانية فى العيش بكرامة وحرية .

وكانت مظاهرة باريس هى أول مظاهرة نسائية فى التاريخ ، وقد تم ترتيبها والإعداد لها بدقة وعنف وقسوة ، وحققت الأهداف الكاملة التى قامت من أجل تحقيقها .

وهذه المظاهرة النسائية هى التى أشيع أن مارى أنطوانيت قالت فيها للنساء المتظاهرات عندما أخذن يطالبن بالخبز : « كلوا بسكويت » . وقد نفى الكثيرون أن مارى انطوانيت نطقت بمثل هذه العبارة . وقصة هذه العبارة قصة شعبية ، ويبدو أنها كانت من « فلكلور » الثورة الفرنسية ، فرغم أخطاء مارى انطوانيت الفادحة وخطاياها الكثيرة ، إلاّ أنها كانت خلال هذه المظاهرة النسائية مثقلة بالهم

والكرب الشديد والإحساس المر بهول المأساة التى تحيط بها وبأسرتها ، ولم تكن فى حالة نفسية وعقلية تتيح لها أن تنطق بعبارة هازلة أو تسيء التعبير والتفكير . لقد دفعت مارى انطوانيت ثمن انغماسها فى الترف واللهو والبعد عن التفكير فى المصالح العامة الأساسية ، ولكنها لم تنطق بهذه العبارة المضحكة التافهة عندما كانت غارقة فى مأساتها التى أودت بحياتها وحياة زوجها ، وقضت على الملكية فى فرنسا .



المقصلة ليست حلا

للأديب والمفكر الانجليزى المعروف الدوس هكسلى عبارة جميلة صادقة يقول فيها :

« إن العنف يغرى بالعنف ، وكل إصلاح ينهضِ على العنف لابد أن يذهب به العنف » .

وفى هذه الكلمات تصوير أمين لدور العنف على مر الأزمان والعصور ، فمعظم الذين لجأوا إلى العنف خسروا قضيتهم وخسروا أنفسهم فى آخر الأمر .

والذين يلجأون إلى العنف يحاولون ـ دائما ـ إقناع أنفسهم ، وإقناع الآخرين بأنهم يفعلون ذلك من أجل مبدأ عظيم أو مصلحة عامة تحقق الخير للناس . وبعض الذين لجأوا إلى العنف كانوا صادقين كل الصدق فيما أعلنوه من أنهم يدافعون عن الخير والعدل ، ويحاولون القضاء على الشر والظلم ، غير أن أصحاب هذه المبادىء الكريمة لم يلتفتوا إلى حقيقة بسيطة ولكنها فى نفس الوقت حاسمة وقاطعة ، وهى أن الأهداف الطيبة لابد أن تتحقق بوسائل طيبة أيضا ، فإذا كان الهدف شريفا ونبيلا وكانت وسيلة تحقيق هذا الهدف سيئة اضطربت الأمور وارتبكت النتائج ، وحتى لو تحقق بعض النجاح للأهداف المنشودة ، فإن هذا النجاح يكون شديد المرارة وغالى الثمن .

ويحدثنا التاريخ بكثير من التفصيل عن جماعة ظهرت على مسرح الثورة الكبرى التى قامت فى فرنسا سنة ١٧٨٩ ، وهى جماعة « اليعاقبة » . وقد كانت هذه الجماعة تمثل « حزبا سياسيا » بالمعنى الحديث ، وكان قادة هذا الحزب من أعظم الرجال وأكثرهم إيمانا بالخير والعدل والحرية والمساواة والتعاطف الكامل مع المظلومين والمعذبين فى الأرض . ولكن هؤلاء الرجال بسبب إيمانهم بالعنف جروا على فرنسا كثيرا من المآسى ، وأغرقوا أوروبا كلها فى الدماء ، وانتهى الأمر بهم هم أنفسهم إلى « المقصلة » على يد بعضهم البعض ، ودفعوا رؤوسهم ثمنا للأسلوب الذى اختاروه لتحقيق أهدافهم النبيلة ، وهو أسلوب العنف والقسوة وإسالة الدماء وعدم القدرة على التسامح ، والعجز عن إقامة محاكمات عادلة متأنية نزيهة لكل من يتعرض للاتهام .

وقد سُمى « اليعاقبة » بهذا الاسم ، لأنهم كانوا يجتمعون فى كنيسة للرهبان المسيحيين من اتباع المذهب « اليعقوبى » المعروف فى الدين المسيحى . وكان من المفارقات اللافتة للنظر أن يكون « اليعاقبة » هم أكبر أحزاب الثورة الفرنسية تطرفا وإيمانا بالعنف ، وهم يستمدون اسمهم من مذهب مسيحى ، والديانة المسيحية كلها ـ بشتى مذاهبها ـ لاتؤمن بالعنف ولاتعترف به ولاتدعو إليه ، فقد كان المسيح عليه السلام داعية إلى المحبة والتسامح واحتمال الخلاف والخصومة مع الآخرين ، وحل المشاكل بين الناس بالرفق والرحمة والإخلاص وسعة الصدر .

وهكذا اختار « اليعاقبة » اسما لا علاقة له بالعنف ، فأصبح هذا الأسم على صفحات التاريخ أكبر رمز للعنف فى كل العصور .

لقد كان هؤلاء « اليعاقبة » يؤمنون بأنه لا علاج للشر إلاّ بالشر ، وأن العدل لن يتحقق إلاّ عن طريق الإطاحة برؤوس الذين يعتبرهم هؤلاء « اليعاقبة » أعداء للجنس البشرى ، وانصارا للطغيان ، وعقبة فى طريق التقدم الإنسانى .

أما زعيم « اليعاقبة » الأكبر فهو « روبسبيير » واسمه الكامل « مكسميليان دى روبسبيير » وكان قبل الثورة الفرنسية يعمل بالمحاماة ، وقد استمد أفكاره من كتابات جان جاك روسو ، وخاصة دعوة روسو إلى المساواة بين الناس ، وقوله بأن الإنسان يولد مليئا بالخير ، وتأتى الشرور بعد ذلك من الظروف الاجتماعية السيئة ، فإذا استطعنا أن نزيل هذه الظروف استطعنا فى نفس الوقت أن نكشف الخير الكامن فى الإنسان . ومن أجل إزالة كل هذه الظروف السيئة فقد دعا روسو إلى إقامة مجتمع يكون فيه « الشعب » هو « صاحب » السيادة ومصدر كل السلطات .

وقد مات روسو سنة ١٧٧٨ ، أى قبل قيام الثورة الفرنسية بإحدى عشرة سنة ، ولكن آراءه وأفكاره كانت ذات تأثير عميق على الثورة ورجالها ، روبسبيير على وجه الخصوص من أكبر المؤمنين بأفكار روسو والمتحمسين لها . ولم يكن فى أفكار روسو أى دعوة إلى العنف ، بل قامت دعوته للإصلاح على ضرورة وجود ما أسماه باسم « العقد الاجتماعى » أو « الإرادة المشتركة » بين سائر المواطنين فى المجتمع ، على أن تكون هذه الإرادة المشتركة مصدرا لكل القوانين التى ينبغى أن تصدر برضاء الجميع واتفاقهم . وكان روسو يرفض أن تكون القوانين من صنع الأقلية ، لأن مثل هذه القوانين لابد أن تكون ظالمة للأغلبية ، وضارة بمصالحها ، والسلام الاجتماعى بين الناس لايمكن أن يتحقق بقوانين ظالمة ، بل لابد له من قوانين عادلة تحفظ المصلحة المشتركة ، وتوفر التوازن الصحيح بين سائر عناصر المجتمع ، ويؤمن بها الجميع ، ويستطيعون التضحية من أجل المحافظة عليها واستمرارها .

وقد آمن « روبسبيير » بهذه الأفكار إيمانا يشبه الايمان الدينى ، فكانت هذه

الأفكار عن الحرية والمساواة والعدالة عند « روبسبيير » أفكارا مقدسة ، لاتقبل الشك ، ولاتحتمل التردد فى الدفاع عنها . وعندما قامت الثورة الفرنسية ، وأصبح « روبسبيير » زعيما لحزب « اليعاقبة » ، لم يستطع أن يهتدى إلى وسيلة لتطبيق ما آمن به من أفكار ومبادىء سوى العنف والقسوة وإسالة الدماء .

كان « روبسبيير » فى الواحدة والثلاثين من عمره عندما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ ، أى أنه كان فى قمة شبابه وحماسه واندفاعه ، ولذلك فإنه لم يلجأ إلى أى لون من ألوان المرونة أو اللين أو الحيلة فى الدفاع عن مبادئه وآرائه ، فقد كان على الدوام قاطعا مثل السيف الحاد . وقد أصبح « روبسبيير » الآن اسما يثير الرعب فى النفوس ، ويقترن بالنزعة الدموية ، وكأنه وحش تاريخى مفترس خال من أى صفة إنسانية . وقد قال عنه أحد أعدائه من المعاصرين له إنه هو وأنصاره « مجموعة من أكلة لحوم البشر فى باريس » .

ورغم ذلك كله فإن كتب التاريخ مليئة بالحديث عن جوانب أخرى فى شخصية « روبسبيير » تثير الدهشة ، فهذا هو المؤرخ الانجليزى هربرت فيشر ، وهو من أكبر أعداء الثورة الفرنسية ورجالها ، يقول عن « روبسبيير » إنه « كان أنيقا فى هندامه إلى أقصى حدود الأناقة ، مؤدب السلوك ، رائع التظاهر بالتمسك بالفضائل الجمهورية » . أما نهرو فى كتابه المشهور « لمحات من تاريخ العالم » فيقول : « إن روبسبيير كان نزيها مخلصا حتى أسماه الناس بالمعصوم من الفساد والرجل الذى لايمكن رشوته » .

وكان « روبسبيير » إلى جانب ذلك كله خطيبا مؤثرا ، وكانت كلماته تنفذ إلى القلوب ببساطتها وقوتها وما تحمله من إيمان قوى وعاطفة نحو الشعب وحقوقه . ومن كلماته فى وصف الثورة الفرنسية قوله : « من قام بثورتنا المجيدة هذه ؟ هل هم الأغنياء فى هذه الأمة ؟ هل هم الأقوياء فى هذا العصر ؟ .. الشعب وحده هو الذى تمناها وتاق إليها وقام بها ، وللسبب نفسه فإن بإمكان هذا الشعب السير فى ركابها والعمل على مؤازرتها والدفاع عنها » .

ومن أقوال « روبسبيير » أيضا :

« على كل أمة نبيلة وفخورة بحريتها أن تعلن أنها لا ترغب فى أن تهين أحدا كما أنها لاتطيق أن يلحق بها أحد أية إهانة ».

ويحاول « روبسبيير » فى كلمات أخرى أن يبرر استبداده ونزعة العنف التى كان يميل إليها فيقول :

« يجب ألاّ يخلط الناس بين استبداد الحرية واستبداد الطغيان ، فالشدة التى يلجأ إليها الطغاة مصدرها التعنت والقسوة ، أما الشدة التى تمارسها الجمهورية فمصدرها حب الخير » .

وهكذا يبتكر « روبسبيير » عبارة « استبداد الحرية » وهى عبارة غريبة ومتناقضة ، فالحرية تتعارض كل التعارض مع الاستبداد ، ولكن « روبسبيير » يريد أن يبرر إيمانه بالعنف ، وحماسه لسفك الدماء دفاعا عن مبادئه وأفكاره ، وهذه هى نقطة الضعف التى سجلها عليه نهرو حيث يقول عنه « ... إن روبسبيير رغم أنه كان ساذجا بسيطا فى حياته إلا أنه كان من الاعتداد بمبادئه وأفكاره ، بحيث اعتقد أن كل من خالفه كان خائنا للجمهورية والثورة ، وكثيرا ما أرسل رفاقه إلى المقصلة ، فلم يطيقوا عليه صبرا واتهموه بالاستبداد والطغيان ، وأرسلوه هو الآخر إلى المقصلة » .

حقا ... لقد كان الجانب السلبى الخطير فى شخصية « روبسبيير » ، وفى حزب « اليعاقبة » كله هو الايمان بالعنف ، وعدم القدرة على الحوار ، وسرعة الشك فى الآخرين ، واللجوء إلى الاتهام والخيانة ضد كل صاحب رأى مختلف ، حتى لو كان صاحب هذا الرأى من حزب « اليعاقبة » أنفسهم . وهذا ما فعله « روبسبيير » بزملائه فى حزب « اليعاقبة » ، ممن كانت لهم أدوار تاريخية مشهودة فى هذا الحزب وفى الثورة الفرنسية كلها .

ومن هؤلاء الذين أعدمهم « روبسبيير » زميله فى زعامة حزب اليعاقبة « جورج جاك دانتون » ، وهو مشهور باسمه الأخير « دانتون » ، وكان من أذكى وأقوى زعماء اليعاقبة ، وكان فى البداية مثل « روبسبيير » مؤمنا بالعنف وإسالة الدماء لحماية الثورة ، إلاّ أن « دانتون » عندما أحس أن موجة العنف قد بلغت حدودا غير مقبولة ، بدأ يميل إلى الاعتدال ، واخذ ينادى بشىء من ضبط النفس

داخل حزب « اليعاقبة » ، وهنا اعتقد « روبسبيير » أن زميله ورفيقه قد انحرف عن الموقف الثورى الصحيح فى نظره ، واتهم « دانتون » بالتآمر والخيانة . ونجح « روبسبيير » فى إصدار حكم بالإعدام على « دانتون » ، ولم يتردد « روبسبيير » الصلب الذى لا يعرف أى « حل وسط » فى تنفيذ الحكم بالإعدام على « دانتون » فى إبريل ١٧٩٤ ، حيث قدم رأس زميله السابق إلى المقصلة ، دون أن يعبأ بتاريخ دانتون اللامع فى الثورة الفرنسية ، ويكفى أنه كان قائد المظاهرة الكبرى التى قبضت على الملك لويس السادس عشر ، واقتحمت قصره ، ومزقت الحرس الامبراطورى وقضت على معظم افراده .

.كذلك أعدم « روبسبيير » زميلا آخر له فى زعامة حزب « اليعاقبة » ، وهو « ديمولان » ، وكان « ديمولان » هو الذى قاد جماهير باريس لتحطيم سجن « الباستيل » المشهور فى ١٤ يوليو ١٧٨٩ ، وهو اليوم الذى يعتبر البداية الحقيقية للثورة الفرنسية ، كما أنه اليوم الذى يعتبر حتى الآن عيدا وطنيا لفرنسا تحتفل به كل عام . ولم تكن تهمة « ديمولان » الحقيقية عند « روبسبيير » إلاّ أنه ألف كتابا دعا فيه الثورة وزعماءها للرجوع إلى فضائل الرحمة والاعتدال ، والكف عن تقديم رؤوس الناس إلى المقصلة . وقد اعتبر « روبسبيير » هذه الدعوة خيانة للثورة ، ودفاعا عن أعدائها ، وأرسل « ديمولان » إلى المقصلة فى ليلة واحدة مع « دانتون » .

كان هذا الاتجاه المتشدد العنيف من جانب « روبسبيير » سببا فى خوف جميع الثوار منه ، فلم يعد هناك أحد يستطيع أن يأمن على نفسه ، أو يتجنب المصير الدموى الذى يقضى على كل من يشك فيه « روبسبيير » أو يختلف معه . وانتهى الأمر بتدبير مؤامرة سريعة لاعتقاله فى ٢٧ يوليو سنة ١٧٩٤ ، ورغم أن بعض جماهير باريس قد قامت بإطلاق سراحه ، إلاّ أن المؤامرة ضده كانت شديدة الإحكام ، فتم اعتقاله مرة أخرى ، ثم أعدم يوم ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٤ ، وكان فى السادسة والثلاثين من عمره . وفى اليوم التالى لإعدامه تم إعدام ثمانين آخرين من أنصاره فى حزب « اليعاقبة » ، وبذلك انتهت سطوة هذا الحزب ، وانتهى عصر « روبسبيير » الذى سمى باسم « عصر الإرهاب » . ويعلق المؤرخ الأمريكى وليم لاتجر على نهاية « روبسبيير » فيقول :

« لقد اشترك فى تدبير هذا الانقلاب على روبسبيير عناصر مختلفة مع أعداء شخصيين له كانوا يعارضون محاولته جعل فرنسا جمهورية تقوم على الفضيلة ، وكان الهدف إزاحة روبسبيير لا وضع حد للإرهاب ، ولكن الرأى العام أرغم الجميع على اتباع سياسة تميل إلى الاعتدال » .

وهكذا انتهى حزب « اليعاقبة » وزعيمه الأكبر « روبسبيير » ، وقد تم إعدام « روبسبيير » بعد أقل من أربعة أشهر من إعدام زميليه « دانتون » و « ديمولان » نتيجة لاتهام « روبسبيير » لهما بالخيانة ، أى أن الوسيلة التى لجأ إليها « روبسبيير » فى القضاء على الآخرين ، كانت هى نفسها الوسيلة التى أدت إلى القضاء عليه .

وهكذا يتبين لنا بوضوح ، ومن خلال تجربة تاريخية كبيرة هى تجربة حزب « اليعاقبة » فى الثورة الفرنسية ، صحة تلك العبارة السابقة التى قالها الدوس هكسلى من « أن العنف يفضى إلى العنف ، وأن كل إصلاح ينهض على العنف يذهب به العنف » .

إن المبادىء الإنسانية النبيلة تحتاج إلى وسائل من نفس النوع لتحقيقها ، أما أن تكون هناك مبادىء عظيمة تسعى إلى تحقيق النجاح والإنتصار بوسائل غير مناسبة لها ، فذلك من الأمور التى تجر وراءها أسوأ النتائج والشرور . والحقيقة المؤلمة فى تاريخ الإنسان هى أن العنف كان ولايزال يلعب دورا أساسيا فى كل تغيير سياسى واجتماعى كبير ، وقليلون جدا هم هؤلاء الرجال العظام الذين جمعوا بين المبادىء العالية وابتعدوا تماما فى تطبيقهاوتحقيقها عن استخدام العنف . ولكن درس التاريخ الأكبر يقول لنا إن العنف يدمر كل شىء فى طريقه ، حتى أصحاب هذا العنف أنفسهم ، ورغم أن « اليعاقبة » وعلى رأسهم « روبسبيير » كانوا من أصحاب المبادىء النبيلة ، وكانوا هم أنفسهم من المخلصين المستعدين للتضحية والعمل البطولى من أجل المصلحة العامة ، إلاّ أن ما كان فيهم من الايمان بالعنف أصبح مثل السم الذى قضى عليهم جميعا ، وجعل فضائلهم الكبيرة موضع شك وريبة ، وانتهت حياتهم نهاية مأساوية سريعة ، دون أن يحققوا ما كانوا يحلمون به من العدل والخير لأنفسهم وللناس جميعا .



توماس بين
عاقل بين المجانين

عندما قامت الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ كان إسم « توماس بين » من أشهر الأسماء فى انجلترا وأمريكا ، ولذلك أحبه ثوار فرنسا ، ووجدوا فى شخصه وكتاباته إلهاما لهم ونورا يضىء طريقهم . أما «توماس بين » نفسه فكان قد ولد فى انجلترا سنة ١٧٣٧ ، وتعلم فى بعض مدارسها ، ثم بدأ حياته العملية وهو صبى صغير ، فاشتغل بقالا ومدرسا وبائعا للتبغ ، وعانى الكثير من ألوان الشقاء والتعب فى تلك المهن جميعا ، فقد كان الظلم الاجتماعى يسود المجتمع الانجليزى ، وكانت الطبقات الشعبية ، و « توماس بين » أحد أبنائها ،

لاتجد لقمة خبزها إلاّ بصعوبة بالغة ، ولم يكن القانون يقف فى صف الضعفاء ، بل كان على العكس من ذلك يقف فى صف الأغنياء والأقوياء والقادرين . ومن هنا كانت حياة « توماس بين » فى انجلترا هى حياة الفقر والتشرد وتعب القلب والجسم . ولكن « توماس بين » كان يحمل فى داخله شعلة من الموهبة العالية والإحساس العميق والذكاء الحاد . كان يقرأ كثيرا ، ويفكر فى أوضاع المجتمع والإنسان ، فلا يحس فى نفسه إلاّ بالغضب والرفض والاستنكار ، فالغنى يسحق الفقير ولا يعاونه أو يمد يده إليه ، والقوى يدوس بأقدامه الثقيلة كل الضعفاء حتى لو كانوا شرفاء وعاملين منتجين ، والأبيض يفرض سلطانه على الأسود بغير شرع أو قانون ، والبشر عموما يتصارعون صراعا خاليا من المعنى ، والدول تتحارب من أجل أن يسود شعب على شعب بالقوة والعنف ، وهذا كله يفسد الحياة ويجعل من الواقع الإنسانى شقاء فى شقاء ، بينما كان الواجب أن تكون هناك مساواة حقيقية بين البشر ، وأن يتعاون الناس لكى يجعلوا الحياة ممكنة وسعيدة وطيبة بالنسبة للجميع .

كانت هذه الأفكار تدور فى ذهن « توماس بين » ولايجد وسيلة للتعبير الصحيح عنها فى انجلترا ، تلك الامبراطورية التى يحكمها الارستقراطيون والأغنياء والتجار ، ويجمعون لحمايتها الجيوش الكبيرة القادرة التى تملأ البر والبحر فى خدمة هذه الامبراطورية الواسعة وسيادتها ، الذين يعيشون فى رفاهية ورخاء ولايعبأون بالأغلبية الساحقة فى بلادهم ، أو فى المستعمرات الخاضعة لهم .

ومن هنا فكر « توماس بين » فى الرحيل إلى أمريكا ، وكانت أمريكا فى ذلك الوقت ، وبالتحديد سنة ١٧٧٤ ، لاتزال مستعمرة انجليزية . وقد تصور « توماس بين » أنه سوف يجد فى أمريكا مناخا مختلفا عن ذلك المناخ السياسى والإجتماعى القاتم والسائد فى انجلترا ، ففى أمريكا محاولة لبناء عالم جديد على أساس من مبادىء الحرية والتقدم ، كما كان الكفاح فى أمريكا قد بدأ لتحقيق الاستقلال عن انجلترا ، ومثل هذا المناخ يناسب روح « توماس بين » الثائرة المتحررة .

وذهب « توماس بين » إلى أمريكا بالفعل ، وهناك التقى بجورج واشنطن و جيفرسون وغيرهما من دعاة الاستقلال والتحرر . وسرعان ما أدرك

الأمريكيون أنهم فى أمس الحاجة إلى رجل من طراز « بين » ، فقد كان « بين » كاتبا موهوبا وخطيبا من أعلى طراز ، وكان رجلا قادرا على أن يجمع الناس حول كلماته الساحرة الجريئة ، وأن يجعل من هذه الكلمات قوة محركة تلهب جماهير الشعب الأمريكى بالشوق إلى الحرية والاستقلال .

وأصدر « توماس بين » أول كتاب له فى أمريكا بعنوان « الوعى العام » ، وفى هذا الكتاب دعا الكاتب الثائر إلى استقلال أمريكا عن انجلترا ، وإقامة جمهورية جديدة حرة تقوم على المساواة بين الناس واحترام حقوق الإنسان . وكان هذا الكتاب نوعا من المنشور الثورى الذى تخاطفته الأيدى ، واجتمعت حوله العقول والقلوب ، وأصبحت دعوة الحرية والاستقلال على لسان الأغلبية الساحقة من أبناء أمريكا . وقد صدر هذا الكتاب فى يناير ١٧٧٦ ، ولم تكد تمضى على صدوره عدة شهور ، حتى تم إعلان الاستقلال الأمريكى فى يوليو سنة ١٧٧٦ ، واشتعلت الحرب بين أمريكا وانجلترا ، وكادت أمريكا تنهزم فى هذه الحرب وتفقد استقلالها الوليد .

وفى لحظات اليأس والخوف من الهزيمة أصدر « توماس بين » كتابا آخر رائعا اسمه « الأزمة » ، وكان هذا الكتاب يوزع على جيش أمريكا الذى يحارب من أجل التحرير ، وكانت هناك تعليمات من قيادة أمريكا العليا بقراءة صفحات الكتاب على الجنود المحاربين ، وكان لهذا الكتاب فعل السحر على نفوس المقاتلين الأمريكيين الذين يواجهون الانجليز ، وانتصرت أمريكا فى معركة الاستقلال بأسلحة كان فى مقدمتها كلمات « توماس بين » . ومن كلماته فى هذا الكتاب قوله « إن لدينا العزاء أنه عندما يزداد عنفوان الصراع يزداد مجد النصر ، وما نحصل عليه بثمن رخيص ننظر إليه دون اهتمام كبير ، أما الذى نحصل عليه بثمن غال فهو وحده الذى يستحق البقاء والتكريم والاهتمام » . ومن كلمات هذا الكتاب قول « بين » : « إنى لست عديم الايمان بحيث أتصور أن الله قد تنازل عن حكم الكون وترك مسئوليته للشياطين ، وحيث أننى لا أعتقد بذلك فإنى لا أستطيع أن أرى الحجج التى يتمكن بها ملك انجلترا من الصلاة للسماء طالبا منها أن تنصره ضدنا ، فإذا كان له الحق فى تلك الصلاة فإن القاتل وقاطع الطريق والمعتدى على البيوت الآمنة يكون لهم حق فى صلاة مشابهة » .

وهكذا انطلق « توماس بين » فى كتابه « الأزمة » الذى أستطاع أن يسرى كالسحر فى نفوس المقاتلين الأمريكان حتى تم لهم النصر وتحقق الاستقلال .

وبعد استقلال أمريكا عاد « توماس بين » إلى انجلترا . وكان بإمكانه أن يبقى فى أمريكا وينعم بنتائج كفاحه ، فيحتل مكانة عالية بين قادة أمريكا المستقلة المتحررة من سيطرة الانجليز ، ولكن « توماس بين » لم يكن يبحث عن السلطة أو النفوذ ، بل كان يقول : « حيث لاتوجد الحرية فهناك وطنى » . كان مقاتلا من أجل الحرية ، ويحب أن يكون موجودا حيث تحتاج الحرية إلى أنصار ومحاربين . وقد انهزمت انجلترا فى حرب الاستقلال الأمريكية ، ولكن انجلترا نفسها كانت بحاجة إلى معركة داخلية لتحرير الغالبية الشعبية فيها من طغيان التجار والأقلية الأرستقراطية التى تسيطر على كل شىء وتنعم بكل شىء . ولذلك اختار « توماس بين » بإرادته الحرة أن يغادر أمريكا ، حيث كان المستقبل الشخصى الزاهر ينتظره ، وقرر أن يعود إلى انجلترا ليشعل فيها ثورة جديدة ، تحرر الناس ، وتحقق المساواة ، وتحفظ كرامة الانسان ، وتعطى لكل صاحب حق نصيبه الصحيح من الأمن والطعام والمسكن والتعليم والعلاج والحرية والاطمئنان إلى المستقبل .

وكانت عودة « بين » إلى انجلترا سنة ١٧٨٧ أى قبل اشتعال الثورة الفرنسية بعامين اثنين ، وعندما قامت هذه الثورة سنة ١٧٨٩ كان اسم « بين » على لسان الثوار الفرنسيين فى كل مكان ، فقد كانوا يعرفون دوره فى ثورة الاستقلال الأمريكية ، وكانوا قد قرأوا كتاباته الجميلة فى الدفاع عن الحرية ، بل كان قائد الحرس الوطنى الجديد فى فرنسا وهو « لافييت » يعرفه معرفة شخصية لأن لافييت كان قد تطوع للحرب مع الأمريكان ضد الانجليز ، وخلال معارك الاستقلال تعرف لافييت على « توماس بين » ، وأحبه وقدر دوره الكبير فى إشعال الوجدان الأمريكى الحر من أجل الدفاع عن الاستقلال .

كان « بين » فى السنوات الأولى من الثورة الفرنسية يعيش فى انجلترا فى ظروف صعبة ، فالارستقراطية الإنجليزية الحاكمة تكرهه وتضيق به وتريد أن تمزقه وتقضى عليه ، وكانت هذه الارستقراطية الانجليزية الحاكمة تهاجم الثورة الفرنسية الوليدة وتعتبرها خروجا على النظام ودعوة إلى الفوضى وخطرا يهدد

أمن انجلترا ، بل ويهدد القارة الأوروبية كلها . ولكن « توماس بين » كان على العكس من ذلك يؤيد الثورة الفرنسية ويدعو إليها ويرى فيها فجرا جديدا للإنسانية ، مما زاد عداء الارستقراطية الانجليزية له وحربها عليه . ولم يسكت « بين » ولم يخف ، بل أصدر كتابه الشهير « حقوق الإنسان » يدافع فيه عن الثورة الفرنسية ، ويدعو إلى إشعال ثورة مشابهة فى انجلترا . وهنا وصل ضيق الارستقراطية الانجليزية به حدا عنيفا ، واتهمت « بين » بأنه خائن لبلاده وعدو لها وأن من الضرورى محاكمته وإعدامه . ولم يجد « بين » حلا مناسبا سوى الفرار إلى فرنسا الثائرة ، فهناك يستطيع أن يشارك فى الثورة الوليدة ، وأن يجد لأفكاره وآرائه الحرة بيئة تفهمها وتقدرها وتعمل بها .

وكانت فرنسا الثائرة ، من فرط إعجابها بشخصية « توماس بين » وأفكاره قد اختارته عضوا فى « الجمعية الوطنية » عن مقاطعة كاليه ، ولم يكن فى ذلك ما يثير الدهشة ، فالثورة الفرنسية قامت من أجل الإنسانية كلها ولم تقم من أجل فرنسا وحدها ، وكان زعماؤها يعتبرون أنفسهم دعاة للحرية والإخاء والمساواة فى العالم كله ، ولذلك لم يكن من الغريب أن يختاروا رجلا انجليزيا مثل « بين » ليكون بين زعماء الثورة وقادتها ، فهو مناضل إنسانى من أجل الأهداف التى قامت الثورة من أجلها ، ومن حقه أن يكون بين الصف الأول من الثورة وأن تنتفع الثورة بفكره وقلمه وخبرته الواسعة فى النضال من أجل الحرية .

وهرب « بين » من انجلترا إلى فرنسا سنة ١٧٩٢ ، وانضم بالفعل إلى « الجمعية الوطنية » التى تقود الثورة ، واستقبلته فرنسا استقبال الأبطال .

ولم تمض فترة طويلة حتى اصطدم بثوار فرنسا ، فقد كانت له آراء تختلف مع آرائهم ، خاصة بعد أن وقعت الثورة فى أيدى زعماء يشتعلون بالحماس والتطرف من أمثال « مارا » و « دانتون » و « روبسبيير » . فقد كان هؤلاء الزعماء لا يعرفون الرحمة مع أعداء الثورة ، وكان الحل عندهم هو الإطاحة بكل رأس مشكوك فيه عن طريق المقصلة ، ولذلك سالت الدماء أنهارا فى باريس وفى مختلف مدن فرنسا . وقد انزعج « توماس بين » أشد الانزعاج من هذا الأسلوب الدموى ، فما دامت الثورة قد نجحت واستولى أبناء الشعب على السلطة ، فإنه

لم يعد هناك مبرر لكل هذه الدماء ، ويكفى أن ينظم الشعب نفسه فى قوات مسلحة جديدة تواجه أعداء الثورة إذا ما حاولوا الهجوم على فرنسا ، وفى مثل هذه المعارك الوطنية يمكن للدماء أن تسيل دفاعا عن أرض الوطن ، أما فى الداخل فينبغى أن يسود القانون والنظام وأن تنتشر العدالة والرحمة بين الناس .

ولكن ثوار فرنسا كانوا أشبه بالمجانين ، فيكفى أن تكون هناك شبهة واحدة حول إنسان حتى يحملوه إلى المقصلة لتقطع رأسه . وقد تكون هذه الشبهة قائمة على الوشاية والتقارير الزائفة . ولكن جنون الثورة الفرنسية لم يكن يحتمل التأنى أو العدالة البطيئة ، فحماية الثورة تقتضى التضحية بكل شىء فى سبيل ذلك ، ولا مكان للعدل البطىء فى صفوف الثوار .

وكانت القضية الأساسية التى تصدى لها « توماس بين » هى قضية محاكمة الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت . فقد قرر الثوار إعدام الملك والملكة ، ولكن « بين » وقف فى شجاعة نادرة يطالب بشىء آخر هو التخلى عن فكرة الإعدام التى سوف تشوه وجه الثورة ، وتفتح بابا للعنف لانهاية له ، والثورة تستطيع أن تتخذ قرارات أكثر اعتدالا وحكمة وعدالة من قرار الإعدام . فالملك لويس السادس عشر ينبغى الحكم عليه بالنفى إلى أمريكا ، وهناك لن يكون له أى خطر ، وسوف يضطر للكفاح من أجل حياته بالعمل المنتج فى الزراعة أو التجارة أو الصناعة . وكانت وسائل المواصلات فى تلك الأيام صعبة وعسيرة ، وكان النفى إلى أمريكا معناه الابتعاد بصورة شبه نهائية عن أوروبا .. فأمريكا بعيدة جدا وهى لم تكن على وفاق مع انجلترا ، أكبر دولة أوروبية فى ذلك الحين .

هذا هو رأى « توماس بين » بالنسبة لمصير الملك لويس السادس عشر . وكانت هناك حجة قوية يرددها « بين » فى هذا المجال ، فالملك لويس السادس عشر ، كان قد اتخذ موقفا ايجابيا من ثورة الاستقلال الأمريكية ضد الانجليز ، ومد يد المساعدة إلى ثوار أمريكا ، وكان إعدام لويس السادس عشر سوف يثير « شماتة » ملك انجلترا فى ذلك الحين ، ولن تكون « الشماتة » فى ملك فرنسا المعزول فقط ، بل فى فرنسا كلها . ولا داعى لأن يتيح ثوار فرنسا فرصة الشماتة بهم عند أقوى أعدائهم وهم الانجليز .

أما بالنسبة للملكة مارى انطوانيت ، فقد دعا « توماس بين » إلى وضعها فى أحد المصانع لتصبح عاملة نسيج ، وفى ذلك عقوبة إنسانية مناسبة وهى لها معنى كبير ، فالملكة التى كانت تنعم بخيرات الشعب دون مجهود من أى نوع ، سوف تتحول إلى « عاملة منتجة » وتتعلم كيف يعيش الإنسان الحر من جهده وعمله الذى يفيد المجتمع والناس .

أما الطفل الصغير ولى العهد ، فقد اقترح « توماس بين » أن تقوم الثورة بتربيته تربية حديثة ، تجعل منه عندما يصل إلى سن الشباب مواطنا صالحا فى الجمهورية الفرنسية .

وكانت هذه الآراء التى طرحها « توماس بين » على الجمعية الفرنسية موضع دهشة واستنكار .

كان يدعو إلى الرحمة ، ويطالب بأن يكون للثورة الفرنسية وجه إنسانى متحضر . وكان يرى أن الثوار ينبغى ألا يلجأوا إلى العنف دون مبرر ، فإن العنف سوف يجر وراءه الويلات على الجميع . وكان يكره سفك الدماء ويرفض الفوضى ، ويحس بفطرته النبيلة أن أحكام الإعدام سوف تكون بداية لاستخدام هذا السلاح نفسه بين الثوار ضد بعضهم البعض ، لأن الخلافات لابد أن تنشأ فى صفوفهم ، ولا يجوز حلها إلاّ بالعقل والحكمة والابتعاد عن العنف كلما كان ذلك ممكنا ، ويكفى أن تلتفت الثورة إلى أعدائها الخارجيين ، وتستعد لمواجهتهم فى ميادين القتال بقلب واحد وموقف غير ممزق ، ومبادىء إنسانية سليمة ترفعها الثورة لتقنع الشعوب الأخرى بعدالة قضيتها وسلامة ما تسعى إليه من إقامة مجتمع جديد يخلو من الاستغلال والظلم والتفرقة بين الناس .

كان « توماس بين » عاقلا بين مجانين . فموقفه ينبع من الحكمة والخبرة الواسعة ، والذهن الحر الجبار الذى يرى كل آفاق المستقبل بوضوح وقوة .

ولكن قادة الثورة الفرنسية كانوا مليئين بالغضب والتوتر ، والرغبة فى القضاء العنيف العاجل على كل إنسان فاسد وكل فكرة خاطئة . وكان هؤلاء الثوار يرون أن استخدام العنف هو الحل الوحيد لكى تنجح الثورة وتستطيع تثبيت أقدامها

وتحقيق النصر المنشود . كان هؤلاء الثوار مشتعلين بالرغبة فى تدمير العالم القديم كله ليقيموا على أساسه بناء عالم جديد .

ولم يفهم الثوار حكمة « توماس بين » ونظرته البعيدة ، ووجدوا فيه رجلا انجليزيا معتدل المزاج والآراء فى عصر لامكان فيه للمعتدلين .

لقد قال عنه « مارا » زعيم جناح المتطرفين من الثوار : « هذا الرجل توماس بين ، هل يتصور أن الثورة مقطرة كالعطر من الزهور ؟! » .

واتخذت الثورة قرارها بإعدام الملك لويس السادس عشر والملكة مارى انطوانيت ، وتم تنفيذ حكم الإعدام . وبدأ الثوار يختلفون ، وكما توقع « بين » تماما ، فالعنف لاينتج عنه إلا مزيد من العنف ، وأخذت رؤوس الثوار أنفسهم تسقط واحدا بعد الآخر تحت المقصلة . وفى ظل الشكوك والوساوس الكثيرة التى انتشرت فى صفوف ثوار فرنسا تقرر اعتقال « توماس بين » . ودخل الرجل السجن وبقى فيه عشرة شهور .

وانتظر « توماس بين » أن تهب أمريكا لإنقاذه ، وكان الرئيس الأمريكى فى ذلك الحين هو زميله وصديقه القديم جورج واشنطن . ولكن أحدا لم يتحرك ، وظل « بين » فى السجن ينتظر الإعدام بين لحظة وأخرى . ولكن ثوار فرنسا كانوا مشغولين بتصفية بعضهم البعض .. مات « مارا » مقتولا فى حادث اغتيال ، ومات « دانتون » على المقصلة ، ثم تبعه إلى نفس المصير « سان جوست » و « روبسبيير » وهذا ما حذرهم منه « بين » ونبههم إليه عندما كان يدعوهم إلى التعقل والرحمة والاعتدال والبعد عن تلويث أيديهم بالدماء . ولكن صوت العقل الذى يمثله « بين » لم يجد من ينصت إليه وسط جنون الثورة واندفاعها الجارف إلى حل مشكلاتها وتصفية خلافاتها بقطع الرؤوس .

ونجا « توماس بين » من الإعدام بعد أن صفى الثوار أنفسهم بأيديهم . وخرج من السجن محطما يائسا حزين النفس مؤمنا بأن مبادىء الثورة العظيمة قد تلوثت بالدماء وانتزعت التعاطف والمحبة من القلوب . وعلى أشلاء الثورة الفرنسية ظهر « نابليون » الذى فرض على فرنسا « ديكتاتوريته » بحجة إعادة النظام والقانون إليها وتخليصها من الفوضى والإضطراب .

وذهب نابليون بنفسه إلى « بين » فى مسكنه المتواضع ، وطلب منه المشاركة فى اجتماع مع القيادات الفرنسية الجديدة لوضع خطة للمستقبل . وقال نابليون كلمات رائعة فى تقدير « توماس بين » .

وذهب « بين » بعد تردد إلى الاجتماع الذى كان يرأسه نابليون . وعرض نابليون مشروعه لغزو انجلترا وتحطيم حكومتها لإزالة أكبر وأقوى أعداء فرنسا والثورة الفرنسية فى ذلك الحين .

وهنا انطلق صوت « بين » فى شجاعة وقوة وتهذيب ، وقال لنابليون : « إن الشعب الإنجليزى سوف يمزق جيشك إربا إربا . وأظن أنك إذا غزوت انجلترا فلن يرجع رجل واحد من قواتك الغازية إلى فرنسا ».

ثم قال « بين » وهو مستمر فى توجيه حديثه إلى نابليون :

« إننا يجب أن ندرك ، أيها الجنرال ، أن فى انجلترا شيئين : الشعب والامبراطورية . أما الامبراطورية ففى الإمكان تحطيمها ، وأما الشعب فلا سبيل إلى قهره . إن القوة لن تؤدى إلى غير تضامنه واتحاده . ولو أنزلت جيشا على سواحل بلاده إذن لوجدت أفراد هذا الشعب يتناسون أنهم يعملون طوال النهار لقاء أجر هزيل ، ويذكرون شيئا واحدا هو أنهم انجليز .

إن الثورة ينبغى أن تنبثق من داخل نفوسهم ، لا من طريق الغزو الخارجى ، أما الامبراطورية فأمرها مختلف جدا. انشر لواء السلام ، وامنح المواطنين حق التصويت الدستورى . وأكد مبادىء الجمهورية ، وأعلنها فى طول أوروبا وعرضها . وأقر حقوق الإنسان ، وأجر رواتب معينة على الشيوخ والعجزة ، وخفض ساعات العمل . وزد أجور الفقراء ، وارفع كلمة الثورة فى الخافقين . عندئذ تجد الشعب الانجليزى يهب لنصرتك . إن انجلترا ممتنعة على الغزو ، ولكن فى ميسور المرء أن يكسبها بمثل هذا الأسلوب (« توم بين » تأليف هوارد فاست - ترجمة منير البعلبكى ص ٤٠٦ و ٤٠٧) .

ولم يقبل نابليون كلمات « توماس بين » بل اعتبره منحازا إلى الانجليز ، وأنه يتحدث كمواطن انجليزى . وهنا قال « بين » فى ثقة واطمئنان : أنا اتحدث بلسان

الانسانية . وعاد « توماس بين » إلى وحدته بعد أن نفض نابليون يده منه . ولم يبق أمام توماس بين إلاّ أن يسعى للعودة إلى أمريكا بعد أن قضى عشر سنوات من العذاب والتجارب المريرة .

وعاد « توماس بين » إلى أمريكا سنة ١٨٠٢ . وعاش سبع سنوات أخرى فى شيخوخة محطمة ويائسة ، وكان رفاقه فى حرب الاستقلال الأمريكية قد اعتبروه جزءا من الذكريات القديمة التى عفا عليها الزمن .

ومات الرجل العظيم سنة ١٨٠٩ وكان عمره آنذاك اثنين وسبعين عاما .

وكلما مر يوم منذ ذلك التاريخ إلى الآن تزداد قيمة « بين » وينتشر نوره بين الناس . فهو الداعية الأكبر فى العصر الحديث لحقوق الانسان . وهو الداعية الأكبر للإخاء بين البشر وإقامة مجتمع إنسانى واحد وحكومة عالمية لاتفرق بين أحد من الناس . وهو المؤمن بالعدالة والرحمة والذى يرفض استخدام العنف إلاّ فى الدفاع عن النفس . وهو الداعية إلى العقل وسيادته . وهو المواطن العالمى « توماس بين » أو « توم بين » كما اشتهر فى أنحاء الأرض .



قصيدة عربية فى مدح نابليون

من الشائع عند بعض الباحثين أن نابليون وحملته المشهورة على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١) لم يجدا أى تجاوب معنوى فى البلاد ، فلم تظهر قصيدة واحدة تتغنى بنابليون أو بالحملة الفرنسية . وهؤلاء الباحثون يتصورون أن النفاق له حدود ، وأن غزوة مثل غزوة نابليون لمصر لايمكن أن تجد شاعرا منافقا « مكشوف الوجه » يتغنى بقائد الغزوة الفرنسية أو يتغنى بالغزوة نفسها ، لأن الناس جميعا كانوا ضد نابليون وغزوته ، ولم يقف مع الحملة الفرنسية أحد على الإطلاق سوى « المعلم يعقوب » وهو رجل مرتزق عديم

الوطنية ، قام بتأليف جيش من المرتزقة الذين يشبهونه فى الأخلاق وانعدام الوطنية ، وكانت مهمة هذا الجيش المحدود هى معاونة الاحتلال الفرنسى لمصر على الاستقرار فى البلاد وتأديب الثائرين العصاة . وقد انتهى أمر « المعلم يعقوب » بالخروج من مصر مع الحملة الفرنسية التى اضطرت إلى الجلاء عن البلاد تحت ضغط الثورة الشعبية فى مصر والمعارضة الدولية للاحتلال الفرنسى . وقد مات « المعلم يعقوب » على السفينة التى كانت تحمله مع قوات الاحتلال إلى فرنسا ، فوضعوه فى برميل من النبيذ حتى لاتتعفن جثته ، إلى أن وصل إلى الأراضى الفرنسية فدفن بها ، ومازال قبره هناك إلى اليوم .

وحالة « المعلم يعقوب » مفهومة ، فهو مرتزق تنعدم لديه معانى الشرف والوطنية ، وكل ما كان يسعى إليه هو جمع الثروة والمال والنفوذ فى ظل الاحتلال الفرنسى لمصر .

وكان من المستبعد جدا أن يوجد أديب أو شاعر ، يتغنى بنابليون واحتلاله لمصر ، فقد كانت الحملة الفرنسية موضع السخط والغضب الشامل من المصريين ، ولو ظهر مثل هذا الشاعر المنافق لما استطاع أن يعيش بين أبناء الشعب . وهذا الشاعر بالطبع لم يكن يستطيع أن يدافع عن نفسه ، لأنه لم يكن يملك سلاحا أو جيشا يلتف حوله ، مثلما كان الأمر مع « المعلم يعقوب » ، والذى كان يحمى نفسه من غضب الشعب عن طريق المرتزقة المسلحين الذين جمعهم لمساندة الاحتلال الفرنسى لمصر . لم يكن من المعقول أن يظهر شاعر ينفعل بحب نابليون ، والشعب كله منفعل بكراهيته والاعتراض على احتلاله للبلاد .

ومع ذلك فقد ظهر هذا الشاعر ، ولم يتردد فى أن ينافق نابليون بقصيدة مدح من ثلاثين بيتا ، ولعل هذا الشاعر المنافق قد تصور أن نابليون سوف يستقر فى مصر والشرق العربى . وأنه سوف يحكم هذه البلاد إلى الأبد .

وقد أشار الدكتور إبراهيم عبده إلى هذه القصيدة ، ونشر جزءا منها فى كتابه « تاريخ الصحافة والطباعة خلال الحملة الفرنسية » .

ولم يكن بالإمكان أن نكتشف النص الكامل لهذه القصيدة العربية الوحيدة التى

قيلت في نفاق نابليون ومدحه لولا الجهد المثمر الممتاز الذى بذله الدكتور صلاح الدين البستانى ، عندما نشر سنة ١٩٧١ كتابا فى مجلدين بعنوان « صحف بونابرت فى مصر » . وفى هذين المجلدين ترجم الدكتور البستانى إلى العربية مجموعة كبيرة من أعداد الصحيفة الفرنسية التى كانت تصدر فى مصر خلال الحملة الفرنسية واسمها « لا ديكاد إجبسين » ويمكن ترجمتها باسم « العصور المصرية » ، وكانت هذه المجلة تضع تحت اسمها عبارة تقول إنها « جريدة للآداب والاقتصاد السياسى » . وفى هذه المجلة الهامة كان علماء الحملة الفرنسية ، وضباطها ينشرون تقاريرهم ومقالاتهم المختلفة ، فهذا مقال فى وصف نبات اكتشفه أحد العلماء فى مصر ، ومقال ثان عن « موقع مدينة منوف فى الدلتا » ، ومقال ثالث عن « فحص أعمدة أثرية فى القاهرة » ، ومقال رابع عن « مشروع إنشاء مؤسسة زراعية فى مصر » .

وهذا المقال الأخير بالذات كان تلخيصا لدراسة تقدم بها أحد الباحثين الفرنسيين إلى « المجمع المصرى » الذى أنشأته الحملة الفرنسية فى القاهرة ، ولشدة أهمية هذا البحث وطرافته وقوة دلالته على أهداف الحملة الفرنسية ، ولأنه ـ فيما أعلم ـ كان أول إشارة إلى فكرة زراعة القطن على نطاق واسع فى مصر . وهى الفكرة التى نفذها محمد على بعد ذلك .. لهذه الأسباب كلها أود أن انقل منه بعض الفقرات ، ثم أعود بعد ذلك إلى الشاعر الذى مدح نابليون بقصيدة عربية ، فكان بذلك هو « المنافق الأدبى العربى الوحيد » فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر .

نتوقف قليلا أمام التقرير الذى قدمه الباحث الفرنسى « تنكو » إلى المجمع العلمى المصرى ، والمنشور فى العدد الثالث من مجلة « لاديكاد إجبسين » عن « إنشاء مؤسسة زراعية فى مصر » .. يقول « المواطن تنكو » كما تسميه الجريدة فى بحثه :

« إن مناخ مصر يشبه مناخ أمريكا الجنوبية خلال فترة كبيرة من العام ، وهو مناسب لزراعة القطن وقصب السكر ونبات صبغة النيلة ، كما أنه من الممكن أن يكون أيضا صالحا لزراعة شجيرات البن ونباتات أخرى مهمة تتيح موارد جديدة لتنمية الثروة الوطنية .

« والواقع أن مصر تزرع فعلا القطن وقصب السكر ونبات صبغة النيلة ، ولكنها لم تحرز فى زراعتها إلا نجاحا محدودا ، الأمر الذى يتطلب الكثير من الجهود لتنمية زراعة هذه النباتات وتطويرها بحيث تصبح موردا جديدا قوى التأثير فى زيادة الثروة الزراعية » .

وتقول الجريدة الفرنسية الصادرة فى مصر بعد ذلك فى تلخيص مشروع المؤسسة الزراعية المقترحة :

« اقترح صاحب المشروع إسناد إدارة المؤسسة التى يدعو لانشائها إلى رجال ذوى خبرة تامة بالشئون الزراعية فى المناطق الحارة . وقال إن الأمر يتطلب من السلطات الفرنسية أن تزرع فى مصر ما تحتاج إليه فرنسا وما لايمكن زراعته فيها . ولابد من التنقل فى البلاد لاختيار أنسب المناطق لهذه الزراعة ، ولكن يجب تأجيل ذلك حتى يستتب الأمر فى مصر تماما .

« إن تربة مصر تعتبر من الأراضى الفريدة فى العالم حيث يسمح المناخ بزراعتها أربع مرات فى السنة ، فضلا عن إمكان زراعة كل محاصيل أركان المعمورة الأربعة . وليس هناك جزء من تراب العالم يمتاز بخصائص التربة المصرية » .

هذا هو التقرير الهام الذى نشرته جريدة الحملة الفرنسية فى مصر سنة ١٧٩٩ ، وقد عثرت عليه خلال بحثى عن قصيدة الشاعر المنافق الوحيد الذى مدح نابليون بقصيدة عربية ، ووجدت فى هذا التقرير كثيرا من الأفكار المثيرة التى تدعو إلى التأمل العميق فى أحوالنا الراهنة ، ووجدت من المفيد أن أعيد نشره على الرأى العام الآن .

وأعود بعد هذا الاستطراد إلى الشاعر المنافق وقصيدته عن نابليون ، فهذا الشاعر هو « نقولا الترك » ، وهو أديب ومؤرخ من لبنان ، ولد فى بلدة دير القمر سنة ١٧٦٣ ، وعندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ ترك لبنان واتجه إلى القاهرة ليعمل كاتبا ومترجما مع الفرنسيين وكان فى الخامسة والثلاثين من عمره . وظل يعمل مع الحملة الفرنسية حتى تقرر خروجها من مصر بعد ثلاث سنوات من احتلالها للبلاد ، فعاد إلى لبنان وبقى بها إلى أن توفى سنة ١٨٢٨

وهو فى الخامسة والستين ، وله كتاب معروف عن الحملة الفرنسية اسمه « ذكر تملك الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية » . وكان من الواضح أن « نقولا الترك » هذا هو أحد مرتزقة الأدب والثقافة والترجمة ، وأنه كان يبحث عن فرصة للعمل والنجاح والكسب ، دون أن يراعى فى سبيل ذلك أى مبادىء وطنية أو إنسانية ، فلم يكن من المعروفين بمثل هذه المبادىء ، ويذكر تاريخ « نقولا الترك » أنه رغم ميلاده فى لبنان كان من أصل يونانى . وبذلك فقد كان بانتمائه للبنان واليونان معا كارها ومعارضا للحكم التركى العثمانى المسيطر فى تلك الفترة على البلاد العربية بمافيها مصر ولبنان . وكان الحكم التركى العثمانى نوعا متخلفا من الاستعمار الذى لم يكن يعبأ بمصالح العرب ، ولم يكن يعامل المسيحيين ـ على وجه الخصوص ـ معاملة سليمة تقوم على مبادىء التسامح الإسلامى الصحيح . ومن هنا وجد « نقولا الترك » فى أعماقه ما يبرر له التعامل والتعاون مع الغزاة الوافدين من الغرب وهم الفرنسيون .

ولكن هذا الموقف كان خطأ فادحا ، لأن الصراع لم يكن بين العثمانيين والفرنسيين فقط ، بل كان هناك صراع آخر شديد الوضوح بين شعب مصر وبين الاحتلال الفرنسى ، وكان التعاون مع الحملة الفرنسية يعنى العداء لمصر وشعبها ومصالحها المختلفة .

فلا تفسير لموقف « نقولا الترك » إلا أنه كان رجلا مرتزقا يبحث عن العمل والمال والثروة والنفوذ ، والعذر الذى يمكن التماسه له فى موقفه هو عذر ضعيف إلى أبعد الحدود .

وخلال الحملة الفرنسية كلها لم نقرأ أن شاعرا عربيا فى مصر أو غيرها من الأقطار العربية قد مدح نابليون أو أثنى على غزوه لمصر ، وهنا يظهر الموقف الفريد « لنقولا الترك » ، فقد قام وحده بكتابة قصيدة من ثلاثين بيتا فى مدح نابليون ، وجاءت القصيدة ـ كما هو منتظر ـ فى منتهى السخف والركاكة فهى من « عيون الشعر الردىء » وكان ذلك طبيعيا ، فالشعر العربى عموما فى فترة الحملة الفرنسية « ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ » .. كان قد وصل إلى أقصى درجات الانحطاط الأدبى والفكرى ، وكان صوت الشعر فى هذا العصر خافتا لايكاد أحد يسمعه أو يتأثر به ، فقد كانت مصر والأقطار العربية كلها قد تدهورت تحت قبضة

الاستعمار العثمانى وسلطان المماليك ، وكان التدهور قد أصاب كل جوانب الحياة بما فيها الأدب والفكر والثقافة . ومن ناحية أخرى فمن الواضح أن « نقولا الترك » نفسه كان صاحب موهبة محدودة ضعيفة ، ومن أكبر أسباب الضعف بالنسبة لأى موهبة ، ألا يكون لصاحب هذه الموهبة ارتباط بقضية إنسانية أو قومية أو وطنية ، فالارتباط بالقضايا الكبيرة والإخلاص لها يشعل الموهبة ويوقد فيها نارا لاتنطفىء ، وعندما يجتمع ضعف الموهبة مع انعدام ارتباط صاحبها بأى قضية تكون النتيجة الطبيعية هى الأدب التافه الذى تفوح منه رائحة النفاق ، كما تفوح رائحة العفن من أى رمة .

ولقد كان الأمر واضحا أمام « نقولا الترك » ، فهناك احتلال فرنسى لمصر بقيادة نابليون ، وكان شعب مصر يحارب هذا الاحتلال ويقاومه ويعلن عليه الثورة مرة بعد أخرى ، حتى اضطر الفرنسيون للخروج من مصر بعد ثلاث سنوات . ولم يكن الأمر بحاجة إلى جهد كبير من « نقولا الترك » ليعرف أنه إذا ساعد الفرنسيين ووقف إلى جانبهم فهو إنما يعمل لحساب الجانب الظالم والمعتدى ، ولم يكن الرجل مضطرا إلى هذا الموقف ، فمن الواضح من تاريخه أنه كان يعرف العربية والفرنسية ، وأنه بحكم أصله اليونانى القريب يعرف اليونانية أيضا ، وهذه الإمكانيات فى ذلك العصر كانت تفتح له فرصا كريمة للحياة ، دون أن يضطر لبيع نفسه وضميره للحملة الفرنسية التى جاءت لاحتلال مصر والعدوان على شعبها واستثمار ثرواتها المختلفة لصالح فرنسا .

إن المسألة مسألة ضمير وطنى وإنسانى ، ولم يكن « نقولا الترك » يملك شيئا من هذا الضمير ، ومن هنا جاءت قصيدته فى مدح نابليون والحملة الفرنسية ، وكانت هى القصيدة العربية الوحيدة التى سجلها تاريخنا السياسى والأدبى فى هذا الموضوع .

وقد فرح الفرنسيون بهذه القصيدة ، وترجموها إلى اللغة الفرنسية ، وقام بترجمتها ج . ج . مارسيل ، ونشرتها جريدة الحملة الفرنسية فى مصر فى عددها الثانى الصادر سنة ١٨٠٠ ، وقالت المجلة الفرنسية إن القصيدة « لشاعر من بيروت هو نقولا الترك بن يوسف الاسطنبولى » . وقد نشر الدكتور صلاح الدين البستانى النص العربى للقصيدة فى الجزء الأول من كتاب « صحف بونابرت فى

مصر » الصفحات ٦٢ ـ ٦٤ . ونشر الدكتور البستانى مع القصيدة ترجمة للمقدمة الفرنسية التى قدمت بها جريدة الحملة الفرنسية ترجمتها للقصيدة العربية . ولأن القصيدة كانت هى القصيدة العربية الوحيدة التى قيلت فى نابليون والحملة الفرنسية ، فقد اعتبرها مترجمها إلى الفرنسية ج . ج . مارسيل ، عملا هاما ، وقال فى مقدمته للترجمة الفرنسية : « كان العرب القدماء يفتخرون بالانتصارات الحربية وكرم الضيافة والمواهب الأدبية لاسيما موهبة التفوق فى نظم الشعر الذى اتخذوه أداة للتفاخر بأنسابهم وشجاعتهم فى الحرب وانتصاراتهم فى ميادينها ، كما جعلوه تعبيرا عن أنسابهم وقبائلهم واعتزازهم بإكرام الضيف وإغاثة الملهوف ، وكان العرب القدامى يعقدون ندوات كسوق عكاظ وغيرها لإلقاء روائع قصائدهم على المحكمين وتلقى الجوائز عليها .

« وقد تمكن العرب بفضل فتوحاتهم من الاتصال بالإغريق والاطلاع على مؤلفاتهم مما أتاح لهم تطعيم الشعر العربى بالأفكار اليونانية والتنسيق الإغريقى ، ولكنهم احتفظوا لأشعارهم بطابعها العربى الأصيل .

« وشغف العرب بالشعر لم يخمد منذ أقدم العصور حتى الآن ، ويتحدث التاريخ عن النوابغ من الشعراء العرب فى مختلف العصور . ولايزال البدو فى الصحارى وعرب اليمن يفتخرون بشعرائهم كما يفتخرون بأبطالهم المحاربين . ولم تخفت ملكة الشعر عند العرب ولم تعرف التقليد ، ومؤرخو العرب يتوارثون جيلا بعد جيل تراث أجدادهم شعرا صافيا أصيلا لاتكلف فيه » .

تلك هى مقدمة الترجمة الفرنسية لقصيدة « نقولا الترك » فى مدح نابليون والحملة الفرنسية .

فماذا قال الشاعر المنافق فى قصيدته الركيكة التافهة ، والتى أتيح لها الخلود فى صفحات التاريخ ، لأنها كانت القصيدة الوحيدة التى قيلت فى تمجيد احتلال بغيض رفضه شعب مصر ؟

يبدأ الشاعر قصيدته بمدح فرنسا فيقول :

لله عصر قدرها

فلك السعادة فيه دار

وجمال كوكب دولة الـ
جيش الفرنساوى انار
ياحسنها من دولة
بالافتخار لها اشتهار

ثم ينتقلْ الشاعر بعد ذلك إلى مدح نابليون بونابرت فيقول :

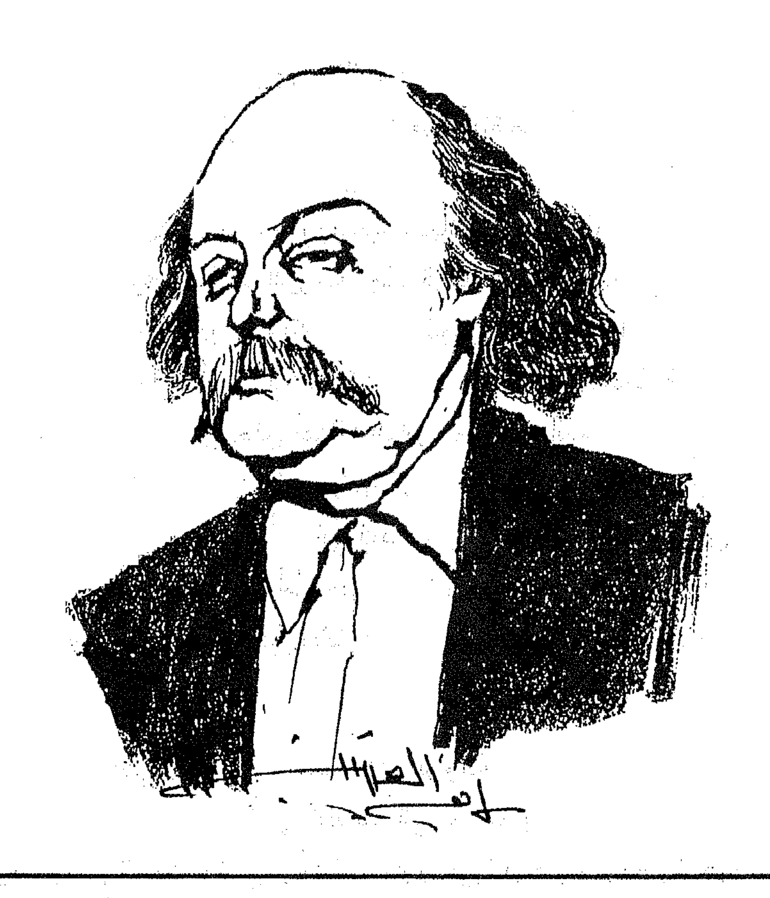
مقدامها ذو سطوة
تهدى الملوك له الوقار
الشهم بونابرتة
أسد الوغى ذو الاقتدار
من فاق قدرا وارتقى
أوج العلا وسما الفخار
مولى شديد البطش مَنْ
عاداه حلّ به الدمار
ملك تولى رتبة
خضعت لها القوم الكبار

ثم يقول الشاعر بعد ذلك « شامتا » بهزيمة المصريين أمام الحملة الفرنسية :

يوم يقال بحقه
لله درك من نهار
وتبددت تلك الـ
جماهير العديدة فى القفار
ورأوا المنية فوقهم
قد أمطرت جمرات نار
وتشتتت أمراؤها
وغدت بذل واحتقار
وفتوح مصر كان فى
صفر وأمر الله صار

وبيوم سبت فيه قد
ارخت تم الانتصار

وبهذه الطريقة الفجة فى التعبير تمضى قصيدة « نقولا الترك » فى تمجيد نابليون والفرنسيين وفى الشماتة بالمصريين ، مما يسجل لهذا الشاعر الردىء موقفا من مواقف « العار الأدبى » عليه وعلى تاريخه كله . وقد جاءت القصيدة إلى جانب ركاكتها وخلوها من أى إحساس صادق مليئة بالأخطاء اللغوية ، والأبيات المكسورة الخارجة على أوزان الشعر ، ولا عقوبة لمثل هذا الشاعر إلاّ أن يرتبط تاريخه فى هذه القصيدة بالهبوط الفنى والتدهور اللغوى ، والسخف الأدبى بالإضافة إلى خلو قصيدته وموقفه من أى إحساس إنسانى أو وطنى أو قومى . وها نحن نذكره الآن بعد مائتى سنة على التقريب من كتابة قصيدة باللعنة ، ونقدمه للرأى العام كمثال للنفاق الأدبى الرخيص الذى لايخلو منه عصر من العصور .



فضيحة فى الأكاديمية

كان الأديب الفرنسى الكبير « جوستاف فلوبير » (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) ظاهرة من الظواهر الأدبية والانسانية الفريدة فى عصره ، بل وفى العصور التالية . أما موهبته الأدبية فقد كانت لافتة للأنظار منذ بداياته الأولى حتى وصلت سمعته إلى أعلى درجات الشهرة والنجاح بعد أن أصدر روايته الكبيرة المعروفة « مدام بوفارى » ، وقد أثارت هذه الرواية عند صدورها ضجة عالية فى المجتمع الفرنسى كله ، وليس فى أوساطه الأدبية فقط ، فقد اتهمه البعض بأنه فى هذه الرواية يدعو إلى الانحلال وفساد الأخلاق ، فالرواية تصور

شخصية زوجة هى « مدام بوفارى » كانت تشعر بالملل من حياتها الزوجية ، وكانت تحس أن زوجها لايحقق لها ما تحلم به من حياة ملتهبة مليئة بالنشوة حافلة بالمفاجآت المثيرة ، فحياتها مع زوجها تقوم على الرتابة والتكرار ، وزوجها نفسه رجل تقليدى عادى يميل إلى الهدوء ، ويحب الحياة الروتينية المطمئنة الخالية من أى إثارة أو عنف ، وقد ضاقت الزوجة بهذه الحياة ، واندفعت إلى البحث عن النشوة والبهجة فى حب جديد ، ولكن حبيبها الجديد كان خادعا ، فقضى معها لحظات ممتعة ثم تركها لشأنها لأنه لم يكن يحبها بل كان يشتهيها فقط ، ولذلك فقد سئم من علاقته بها بعد أن حقق أهدافه العابرة من هذه العلاقة ، وهكذا فشلت « مدام بوفارى » فى الخروج من ملل حياتها الزوجية ، إلى ما كانت تحن إليه من حب حقيقى مشتعل ، وانتهى بها الأمر إلى التدهور والانحراف والانتقال من علاقة عابرة إلى علاقة عابرة أخرى ، وأصبحت امرأة رخيصة ، وقد أدى بها عجزها عن الاحساس بأى معنى لحياتها إلى الانتحار فى آخر الأمر والخلاص من الحياة خلاصا نهائيا .

واشتد الهجوم على « فلوبير » بسبب هذه الرواية ، وتم تقديمه إلى المحاكمة بتهمة إفساد الأخلاق العامة ، وانتهى القضاء إلى تبرئته بعد أن قضى فى السجن فترة قصيرة ، ولكن المحكمة التى برأته لم تتهاون فى تأنيبه وتوبيخه وتوجيه اللوم اليه ، بسبب هذا الأدب الفاضح الذى يكتبه ، والذى ينبغى أن يبتعد عنه ، حتى لايكون عاملا من عوامل الانهيار الأخلاقى فى المجتمع . وتنتهى العاصفة ، وتمر السنوات بعد السنوات ، لتصبح « مدام بوفارى » الآن إحدى روائع الأدب الفرنسى ، بل إحدى روائع الأدب الروائى العالمى كله ، وتصبح هذه الرواية بالتحديد هى سبب شهرة « فلوبير » ، وسبب مجده الأدبى الذى يتجدد جيلا بعد جيل فى فرنسا وفى أنحاء العالم المحب للفن والأدب والثقافة الرفيعة .

وتكشف لنا هذه الحادثة عن حقيقة واضحة وهى أن الأذواق تتغير ، ومعايير الناس تختلف من عصر إلى عصر ، وأن الفنان فى معظم الأحوال يكون سابقا لعصره وغير مفهوم بصورة صحيحة فى هذا العصر . فقد أجمعت الآراء بعد هدوء العاصفة الأولى حول رواية « مدام بوفارى » أن الرواية لم تكن دعوة للانحراف ، بقدر ما كانت كشفا له وتحليلا لأسبابه وتصويرا للمأساة التى ينتهى

إليها أى منحرف ، فقد شقيت « مدام بوفارى » بانحرافها ولم تجد فيه المتعة التى كانت تنتظرها وتحن إليها ، ثم انتهى أمرها إلى اليأس من الحياة والتخلص منها بالانتحار .

ونعود إلى « فلوبير » نفسه لنجد أنه كان شخصية عجيبة ، كان أبوه كبيرا للجراحين فى مستشفى مدينة روان الفرنسية ، وكان هذا الأب يحتقر الأدب والفن ، ويرى فى الاشتغال بهما مهانة اجتماعية واضحة ، وكان يقول لابنه « جوستاف فلوبير » : « نحن آل فلوبير أسرة محترمة ولانحب أن يكون بيننا أفاقون ولا شعراء » ... وكان هذا الأب يريد لابنه أن يكون طبيبا ، ولكن الابن رفض هذا الأمر تماما ، ولم يكن لديه أى استعداد لأن يكرر حياة أبيه ، فقال له أبوه : « إذا لم تشأ أن تكون طبيبا فلتكن محاميا .. على الأقل » ، وأرسله إلى باريس لدراسة القانون ، ولكنه لم يحقق هذا الهدف المتواضع الذى طلب منه والده أن يحققه ، بل انصرف إلى دراسة الأدب وقراءة الرواية والشعر والمسرح وسائر ألوان الفنون المختلفة ، وكان يقول للجميع منذ صباه الأول : « إنى لأنوى أن أكون أديبا ولا شىء غير ذلك » .

وقد ظل « فلوبير » مخلصا لهدفه الذى حدده لنفسه ، فلم يعمل أى عمل آخر ، بل لم يفكر فى الزواج طيلة حياته . وقد أصبح « فلوبير » كما قال عنه أحد الذين درسوا شخصيته « أكثر الرجال عزلة فى أوروبا كلها »، وكان جيرانه يقولون عنه : « إنه رجل عجوز خشن يبغض بنى الإنسان » . ويحدد الكاتبان هنرى و دانالى توماس برنامج حياته اليومى بعد أن اتخذ قراره النهائى بالتفرغ للأدب والبعد عن باريس واعتزال الحياة العامة تماما فى بيته على نهر السين بمدينة كرواست ، فيقول الكاتبان عن هذا البرنامج اليومى لفلوبير ، كما جاء فى كتاب « أعلام الفن القصصى ـ ترجمة عثمان نوية » :

« منزل قديم متين ، ورجل عجوز متين ، ذو عادات مستقرة متينة ، يستيقظ فى الساعة العاشرة بانتظام ، فيقرأ خطاباته وأوراقه ، ويتناول فطورا خفيفا فى الحادية عشرة ، ثم يسير متنزها على ضفة النهر ، ويعود فى منتصف الساعة الواحدة ، فيجلس للعمل حتى الساعة السابعة ، ثم يتناول عشاءه ، ويتنزه نزهة

قصيرة ، ويعود إلى مكتبه ليقضى فى العمل فترة أخرى تستمر حتى بعد منتصف الليل . وكانت طريقته فى الكتابة مضنية وشاقة ، فقد كان كثيرا ما يهب يوما بأكمله لينقح عبارة واحدة ، وهو يتجنب ما أمكن تكرار لفظ بعينه فى نفس الصفحة ويقول : إن من الخطأ إيذاء أذن القارىء كما أنه من الخطأ إيذاء قلبه » .

ورغم أن « فلوبير » كان يرفض الزواج تماما ، حتى لاينشغل عن قضيته الوحيدة التى أخلص لها كل الإخلاص ، وهى قضية الأدب والفن ، فإنه مع ذلك قد عاش قصة حب مع لويز كوليه التى كانت امرأة رائعة الجمال ، وكانت فاتنة من فاتنات عصرها ، وكانت فى نفس الوقت شاعرة رديئة ، لم تستطع أن تكتب فى حياتها قصيدة واحدة لها قيمة ، ومع ذلك فقد استغلت جمالها وتأثير هذا الجمال لتنال العديد من الجوائز عن قصائدها الرديئة . وقد استطاعت قبل أن تبدأ علاقتها العاطفية مع « فلوبير » أن تستولى على قلب كوزان ، عضو الأكاديمية الفرنسية البارز ، وكان كوزان قبل أن يتعرف على هذه المرأة رجلا حريصا على سمعته بعيدا عن مواطن الشبهات فى سلوكه ، إلاّ أنه لم يستطع أن يقاوم جمال هذه المرأة الساحرة ، التى أرادت أن تستغل مركزه ونفوذه ، لتحقيق بعض ما كانت تحلم به من نجاح أدبى لاتستحقه ، فموهبتها الأدبية ضعيفة ومحدودة ، ولكنها كانت تشعر أن النجاح الأدبى ضرورى لها لإكمال سطوتها ونفوذها فى الحياة الاجتماعية ، بحيث تسحر الناس بجمالها وترفع قيمتها المعنوية عن طريق المكانة الأدبية . وسقط عضو الاكاديمية الفرنسية البارز ، كوزان ، فى مصيدة المرأة الحسناء ، فكان يستخدم نفوذه لإعطائها الجائزة الأولى فى سائر مسابقات الأكاديمية ، وكان سائر أعضاء الاكاديمية يوافقونه على رأيه خانعين .

وكانت هذه المرأة قد تعرفت حديثا على « فلوبير » وجاء موعد إحدى مسابقات الاكاديمية ولم تكن قد استطاعت أن تكتب القصيدة التى يمكن أن تشارك بها فى هذه المناسبة ، ولم يبق على نهاية موعد المسابقة سوى يوم واحد ، فلجأت إلى « فلوبير » وصديقه بوييه ، ويحدثنا برتون راسكو عما [illegible] بعد ذلك فى كتابه « عمالقة الأدب : الجزء الثالث - ترجمة درينى خشبة وقاسم جودة » فيقول :
« أغلقت كوليه الحسناء باب إحدى الغرف بمنزلها على فلوبير وصاحبه بعد أن زودتهما بالطباق والنبيذ ، وأخبرتهما أنها لن تدعهما يخرجان حتى يفرغا من نظم

قصيدتها التي سوف تتقدم بها للفوز بالجائزة ، وانتصف الليل ولم يكونا قد كتبا بيتا واحدا ، وهنا يتناول واحد منهما ، بعد أن نال منه اليأس مناله ، مجلدا من أشعار لامرتين ، وأملى منه حوالى مائتي بيت جزافا ، بينما كان زميله يكتب ما يملى عليه . وتقدمت مدام كوليه بسلامة نية بهذا الشعر المختار من ديوان لامرتين إلى المسابقة وقد وقعت عليه باسمها ، وقد منحتها الاكاديمية جائزتها بفضل نفوذ صديقها كوزان عضو الأكاديمية ، والتزمت الاكاديمية بالنشر ثم طبعت القصيدة على مألوف عادتها طبعة فاخرة باسم مدام كوليه » .

هذه هى القصة التى وقعت فى بداية علاقة « فلوبير » بمدام كوليه ، وكانت هذه القصة فضيحة مدوية للاكاديمية الفرنسية ، تحدثت عنها الصحف والأوساط الأدبية لفترة طويلة . ولقد دخلت هذه القصة بعد ذلك إلى صفحات الكتب التى تؤرخ للحياة الأدبية فى فرنسا فى القرن الماضى ، وأصبحت هذه القصة أو الفضيحة الأدبية المدوية ، واقعة من الوقائع الحية التى تثبت أن « المؤسسات الرفيعة » مثل الأكاديمية الفرنسية ومايشبهها ، ليست فوق الشبهات ، بل أنها أحيانا تنساق إلى مجاملات كثيرة تؤدى بها إلى التورط فى اختيارات خاطئة وانحرافات أدبية فاحشة ، بل إن بعض أعضاء الأكاديمية البارزين قد أثبتوا أنهم ليسوا على علم حقيقى بالأدب والثقافة التى يمثلونها ، لأن شعر لامرتين فى فرنسا ، وخاصة فى القرن الماضى كان شعرا شائعا معروفا منتشرا بين الجميع ، حتى بين أصحاب الثقافات المتوسطة ، فقد كان لامرتين أميرا من أمراء الشعر الفرنسى فى القرن الماضى ، وكانت دواوينه موجودة فى كل مكان ومعروفة على كل لسان .

على أن الغريب فى الأمر أن هذه الحادثة ، أو الفضيحة كانت بداية لعلاقة طويلة بين مدام كوليه و « فلوبير » وكانت هذه العلاقة هى علاقة الحب الوحيدة الكبيرة فى حياة « فلوبير » ، وقد أعطت مدام كوليه قلبها لـ « فلوبير » ، وظنت على الدوام أنها تقدم اليه شيئا ثمينا يتمناه الكثيرون ويبذلون من أجل الوصول اليه جهودا كبيرة ، ولاشك أن « فلوبير » كان يحب مدام كوليه هو أيضا ، ولكنه كان يحبها بطريقته وأسلوبه ، فهو لايفكر فى الزواج ولا يريد أن يسمح لأحد باقتحام عزلته وانفراده بنفسه من أجل الكتابة والتفكير والابداع ، لقد كان الفن هو الشيء الأكبر الذى يشغله ويملأ حياته ويدفعه إلى عدم الاندماج مع الآخرين ، ولذلك فإنه

فرض على حبيبته أن تبقى بعيدة عنه فى باريس يزورها بين الحين والحين ، وبقى هو مقيما فى بيته بمدينة كرواست البعيدة عن باريس وعن ضجيج الحياة وصخب المجتمعات ، وطلبت منه حبيبته الزواج فرفض ذلك رفضا قاطعا وكان يقول لها : « إنه ليس هذا الشخص الذى يصلح بحال من الأحوال أن يعيش مع أحد ، وأنه لن يتزوج منها أو من غيرها فى أى يوم من الأيام » . وتطور الموقف بين الحبيبين ، فظنت مدام كوليه أن « فلوبير » يهرب منها لأنه يحب أمرأة أخرى ، وأخذت الغيرة تأكل قلبها من كل شىء فى حياة « فلوبير » حتى لقد كتب لها فى إحدى رسائله « ... هل معقول أنك تلومينني حتى على حبى البرىء الذى أشعر به نحو الكرسى الذى أجلس عليه ؟ إننى لأحسب أن الغيرة تنتابك إذا أخطأت مرة فحدثتك عن حذائى » .

وقد تحطمت هذه العلاقة العاطفية بين مدام كوليه وبين « فلوبير » وكان ذلك أمرا طبيعيا ، فالمرأة المحبة تريد أن تستأثر بحبيبها لنفسها ، ولكن هذا الحبيب كان من نوع خاص ، فهو لايريد أن يضحى أبدا باستقلاله وقدرته عل الانفراد بنفسه ، وهو لايعشق شيئا فى هذه الحياة أكثر من عشقه لفنه ، وهو القائل عن نفسه : « لم يحدث قط أنى احتضنت أمرأة حقا ، ولا مدام كوليه نفسها ، وكل ما أنضمت عليه ذراعاى إنما كان خيال الحب وليس الحب نفسه » .

وهكذا انتهت قصة الحب العجيبة هذه بين أديب فرنسا الكبير « فلوبير » وبين مدام كوليه .. المرأة الجميلة الساحرة التى أستطاعت أن تسيطر على الاكاديمية الفرنسية لسنوات طويلة بفضل جمالها العجيب ، رغم أنها كانت أديبة رديئة ضعيفة الموهبة ، وقد أوقعت هذه المرأة الأكاديمية الفرنسية فى فضيحة أدبية مدوية هى من أكبر فضائح التاريخ الأدبى فى فرنسا ، وذلك عندما نالت جائزة أدبية عن أشعار منقولة من ديوان لامرتين ، ولم تكن هى تعرف أن الأشعار التى تقدمت بها مسروقة ، ولم تكتشف الأكاديمية حقيقة السرقة الأدبية الفاضحة بفضل غفلة أعضاء الاكاديمية واستسلامهم لجمال المرأة الساحرة .

ولكن كل الجمال الساحر لم ينفع مدام كوليه ، أمام إصرار« فلوبير » على أن يضحى بكل شىء من أجل فنه العظيم .



فى البدء كانت السعادة

من الصراعات المشهورة فى تاريخ الأدب العالمى ذلك الصراع الكبير الذى كان قائماً بين الأديب الروسى العظيم « ليو تولستوى » صاحب رواية « الحرب والسلام » المعروفة فى كل لغات الدنيا ، وبين زوجته « صوفيا اندريانينا » فقد كانت مأساة العلاقة بين الفنان العبقرى وزوجته موضوعا للدراسة والبحث لم يتوقف إلى اليوم . وقد مات « تولستوى » سنة ١٩١٠ فى الثانية والثمانين من عمره . وبقى أدبه الخالد موضوعاً للبحث والدراسة إلى الآن . وكان هناك اهتمام آخر شغل الباحثين ، هو الاهتمام بذلك الصراع العجيب الذى نشأ بين « تولستوى » وزوجته صوفيا .

وتبدأ قصة « تولستوى » مع زوجته بداية سعيدة ، فقد تزوجها بعد حب مشتعل ، وكانت فى السابعة عشرة من عمرها بينما كان هو فى الرابعة والثلاثين وكان « تولستوى » نفسه عند الزواج قد بلغ درجة عالية من الشهرة والنجاح الأدبى ، ولكنه كان يشعر بحق أن الله الذى منحه الموهبة وجمال العقل والشعور قد حرمه تماما من جمال الوجه ، ويصفه أحد مؤرخيه فيقول : « كان وجهه دميما كوجه القرد ، فعيناه صغيرتان غائرتان وجبينه منخفض ، وشفتاه غليظتان ، وأنفه ضخم يشبه البصلة ، وأذناه غاية فى الضخامة » ، وينهى هذا المؤرخ تعليقه على دمامة « تولستوى » بقوله : « .. كان له عقل بارع الجمال فى جسم بالغ الدمامة » .

وقد فكر « تولستوى » فى شبابه الأول فى الانتحار ، تحت وطأة إحساسه بدمامته الشديدة ، ولكن دوافع الحياة والتفاؤل فى داخله لم تكن قليلة ، فتغلب حبه للحياة على تفكيره فى الموت والأنتحار . ومن العوامل الايجابية التى جعلته يتعلق بالحياة هذا النجاح الأدبى المبكر الذى حققه منذ البداية ، فأصبح الناس يقرأون له بحب وشغف ، وأصبح مشهوراً يحيط به المعجبون فى كل مكان . ومن ناحية أخرى فقد كان قوياً متين البنيان ، يفيض بالصحة والعافية ، ومهما كان الوجه قبيحا فإن الصحة لها جمالها الخاص ، لأن الصحة تمنح الوجه حيوية شديدة ، فتخفف كثيرا من آثار القبح فيه ، وعلى العكس من ذلك إذا كان الوجه جميلا وعليلا ، فإن ضعف الصحة يطمس الكثير من ملامح الوجه الجميل ، بما يصاحب الضعف من تعب وإرهاق وذبول ، بالإضافة إلى ذلك كله كان « تولستوى » غنيا ، وقد ورث عن أسرته ضيعة كبيرة أصبحت مشهورة بفضل « تولستوى » واسمها ضيعة ياسنايا يولنايا ، وكانت هذه الضيعة الواسعة ذات الأراضى الشاسعة بما فوقها من الفلاحين ملكا لتولستوى الذى ورثها عن آبائه وأجداده . ولاشك أن هذا الثراء الكبير الذى جعل من الفنان العبقرى واحداً من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع ، كان له تأثير آخر فى نفس « تولستوى » ، حيث منحه الثراء شعوراً بالقوة وثقة فى النفس ، وعوضه كثيراً عما كان يشعر به من قبح شديد .

على أن أكبر العوامل التى تحولت بنفسية « تولستوى » من اليأس إلى الأمل ، ومن التفكير فى الانتحار إلى الاقبال على الحياة ، كانت هى شخصية « تولستوى » المليئة بالذكاء والعذوبة والمشاعر الحارة المتدفقة ، مما كان يجعله مع الجميع

شخصاً ساحراً بالغ الجاذبية ، ولذلك كان الناس عندما يلتقون به ويتعاملون معه ويستمعون إليه سرعان ما ينسون تماما وجهه القبيح ، ويحسون أنهم أمام واحد من أجمل الناس فى هذه الدنيا .

وهكذا استطاع « تولستوى » أن يخطف إعجاب زوجته الحسناء صوفيا بعد جهد غير كبير ، فقد فتنها كل شىء فيه ولم تشعر لحظة واحدة بأنها يمكن أن تخسر شيئا إذا تزوجت من هذا العبقرى المحبوب ، صاحب الشخصية الفاتنة والوجه الدميم .

ومرت سنوات طويلة بعد الزواج كانت كلها مليئة بالسعادة النادرة التى كان يتغنى بها الزوجان معاً . فقد كانا يشعران بالنشوة والفرح ، وكانت حياتهما تنتقل من نجاح إلى نجاح ، ومن تألق إلى مزيد من التألق ، خاصة بعد أن أصبح الزوج واحداً من الرجال المعدودين فى عصره ، وأصبح شخصية عالمية مرموقة يقصدها الناس من كل بلاد الدنيا طلباً للتعرف عليه والتعلم منه وفهم أفكاره الانسانية العظيمة .

وكانت الزوجة صوفيا كما قال عنها « تولستوى » فى أيام السعادة زوجة مثالية ، فقد ولدت له ثلاثة عشر طفلا ، مات منهم ثلاثة ، وكان « تولستوى » مثل سائر الفلاحين يحب الأطفال وكثرة الإنجاب . ومن ناحية أخرى كانت صوفيا الزوجة متعلمة مثقفة تجيد عدة لغات غير الروسية ، شأنها فى ذلك شأن بنات الارستقراطية الأوروبية فى ذلك الحين (أواسط القرن الماضى) ، فقد كانت تعرف الفرنسية والألمانية والايطالية والانجليزية ، وكانت هذه الزوجة المثقفة المتخرجة من الجامعة قد نشرت باسمها ومن تأليفها بعض الكتب الأدبية . وبعد زواجها من « تولستوى » استفادت من إمكاناتها الثقافية فى مساعدة زوجها العبقرى الفنان الذى قال عنها إنها « الزوجة المناسبة تماماً للكاتب » ، فقد كان يملى عليها مؤلفاته ، وكانت من جانبها تبذل جهداً كبيراً لنسخ مسوداته وإعدادها للنشر ، وكان « تولستوى » يستشيرها فى تصويره لبعض شخصياته النسائية ، فكانت تقدم له ملاحظات دقيقة وثمينة يستفيد منها فائدة واسعة فى رواياته المختلفة .

واستمر الأمر بين الزوجين على هذه الصورة السعيدة من التفاهم والتعاون

والنشوة المشتركة . ومضت الحياة بهما فى جو من البهجة لمدة تقرب من أربعين عاماً متواصلة .

ثم جاءت المأساة بعد أن وصل « تولستوى » إلى السبعين ووصلت زوجته صوفيا إلى الثالثة والخمسين .

كان هناك فى هذا العمر المتقدم الذى وصل إليه « تولستوى » تحول كبير فى حياته الروحية ونفسيته وأفكاره ، ولم تقبل الزوجة هذا التحول وعارضته معارضة عنيفة حادة .

أما التحول عند « تولستوى » فقد كانت له بذوره القديمة ، ولكنها لم تصبح موقفا كاملا حاداً إلا فى سن السبعين . لقد كان فى شبابه يريد أن يوزع ما يملكه من الأراضى الشاسعة على الفلاحين مقابل أقساط سنوية صغيرة . ولكن الفلاحين ظنوا أن « تولستوى » يخدعهم ويريد بهم الشر لأنهم لم يتعودوا من « الأسياد » فى ذلك العصر أى نوع من التصرفات الرحيمة والمواقف الانسانية . وكان « تولستوى » عندما فكر فى هذا المشروع لأول مرة غير متزوج ، وانتهى به الرأى إلى العدول عن المشروع . ولكنه عندما وصل إلى السبعين وأصبح صاحب أسرة كبيرة أصر من جديد على تنفيذ المشروع .

كان يحلم بتوزيع ثروته كلها على الفلاحين . وكان يرى أن العمل اليدوى هو الشىء الوحيد الذى له قيمة فى هذه الحياة ، أما الأدب والفن وما إلى ذلك فهى أمور لانفع منها ولا أهمية لها . ومن أقواله فى تلك المرحلة : « إن أى جزمجى أنفع للحياة والانسانية من شكسبير » !!

وبدأ تولستوى يعمل بيديه ، فكان يرتق أحذيته القديمة بنفسه بل كان يصنع الأحذية أحياناً ، وكان يعمل فى الأرض مع الفلاحين ، وقرر التنازل عن كل أملاكه لهم ، وهنا عارضته زوجته أشد المعارضة ، وبدأت تخشى على مستقبلها ومستقبل أولادها من هذا الزوج العبقرى الذى أصابه الجنون فى نظرها وأراد أن يدمر نفسه وأسرته .

كانت هذه النزعة الانسانية الفياضة عند « تولستوى » قد سيطرت عليه

تماماً ، وأصبح يحلم بأن يعيش مثل الناس العاديين الفقراء ويتعذب مثلهم ويكسب قوته بيديه كما يفعل الآخرون ، ويترك القصور الفاخرة التى يسكنها هو وأسرته ليقيم فى الأكواخ الفقيرة الخشنة التي يعيش فيها الفقراء . والتف حوله عدد من تلاميذه الذين آمنوا برسالته وأخذوا يساعدونه على تنفيذ أفكاره ، ودارت معركة طاحنة بين هؤلاء التلاميذ وبين صوفيا زوجة « تولستوى » ، فقد كانت تتهم تلاميذ زوجها هؤلاء بأنهم منافقون لصوص يريدون السطو على ثروة زوجها العبقرى ، والقضاء عليه للاستفادة مما يمكن أن يتركه لهم بعد أن أصابته رغبة عاصفة فى الاستغناء عن كل ما يملك .

وبدأت صوفيا تكتب مذكراتها الخاصة تشكو فيها من هذا الزوج المجنون ومن تلاميذه المنتفعين به على حسابها وحساب أولادها وسعادتها العائلية . وتحول بيت « تولستوى » إلى جحيم ، وأخذت الزوجة تقاتل بكل قوتها لحماية ممتلكات الأسرة وانتزاع زوجها من الحالة التى اندفع إليها ، ومن إصراره على العمل بيديه ولبس الملابس الخشنة والنوم فى أكواخ الفلاحين والمحاولات المستمرة لتسليم كل ما يملكه بغير مقابل للآخرين .

وأمام هذا الصراع الحاد العنيف هرب « تولستوى » من بيته ذات يوم ، وركب قطاراً بدون هدف واضح ، وأصر على أن يركب فى عربة الدرجة الثالثة المزدحمة الملوثة الهواء مما كان خطراً كبيراً على صحته وقد تجاوز الثمانين من عمره ، وبالفعل فقد أصيب من ركوبه فى هذه العربة بالتهاب رئوى لأن الحرارة كانت خانقة والدخان كان كثيفاً وصحة العبقرى الفنان كانت ضعيفة لاتحتمل ذلك كله .

وأستأجرت زوجته قطاراً خاصاً لتلحق به ، وعرفت مكانه ، فقد نقله تلميذه الذى كان يرافقه وطبيبه الذى أصر على البقاء معه إلى مكان متواضع فى إحدى محطات السكة الحديد ، وهناك لحقت به أيضاً ابنته الكسندرا ، ووصلت الزوجة إلى المكان الذى يرقد فيه زوجها وأرادت أن تراه ولكن الجميع ، بما فيهم ابنتها منعوها من ذلك .

لقد هرب منها زوجها وهرب من أفكارها وصراعها معه ورفضها الدائم لمشروعاته فى التنازل عن ممتلكاته والحياة الكاملة مع الفقراء.

رفضت أحلامه الانسانية وعارضته بقوة وعنف .. فترك لها دنياها واختار لنفسه دنيا أخرى حرة طليقة من كل القيود !

ومات « تولستوى » متأثراً بالالتهاب الرئوى الذى أصابه وكانت آخر كلماته : « .. لقد انتهى كل شىء .. تلك هى النهاية .. وهذا لايهم » .

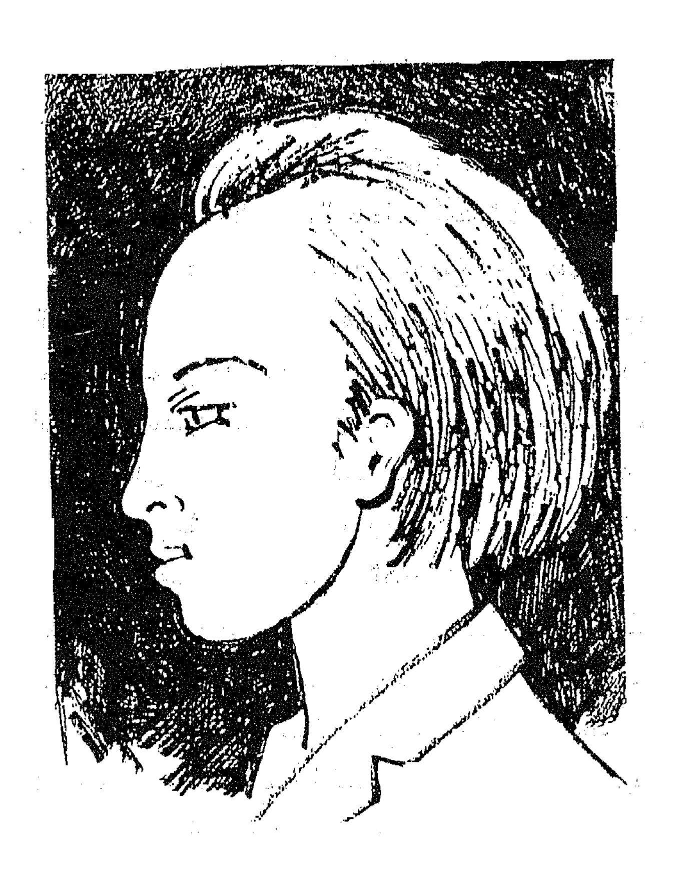
ولم تستطع زوجته أن تراه فى لحظاته الأخيرة . لقد مات فى الثانية والثمانين من عمره فى العشرين من نوفمبر سنة ١٩١٠ .. أما زوجته فقد عاشت بعده سنوات طويلة تدافع عن نفسها ضد اتهامات الناس لها بأنها كانت مصدراً للعذاب الكبير الذى تعرض له زوجها العبقرى العظيم !

وهكذا انتهت قصة الحب والزواج بين « تولستوى » وزوجته صوفيا نهاية حزينة مفجعة ، بعد أن كانت فى البداية قصة مليئة بالسعادة والأفراح الكبيرة .

والذى لا شك فيه أن المصدر الأكبر لهذه المأساة كان كامناً فى القلق العظيم فى نفس « تولستوى » العبقرى ، فقد اكتشف فجأة أنه لا يستطيع أن يعيش سعيداً وملايين الناس من حوله أشقياء تعساء .. كان يحلم بالعدل وكان قلبه مليئا بالرحمة ، وكان يتمنى أن يرى عالماً إنسانياً لا يتعذب فيه الانسان .

كان حلمه صعب التحقيق وخاصة فى ذلك العصر الذى كان فيه الظلم قوياً يفرض نفسه بقوة السلاح على الحياة والناس . لذلك تعذب « تولستوى » بحلمه الكبير ، ومات دون أن يرى هذا الحلم يتحقق كما كان يتمنى وينشر أجنحة الرحمة على الناس أجمعين .

فى البدء كانت السعادة ، وفى النهاية جاء القلق والحزن والضياع .. تلك هى قصة الفنان العبقرى « تولستوى » إذا أردنا تلخيصها فى كلمات .



رامبو
من التمرد إلى الإيمان

آرثر رامبو « ١٨٥٤ - ١٨٩١ » شاعر من أكبر شعراء فرنسا فى القرن الماضى ، ورغم وفاته منذ ٩٩ عاما على أثر مرض خطير أصابه فجأة وهو فى السابعة والثلاثين من عمره ، إلا أن شهرة هذا الشاعر تزداد وتتجدد يوما بعد يوم ، بل إنه أصبح مشهورا أكثر مما كان فى حياته عشرات المرات ، ولا يوجد الآن مثقف فى أوروبا لا يعرف اسم « رامبو » ، بل ولا يوجد محب للشعر الإنسانى دارس له فى أى مكان فى العالم إلاّ ويعرف اسم « رامبو » ، إنه شاعر مهم وموهوب ، وأشعاره تزداد تألقا مع الأيام ، ويجتهد الباحثون فى تقديم تفسير لها ، كلما ظهرت مناهج جديدة للبحث فى الشعر ودراسته .

وقصة هذا الشاعر مليئة بالغرائب والأعاجيب منذ البداية حتى النهاية ، وقد أطلق عليه عدد من النقاد اسم « الشاعر الملعون » ، لأن شعره لم يكن خاضعا لقاعدة واضحة مفهومة ، ولكنه مع ذلك كان شعرا ساحرا ، كما أن حياته كانت مليئة بالتجارب الغريبة العاصفة المليئة بالمفاجآت المدهشة ، لقد توقف « رامبو » عن كتابة الشعر فى الثامنة عشرة تقريبا ، أى أنه بلغ قمة عبقريته الفنية فى هذه السن الصغيرة المبكرة ، وكل أشعاره التى تلفت أنظار الدنيا الآن ، وتجتذب مئات الآلاف من المعجبين المفتونين به ، وتصدر فى طبعات جديدة باستمرار ، وتصدر معها عشرات الدراسات النقدية التى لا تتوقف من جيل إلى جيل ... كل هذا يدور حول أشعار « رامبو » التى كتبها ما بين الخامسة عشرة إلى الثامنة عشرة ، ولم يكتب بعدها شيئا ، ومعنى ذلك أن هذه العبقرية قد بلغت تمام النضج والاكتمال فى هذا العمر المبكر . وهذه الحقيقة تجعل الكثيرين يتصورون أن هناك أعمالا أخرى مجهولة لهذا الشاعر العجيب ، وأن هذه الأعمال لابد من العثور عليها فى يوم من الأيام . بل لقد قالت إحدى الصحف الفرنسية سنة ١٩٤٩ إنها عثرت على كتاب كامل لـ « رامبو » اسمه « الصيد الروحى » ، وكان « رامبو » قد أشار فى بعض رسائله إلى وجود كتاب له بهذا الاسم ، ولكن الأوساط الأدبية فى فرنسا عادت وأعلنت أن ما أدعته الصحيفة الفرنسية من العثور على هذا الكتاب غير صحيح ، وأن الكتاب مازال مفقودا . وأشارت الصحف الفرنسية مرة أخرى إلى أنه قد تم العثور فى الحبشة - حيث عاش الشاعر الفرنسى الجزء الأخير من حياته - على أربعة آلاف بيت من الشعر كتبها « رامبو » هناك ، وثبت بعد ذلك أن ما قالته تلك الصحف الفرنسية لم يكن صحيحا ، ولم يعثر أحد على شىء من ذلك .

ولكن ما هى قصة هذا الشاعر الملعون ، ذلك الذى قدم كل أعماله الأدبية فى ثلاث سنوات من سن الخامسة عشرة إلى سن الثامنة عشرة ثم توقف بعد ذلك فلم يعد إلى الشعر مرة أخرى بل فقد اهتمامه به تماما ؟ وكيف قضى هذا الشاعر بقية حياته حيث عاش تسعة عشر عاما أخرى قبل أن يموت متأثرا بمرضه الخطير ؟

لقد ولد « رامبو » فى مدينة « شارل فيل » بشمال فرنسا ، وواجهته منذ

طفولته محنة أساسية فقد انفصل أبوه عن أمه ، وترك لها هذا الطفل مع ثلاثة أطفال آخرين ، وكان « رامبو » آنذاك فى السادسة من عمره ، وبذلت الأم جهدا كبيرا فى تربية أطفالها ، وجمعت فى ذلك كل إرادتها وعزمها وإصرارها على مواجهة صعوبات الحياة . وفى طفولته الأولى أثبت « رامبو » أنه طفل ممتاز ، عبقرى وموهوب ، وأنه من هؤلاء الذين يحملون علامات النبوغ فى شخصيتهم منذ وقت مبكر . كان فى المدرسة ذكيا متفوقا مدمنا للقراءة بصورة غير عادية . وبدأ يكتب الشعر فى سن الخامسة عشرة ، وكان هذا الشعر منذ البداية جديدا ولافتا للنظر ، وخاصة عند العارفين بحقيقة الشعر العظيم ، أما أستاذه الأول الذى تحمس له وهو طالب فى المدرسة واسمه إيزامبار فلم يجد فى قصائده الأولى شيئاً له قيمة ، لأن هذا الأستاذ كان يقيس الشعر بالمقاييس التقليدية ، ولم يدرك أن « رامبو » كان يقول شيئا جديدا ، ويفتح صفحة لم تنفتح من قبل فى تاريخ الشعر الفرنسى والشعر العالمى كله ، إلاّ أن شاعرا كبيرا كان معاصراً لـ « رامبو » ، وكان يكبره بحوالى عشر سنوات ، وهو فرلين ، قد أدرك القيمة النادرة لشعر هذا الشاعر العبقرى الصغير ، فتحمس له وتبناه واستدعاه إليه ليعيش معه ومع أسرته فى باريس ، وبدأت بينهما قصة مأساوية غريبة يعرفها تاريخ الأدب الفرنسى بالتفصيل .

وخلاصة القصة أن فرلين أحب « رامبو » وتحول الحب بينهما إلى حب شاذ فاضح ، فالفتى الصغير الجميل المتوحش « رامبو » قد استولى على قلب فرلين ليس بشعره فقط ، ولكن بجاذبيته الغريبة النادرة ... وقاومت زوجة فرلين ، وكانت فتاة حسناء ميسورة الحال .. قاومت هذه العلاقة الشاذة الفاضحة بكل ما تستطيع من حيلة وقوة وعنف ، ولكنها فشلت فى إيقاف هذه العلاقة المدمرة ، وهرب فرلين مع حبيبه الشاعر العبقرى الصغير « رامبو » إلى بروكسل ولندن ، وجاء يوم ضاق « رامبو » الصغير المتمرد بعلاقته مع فرلين فأطلق عليه فرلين الرصاص ، لأنه لم يكن يطيق الحياة بعيدا عن هذه العلاقة ... ودخل فرلين السجن بسبب هذه الحادثة وقضى فيه عامين ، وعاد « رامبو » الذى نجا من رصاص فرلين وحيدا إلى فرنسا ، ليعيش حياة المتشرد الثائر على كل تقاليد المجتمع وأصول الأخلاق ، ولكنه مع كل هذا التدهور فى سلوكه وشخصيته ظل يكتب شعره العجيب المثير ، ويطبعه على نفقة والدته التى كانت تشفق عليه وتطمع فى أن يعود إلى الطريق المستقيم للرجال الأصحاء فى أخلاقهم وأجسامهم وعقائدهم

الدينية . ولم تلفت أشعار « رامبو » أنظار الناس فى ذلك الوقت بدرجة كافية ، لأن سمعته الشخصية الملطخة بالوحل والعار قد غطت - عند الناس - على موهبته الفنية الساحرة .

ويصفه لنا فى مرحلة انغماسه فى الشر والتدهور الكاتب والناقد الإنجليزى كولن ولسن فى كتابه « العقيدة والثورة » ، والذى ترجمه إلى العربية أنيس زكى حسن بعنوان « سقوط الحضارة » ، ولنقرأ هذه السطور القليلة التى تصور لنا هذا الشاعر الملعون (سقوط الحضارة - الترجمة العربية.ص ١٠٣) ... يقول كولن ولسن :

« استمر فى تلك الأثناء على سلوكه الفاضح ، وكان يحدث أن يحاول أحدهم أن يخجله من شعره الطويل فيقدم إليه ثلاث بنسات ويطلب منه أن يذهب إلى الحلاق ، فينحنى « رامبو » فى سخرية ، ويأخذ البنسات الثلاثة ، ويذهب إلى أقرب محل لبيع السجائر ليشترى بها تبغا . وكان يستمتع برواية القصص الخليعة فى المقاهى بصوت عال ، وكان يفيض انتصارا إذا نهض البعض من منضدة قريبة وانتقلوا إلى منضدة أخرى ، وكان يروى عن نفسه أبشع الأمور ، ويقول إنه يفضل صحبة الكلاب والقطط » .

وهذه الصورة لـ « رامبو » كانت صورة خارجية ، أى أن هذا التمزق الأخلاقى والسلوكى الذى كان يعانى منه لم يكن يعكس حقيقة ما يدور فى داخل نفسه من صراعات عنيفة وقلق لا مثيل له ، والدليل على ذلك أنه فى هذه الفترة كتب قصيدة شهيرة عنوانها « الزورق السكران » وهى كما يلخصها كولن ولسن (الطبعة العربية من « سقوط الحضارة » ص ١٠٣) قصيدة طويلة تحتوى على أربعة وعشرين مقطعا يتألف كل مقطع منها من أربعة أبيات ، والقصيدة أغنية غريبة يغنيها زورق عائم بلا هدى بعد أن قتل الهنود الحمر من كانوا فيه ، وتتحدى لغتها الجميلة المركزة أى ترجمة » .

فماذا تعنى هذه السفينة التى تم قتل بحارتها ، والتى تمضى بلا هدى فى المحيط ، وتواجه المجهول بلا أى قيادة ، وتتعرض للأمواج والعواصف والظلمات الموحشة ؟ ... ماذا تعنى هذه السفينة سوى التعبير عن الضياع الذى

يعيش فيه الشاعر ، بل الضياع الذى يعيش فيه عصر الشاعر كله ، وربما كان التعبير فى هذه القصيدة تعبيرا عن ضياع الإنسان فى عصور الاضطرابات الكبرى التى تهز الروح وتفقد الإنسان أى قدرة على الرؤية الواضحة وأى وسيلة لمعرفة الطريق الذى يسير فيه ذلك الإنسان ، لأنه إنسان يعيش فى تشرد روحى ولا يجد شيئا يهديه سواء السبيل .

على أن هذا القلق المدمر الذى كان يملأ نفس « رامبو » قد انتهى به إلى أمور غريبة . فقد توقف عن كتابة الشعر تماما فى سن الثامنة عشرة بعد أن قدم ستة أعمال فنية هى : أشعار طالب – أشعار بوهيمى – الشاعر فى السابعة عشرة – صحارى الحب – الإشراقات – فصل فى الجحيم . ونشر هذه الأعمال العجيبة كلها ، والتى تجمع بين الشعر والنثر الفنى الرفيع ، ما بين سنتى ١٨٧٠ و ١٨٧٣ أى بين سن ١٦ وسن ١٩ سنة ، وإن كان المعروف تاريخياً أنه توقف عن كتابة الشعر تماماً فى سن الثامنة عشرة .

وفى سنة ١٨٧٦ قرر « رامبو » السفر إلى الشرق ، وبعد مغامرات طويلة ، ذهب إلى عدن ، ثم انتقل منها إلى الحبشة ، ودخل مجاهل أفريقيا التى لم يكن يعرفها الأوربيون فى ذلك الحين . وفى هذه الفترة زار بعض بلدان الخليج ، وزار القاهرة ، والاسكندرية ، والخرطوم ، واستقر به الأمر فى مدينة هرر حيث أصبح تاجرا مرموقا من تجار السلاح . وأخذ يتعامل مع إمبراطور الحبشة ماكونن وأصبح هذا الشاعر الصعلوك الذى لم يكن يملك ثمن ما يأكله ... أصبح من كبار الأثرياء وامتلأت حقائبه بالذهب ، وبنى قصرا كبيرا فى مدينة هرر وأصبح من أصحاب النفوذ فى الحبشة وما حولها من البلدان الأفريقية . واقتحم مناطق مجهولة فى أفريقيا ، وسجل عنها بعض الملاحظات التى أرسلها إلى الجمعية الجغرافية الفرنسية ، وتلقى عنها الشكر والتقدير . وبعد أن وصل إلى هذا الثراء الكبير الذى كان دائماً يحلم به ، ويرى أنه هو وحده طريق الأمان والاستقرار والتخلص من التمزق النفسى ومشاكل الحياة المعقدة ... بعد أن وصل إلى هذا الوضع فاجأته محنة المرض . لقد أحس بآلام شديدة فى ساقه لم ينفع معها أى علاج ، واضطر إلى العودة إلى فرنسا ليعرف حقيقة مرضه ، فاكتشف الأطباء أنه مريض بسرطان العظام ، واضطروا إلى بتر ساقه وتركيب ساق خشبية له ،

ثم قالوا أخيرا أنه لا فائدة من أى علاج ، فقد خرج المرض عن سيطرة الطب وأصبح المريض على وشك النهاية .

قضى « رامبو » شهوره الأخيرة فى المستشفى فى عذاب شديد وآلام فوق الاحتمال ، وكانت إلى جانبه أخته إيزابيلا التى كانت تحاول طيلة الوقت أن تخفف من آلامه وأن تدعوه إلى « الإيمان » الكامل ، ففى هذا الإيمان وحده سلام للنفس ، وفيه راحة واطمئنان ، وفيه قوة تساعد الانسان على تحمل العذاب والألم ... كانت تدعوه إلى الإيمان لأنها كانت تعرف أنه قضى حياته « ملعونا » يتحدى كل شىء ، ويتمرد على القيم والتقاليد ، ولا يعرف راحة النفس واطمئنان القلب والبال .

وأمام العذاب الذى كان « رامبو » يعانيه ، أعلن إيمانه – كما تروى أخته على لسانه – وذلك فى الأيام الأخيرة التى قضاها فى قمة الألم قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة . وقالت إيزابيلا إنه كان يقول باللغة العربية التى تعلمها فى عدن : « الله كريم ... الله كريم » ، بل كانت تلك الكلمات العربية هى آخر الكلمات التى نطق بها وبعدها رحل عن الدنيا .

يقول البعض : إن هذا المتمرد الملعون العبقرى الجبار لا يمكن أن يكون قد استسلم للإيمان ، وإنما هى قصة لفقتها أخته إيزابيلا طمعا فى رحمة الله وأملا فى تحسين سمعة شقيقها العبقرى الحبيب . ونقول لهؤلاء : لماذا لا تصدقون أن الشاعر آمن بعد أن جرب كل شىء ، وبعد أن وصل إلى ما كان يحلم به من ثراء لم يكن يملك منه شيئا ، وبعد أن أدرك أن هذا الثراء سراب ، وأن العبث كامن فى هذه الدنيا ... بدليل أنه فقد حياته بعد أن تصور أن السعادة قد تحققت ، وأن أداة السعادة وهى المال الذى كان يحلم به قد أصبحت ميسورة . لقد طارت عصفورة الحياة من يديه بعد أن امتلكها وأصبحت أقرب ما تكون إليه .

لماذا لا نصدق أن هذا الشاعر العبقرى الكبير والمتشرد النادر قد عرف الله فى ساعات عذابه الأليمة التى قضاها وهو يحتضر بينما الألم يدق عظامه ويسحقها بعنف ؟

· إن الأقرب إلى العقل أن نقول إن الشاعر قد آمن حقا فى لحظاته الأخيرة ، وأنه بهذا الإيمان وحده قد مات هادئا راضيا قانعا بأن السعادة تأتى أولا من داخل الإنسان ، وأنه ليس بالرفض والشذوذ والتمرد والمال يحيا الإنسان ، فهناك شيء فى الحياة أكبر وأعمق .



بلزاك
عبقرى يموت فى فنجان قهوة

كانت حياة الأديب الفرنسى « بلزاك » نموذجا نادراً للعذاب الذى يتعرض له بعض العباقرة من أجل تحقيق أهدافهم الكبيرة التى يحلمون بها ويدفعون حياتهم ثمنا للوصول إليها .

ولد « بلزاك » سنة ١٧٩٩ ، فى مدينة « تور » الفرنسية ، وهذه المدينة هى عاصمة إقليم التورين فى غرب فرنسا ، ولمدينة تور التى ولد فيها بلزاك أهمية خاصة بالنسبة لنا نحن العرب ، فقد وصل الجيش العربى الأندلسى إلى مشارف هذه المدينة سنة ٧٣٢ ، وكانت خطة الجيش العربى هى السيطرة على فرنسا

والتوغل فى سائر البلدان الأوروبية بعد ذلك . وبالقرب من مدينة تور هذه التقى عبد الرحمن الغافقى وجيشه العربى بالقائد الفرنسى شارل مارتل فى معركة تاريخية مشهورة سماها الفرنسيون باسم معركة « بلاط الشهداء » .

وفى هذه المعركة انهزم العرب وبذلك توقف المد العربى الزاحف إلى أوروبا ، وأغلب الظن أن العرب لو انتصروا فى هذه المعركة الحاسمة لعجز الأوروبيون عن إخراج العرب من أسبانيا ، ولامتدت الحضارة العربية الإسلامية إلى سائر أنحاء فرنسا وأوروبا الغربية ، ولا شك أن ذلك كله كان يمكن أن يكون له شأن خطير فى توجيه أوروبا إلى اليوم .

ولكن التاريخ لا يمكن أن يكون ثمرة للأمانى والأحلام ، فالأحداث الواقعية وحدها هى التى تؤثر فى مجرى الحضارة ومصائر الشعوب . ولذلك كانت هزيمة العرب فى معركة مدينة تور أو « بلاط الشهداء » نهاية للمد العربى داخل أوروبا ، وهو المد الذى توقف منذ ذلك التاريخ إلى الآن .

تلك هى مدينة تور التى ولد فيها « بلزاك » . وقد نشأ « بلزاك » واسمه الكامل « أونريه دى بلزاك » فى أسرة تعانى من الاضطراب وعدم التماسك ، فقد كانت أمه أصغر من أبيه باثنين وثلاثين عاما ، وقد اضطرت للزواج من رجل فى سن أبيها تحت ضغط أسرتها ، فقد كانت هذه الأسرة فقيرة ، وكان الزوج موظفا محترما فى تموين الجيش ، ومن هذا الزواج غير المتكافىء جاء إلى الحياة ذلك الابن العبقرى : بلزاك .

كانت الأم عصبية قاسية ، وكان الأب كثير الأحلام يعيش مع خيالاته أكثر مما يعيش فى واقع حياته .

وكانت النتيجة المنطقية لهذا كله هى أن « بلزاك » لم يجد فى أسرته ما يتيح له الحياة السعيدة الهادئة فى طفولته وصباه .

وعندما شب « بلزاك » وأصبح فى سن الدراسة ، دخل المدرسة فى بلدته ، ولكنه كان منذ البداية تلميذا بليدا مصابا بداء « السرحان » الدائم أثناء الدروس ، مما جعل المدرسين يائسين منه ، لا يجدون فيه أملاً ، ولا ينتظرون منه خيرا ،

ولكن « بلزاك » مع ذلك استطاع أن ينهى دراسته المتاحة له فى ذلك العصر ، وقد درس القانون ، وكان أهله يريدون له أن يكون من أهل هذه المهنة ، محاميا أو قاضيا أو وكيلا للنائب العام ، فالمهن المتصلة بالقانون هى مهن محترمة ، ويمكن أن تنقذ « بلزاك » وأسرته من الظروف الاقتصادية الصعبة التى كانوا يعيشون فيها ، ولكن « بلزاك » رفض ذلك ، وأصر على أنه خُلق ليكون أديبا ، وحاول أن يقنع أسرته بأنه قادر على أن يكسب من الأدب ، وأنه سوف يغزو باريس بقلمه ، ويحقق نجاحا أدبيا يصاحبه نجاح مادى كبير . وعارضت الأسرة فى أول الأمر ، ولكنها إضطرت للموافقة على ما اختاره « بلزاك » لنفسه أمام إصراره وتصميمه .

وقد خرج « بلزاك » من تجارب طفولته وصباه بنتائج مؤلمة ، حيث يقول عن نفسه إنه عاش أسوأ طفولة عاناها أى إنسان على ظهر الأرض ، وذلك بسبب الفقر ، وسوء معاملة أمه له وقسوتها عليه ، بالإضافة إلى ما اضطر إليه من دراسة القانون ، وهو لا يميل إلى ذلك ولا يرغب فيه ، وكان يتصور دائما أن أمه لا تحبه ، ويقول فى صراحة : « ... إن أمى تكرهني ، وهى تكرهنى حتى قبل مولدى ، وأمى هذه هى سبب كل ما حل بى من مآسى الحياة » .

وفى سن العشرين انتقل « بلزاك » من مدينته إلى باريس ، وكان يحلم بأن يكون مثل نابليون ، وأن يحقق بقلمه ما حققه نابليون بسيفه ، وقد عاش « بلزاك » طفولته وصباه فى عصر نابليون ، وعندما سقط نابليون فى معركة « ووترلو » سنة ١٨١٥ كان « بلزاك » فى السادسة عشرة من عمره ، ومن هنا أصبح نابليون مثلا أعلى عند « بلزاك » وخاصة فى بداية حياته الأدبية .

عندما ذهب « بلزاك » إلى باريس استأجر غرفة فوق السطوح فى أحد الأحياء الفقيرة ، وكانت أمه هى التى اختارت له هذه الغرفة القذرة الرديئة ، أما هدفها من وراء هذا الاختيار فهو أن تجعل حياته فيها صعبة وقاسية ، ولعله بذلك يكره الأدب الذى يريد أن ينفرغ له ، ويعود إلى أسرته ويعمل بالقانون كما أرادت له هذه الأسرة .

وهناك كتاب بديع عن حياة « بلزاك » كتبه الأديب النمساوى الكبير ستيفان

زفايج ، وترجمه إلى العربية الكاتب الراحل أحمد الصاوى محمد ، كما ترجم فصولا منه الأستاذ على كامل ، وفى هذا الكتاب الممتع يحدثنا زفايج عن غرفة « بلزاك » التى بدأ فيها أولى محاولاته لكتابة الأدب فيقول : « كانت غرفة رديئة تعافها النفس ، ولكن بلزاك احتمل حياته الجديدة فيها بعزم وعناد ، فكان ينظف الغرفة بنفسه ، ويذهب لشراء الطعام الرخيص حتى يوفر ما يمكن أن يتكلفه فى المطاعم ، حتى الماء كان يذهب لإحضاره من نافورة « سان ميشيل » كى لا يتكلف ثمن شرائه ، ولم يكن كل ذلك ليثبط من عزيمته ، وكان يتعزى عن شقائه بالتطلع من نافذة غرفته الصغيرة إلى أضواء باريس ، متأملا سحرها ، حالما بذلك المجد الأدبى الذى يصبو إليه ، حتى يصبح علما بين نجوم تلك المدينة التى امتلأت سماؤها بأسماء أعاظم رجال الأدب والفكر فى مختلف العصور .

ويواصل ستيفان زفايج وصف حياة « بلزاك » فى غرفته التعيسة تلك فيقول :

« كان بلزاك إذا ما أراد أن يخرج من سجن غرفته ذهب إلى الأحياء الشعبية ، يتأمل ساكنيها ويدرس نواحى الحياة بين أرجائها ، وكان لا يجد غضاضة أو غرابة أثناء تجواله ، إذ كانت ملابسه لا تلفت إليه الأنظار ، لأنها لا تفترق فى بساطتها عن ملابس العمال والبسطاء من ساكنى تلك الأحياء ، بالإضافة إلى أن مشاعره كانت تتجاوب مع مشاعرهم ، فيرثى لألوان التعاسة التى يعيشون فيها ، متضامنا معهم فى سخطهم على هؤلاء الذين يستبدون بهم ويرهقونهم فى مقابل لقمة العيش ، ولقد كانت هذه الفترة من حياة بلزاك حاسمة فى تحديد تفكيره وإدراكه لنفسية الطبقات الشعبية ، وما هو مخزون فى داخل هذه الطبقات من مواهب لو تم اكتشافها وتوجيهها توجيها حسنا لأخرجت للنور أدباء وفنانين ومخترعين وقادة فى مختلف ألوان الفكر الإنسانى » .

هذه هى الصورة التى رسمها زفايج لـ « بلزاك » فى بداية حياته الأدبية ، على أن « بلزاك » رغم هذه البداية الصعبة قد واصل العمل من أجل تحقيق النجاح الذى كان يحلم به ، وكانت مشكلته الأساسية هى أنه بحاجة إلى المال ، فالمال وحده هو الذى يمكن أن يتيح له التفرغ للكتابة الأدبية ، ووضع الأفكار الكثيرة والهائلة التى تملأ رأسه على الورق . وبدون هذا المال فإنه لن يستطيع أن يتفرغ للكتابة ، بل لن يستطيع أن يجد طعامه أو إيجار غرفته المتواضعة ، خاصة بعد

أن نفضت أسرته يدها منه تماما ولم تعد تقدم إليه أى مساعدة مادية . أما كتاباته الأولى ، فلم تكن قد حظيت بأى نجاح ، ولم يحصل من ورائها على أى دخل له قيمة .

وفى وسط هذا الاضطراب الذى وجد نفسه فيه ، فكر فى عدة حلول لأزمته .

وكان الحل الأول هو الحل اليائس . لقد قرر « بلزاك » أن ينتحر ويتخلص من حياته ، طالما أنه غير قادر على تحقيق حلمه بالتفرغ للأدب الذى لا يجد لنفسه حياة بديلة له .

ولكنه نجا من الانتحار بالصدفة .

كان قد تعرف فى تلك الفترة على سيدة فرنسية فى الخامسة والأربعين من عمرها ، وكان هو آنذاك فى الثالثة والعشرين ، أى أن هذه السيدة كانت فى عمر والدته . وكانت هذه السيدة واسمها دوبيرنى قد تعاطفت معه وتوسمت فيه النبوغ والعبقرية فأحبته . ومع هذه السيدة عرف « بلزاك » أول تجربة عاطفية فى حياته . وعندما قرر الانتحار ذهب إليها وهو فى حالة يأس ، وأخبرها بقراره ، فوجهت إليه بعض كلمات التشجيع الطيبة ، وسرعان ما استجاب لها « بلزاك » وقال فى طفولة وبراءة :

« إنك على حق ياسيدتى ، فعبقريتى كفيلة بأن تنقذنى من متاعب الحياة ، وكل ما احتاج إليه هو قليل من الصبر ، حتى يفهمنى الناس ويعرفوا قدرى » .

وعدل « بلزاك » عن الانتحار .

على أن علاقته بهذه المرأة الطيبة الحنون ، قد أثرت تأثيرا عميقا على نظرته للمرأة فى حياته كلها بعد ذلك ، وفى كتاباته الرائعة التى تمكن بعد جهد خارق من إنتاجها ، فهزت فرنسا وأوروبا كلها فى عصره ، ومازالت إلى الآن تحتل مكانها فى الصف الأول من الأدب الإنسانى الخالد .

يقول زفايج فى كتابه عن « بلزاك » :

« إن علاقة بلزاك العاطفية بمدام دوبيرنى هى التى دفعته إلى أن يكتب كلمته الخالدة « ليس إلاّ الحب الأخير للمرأة الذى يستطيع أن يرضى الحب الأول

للرجل » ، ولقد رسم هذا الحب الأول لبلزاك طريق ميوله العاطفية طوال حياته ونوع المرأة التى تستطيع أن تملأ فراغ قلبه وتروى ظمأ شخصيته الملتهبة المتدفقة ، فالحبيبة النموذجية فى نظر بلزاك هى تلك المرأة التى تخطت الثلاثين ، والتى تكون منه بمثابة الأم لطفلها المدلل ، تغمره بعطفها ، وتحنو عليه وقت الشدة ، وتمده بالمعونة المالية وقت الحاجة ، هى تلك المرأة الواعية التى ترتفع بتجاربها عن الأنانية التى تريد أن تجعل من الرجل وسيلة لاغير لتحقيق أطماعها وإطفاء لهيب نزواتها . ولقد كانت هذه العلاقة العاطفية الأولى فى حياة بلزاك سببا فى أن يرسم فى رواياته صورا خالدة للمرأة التى تخطت الثلاثين ، وقد أدت هذه الصور الحية القوية إلى أن يخلق بلزاك حوله طبقة من المعجبات لم يتمتع بها غيره من كتّاب القصة فى القرن التاسع عشر ، وفى هذا الجو كان بلزاك يبشر بفلسفته الجديدة على لسان أبطاله مثل قوله : « إن المرأة ذات الأربعين تعطيك كل شىء أما ذات العشرين فلا تعطيك شيئا على الإطلاق » ، ولقد طبق بلزاك هذه الفلسفة طوال حياته العاطفية ، فكان شديد الكره للفتيات الصغيرات لأنهن يأخذن كثيرا ويعطين قليلاً » .

تلك هى نظرة « بلزاك » للمرأة كما يشرحها زفايج ، وكان سبب هذه النظرة الخاصة هو حبه الأول مع تلك المرأة التى كانت تكبره بأكثر من عشرين عاما ، والتى أنقذته من الانتحار ، وأعطته فى بداية حياته كل ما كان يحتاج إليه من العطف والحنان والمساندة .

على أن « بلزاك » لم يجد حلا سهلا للمشكلة المالية ، وإن كان قد وجد مع حبيبته الأولى حلا للمشكلة العاطفية ، ووجد معها ما أحيا آماله وأحلامه فلم ينفذ قراره بالانتحار .

ولأن « بلزاك » صاحب خيال واسع وخصب فقد فكر فى أن يدخل ميدان الأعمال التجارية ، لعله يحقق ثراء سريعا يضمن له بعد ذلك ما يحلم به من التفرغ للأدب بصورة كاملة .

ودخل « بلزاك » بالفعل سوق العمل ، فأنشأ دارا للنشر ، وأنشأ مطبعة ، ووضع تخطيطا دقيقا لاستيراد الأخشاب إلى فرنسا ، كما فكر فى مشروع جبار

لاستخراج الفضة من بعض المناجم الإيطالية القديمة ، ولكن هذه المشروعات جميعا فشلت وأغرقته فى الديون ، وقبل أن يبلغ الثلاثين من عمره كان مدينا بمائة وخمسة وعشرين ألف فرنك ، وكان هذا المبلغ فى ذلك الزمان ، سنة ١٨٢٨ ، مبلغا شديد الضخامة ، فهو دين كفيل بتدمير حياة صاحبه تدميرا نهائيا إذا لم يحصل على موارد كبيرة جداً لسداده .

وقد أشار كثير من مؤرخى الأدب إلى مشروعات « بلزاك » التجارية ، ورأوا أن هذه المشروعات جميعا كانت مبنية على أفكار ناجحة وكفيلة بتحقيق الثروة التى كان يحلم بها « بلزاك » ، ولكن المشكلة أن « بلزاك » مثله مثل الكثيرين من الأدباء النابغين كان عاجزا على الدوام عن رؤية التفاصيل الصغيرة والدقيقة للعمل التجارى فى الحياة الواقعية ، فقد كانت فكرة « بلزاك » – على سبيل المثال – عن مناجم الفضة فى إيطاليا صحيحة ، وكانت كفيلة بأن تجعله من أصحاب الملايين ، ولكن « بلزاك » أخذ يتحدث عن فكرته أمام الآخرين بحماس شديد ويروى عنها كل التفاصيل الدقيقة ، وكان يفعل ذلك وكأنه يتحدث عن فكرة فلسفية أو عن رواية من رواياته البديعة التى تملأ عقله ووجدانه ، وكانت النتيجة أن أحد التجار الصغار « لطش » فكرة « بلزاك » ، وسارع – فى صمت – إلى تنفيذها ، واستطاع أن يجنى من ورائها ثروة طائلة ، أما « بلزاك » فقد وصل متأخرا ، بعد أن سبقه التاجر الصغير إلى تنفيذ الفكرة والحصول على امتياز استخراج الفضة من مناجم إيطاليا .

وبنفس الطريقة فشلت أعمال « بلزاك » التجارية الأخرى فى الطباعة والنشر واستيراد الأخشاب .

كان يفكر دائماً بصورة جيدة ، ولكنه عند التنفيذ يقع فى أخطاء عملية تنسف مشروعاته وتغرقه فى ديون جديدة .

وهكذا لم يبق أمام « بلزاك » إلاّ أن يعمل بالكتابة ، وهى الشىء الوحيد الذى لا يمكن لأحد أن يسرقه منه ، فقد كان صاحب موهبة فريدة جبارة ، ولكنه كان بحاجة إلى الصبر والوقت حتى يعرف الناس هذه الموهبة ، وينفتح أمامها باب النجاح والشهرة والثراء .

وبالفعل ، اندفع « بلزاك » نحو الكتابة بجنون ، وانتقل من غرفته البائسة إلى شقة متواضعة ، وكان يعمل أربع عشرة ساعة فى اليوم الواحد ، وكان ينام فى السادسة مساءِ ويستيقظ فى منتصف الليل ويستمر فى العمل حتى مساء اليوم التالى ، وأخذ يجهد نفسه بشدة ، ويقاوم النوم مقاومة عنيفة ، ويستعين على ذلك بشرب القهوة ، وقد أحصى أحد أصدقائه فناجين القهوة التى شربها فى السنوات العشرين الأخيرة من حياته فبلغت خمسين ألف فنجان !!

وقد حقق هذا الجهد الشاق المضنى الذى بذله « بلزاك » نتائج متناقضة ، فمن الناحية الشخصية انهارت صحة هذا الفنان العبقرى بصورة سريعة ، ولكنه أنتج إنتاجا غزيرا لا مثيل له فى ضخامته ، فقد كتب ما يقرب من سبعين رواية فى أقل من ثلاثين سنة ، وكان أحيانا يكتب الرواية فى ستة أسابيع ، كما حدث فى إحدى روائعه الروائية وهى « لويس لامبير » ، والتى يقارنها النقاد برواية « فاوست » للأديب الألمانى الكبير جوته ، والفرق هو أن « بلزاك » كتب روايته فى ستة أسابيع ، أما جوته فقد كتب روايته فى ستين عاما !

ومما يدل على ضخامة جهد « بلزاك » ، وحيوية عقله وخصوبة موهبته أنه كان يكتب فى بعض فترات حياته خمس روايات كبيرة فى سنة واحدة ، وبالطبع فإن غزارة الإنتاج لا تثبت موهبة ولا تؤكد أى نوع من العبقرية ، ولكن عندما يكون الإنتاج غزيرا وتكون له فى نفس الوقت قيمة فنية وإنسانية عالية ، فهذه هى العبقرية الحقيقية . وقد حقق « بلزاك » غزارة الإنتاج وارتفاع مستواه فى نفس الوقت ، فاستحق مكانته الفريدة فى الأدب الفرنسى والأدب العالمى كله .

والموضوع الرئيسى عند « بلزاك » هو تصوير الصراعات الإنسانية الكبرى من خلال الظروف الجديدة الناشئة فى فرنسا فى النصف الأول من القرن الماضى .

كان المال فى المجتمع الفرنسى فى تلك الفترة هو المحور الأساسى للحياة ، وأصبح هو العامل الذى يرفع الإنسان أو يخفضه ، وقد اشتد الصراع فى ذلك العصر على امتلاك الأموال ، ونشأت تلك الطبقة الوسطى النشيطة ، والتى كانت تسعى بكل الوسائل لإمتلاك قوة المال السحرية ، وذلك عن طريق التجارة

والمضاربات وسائر أنواع المغامرات العملية .

وقد اهتم « بلزاك » بتصوير الانحرافات الناتجة عن هذا الصراع الاقتصادى العنيف ، وهو صراع شرس لم يكن يهتم بالمبادىء الإنسانية ولا يقيم وزنا للأخلاق ، وكان الهدف الأول والوحيد أمام الجميع هو النجاح وامتلاك الثروة ، فمن خلال الثروة يستطيعون الحصول على الحب والسلطة والقوة والنفوذ وأى شىء آخر يحلمون به ويطمعون فيه .

يصور « بلزاك » فى إحدى رواياته هذا الوضع السائد فى عصره فيقول : « إن الوصول بالطرق الشريفة مستحيل ، فمن الواجب أن تتدنس اليدان إذا أراد الإنسان أن يحيا حياة طيبة ، فهذا هو الشعار الأكبر للأخلاق فى عصرنا ».

وقد امتلأت رواياته بصور الانتهازية والشر والبحث عن الثروة بكل الطرق والأساليب ، مما جعل الناقد والمؤرخ الأدبى جوستاف لانسون يقول : « إن بلزاك لا يحسن الكتابة فى الفضيلة والرشاقة ، وإنما تبدأ عبقريته عندما يتجه إلى الابتذال والرذيلة » .

وليس معنى هذا الكلام أن « بلزاك » يقف مع الشر ضد الخير ، ولكن معناه أن الكاتب الكبير قد جعل من أدبه نقدا عنيفا وفاضحا للشر ، وأن رواياته تكشف عن الكوارث التى يؤدى إليها البخل والبحث غير الشريف عن المال ، والصراع من أجل النجاح على حساب أى قيمة إنسانية أخرى .

وأهم أعمال « بلزاك » فى هذا المجال هى السلسلة الروائية المعروفة باسم « الكوميديا الإنسانية » ، وبين هذه السلسلة روايتان مشهورتان فى الأدب العالمى هما « أوجينى جرانديه » و « الأب جوريو » . وفى الرواية الأولى يرسم صورة « جرانديه » البخيل وعاشق المال ، والذى أدى به جنون البحث عن الثروة واكتنازها إلى تدمير حياة ابنته الوحيدة « أوجينى » ، فقد حرمها من الزواج ممن تحب طمعا فى أن تتزوج من رجل غنى ، وانتهت الرواية بوفاة الأب ، حيث ورثت إبنته كل ثروته ولكن بعد أن أصبحت عانسا كبيرة فى السن ، فعاشت مع ثروتها الضخمة وحيدة حزينة مكسورة القلب .

وفى الرواية الثانية نجد شخصية « الأب جوريو » الذى أهلك نفسه وحياته فى جمع المال من أجل أن تظهر ابنتاه بمظهر الثراء وتستطيعا مجاراة المجتمع الأرستقراطى التافه الذى تعشقان الحياة فيه ، وانتهت حياة « الأب جوريو » بأن يموت وحيدا بائسا فقيرا دون أن تسأل عنه واحدة من ابنتيه الغارقتين فى الترف ، ودون أن تشاركا حتى فى جنازته ودفنه .

فى سنة ١٨٥٠ كان « بلزاك » قد وصل إلى قمة الشهرة والمجد ، وبدأ يجنى ثمار عبقريته ، وأثث بيتا فاخراً فى باريس حقق فيه كل أحلامه وأمانيه . وقرر أن يتزوج من امرأة بولندية ارستقراطية اسمها هانسكا كانت هى حبه الأخير ، وكانت هذه المرأة تكتب إليه منذ سنوات بعيدة كإحدى المعجبات به ، ولم تكن هذه « المعجبة » فى الحقيقة سوى امرأة مدللة لعوب ، تافهة العقل والشعور ، ولكن « بلزاك » صدقها ووقع فى هواها . وقد ظلت ترفض الزواج منه إلى أن تأكد لها أنه مريض وعلى وشك الموت ، فتزوجته ، وجاء بها إلى باريس فى مايو ١٨٥٠ ، ولم يمض على هذا الزواج سوى ثلاثة شهور حتى سقط « بلزاك » ميتا قبل أن يتم عامه الثانى والخمسين ، وقال طبيبه : « إنه مات بالذبحة الصدرية ، وأن قلبه كان متعبا بسبب الإرهاق والمبالغة فى شرب القهوة ليستعين بها على مقاومة النوم » .

وكانت هانسكا التى تزوجته ، وهى حبه الأخير ، تعبث به وتخونه ، وقد زاره الكاتب الكبير فيكتور هيجو وهو يحتضر ، ورأى بعينيه زوجة « بلزاك » فى فراشها مع أحد عشاقها ، مما كان صدمة عنيفة لـ « فيكتور هيجو » ، تحدث عنها فى ازدراء وألم شديد .

لقد ظل « بلزاك » يبحث عن الثروة والبيت الجميل وحجرة المكتب الفاتنة المزدانة بأجمل اللوحات العالمية ، وعندما حصل على ذلك كله فقد حياته ورحل عن العالم .

وكان حبه الأول مليئا بالعواطف الطيبة التى غمرته بالحنان والتشجيع وأنقذته من الانتحار . أما حبه الأخير فكان مليئاً بالألم والقسوة وسوء الحظ والمهانة .

وإذا كان « بلزاك » قد عاش حياة مضطربة عاصفة ، إلا أنه فى عالم الأدب قد ترك وراءه أعمالا روائية خالدة ، رسم فيها ما يزيد على ألفين من الشخصيات النادرة التى تصور الصراعات الإنسانية خير تصوير . وأدب « بلزاك » الخالد هو العزاء الوحيد عن المعاناة المتصلة التى عاشها هذا الفنان العبقرى بين حبه الأول وحبه الأخير .



أمير شعراء ألمانيا وحبيبته المصرية

كان الشاعر « رينر ماريا ريلكه » أشهر شعراء ألمانيا فى النصف الأول من هذا القرن ، بل إنه مازال حتى اليوم أهم شاعر ألمانى فى العصر الحديث ، وبسبب أهميته الكبيرة فى الأدب الألمانى ، أطلق عليه النقاد والباحثون لقب « أمير شعراء ألمانيا » ، وعندما امتد تأثيره إلى الشعر الأوروبى كله ، أطلقت عليه إحدى الصحف الألمانية لقبا آخر هو « أمير شعراء العالم » . وما زال اسم « ريلكه » حتى اليوم يزداد لمعانا وتألقا بين نجوم الأدب الإنسانى ، أما أشعاره فإنها تنتقل بالترجمة من لغة إلى لغة ، حتى أصبح له مكان

مرموق فى كل لغات العالم الحية . وقد عكف على دراسته وترجمة بعض آثاره إلى اللغة العربية أديبان باحثان هما الدكتور بديع حقى من سوريا ، والدكتور عبد الغفار مكاوى من مصر .

ولد « ريلكه » فى براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا سنة ١٨٧٥ ، وهو ينتمى إلى أصل نمساوى ، ومن المعروف أن دعاة القومية الألمانية كانوا يعتبرون النمسا دائما جزءا لا يتجزأ من ألمانيا ، وقد قام هتلر بضم النمسا إلى ألمانيا سنة ١٩٣٨ ، وبقيت جزءا من الدولة الألمانية حتى انتهاء الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٤٥ . وبعيدا عن هذه القضايا السياسية المختلفة ، فإن الشاعر « ريلكه » رغم ميلاده فى براغ ، ورغم امتداد أصوله إلى النمسا ، يعتبر شاعراً ألمانيا ، بل إنه شاعر ألمانيا الأول فى العصر الحديث ، فقد كانت لغته هى الألمانية ، وهى اللغة التى كتب بها أدبه كله ، شعرا ونثرا ، فهو ابن الثقافة الألمانية ، وممثل لها فى نفس الوقت .

نشأ « ريلكه » فى أسرة متوسطة لا تشكو من الفقر ولا تعرف الثراء والترف فى نفس الوقت ، وقد قضى حياته كلها وهو يشعر بنوع من الطمأنينة الاقتصادية ، حيث كان يحصل على دخل محدود ولكنه ثابت يأتيه من أسرته ، وقد وفر له هذا الدخل فرصة التفرغ لفنه عندما اتخذ قرارا بذلك بعد أن وجد نفسه عاجزا عن تحقيق أى نجاح فى أى مهنة أخرى ، فقد خُلق ليكون شاعرا وكاتبا فنانا ، ولم يُخلق ليكون موظفا ، أو ليربط نفسه بأى قيود يفرضها عليه الآخرون .

فى طفولته تعرض « ريلكه » لتجربة خاصة ، كان لها تأثير كبير على حياته وتكوينه النفسى ، فقد ولدته أمه بعد وفاة أخت له كانت هذه الأم تحبها أشد الحب ، فتعلقت به أمه بعد وفاة أخته تعلقا عاطفيا عنيفا ، وألبسته ملابس الفتيات وربطت شعره برباط حريرى ، وظلت تعامله وكأنه بديل لأخته التى ماتت وهى صغيرة (ريلكه – أمير شعراء ألمانيا ، بقلم بديع حقى ص ٢١) وقد كان لهذه التجربة الأولى فى حياته أثرها النفسى الكبير ، إذ دفعته إلى العزلة والانطواء والشعور بالغربة عن العالم من حوله ، كما فجرت فيه هذه التجربة شعورا مبكرا بالخوف من الموت ، وأثارت فى داخله حساسية شديدة مرهفة لم تفارقه حتى نهاية حياته .

وفى سن الخامسة بدأ « ريلكه » يتحرر من ملابس الفتاة ، ومن الصورة

الأنثوية التى فرضتها عليه أمه ، وعندما دخل المدرسة بدأ نبوغه يظهر ويتفتح ، وقد ظل متفوقا فى كل مراحل تعليمه حتى النهاية . وكان من الظواهر الغريبة فى حياته أن يتجه هذا الفتى الرقيق الحساس الإنطوائى إلى الدراسة العسكرية ، وينجح فى هذه الدراسة ثم يتخرج ليعمل ضابطا فى الجيش الألمانى لفترة قصيرة اقتنع بعدها أنه بطبيعته لا يصلح لهذه الحياة العسكرية الصارمة ، كما أن رؤساءه في الجيش لاحظوا عليه ميله الشديد إلى العزلة وعدم قدرته على التفاعل مع الآخرين بسهولة ويسر ، فقرروا هم أيضاً أن هذا الفتى الحزين الذى يعيش داخل نفسه لا يصلح للعمل العسكرى . وبذلك خرج « ريلكه » من الجيش ، ليبحث لنفسه عن طريق جديد يناسب طبيعته وميوله ، فاتجه إلى دراسة الأدب والفن ، وقضى فى هذه الدراسة ثلاث سنوات ، وانتهى منها سنة ١٨٩٩ وكان آنذاك فى الرابعة والعشرين من عمره ، وبعد انتهائه من هذه الدراسة اتخذ قراره النهائى بأن يتفرغ للشعر ، وللشعر وحده ، فقد كان يحس أن الشعر هو الشىء الوحيد فى هذا العالم الذى يثير اهتمامه ، ويعطيه الشعور بأن حياته لها معنى وقيمة . وقد التزم « ريلكه » بهذا الموقف فى معظم سنوات حياته بعد ذلك ، فلم يكن يهتم بأن تكون له مهنة أخرى سوى أن يكتب الشعر ويعيش من أجل هذا الفن الذى أحبه وارتبط به وأخلص له كل الإخلاص .

على أن شيئا فى داخل « ريلكه » كان يدفعه إلى الحركة ، فهو يريد أن يكتشف العالم ، ويتعرف على تجارب الحياة المختلفة ، ويعرف أسرار الإنسان . فلم يكن « ريلكه » قادرا على أن يحبس نفسه داخل أسوار حديدية ، أو أن يكتفى بكتابة أشعاره بوحى من مشاعره الداخلية وتأملاته الخاصة ، بل كان يريد أن يرى ويكتشف ، وكان يريد أن تكون للتجربة الإنسانية الحية تأثيرها فى فنه ، فالشعر الذى ينبع من التأمل الداخلى فقط ، يكون فى آخر الأمر شعرا « فكريا » خاليا من حرارة الحياة ودفء التجربة . ومن هنا انطلق « ريلكه » إلى أنحاء أوروبا المختلفة ، يبحث ويجرب ويلتقى ببعض العظماء من رجال الأدب والفن فى عصره ، وقادته رحلاته فى أول الأمر إلى روسيا حيث التقى بأعظم أدبائها ، بل وأعظم أديب معروف فى تلك الفترة على مستوى العالم كله وهو تولستوى ، صاحب رواية « الحرب والسلام » وغيرها من روائع الأدب العالمى . وكان

تولستوى عندما التقى به « ريلكه » فى السنوات الأولى من هذا القرن قد خضع لتحول روحى كبير ، وأصبح مهتما بالدعوة إلى العدالة والمساواة والقضاء على الأسباب التى تؤدى إلى تعاسة الإنسان وشقائه . وقد رأى « ريلكه » فى شخص تولستوى واتجاهاته الروحية الجديدة ما أكد عنده شعوره العميق بعذاب الإنسان وغربته فى العالم ، وقد عبر الشاعر الألمانى الشاب عن تأثره بهذه الروح الإنسانية المتصوفة الحزينة عند تولستوى ، وذلك فى مجموعة شعرية أصدرها « ريلكه » بعد عودته من روسيا وأسماها باسم « الساعات » ، وقد امتلأت هذه المجموعة بالأشعار الحزينة التى تفيض بالإشفاق على الإنسان والإحساس العميق بما يلقاه من شقاء وبؤس فى حياته ، وما ينتظره من مصير قاس حزين هو الموت فى آخر المطاف .

واصل « ريلكه » رحلاته المختلفة داخل أوروبا ، وحاول أن يزداد معرفة بعظماء الفنانين فى عصره . وفى باريس تعرف على الفنان الكبير رودان (١٨٤٠ - ١٩١٧) وهو النحات العالمى المعروف وصاحب التماثيل الرائعة المشهورة مثل تمثال « المفكر » وتمثال « آدم وحواء » ، وقد أقيم لهذا الفنان الكبير متحف خاص به فى باريس يضم أعماله وهو المتحف المعروف باسم « متحف رودان » . وعندما تعرف « ريلكه » إلى رودان تعلق به واقترب منه ، بل عمل سكرتيرا له لمدة قصيرة لا تزيد على ثمانية شهور ، وفى مرسم رودان تعرف « ريلكه » على إحدى تلميذات النحات الكبير وكان اسمها كلارا فستهوف ، فأحبها وتزوجها ، وكانت كلارا تمتاز إلى جانب نبوغها الفنى بالجمال الساحر . ورغم ما كان بين الزوجين الشابين من حب متبادل إلاّ أن زواجهما لم يدم طويلا ، فقد انتهى هذا الزواج بالانفصال . ولعل السبب الرئيسى الذى أدى إلى فشل هذا الزواج الذى كان قائما على الحب هو أن الزوجين كانا مشغولين بفنهما ، فكان كل منهما يعيش فى عالم مستقل ، تشغله همومه الروحية الخاصة به ، وتشغله من جانب آخر همومه الفنية ، فلم يكن أى منهما قادرا على أن يذوب فى شخص الآخر ، أو يتخلص من مشاغله ليعطى حياته واهتمامه الكامل لمن يحبه .. ومن هنا انفصل الزوجان الحبيبان بعد علاقة زوجية قصيرة .

وبعد هذا الزواج السريع عاد « ريلكه » إلى حياة الاغتراب والتنقل من بلد

إلى بلد . وقد ترك باريس ، وترك العمل مع أستاذه رودان بعد أن تعلم منه - كما يحدثنا الدكتور عبد الغفار مكاوى فى كتابه « ثورة الشعر الحديث » : « أن يتخلص فى فنه من العاطفية المائعة الفضفاضة ، ويتجه إلى تصوير عالم الأشياء فى صيغ موضوعية دقيقة ، ويبتعد عن الأحزان الدائرة حول « الأنا » المعذبة ليترك الأشياء نفسها تعبر من خلال شعره عن جوهرها الحقيقى » .

ابتعد « ريلكه » عن باريس التى أزعجته بضجيجها وزحامها ، والتى خرج منها بحب فاشل وزواج قصير لم يهنأ فيه بالسعادة الحقيقية ، واتجه الشاعر فى رحلاته الجديدة إلى الشرق ، فزار الجزائر وتونس ، ثم زار مصر وبقى فيها ثلاثة شهور امتدت من يناير ١٩١١ إلى مارس من نفس العام . وقد تركت زيارته لمصر فى نفسه أثرا شديد العمق ، فقد أحس فيها بما يبعثه الماضى من سحر يتمثل فى الآثار المصرية الخالدة المثيرة ، كما أحس فيها بالدفء الجميل والشمس الساطعة وبساطة الناس . وقد كانت مصر فى بداية هذا القرن تتفتح كالزهرة الجميلة على الحياة الحديثة ، دون أن تفقد شخصيتها الحضارية الرصينة ، وكانت بلدا يتمتع بالهدوء ، ولم تكن قد أسلمت نفسها بعد للضجيج والزحام والتهافت على أساليب الحياة الغربية ، وكانت بلدا يمزج فى اعتدال وأصالة بين الجوانب الروحية والجوانب المادية فى الحياة . ومن هنا وجد « ريلكه » فى مصر اطمئنان القلب والروح ، ولم يشعر فيها مع هذا الاطمئنان الروحى أنه معزول عن حضارته الأوروبية .

وعندما جاء « ريلكه » إلى مصر ، وكانت مصر خاضعة للاحتلال البريطانى ، وكان الخديو عباس حلمى الثانى هو حاكم البلاد ، وكان هذا الحاكم يكره الانجليز ويشعر بالولاء للأتراك الذين كانوا فى تلك الفترة يميلون إلى الألمان ، ولم تمض سنوات قليلة حتى اشتعلت الحرب العالمية الأولى ، ووقفت تركيا مع ألمانيا فى هذه الحرب ، وتم عزل الخديو عباس حلمى الثانى بسبب مواقفه الموالية لتركيا وألمانيا فى هذه الحرب . ولاشك أن « ريلكه » قد وجد فى مصر عند زيارته لها نوعا من الترحيب والمودة ، فقد كان هناك شعور عام بالعداء للاحتلال الانجليزى والتعاطف مع الدول الأوروبية الأخرى التى كانت تتصدى للمطامع الانجليزية وعلى رأسها ألمانيا ، ومن المؤكد أن ألمانيا لم تكن تعارض

انجلترا لوجه الله والمبادىء الانسانية ، فقد كانت لها هى الأخرى مطامعها ، ولكن المصريين لم يكونوا يشعرون آنذاك إلاّ بوطأة الاحتلال البريطانى الجاثم على صدر البلاد .

عاد « ريلكه » من مصر بعد زيارته التى استمرت ما يقرب من مائة يوم ، وقد حمل معه من هذه الزيارة تذكارا عزيزا هو نسخة من القرآن الكريم ، ظل الشاعر الألمانى الكبير يحتفظ بها حتى نهاية حياته .

وقد قضى « ريلكه » الفترة الأخيرة من حياته فى سويسرا ، وكان كثيرا ما ينزل ضيفا على بعض الأمراء والنبلاء الذين كانوا يحبون شعره ، ويعرضون عليه أن يعيش فى قصورهم حيث يوفرون له ما يريد لنفسه من عزلة وابتعاد عن ضجيج الحياة والمجتمع . وفى هذه الفترة الأخيرة من حياته ، وفى فندق « سافوى » بمدينة لوزان السويسرية التقى الشاعر بفتاة مصرية اسمها نعمت علوى ، وكانت فتاة جميلة ساحرة ومثقفة . ونعمت علوى هى إحدى فتيات الأرستقراطية المصرية التى تعلمت تعليما أوروبيا كاملا . وكان بعض أبناء هذه الطبقة الأرستقراطية يميلون إلى الحياة فى العواصم الأوروبية المختلفة ، حيث يجدون فى هذه الحياة ما يحبونه من تحرر وانطلاق ، فالحياة داخل مصر كانت تخضع لكثير من القيود خاصة بالنسبة للمرأة ، فقد كانت التقاليد فى أوائل هذا القرن تحول بين المرأة المصرية وبين الخروج إلى الحياة العامة والمشاركة فيها .

وكانت الفتاة المصرية الأرستقراطية نعمت علوى التى التقى بها « ريلكه » فى لوزان من بين هؤلاء الذين ضاقوا بالقيود والتقاليد ، واختاروا الحياة فى المجتمع الأوروبى الحديث . ونعمت علوى هذه هى ابنة أحمد خيرى باشا ، وهو سياسى مصرى من أصل تركى عمل وزيرا للمعارف بعد هزيمة الثورة العرابية ودخول الاحتلال الإنجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ . وقد شغل أحمد خيرى باشا منصبه كوزير للمعارف فى وزارة محمد شريف باشا التى تم تشكيلها فى أغسطس ١٨٨٢ . واستمر خيرى باشا فى منصبه الوزارى حتى يناير سنة ١٨٨٤ ، وكانت ابنته نعمت علوى متزوجة من أحد أبناء هذه الطبقة الأرستقراطية المصرية ذات الأصول التركية واسمه عزيز علوى ، ومن هذا الزوج أخذت اسمها

الثانى على الطريقة الأوروبية ، واشتهرت بهذا الاسم وليس باسمها الأصلى وهو نعمت خيرى .

كانت نعمت علوى تعيش فى سويسرا بعد انفصالها عن زوجها الأول ، وكان من الواضح أنها تعرف الألمانية وتجيدها ، وقبل أن تلتقى بالشاعر الكبير « ريلكه » كانت قد قرأت أعماله وأحبتها ، وأحست بما فى شعره من جمال وعمق ، ولمس الشاعر قلبها بموهبته الفنية الرائعة . وعندما التقى « ريلكه » بنعمت علوى أحسا بالتفاهم المتبادل الذى سرعان ما انتهى إلى حب عنيف ملتهب بين الاثنين ، وتوثقت العلاقة بينهما ، وأصبحا لا يفترقان ، بل وجد أمير شعراء ألمانيا فى حبيبته المصرية أعظم تجربة عاطفية فى حياته ، ولكن سوء الحظ أحاط بهذه التجربة الكبيرة فمات الشاعر سنة ١٩٢٦ ، وهو فى الواحدة والخمسين من عمره .. مات وهو فى قمة نشوته الوجدانية والعاطفية مع حبيبته المصرية .

ويحدثنا الدكتور بديع حقى فى كتابه الممتع « ريلكه - أمير شعراء ألمانيا » عن نهاية هذه القصة الغريبة المفجعة فيقول :

« مات ريلكه بمرض حملته إليه نعمت علوى من زوجها السابق عزيز علوى ، فحزنت عليه هذه الحبيبة اللدود القاتلة حزنا عظيما ، وعرفها أمير روسى الأصل اسمه نيقولاى متشرسكى فعطف عليها وقبلت به زوجا تأنس إلى حنانه ، لتنسى ألمها العظيم بفراق ريلكه الأبدى ، غير أن سوء الحظ كان يلاحقها بغير هوادة ، إذ لم يمض على زواجها غير أسابيع حتى أعلنت الحرب العالمية الثانية فى ٢٩ سبتمبر ١٩٣٩ ، واضطر زوجها أن يلتحق بالجيش ويذهب إلى الحرب ، وأن تذهب هى إلى نورماندى مع العائلات الفرنسية الهاربة ، وماتت قبيل تحرير أوروبا ، وقد لفظت أنفاسها وهى منكبة على صورة ريلكه ورسائله وكتبه ..

وما يقوله الدكتور بديع حقى عن المرض الذى قضى على « ريلكه » يحتاج إلى شيء من إعادة النظر ، فإذا كانت نعمت علوى هى التى نقلت إليه المرض ، فلابد أن يكون هذا المرض من الأمراض السرية ، ولابد أن تكون هى نفسها مريضة به ، ولم يكن لهذه الأمراض أى علاج فى ذلك الوقت ، لأنها ظلت من الأمراض الغامضة حتى تم اكتشاف البنسلين فى أواخر الحرب العالمية الثانية ،

وقد عاشت نعمت علوى بعد وفاة « ريلكه » بأكثر من خمسة عشر عاما ، فكيف يقتل هذا المرض الشاعر الألمانى ويبقى على حبيبته المصرية طيلة هذه الفترة ؟ ..

إن هناك رواية أخرى عن مرض أمير شعراء ألمانيا . وتقول هذه الرواية إن الشاعر قد مات بمرض « اللوكيميا » وهو زيادة كرات الدم البيضاء ، ويسمى أحيانا باسم سرطان الدم وهو مرض خطير قاتل ، وهذا الرأى فى مرض « ريلكه » وموته هو ما نميل إليه ونأخذ به ، وبذلك تكون نعمت علوى بريئة من تهمة نقل المرض إلى حبيبها الشاعر الألمانى العظيم ، لأنها لو كانت تحمل هذا المرض السرى لكان قضى عليها كما قضى على حبيبها ، ولكانت من ناحية أخرى قد عجزت عن الزواج من الأمير الروسى الذى تزوجته بعد « ريلكه » ، ولما استطاعت أن تعيش - بهذا المرض - أكثر من خمسة عشر عاما بعد وفاة حبيبها .



أزهـــار الشـــر فى حيـــاة بودلـير

الشاعر الفرنسى الكبير « شارل بودلير » يعتبر من أكبر شعراء العالم فى العصر الحديث ، ورغم أنه قد رحل عن الدنيا سنة ١٨٦٧ ، أى منذ ما يزيد على مائة وعشرين عاما ، إلا أن تأثيره فى الشعر العالمى المعاصر مازال قويا ، بل إن قوته تزداد مع الأيام . ويتفق الباحثون والنقاد على أن الشاعر الكبير هو المعلم الأول لمدارس الشعر الحديث فى أوروبا كلها ، وأن قصائده هى النبع الذى خرجت منه التيارات التجديدية فى الشعر الأوروبى المعاصر . ومازال فن هذا الشاعر الكبير يثير الجدل بين الجميع . وكل جيل أدبى

يكتشف فى أشعار « بودلير » شيئا جديدا ، مما يدل على خصوبة الشاعر وقوة موهبته ، كل ذلك رغم أن إنتاجه لم يكن غزيرا ، كما أن حياته كانت قصيرة ، فقد ولد سنة ١٨٢١ ومات سنة ١٨٦٧ ، أى أنه عاش ستة وأربعين عاما . وعندما حانت وفاته كان قد وصل إلى درجة عالية من النضج الفنى الكبير الذى كان يبشر بأنه سوف يقدم للأدب الإنسانى مزيدا من الأعمال الهامة تضاف إلى إنجازاته الشعرية الرائعة ، وعلى رأسها ديوانه المشهور « أزهار الشر » ، ولكن تدهور صحته لم يمهله حتى يعطى كل ما لديه .

ولقد عاش « بودلير » حياة مضطربة ، وكان السبب الرئيسى فى هذا الاضطراب نابعا من نفسه القلقة الممزقة ، فلو كانت نفسه هادئة مطمئنة لوجد السبيل إلى حياة سعيدة ، ولاستطاع أن ينجو من الأمراض التى حطمت حياته فى سن مبكرة ، ولكن الذى يطلب من « بودلير » أن يكون هادئا مطمئن النفس هو كالذى يطلب من العاصفة أن تكون نسيما عليلا شديد الرقة ، ومن الشلال المندفع أن يكون جدولا عذبا يجرى فى لين وسهولة ورفق . والحقيقة أن « بودلير » كانت لديه مجموعة من المشاكل الواقعية المفروضة عليه والتى لا يد له فيها ، وكان يستطيع أن يتحكم فى هذه المشاكل وأن يجد لها حلولا ، لولا أنه كان صاحب شخصية أخرى غير شخصيته العصبية القلقة ، فهذه الشخصية هى مصدر متاعبه التى قضت عليه فى النهاية ، ولكنها هى أيضاً مصدر عبقريته الفنية التى جعلت منه واحداً من أكبر شعراء العالم كله .

كانت المشكلة الأولى والكبرى فى حياة « بودلير » هى مشكلته مع أمه ، فقد كانت أمه كارولين امرأة جميلة مرهفة الإحساس ، تزوجت وهى فى السابعة والعشرين من مدرس فى الثانية والستين ، وكان هذا الزوج العجوز هو فرانسوا بودلير ، والد الشاعر . وقد جاء هذا الزواج غير المتكافىء ، نتيجة لفقر الأم وحرمانها من والدها الذى مات وهى صغيرة ، مما جعلها تقبل الزواج من رجل كانت زوجته الأولى قد ماتت ، وكان فى سن أبيها . وكان هذا الزوج ميسورا قادرا على أن يوفر لزوجته كل ما تحلم به من استقرار مادى وحياة ناعمة هادئة . كما كان هذا الزوج يعامل زوجته الصغيرة معاملة طيبة ، وكثيرا ما كان يناديها بقوله « يا ابنتى » وكانت تناديه أحيانا بقولها « يا صديقى » ، فقد كان الفارق بينهما

فى العمر خمسة وثلاثين عاما ، وهو فارق كبير كان كفيلا بأن يجعل هذا الزواج مأساة كاملة ، ولكن الزوجين مع ذلك استطاعا أن يخلقا من حياتهما المشتركة علاقة يسودها الود والتفاهم والتعاطف حتى النهاية .

فمن أين جاءت مشكلة « بودلير » فى هذه الأسرة الميسورة المتفاهمة ، والتى تخلو حياتها من العواصف والاضطرابات الكبيرة ؟... لقد جاءت المشكلة من الحنان الزائد الذى أعطته الأم لطفلها ، فقد جعلت الأم من هذا الطفل موضوعا لعواطفها المشتعلة فأغرقته فى الحب والتدليل ، حتى تعلق بها الطفل تعلقا غير عادى ، وأصبحت هذه الأم هى كل شىء فى حياته . ومات أبوه وهو فى السادسة من عمره ، فازداد تعلق الأم بإبنها وتدليلها له ، وتصور الابن الحساس أنه « امتلك » هذه الأم لنفسه وحده بعد وفاة أبيه ، فلم يعد هناك من يشاركه فيها ، ولا من ينافسه على قلبها واهتمامها . ولكن الأيام لم تحفظ للطفل هذا العالم الجميل الذى كان يشعر فيه بالسعادة الكاملة ، فقد تزوجت أمه ضابط فرنسى كبير ، وتم هذا الزواج بعد ثمانية عشر شهرا من وفاة الأب ، وكان زواج الأم من الضابط جاك أوبيك بمثابة الكارثة التى وقعت على رأس الطفل وقلبت حياته بصورة كاملة . لقد وجد فى زواج أمه من رجل غير أبيه نوعا من التخلى عنه ، ووجد نفسه من الناحية العملية يفقد حنان الأم الغامر ويخرج من الجنة التى كانت تهيئها له هذه الأم عندما كان اهتمامها كله منصرفا إليه وحده . وبعد زواج الأم تقرر إلحاق « بودلير » بمدرسة داخلية ، وفى هذه المدرسة وجد عالماً آخر ، فقد كانت هناك أوامر صارمة بالتزام النظام الدقيق ، والدراسة المستمرة الشاقة ، ولم تكن هناك امتيازات خاصة لهذا الطفل المدلل الذى تعود على أن يكون الملك المتوج فى بيت أمه قبل أن تتزوج من الضابط أوبيك . وقد أدى هذا الوضع الجديد فى المدرسة الداخلية إلى اختلال كبير وملحوظ فى حياة « بودلير » ، ففشل فى دراسته ، وانتهى الأمر بطرده من المدرسة ، ولكنه واصل دراسته من خارج المدرسة حتى نال الشهادة الثانوية . وعندما وصل إلى سن الصبا والشباب الأول كانت مواهبه الأدبية قد تفتحت ، وكانت قراءاته الكثيرة فى الشعر والرواية والفلسفة وسائر ألوان المعرفة قد ساعدته على إنضاج موهبته الكبيرة المتميزة .

على أن موهبة « بودلير » العظيمة لم تنقذه من الاضطراب النفسى الشديد .

فقد أصبح شابا شديد القلق والتوتر ، وكان عصبيا لا يعرف طعما للهدوء أو الطمأنينة ولا يحس بالأمان على الإطلاق ، ولم تكن لديه فى بداية شبابه أى مشكلة مادية ، لأنه كان قد ورث عن أبيه ثروة صغيرة تقدر بخمسة وسبعين ألف فرنك فرنسى ، وكانت هذه الثروة التى آلت إليه عندما بلغ سن الرشد حوالى سنة ١٨٤٢ ثروة كبيرة القيمة فى ذلك الوقت ، وهى تساوى الآن مليونين من الفرنكات على أقل تقدير ، ولو أن « بودلير » أحسن التصرف فى هذه الثروة لاستطاع أن يعيش بقية حياته مطمئنا تمام الاطمئنان من الناحية الاقتصادية ، ولاستطاع أن يتفرغ لأدبه دون أن يكون مضطراً لبذل أى جهد فى عمل آخر ، وهذا الوضع هو من الأحلام الكبرى التى يتمنى كثير من الأدباء تحقيقها ، فما أكثر الأدباء الذين سحقتهم الظروف المادية ، وحرمتهم من التفرغ لفنهم وثقافتهم ، وأنهكت قواهم لاضطرارهم إلى أن يشغلوا أنفسهم بأعمال غير أدبية تضمن لهم مصادر عيشهم . وقد كانت هذه الفرصة الثمينة التى يتمناها أدباء كثيرون كفيلة بأن تضمن لـ « بودلير » حريته واستقلاله وراحة باله ، ولكن الذى يعانى من القلق العنيف لم يستطع أن يتصرف فى الثروة الصغيرة الكافية فى نفس الوقت والتى تركها له أبوه ، فأوشكت هذه الثروة أن تضيع منه بسبب سوء تصرفه ، واندفاعه إلى ألوان متعددة من الانحراف أودت بأمواله ، بل أودت فى نهاية الأمر بحياته نفسها .

ظل « بودلير » طيلة حياته يحس بأنه فقد أمه التى كان يحبها أشد الحب . وقد ظلت « صدمته » بسبب الزواج الثانى لأمه بعد وفاة أبيه مسيطرة عليه حتى نهاية حياته ، خاصة وأنه كان على خلاف مع زوج أمه ، وهذا هو ما دفع العديد من النقاد والباحثين إلى الحديث عما يسمى باسم « عقدة أوديب » أى الحب غير العادى للأم ، والتعلق بها فى صورة تتحول بالتدريج إلى نوع من المرض ، وهذا هو الذى جعله يتصور دائما أن زواج أمه من رجل آخر غير أبيه هو نوع من الخيانة التى لا تغتفر ، والتى لم يستطع هو نفسه أن ينساها أو يتخلص من أثرها عليه فى أى يوم من أيام حياته .

لقد اندفع « بودلير » إلى انحرافات خطيرة منها السكر ، وإدمان الحشيش والأفيون ، ومعاشرة النساء الخاطئات وما إلى ذلك من ألوان السلوك المنحرف ،

مما أدى إلى دمار صحته وأوقعه فريسة لمرض كان من أخطر الأمراض فى عصره هو مرض الزهرى . وكان الزهرى فى الماضى أشبه بالايدز فى عصرنا الحالى ، فالمريض به لا علاج له ، ولابد أن يقضى عليه هذا المرض ، حيث لم يتمكن الطب من علاج الزهرى إلا بعد اكتشاف البنسلين منذ أقل من نصف قرن ، وبالتحديد خلال الحرب العالمية الثانية . وكان هذا المرض هو الذى قضى على حياة « بودلير » حيث أصيب بالشلل النصفى فى سنواته الأخيرة ، وانتهى الأمر إلى وفاته كما ذكرنا فى السادسة والأربعين من عمره . وكان هذا المرض قد انتقل إليه من امرأة يهودية كانت تعيش من بيع جسدها ، وقد عاشرها « بودلير » فترة ، ومنها أخذ المرض القاتل ، واسم هذه المرأة « سارة لوشيت » .

وإذا كانت كارولين أم « بودلير » هى الشخصية النسائية الأولى فى حياته ، وهى التى تعلق بها الشاعر تعلقا بلغ حد المرض ، فقد كان هناك امرأة أخرى لها دور كبير فى حياة هذا الشاعر العظيم الضائع ، هذه المرأة هى جان ديفال ، وكانت ممثلة من الدرجة الثالثة ، أو من الكومبارس ، وكانت سمراء بل أقرب إلى السواد ، ولكنها كانت جميلة ومثيرة ، وقد جاءت إلى باريس من جزيرة هايتى فى المحيط الأطلسى ، وهذه الجزيرة مليئة بالزنوج والملونين وقد خضعت خلال فترة من تاريخها لسيطرة فرنسا ، ومن هنا كان الكثيرون من أهلها ينتقلون منها إلى المدن الفرنسية وعلى رأسها باريس ، وكانت جان ديفال واحدة من هؤلاء . ولم تكن جان ديفال فنانة موهوبة ، ولم تكن مثقفة ولا محبة للثقافة ، ومع ذلك فقد أحبها « بودلير » وتعلق بها تعلقا شديدا ، واستمرت العلاقة بينهما ما يقرب من عشرين سنة . وقد تعرف عليها « بودلير » سنة ١٨٤٣ ، ولم يقطع علاقته بصورة نهائية معها إلاّ حوالى ١٨٦٣ ، أى قبل وفاته بأربع سنوات .

وعندما نتابع تفاصيل هذه العلاقة نجد أنها كانت علاقة بالغة الغرابة ، فـ « بودلير » الفنان الموهوب والمثقف الكبير لم يكن يجد فى هذه الممثلة الفاشلة أى غذاء لروحه ، فلم تكن تقدر شعره ، بل لم تكن تفهمه أصلاً ، ولم تكن محبة للثقافة أو مهتمة بأى فن من الفنون ، حتى ولا فن التمثيل الذى احترفته من باب الارتزاق ، ولم تكن حريصة على الاستمرار فيه ، وكانت العلاقة بين هذه المرأة وبين الشاعر « بودلير » مليئة بالمشاكل والاضطرابات ، ولم يكن هناك تفاهم

عميق يربط بين الشخصيتين إلاّ فى المجال الجسدى فقط . ومع ذلك فقد حرص « بودلير » على هذه العلاقة ، وطلب من جان ديفال أن تترك عملها فى المسرح فتركته على الفور ، واستأجر لها منزلا قام بتأثيثه بصورة طيبة جميلة ، واستمر فى الإنفاق عليها بإسراف وسفه ، حتى أضاع أكثر من نصف ثروته ، مما اضطر أسرته إلى رفع قضية « حجر » ضده لمنعه من التصرف فيما بقى له من مال قليل ، وحكم القضاء بالحجر عليه ، ولم يعد مسموحا له بالتصرف فى « أصل » أمواله الباقية ، وأصبح المسموح به هو التصرف فى أرباح هذه الأصول فقط ، وكانت الأرباح بالطبع محدودة وقليلة ، مما فرض عليه ضائقة اقتصادية حادة ظل يعانى منها حتى النهاية . وقد قادته هذه الضائقة إلى أمرين خطيرين : الأول هو الاستدانة المستمرة وعدم القدرة على رد الديون المستحقة عليه . والأمر الثانى هو اضطراره إلى احتراف الكتابة فى الصحف . وكان « بودلير » يكره احتراف الكتابة ، ويرى فيه أمراً ضاراً بحرية الفنان واستقلاله . والحقيقة أن اضطراره إلى الاحتراف كان له نتائج ثقافية طيبة . فقد كشفت كتابات « بودلير » النثرية عن موهبة عالية فى « النقد » إلى جانب موهبته الشعرية الكبيرة ، وكان لكتابات « بودلير » النقدية فضل اكتشاف الفنان الألمانى الكبير فاجنر وموسيقاه وروائعه الأوبرالية . وكان فاجنر حتى ذلك الحين مجهولا فى فرنسا ، بل وكان مجهولا فى معظم البلدان الأوروبية خارج ألمانيا . كذلك قدم « بودلير » للفرنسيين قصاصا وشاعرا أمريكيا مشهورا هو إدجار ألن بو ، وكان هذا الفنان الكبير أيضاً مجهولا من الفرنسيين ، فعكف « بودلير » على دراسته وترجمة أعماله إلى الفرنسية ، وأصبح هذا الفنان الأمريكى عنصرا من عناصر التأثير القوى على الثقافة الفرنسية بفضل الجهد الذى بذله « بودلير » .

ويظل السؤال الأساسى هو : لماذا أحب « بودلير » هذه المرأة السوداء الجاهلة جان ديفال ؟ ... ولماذا احتفظ « بودلير » بعلاقته مع هذه المرأة طيلة عشرين سنة رغم ما كان بينهما من خلافات دائمة مستمرة ؟ ... إن تفسير هذه العلاقة الغريبة بصورة دقيقة أمر صعب ، والبعض يقول إن هذه العلاقة كانت « انتقاما » يمارسه الشاعر ضد أمه التى كان يحبها كل الحب ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يغفر لها أنها تركته وتزوجت من الضابط أوبيك الذى حرم الشاعر من حنان أمه ، وطرده من جنة حبها له وعطفها المخلص الصادق عليه . وقد

كان زوج الأم يعامل الشاعر « بودلير » معاملة « عسكرية » فيطلب منه الانضباط والدقة ، ويفرض عليه الحياة فى مدرسة داخلية يتميز نظامها بالقسوة . وقد تمرد الشاعر على هذا كله ، وهرب منه إلى أحضان حبيبته « السوداء » ، وكان يجد فى هبوطها الأخلاقى والثقافى ، رداً على ما كان مفروضا عليه من زوج أمه . وهذا التفسير لسلوك « بودلير » وحبه لجان ديفال يمكن أن يكون تفسيرا صحيحاً إذا عرفنا أن الشاعر الكبير كان صاحب طبيعة معقدة ونفسية شديدة الاضطراب ، وكان يعيش بأعصاب حادة مرهفة هى فى الواقع أعصاب محطمة ، وكان دائم البحث عن تجارب إنسانية مثيرة تحرك مشاعره وتشعل عواطفه ، وكان شديد الضيق بالأخلاق الأرستقراطية التى تحرص على المظاهر وتخفى أحاسيس الإنسان الحقيقية وراء ستائر كثيفة من المجاملات والرقة المفتعلة . وكان الشاعر يريد ، أن يثير فى نفسه وفى حياة عصره وجمهوره من خلال قصائده « صدمة أدبية » حتى ينتهى ذلك بالكشف عن حقيقة الحياة وما فيها من آلام ، وحتى يكون الشعر مرآة صحيحة لتصوير عذاب الإنسان فى هذه الدنيا .

لقد كانت علاقة « بودلير » بحبيبته السوداء نوعا من الانتحار البطىء . اندفع إليه هذا الشاعر الكبير الساخط الذى يرى أن الألم والعذاب والموت هى كل ما فى الحياة من حقائق . وقد ساهمت جان ديفال فى تحطيم الشاعر اقتصادياً ونفسيا وصحيا ، ورغم أن هذه الحبيبة السوداء كانت تستنزف « بودلير » من خلال اعتمادها المالى الكامل عليه ، إلا أنها لم تكن وفية له ، فما أكثر ما خانته مع غيره من الرجال ، ولكن « بودلير » الذى كان يحب تعذيب نفسه سرعان ما كان يغفر الخيانة لحبيبته السوداء ويعود إليها ، كل ذلك رغم إدراكه أن هذه الحبيبة تقضى عليه يوما بعد يوم ، وتحطم صحته وأعصابه بصورة تدريجية .

ولكن حياة « بودلير » المضطربة الغريبة المليئة بألوان الانحراف لم تستطع أن تدمر فنه الجميل المثير . فقد كان حريصا بصورة غير عادية على أن ينقذ فنه من الاضطراب والفوضى ، وكان يبذل فى كتابة قصائده جهدا كبيرا ، فيراجع كل كلمة يكتبها مرات عديدة . فقد كان الفن عنده هو المنطقة المحرمة ، والتى لا يسمح لنفسه ولا لأحد غيره أن يعبث بها ، ومن هنا جاء فنه جديدا مدهشا لكل الناس فى عصره ، ومازال هذا الفن بديعا ومدهشا إلى الآن ، بل ومازال هذا الفن

الشعرى مدرسة يتعلم فيها المجددون من الشعراء ، كيف يكون الشعر عظيما ومؤثرا ، وكيف تكون الكلمات دقيقة وشديدة الإيجاز والتركيز . وكان « بودلير » يؤمن بأن الفن الحقيقى لا يعرف المبالغات ، ولا الزخارف الشكلية التى إن دلت على المهارة فإنها لا تدل على العمق والصدق . كما أن « بودلير » قد غير موضوع الشعر تغييرا كاملا ، فأصبحت الحياة الشعبية ، وتجارب الخاطئين والمنبوذين من المجتمع ، مصدرا من مصادر موضوعاته الشعرية المفضلة . وعندما أصدر ديوانه الشهير « أزهار الشر » ثار المجتمع عليه ثورة كبيرة ، ووجد نفسه متهما أمام القضاء بسبب كتابته لأشعار خارجة على المجتمع والأخلاق ، وحكمت عليه المحكمة بغرامة مالية ، كما حكمت بحذف أجزاء من ديوانه ، ولكن السنوات تمر ، ويصبح هذا الديوان الشعرى كاملا فى أيدى الناس ، وتتغير نظرة المجتمع إلى « أزهار الشر » ، ويرى فيه الأدباء فتحاً جديدا فى فن الشعر ، ويدرك الجميع أن تعبير الشاعر بهذه الدقة والأمانة وهذا الجمال الساحر عن خطايا الناس إنما هو محاولة كبيرة لإنقاذ الإنسان من خطاياه وتحريره من آلامه ، ثم هو محاولة لإيقاظ المجتمع الذى يخلق ظروف الخطأ والانحراف ، حتى يكون هذا المجتمع أكثر فهما فى معاملة المذنبين والخطاة والذين عذبتهم الحياة ، ليس على أنهم مجرمون بل مرضى . والمجرم يستحق العقاب ولكن المريض والضحية يستحقان العلاج والرحمة .

وخلاصة العبرة فى حياة « بودلير » ، أنه عاش معذبا متألما وأغرق نفسه فى الديون والمخدرات ، وأضاع أهم سنوات عمره مع حبيبته السوداء التى لم تكن تفهمه أو تقدر مواهبه ، ولكنه رغم ذلك حافظ فى بسالة شديدة على الجانب النقى فى شخصيته ، وهو جانب الموهبة الشعرية الكبيرة والأصيلة التى كان يمتلكها . وقد عانى الكثير من أجل هذه الموهبة ، ومن أجل التعبير الصادق عن نفسه وعصره وآلام المطحونين الضائعين فى المجتمع . وقد ذهبت انحرافات « بودلير » الشخصية ودفع وحده ثمنها من صحته وسعادته . ولكن فنه ظل حيا نقيا مؤثرا على الوجدان الإنسانى فى كل مكان وزمان . لقد أنقذ « بودلير » فنه وإن كان قد أضاع حياته ، وأضاع ما كان يرجوه لنفسه من سعادة وهناء ، ولو أنه حرص على حياته حرصه على فنه لعاش أفضل وأنتج إنتاجا أغزر ، وحقق لنفسه جانبا من السعادة التى حققها للآخرين بفنه العظيم .



الموسـيقار والإمبراطـور

كان نابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١) أهم شخصية فى أوروبا وربما فى العالم كله فى أوائل القرن الماضى ، وبالتحديد فى الفترة الممتدة من تعيينه قنصلا أول لفرنسا سنة ١٧٩٩ إلى سنة ١٨١٥ ، وهى السنة التى سقط فيها بعد معركة « ووترلو » المشهورة . وكان « نابليون » يجمع فى شخصيته بين الكثير من عناصر العبقرية التى لم تجتمع على مدى التاريخ إلاّ فى أشخاص قلائل .

كان « نابليون » يتمتع بعبقرية عسكرية نادرة ، مما أتاح له أن يعيد تكوين

الجيش الفرنسى الهزيل الجائع غير المنظم ، ليجعل منه أعظم جيوش أوروبا على الإطلاق ، من حيث التنظيم والكفاءة والثقة بالنفس والشجاعة النادرة ، وبهذا الجيش المتفوق استطاع « نابليون » أن يُخضع معظم الدول الأوروبية لإدارة فرنسا وسلطانها المباشر أو غير المباشر . ولقد كان « نابليون » فى المجال العسكرى من كبار المجددين الذين مازالت نظرياتهم وأساليبهم الحربية موضع البحث والدراسة عند المؤرخين والعلماء العسكريين ، وستظل هذه النظريات والأساليب الحربية التى ابتكرها « نابليون » موضع الاهتمام الكبير على مر التاريخ .

إلى جانب هذا النبوغ العسكرى عند « نابليون » فقد تفوق بنفس الدرجة فى مجالات أخرى منها السياسة والإدارة والقانون والثقافة ، وله فى كل هذه المجالات آثار خالدة لا تمحوها الأيام . ومن المعروف أن « نابليون » حتى اليوم يحتل المكان الأول فى الدراسات التى صدرت منذ ظهوره إلى الآن بين الباحثين والمؤرخين ، فهو الشخصية التاريخية التى تحظى بأكبر عدد من الكتب التى تتناول سائر جوانب شخصيته عاما بعد عام .

وإذا كان « نابليون » قد أثار الإعجاب والاهتمام والغيرة والحسد بين رجال السياسة والحرب فى عصره ، فإنه من الناحية الجماهيرية كان البطل الأول الذى اجتمعت معظم شعوب أوروبا على الإعجاب به والاحترام له ، وكان الإجماع على محبته والالتفاف حوله فى فرنسا بالتحديد أمراً لا يقبل الشك أو المجادلة . وقد وصفه أحد أدباء فرنسا وصفا جميلا فقال : « إن نابليون وتصرفاته فى الأمور العامة كانت مثل قصائد الشعر ، فكل عمل من أعماله هو قصيدة من الفن الرفيع ، مليئة بالجمال والجاذبية والقدرة الواسعة على التأثير » .

وكان مصدر إعجاب المثقفين والفنانين والأدباء به هو أنه كان زعيما للحرية فى أوروبا ، وكان وريثا وممثلا لثورة فرنسا العظمى (سنة ١٧٨٩) ، وكان حارسا لمبادىء هذه الثورة المشهورة وهى مبادىء الحرية والإخاء والمساواة . فقد كان « نابليون » فى كل أعماله ومعاركه العسكرية يحارب الأرستقراطية والعروش الأوروبية التى قامت على استغلال البشر وامتصاص دمائهم ، وذلك حتى تحصل على أنهار اللبن والعسل فى قصور الأغنياء والأسر القديمة التى احتكرت السلطة والثروة قرونا بعد قرون ، بينما يعانى أبناء الشعب من الحياة

القاسية والجهد المضنى بحثا عن لقمة الخبز والحد الأدنى من الحياة الإنسانية . وجاء « نابليون » ليرفع راية الحرية ويدعو إلى الإخاء والمساواة وحقوق الإنسان ، وليتيح الفرصة الواسعة أمام البشر جميعا دون نظر إلى الأصل العائلى أو الاجتماعى للأفراد ، فقيمة الإنسان تتحدد بمدى ما يبذله من جهد ومستوى ما يملكه من كفاءة وموهبة وقدرة على العمل والإنتاج ، والكل فى هذا المجال سواء ، ومن هنا استطاع الكثيرون من أبناء الطبقات الفقيرة أن يصعدوا فى عصره إلى أعلى درجات السلطة ، فمنهم من أصبحوا وزراء أو قادة فى الجيش ، ومنهم من أصبحوا قادة فكر وأدب وثقافة يؤثرون فى الرأى العام على أوسع نطاق .

وقد اختار « نابليون » عندما أصبح حاكم فرنسا أن يسمى نفسه « القنصل الأول » ، واختاره الشعب الفرنسى قنصلا أول مدى الحياة سنة ١٨٠٢ . وكلمة « قنصل » هذه ظهرت لأول مرة فى تاريخ العالم فى روما ، عندما اتجه الرومان فى عهد إمبراطوريتهم التى كانت أقوى دولة فى الدنيا قبل الميلاد بحوالى أربعمائة سنة ، إلى نوع من الحكم الجمهورى الديمقراطى ، فكان القنصل ممثلا للشعب يتم اختياره من مجلس الشيوخ الرومانى ليتولى الحكم خلال مدة محدودة ، ثم يتم اختيار قنصل آخر ، ليتولى السلطة ، حتى لا يتحول الحكم إلى حكم فردى استبدادى غير ديمقراطى ، يسيطر عليه فرد واحد ويتوارثه أبناء أسرته من بعده .

هذه هى فكرة القنصل الرومانى فى عهد الجمهورية ، حيث كان هذا القنصل أهم موظف عام فى الدولة ، يتولى الحكم باختيار الشعب لخدمة الشعب . ومن هنا اختار « نابليون » لقب « القنصل الأول » تعبيرا عن الشكل الجديد للحكم الذى يؤمن به ويدعو إليه ، وهو الحكم الجمهورى ، الذى يختار فيه الشعب « القنصل » أو الحاكم . ولم يكن الحكم الجمهورى فى عصر « نابليون » معروفا فى أوروبا ، ولم يكن مقبولا من الأسر الملكية القديمة الحاكمة فى الدول الأوروبية المختلفة ، مما جعل « نابليون » يبدو وكأنه خطر ساحق على النظام الأوروبى الذى كان قائما فى ذلك الوقت على الحكم الاستبدادى المطلق لمجموعة من العائلات الأرستقراطية المعروفة والمتحكمة فى مصائر الدول الأوروبية المختلفة .

وفى عصر « نابليون » ظهر فى النمسا فنان موسيقى عرفته العصور الحديثة

وهو « لودفيج بيتهوفن » (١٧٧٠ - ١٨٢٧) وكان « بيتهوفن » فى أوائل القرن الماضى قد انتقل من موطنه الأصلى : ألمانيا ، ليعيش بصورة دائمة فى فيينا عاصمة النمسا ، وكان نجم « بيتهوفن » قد بدأ يسطع ويلمع فى أوائل عصر « نابليون » ، وأحس الناس أن فجرا جديدا فى الفن بصورة عامة ، وفى الموسيقى بصورة خاصة قد بدأ يولد على يد هذا الشاب الألمانى الوافد على النمسا : « لودفيج بيتهوفن » .

أما « بيتهوفن » نفسه فكان معجبا أشد الإعجاب بـ « نابليون » ، وكان يرى فيه رمزا جديدا لعصر إنسانى مختلف عن العصور السابقة التى كانت مازالت تسدل أستار الظلام على أوروبا ، هذا العصر الجديد الذى كان يمثله « نابليون » فى نظر « بيتهوفن » هو عصر الحرية والكرامة الإنسانية ، حيث تصبح قيمة الإنسان منسوبة إلى شخصه وكفاءته لا إلى أسرته وآبائه وأجداده . وكان « بيتهوفن » نفسه ابنا من أبناء الطبقات الشعبية ارتفع بعبقريته وفنه الرفيع إلى مكانة عالية فى المجتمع ، ومع ذلك فقد كان هناك كثيرون من أبناء الأرستقراطية وبناتها ينظرون إلى « بيتهوفن » على أنه « وضيع » النشأة ، ويحاولون معاملته على هذا الأساس ، ولم تقبل أى فتاة من بنات الأرستقراطية الأوروبية أن تبادل « بيتهوفن » الحب ، رغم أن الجميع - رجالا ونساء - كانوا مفتونين به كفنان عبقرى ، ولكنهم كانوا يتصورون أن وظيفته هى أن يملأ حياتهم بالمتعة ، وأن يسعدهم فى سهراتهم ولياليهم الناعمة بموسيقاه الرائعة ، ثم يذهب بعد ذلك إلى موقعه الأصلى المتواضع فى المجتمع .

وكان « بيتهوفن » يرفض هذا الوضع ويستنكره ، وقد وجد فى « نابليون » قوة جديدة خارقة ومليئة بالبطولة ، تندفع فى الطريق إلى إعلاء شأن الإنسان ورفع قيمته ... إن « نابليون » فى نظر « بيتهوفن » كان ممثلا للعصر الإنسانى العظيم الذى يحلم به الفنان العبقرى .

ومن هنا قام « بيتهوفن » بتأليف السيمفونية الثالثة ، وهى إحدى روائع الفن العالمى فى كل العصور ، وسماها باسم سيمفونية « بونابرت » . ورغم أن « بيتهوفن » كان معروفا أنه لا يحب أن يطلق على أعماله الموسيقية سوى تسميات فنية مثل « السيمفونية الأولى والثانية والثالثة » وكان لا يميل أبدا إلى إطلاق

تسميات أخرى غير فنية على أعماله ، لكنه خرج على هذا المبدأ فى السيمفونية الثالثة حبا فى « نابليون » وتأييدا له ولمبادئه ، وتعبيرا عن مكانة هذا البطل التاريخى فى قلب الفنان العبقرى العاشق للحرية . وقد ألف « بيتهوفن » هذه السيمفونية بين سنتى ١٨٠٣ و ١٨٠٤ ، وأصبحت السيمفونية العظيمة مشهورة بارتباطها باسم « نابليون بونابرت » .

ولكن « نابليون » يرتكب فى مايو سنة ١٨٠٤ خطأ قاتلا من وجهة نظر « بيتهوفن » فيعلن نفسه إمبراطورا على الفرنسيين ، أو بالأحرى يدفع مجلس الشيوخ الفرنسى إلى تتويجه إمبراطورا على فرنسا ، ويذهب أحد تلاميذ « بيتهوفن » ليعلن إليه خبر تحول « القنصل » نابليون إلى « امبراطور » فيحس « بيتهوفن » بالغضب الشديد ، ويرى أن البطل قد تحول إلى ديكتاتور مستبد وحاكم طاغية ، مثله فى ذلك مثل سائر ملوك أوروبا الظالمين ، وتنهار أسطورة « نابليون » فى نظر « بيتهوفن » ، تماما كما أنهارت أسطورة « قيصر » فى نظر أصدقائه وعلى رأسهم « بروتس » . وذلك عندما قرر قيصر أن يتحول من « قنصل » إلى « إمبراطور » ، أى من رئيس للجمهورية إلى حاكم مستبد . فانقلب بروتس على صديقه قيصر وساهم فى قتله سنة ٤٤ قبل الميلاد .

كذلك فعل « بيتهوفن » مع « نابليون » ، لقد كان الفنان معجبا بالحاكم الديمقراطى الحر « القنصل نابليون » ، ولكنه يرفض الطاغية « الإمبراطور نابليون » . وعندما سمع « بيتهوفن » خبر تحول « نابليون » من قنصل إلى امبراطور عن طريق تلميذه فرديناند ريس صاح غاضبا : « إذن فنابليون هذا هو واحد من الناس جاء ليدوس على حقوق الإنسان ، ويعمل على تحقيق أطماعه الخاصة ويتعالى على البشر ، ويمعن فى الاستبداد والطغيان » .

ويحدثنا الدكتور حسين فوزى فى كتابه القيم الممتع عن « بيتهوفن » بما حدث عندما سمع الفنان العظيم بخبر فجيعته فى بطله « نابليون » فيقول : « اتجه بيتهوفن إلى المكتب وأمسك بصفحة عنوان السيمفونية من أعلاها وقد خط عليها اسم « بونابرت » ومزقها بالطول ورمى بها أرضا ، وانتهى أمره إلى محو اسم بونابرت من عنوان سيمفونيته الثالثة وسماها : سيمفونية البطولة - فى ذكرى رجل عظيم . (ص ٢١) .

وهكذا غير « بيتهوفن » موقفه من « نابليون » ، وكأن لسان حال « بيتهوفن » يقول فى لحظة التغيير : حتى أنت يا بونابرت ... لقد كنت أملا للحرية وكرامة الإنسان وأنت قنصل ديمقراطى ، أما الآن فقد أصبحت طاغية مثل سائر الطغاة بعد أن جعلت من نفسك امبراطورا مستبدا .

وقد كانت عند « نابليون » أسبابه المختلفة للتحول من قنصل إلى امبراطور ، ومن هذه الأسباب أنه أراد أن يخلق نظاما سياسيا لفرنسا ، لا يتعرض للمنازعات المختلفة والصراع بين القوى المتعددة على الحكم والسلطة ، ولكن هذا المنطق لم يكن يفيد عند « بيتهوفن » ، ولم يكن قادرا على الإقناع له أو لأى عقل حر آخر .

لقد أراد الفنان العظيم بطلا حرا ، ولم يكن يجد معنى فى حاكم متسلط ، يوزع المناصب على إخوته وأقربائه . وعلى الذين يظهرون الولاء الخالص له ، فيفرضهم على الشعوب المختلفة التى خضعت لسلطانه فى إيطاليا وأسبانيا وغيرهما من الدول الأوروبية ، ثم ينفصل عن زوجته جوزفين لكى يتزوج من مارى لويز ، لأن الأولى لم تنجب وريثا للعرش ، بينما أنجبت له الثانية هذا الوريث .

كان « نابليون » قد نزل من سماء الحرية والبطولة فى نظر « بيتهوفن » إلى أرض الصراع والسلطة والبحث عن المصالح الخاصة .

وهنا يعلن « بيتهوفن » ، امبراطور الفن ، ثورته على « نابليون » ، امبراطور السياسة والحكم والحرب .

لعل « بيتهوفن » كان على حق .. فمنذ أن أعلن « نابليون » نفسه امبراطورا بدأ نجمه يميل إلى المغيب بالتدريج البطىء حتى سقط سنة ١٨١٥ ، ومات منفيا فى جزيرة سانت هيلانة سنة ١٨٢١ . وبقى « بيتهوفن » حيا حتى سنة ١٨٢٧ ، لكنه لم يذرف دمعة واحدة ولم يعزف لحنا واحدا ، فى ذكرى « نابليون » ، لأن « نابليون » عند « بيتهوفن » كان قد مات سنة ١٨٠٤ .. عندما أعلن نفسه امبراطورا ، ونسى مبادىء الحرية والإخاء والمساواة .



أول العبقــرية صفعــة

كانت فى السادسة عشرة من عمرها عندما تلقت صفعة على وجهها من أختها الكبرى ، وكان سبب هذه الصفعة أن الأخت الكبيرة وجدت بين أوراق أختها الصغيرة صفحات مليئة بالتعبير عن بعض المشاعر الخاصة ، وتصورت الأخت الكبيرة أن شقيقتها إنما تعبر عن حب خفى بينها وبين أحد الشبان ، وكانت مثل هذه العلاقات فى المجتمع الأمريكى فى ذلك الوقت ، سنة ١٨٢٧ ، موضعا للاستنكار والرفض .

كانت الفتاة الصغيرة واسمها « هارييت » بريئة من التهمة ، فلم تكن تسعى

أبدا لمثل هذا النوع من العلاقات العاطفية ، الخفية أو العلنية ، بل كانت على العكس من ذلك تماما لا تشعر بالثقة فى نفسها ، وكانت تعرف أنها ليست ذات جمال ساحر أو جاذبية نادرة ، وكان إحساسها بأنوثتها شديد البساطة والتواضع ، ولم يكن ما كتبته فى تلك الأوراق التى أثارت أختها سوى تعبير حقيقى وصادق عن بعض مشاعرها التى كانت تحس بها فى وحدتها ، ومن خلال لحظات الصمت الطويلة التى تمتلىء بها حياتها .

لم يكن فى حياة « هارييت » حبيب مجهول ، أو حبيب مأمول تنتظر ظهوره ، حتى ولو فى الخيال ، وكانت تتصور أنها لن تتزوج ولن تنجب ، وأنها لن تكون أبدا موضع اهتمام أى رجل من الرجال ، ولذلك فقد حاولت أن تشغل نفسها بالكتابة التى كانت تريحها ، دون أن تتصور أنها كاتبة أو صاحبة موهبة .

لم تكن مفتونة بأنوثتها ، ولم يكن لها أحلام صغيرة أو كبيرة فى هذا المجال ، وقررت أن تعيش « عانسا » طيلة حياتها .

ولم تكن مغرورة بكتاباتها القليلة المتناثرة ، بل كانت تحاول فى هذه الكتابات أن تجد بعض ما تشغل به نفسها .

ولم تكن مع ذلك كله من أصحاب النفوس المضطربة ، بل كانت تدرب نفسها دائما على الرضا بنصيبها المتواضع من الجمال ، وبحياتها البسيطة مع أبيها بيتشر الذى كان يعمل قسيسا .
وتصل « هارييت » إلى سن السابعة والعشرين فتتعرف على أستاذ فى علم اللاهوت اسمه كالفن ستو ، وتصبح صديقة حميمة لزوجته إلزا التى سرعان ما تموت بمرض مفاجىء . وبعد فترة يتقدم كالفن ستو إلى أسرتها طالبا الزواج من « هارييت » عندما أحس بصدقها وإخلاصها وسلامة نفسها وأخلاقها الرفيعة .

وتزوجت « هارييت » وأصبح اسمها منذ ذلك الحين « هارييت بيتشرستو » .
وعاشت هارييت مع زوجها مسئولة عن البيت والأسرة ، وتحملت هذه المسئولية بكل ما هو معروف عنها من إحساس عميق بالواجب ، وسعد بها زوجها أشد السعادة ، وأنجبت منه بمرور السنين ستة أطفال . ومع هؤلاء الأطفال ازدادت مسئوليتها العائلية ، وكانت هذه المسئولية الثقيلة تستغرق منها نهارها كله ، ولكنها

مع ذلك كانت تحاول فى لحظات فراغها القليلة أن تكتب بعض الأشعار والمقالات وترسلها إلى الصحف المحلية ، فتنشرها لها بين الحين والحين .

وعندما بلغت السابعة والثلاثين من عمرها كتبت إلى أبيها تقول له : « لقد كبرت وعندى ستة من الأبناء ، فماذا بقى لى فى الحياة ؟ .. لا شىء »... كانت تحس أن رسالتها قد تحددت بصورة نهائية فى أعمال البيت ، ورعاية الزوج والأولاد ولم يعد أمامها فرصة لعمل آخر . ورغم أنها كانت راضية بنصيبها من الدنيا ، إلا أنها كانت تحس فى داخلها بشىء يتحرك فى أعماقها ، يثير فيها كثيرا من الغضب والقلق .

كانت أمريكا فى تلك الأيام تعتبر نظام « الرق » نظاما مشروعا ، وكان العبيد كلهم من الزنوج الذين كانوا يعيشون فى ظروف بالغة المهانة والقسوة ، فكانوا يباعون فى الأسواق ، ويتعرضون للجلْد والإذلال ، أما أسيادهم فلم يكونوا يعرفون شيئا اسمه الرحمة ، بل لقد كان بعض هؤلاء الأسياد يعاملون الحيوانات أفضل مما يعاملون به عبيدهم من الزنوج .

وكانت « هارييت » تسمع قصصا كثيرة عن سوء معاملة العبيد وإهدار إنسانيتهم ، بل لقد رأت بنفسها حوادث من هذا النوع القاسى الذى لا يستريح له ضمير إنسانى .

وتحركت موهبتها الكامنة فيها منذ أن صفعتها أختها على وجهها وهى صبية صغيرة . لقد عادت إلى الكتابة ، وأحست أن الشىء الوحيد الذى تملكه هو القلم ، وأن عليها أن تستخدم هذا القلم فى محاربة الظلم ، والدعوة إلى تحرير العبيد .

وبدأت تكتب روايتها التى أصبحت بعد نشرها من أشهر الروايات فى أدب العالم كله ، وهى رواية « كوخ العم توم » . كانت تكتب كل ليلة ، ثم تقرأ على أطفالها ما تكتبه ، فيتأثرون أشد التأثر ، وكان بعضهم يستغرق فى بكاء مرير . وتمنت « هارييت » أن تتمكن من التأثير على شعبها الأمريكى بنفس القوة التى كانت تؤثر بها على أطفالها . وتصورت أنها لو استطاعت أن تؤثر على أمريكا بهذه الصورة فإنها سوف تساهم بذلك فى الكشف عن مأساة العبيد ، وربما استطاعت أن تحرر بلادها من وصمة العار التى تتمثل فى نظام الرق .

وأخذت تكتب وتكتب ، حتى أكملت جزءا أساسيا من قصتها وأرسلتها إلى إحدى الصحف ، فتحمس لها الناشر وبدأ يقدمها فى حلقات مسلسلة . وأقبل الناس على القصة إقبالا شديدا ، وتضاعف توزيع الصحيفة مئات المرات ، وعندما أعلنت الصحيفة أن الكاتبة سوف تتوقف عن كتابة الرواية ، خرجت مظاهرة من عشرة آلاف قارىء وقارئة لتقتحم مبنى الصحيفة وتطالب باستمرار نشر حلقات أخرى .

كانت أمريكا كلها تقرأ الرواية ، وكانت الدموع تسيل فى عيون الجميع وهم يقرأون ، وهكذا بكت أمريكا كلها بدموع غزيرة فوق صفحات الجريدة التى كانت تنشر حلقات رواية « كوخ العم توم » .

ثم صدرت الرواية بعد ذلك فى كتاب من جزءين ، كل جزء من ثلثمائة صفحة ، وكان ذلك فى شهر مارس ١٨٥٢ . ويكشف لنا الكاتب الألمانى س . مارتن فى كتابه الممتع « بحث فى تجربة الكتابة - ترجمة تحرير السماوى » عن حركة التوزيع الأولى لرواية « كوخ العم توم » فنجد أمامنا أرقاما مدهشة : خمسة آلاف نسخة تنفد من الطبعة الأولى بعد ثلاثة أسابيع ، عشرين ألف نسخة جديدة تصدر من الرواية المثيرة وتنفد على الفور ، بعد شهر واحد تصدر الطبعة الثالثة فى خمسة عشر ألف نسخة وتنفد أيضا . وبذلك تكون الرواية قد وزعت أربعين ألف نسخة فى أقل من ثلاثة أشهر ، وكان توزيع هذه الكمية الكبيرة فى مثل هذه الفترة القصيرة أمراً جديداً على أسواق الكتب لم يعرف له الناشرون ما يشبهه من قبل .

أصبح اسم « هارييت بيتشر ستو » على كل لسان ، وقامت العواصم الأوروبية بترجمة الرواية إلى لغاتها المختلفة . وأصبحت « ستو » لامعة فى سماء العالم كله ، وأحاط بها الحب والتقدير فى كل مكان تذهب إليه .. فى نيويورك ولندن وباريس ، وأنهالت عليها أرباح روايتها فوجدت نفسها وقد انتقلت هى وأسرتها من الفقر إلى الرخاء ، ومن الحياة المحدودة فى ركن مظلم منسى من أركان المجتمع إلى أضواء الشهرة والمجد والنجاح واهتمام الناس .

كانت إذا دخلت محلا لشراء ملابس لنفسها أو لأسرتها أعطوها كل ما تطلبه

ورفضوا أن يأخذوا منها الثمن تقديرا لفضلها ، وإعجابا بروايتها الرائعة . وكان الزنوج يعاملونها كقديسة ، فيقبلون يديها ويتزاحمون حولها لمجرد لمس ثيابها والاستماع إلى بعض كلماتها الطيبة .

على أن الصورة كان لها وجه آخر ، فقد كان أنصار الرق والعبودية وخاصة فى الجنوب الأمريكى يشعرون بالسخط الشديد عليها وعلى روايتها التى فتحت عيون الزنوج ، وحرضتهم على المطالبة بالحرية .

وفى ولايات الجنوب الأمريكى يصدر قرار رسمى بمصادرة الرواية ، واعتبار المواطن الذى يملك نسخة منها مجرما خارجا على القانون . وتتلقى الكاتبة الموهوبة مئات الخطابات التى تهددها بالقتل وتنذرها بأنها سوف تدفع ثمن تحريضها للزنوج .. وأنها لن تفلت من العقاب الشديد .

ولكن الرواية تعمل عملها القوى فى المجتمع الأمريكى بين الذين يقرأونها علنا فى الولايات الشمالية ، والذين يقرأونها سرا فى ولايات الجنوب .

وبعد تسع سنوات من صدور الرواية وبالتحديد فى سنة ١٨٦١ ، تشتعل الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب ، وكان الموضوع الرئيسى لهذه الحرب هو الدعوة إلى خلق أمريكا جديدة واحدة خالية من عار الرق والعبودية . ووسط لهيب الحرب يعلن الرئيس الأمريكى الشجاع إبراهام لنكولن نداء إنسانيا بتحرير العبيد فى كل الولايات الأمريكية ، ويواصل الحرب حتى يتحقق هدفه النبيل ، ويصبح كل الزنوج أحرارا وتتوقف مأساة الرق بصورة نهائية .

وفى هذه الحرب التى استمرت أربع سنوات ، من ١٨٦١ إلى ١٨٦٥ ، يموت ستمائة ألف رجل من مجموع السكان الذين لم يكونوا يزيدون على عشرة ملايين فى ذلك الوقت .

وكان من نتائج هذه الحرب أيضا أن لنكولن نفسه ، بطل تحرير العبيد وتوحيد أمريكا ، قد فقد حياته برصاصة أطلقها عليه أحد المتعصبين .

وفى أثناء رئاسة لنكولن لأمريكا ، يقوم بدعوة « هارييت بيتشر ستو » مؤلفة

« كوخ العم توم » إلى زيارته فى البيت الأبيض ، ويقول وهو يصافحها « .. إذن فهذه هى المرأة الصغيرة التى أشعلت الحرب الأهلية فى البلاد » .

وكان لنكولن صادقا فى قوله .. فقد كانت السيدة « ستو » هى التى أشعلت الحرب بروايتها « كوخ العم توم » ، لأنها جعلت من تحرير العبيد مطلبا إنسانيا عزيزا لا يحتمل التأجيل ولا التهاون فى شأنه ، وأيقظت ضمير الكثيرين ووضعت أمامهم صورة حية لمأساة الزنوج فى ظل نظام الرق ، فامتلأت النفوس إحساسا بضرورة العمل مهما كان الثمن من أجل تحقيق هذا الهدف الأساسى وهو القضاء النهائى على الرق ، بعد أن فضحت الكاتبة هذا النظام فى روايتها ، وكشفت عما ينتج عنه من كوارث وما يؤدى إليه من إشاعة الفساد فى المجتمع والعلاقات الإنسانية .

وتقوم رواية « كوخ العم توم » على شخصية رئيسية لرجل زنجى عاش أسير العبودية ، ولكن هذه العبودية ، بما تمثله من الظلم والقسوة ، لم تستطع أن تدمر فى هذه الشخصية ما تحمله من إنسانية وإيمان عميق بالإخاء بين البشر . ومن خلال شخصية « العم توم » كشفت « هارييت بيتشر ستو » عن المآسى الكثيرة التى يتعرض لها الزنوج ، فى أسلوب ساحر ، ومواقف مثيرة ، وقوة فنية وروحية جعلت منها كاتبة من الدرجة الأولى فى أدب العالم كله ، حيث وضعها القراء والنقاد فى مقام الروائيين العباقرة الكبار من أمثال تولستوى وديكنز وبلزاك .. بل إن رواية « كوخ العم توم » قد تفوقت على غيرها من الروايات العالمية الكبرى بما أحدثته من أثر فى أمريكا فقد اهتز المجتمع بعنف ، واشتعلت فيه نيران الحرب ، ليخرج بعد ذلك فى صورة جديدة ، بعد أن تطهر من مرض الرق وتقسيم الناس بغير حق إلى عبيد وأحرار .

وهكذا كانت بداية العبقرية فى تاريخ السيدة « ستو » صفعة على وجهها وهى صبية صغيرة ، كتمت بعدها أسرار نفسها وموهبتها حتى استطاعت أن تنجز روايتها الكبيرة وهى فى سن الأربعين ، فانطلقت عبقريتها فى أقوى صورة ، وتمكنت من أن تهز حياة شعبها ، وتضع أمامه قضية كبرى ، وتدافع بجمال الفن الرفيع عن مبدأ إنسانى نبيل هو المساواة بين الناس الذين ولدتهم أمهاتهم أحرارا ،

وحاول الظلم أن يجعل من بعضهم عبيدا للبعض الآخر ، فى صورة بشعة من صور القهر والعبث بكرامة الإنسان .

وقد عاشت السيدة « ستو » حتى بلغت الخامسة والثمانين ، حيث توفيت سنة ١٨٩٦ بعد أن وصلت فى مجتمعها وفى العالم كله إلى أعلى درجة من التأثير والتقدير . ومازالت روايتها موضع الحب والاحترام والمتعة والإعجاب ، وقد بلغ ما طبع منها منذ صدورها سنة ١٨٥٢ أربعين مليون نسخة تقريبا ، وبذلك كانت هذه الرواية النادرة عملا أدبيا خالدا ، استطاع بجماله وصدقه أن يقضى على أسوأ شرور الانسانية فى تاريخ الانسان ، وهو نظام الرق والعبودية . وبالرغم من أن هدف الرواية فى جانبها الاجتماعى قد تحقق بأكمله ، فإن الرواية لم تفقد شيئا من قيمتها الأدبية والفنية ، فبقيت أغنية رائعة تتعلق بها القلوب جيلا بعد جيل .

ولهذه الرواية الرائعة ترجمة عربية كاملة وممتازة قدمها الأديب الراحل حسين القبانى ، فليرجع إليها من شاء أن يستمتع بفنها وأفكارها الإنسانية العالية .



لامرتين وأصوله العربية

في منتصف الثلاثينيات من هذا القرن أصدر كاتبان فرنسيان هما « كاريه » و « فيرال » كتابا مشتركا لهما عن الشاعر الفرنسي العالمي « لامرتين » ، وفي هذا الكتاب يقول المؤلفان الفرنسيان :

« كان « لامرتين » يردد أنه انحدر من أصل عربي ، وأن استقرار « آل مرتين » في مقاطعة « ماكونيه » يرجع تاريخه إلى الحروب الصليبية » .
ويعلق الكاتبان الفرنسيان على ما يشير إليه « لامرتين » عن أصله العربي فيشككان في هذا الأمر ويقولان :

« إن تأكيد « لامرتين » على أصله العربى لا نجد له أساسا مادمنا لا نستطيع أن نرجع بعصر آبائه إلى ما قبل القرن السادس عشر ، فأجداده قبل هذا القرن غير معروفين » .

ثم يقول الكاتبان الفرنسيان بعد ذلك :

« إن أصل اسم « لامرتين » هو « اللامرتين » كما كان يكتبه الشاعر نفسه » .

ويعود الكاتبان الفرنسيان إلى رفض ما يراه « لامرتين » من أنه ينحدر من أصل عربى ، فيقولان فى نفس الكتاب :

« ... أما الأصل العربى الذى كان « لامرتين » يعترف به فى زهو وفخر فربما كان عذرا جميلا عن استسلامه للكسل الرفيع ، وحبه الشديد لأنواع الحيوان ، وتأثير جاذبية الشرق فيه وسلطانها عليه ، ولا يزال هذا الانتساب للأصل العربى مسألة تحيط بها الشكوك » .

وهكذا جعل الكاتبان الفرنسيان كسل « لامرتين » وحبه للحيوانات ، وتأثير جاذبية الشرق ، هى الأسباب التى دفعته إلى القول بأنه ينتمى إلى أصل عربى ، بينما هذا الأصل مشكوك فيه ولا دليل عليه .

وقد علق الأديب العربى الكبير أحمد حسن الزيات فى مجلة « الرسالة » ، وفى أحد أعدادها الصادرة سنة ١٩٣٥ على رأى الكاتبين الفرنسيين بقوله :

« .. فأنت ترى أن « لامرتين » يعترف فى صراحة وثقة بجنسيته العربية ، ولكن الكتّاب الفرنسيين بالطبع لا يؤيدون هذا الانتساب ، وإنما ينتحلون له شتى الأسباب ومختلف العلل ، فهل فينا من يصمد لهذا البحث فى مظانه ، فيضيف إلى عبقريات العرب هذه العبقرية ، ويرجع إلى أرواح الشرق هذه الروح الشاردة ؟ » .

وكانت كلمات الزيات فى مجلة « الرسالة » دعوة للعلماء والأدباء العرب إلى متابعة البحث والدراسة فى هذا الموضوع المثير .

وبالفعل تصدى عدد من الباحثين لقضية « عروبة لامرتين » وقدموا فيها

اجتهادات عديدة . ومن هؤلاء الباحثين الأديب المغربى « عبد الله كنون الحسينى » الذى قال إن من المحتمل أن يكون « لامرتين » على صلة بأسرة « العمارتى » ، وهى من الأسر المنتشرة فى جبال الريف المغربى ، وسكان هذه المنطقة المغربية فى معظمهم هم من عرب الأندلس المهاجرين . أما كيف تحولت « العمارتى » إلى « لامرتين » فربما كان ذلك نوعا من التحريف المألوف على ألسنة الأوروبيين عندما ينطقون الأسماء العربية . ومادامت أسرة « العمارتى » فى الأصل من عرب الأندلس ، فمن المحتمل أن يكون فرع من فروع هذه الأسرة قد فر بعد سقوط الدولة فى أسبانيا إلى فرنسا ، وأندمج فى المجتمع الفرنسى ، وأصبح أصلا لأسرة الشاعر « لامرتين » .

ولاشك أن هذا التفسير الذى يقدمه الأديب المغربى للأصل العربى لأسرة « لامرتين » هو تفسير غير مقنع ، لأنه يعتمد على التشابه اللفظى بين « لامرتين » و « العمارتى » ، وهذا شبيه بقول الذين يرون أن « شيكسبير » من أصل عربى لأن اسمه قريب من اسم « الشيخ زبير » ، ومثل هذه التفسيرات التى تقوم على مجرد التشابه اللفظى لا تستند إلى قيمة علمية دقيقة .

ومن ناحية أخرى فنحن نجد أن « لامرتين » عندما أشار إلى أصله العربى فقد أعطى تفسيرا محددا لهذا الأمر ، حيث قال إنه من أسرة عربية وقعت أسيرة فى يد الأوروبيين فى فترة الحروب الصليبية المعروفة ، وكان ميدان الحروب الصليبية هو مصر ومنطقة الشام ، أى سوريا ولبنان والأردن وفلسطين ، ومعنى ذلك أنه إذا صح انتساب « لامرتين » إلى العرب ، فلابد أن يكون أصله من « عرب المشرق » لا من « عرب المغرب » ، لأن المغرب لم يكن لها علاقة بالحروب الصليبية من قريب أو بعيد .

ونلتقى بعد ذلك برأى آخر حول « عروبة لامرتين » للأديب « حسن باشر » من لبنان ، ويشير الأديب اللبنانى إلى رحلة « لامرتين » سنة ١٨٣٣ إلى لبنان ، ثم ينقل نصا من كتاب « غراميات لامرتين » لمؤلف فرنسى هو « لوكا دوبريتين » ، وفى هذا النص يقول المؤلف :

« فى رحلة « لامرتين » إلى لبنان ، قام الشاعر الكبير بزيارة للسيدة « استير

استنهوب » تلك الإنجليزية المحاطة بالأسرار ، والتى كانت تعيش كالسلطانة فى قصرها القائم على أحد منحدرات لبنان ، وقد تنبأت له هذه السيدة بمكانة رفيعة وحظ عظيم ، فسر بنبوءتها ، وارتاح إلى تصديقها . وأهم ما لفت نظر « السلطانة » فى الشاعر تفاخره الساذج « بنفسه » ، وقد تحدثت هذه السيدة عنه إلى أحد زوارها فقالت : بينما كان « لامرتين » يمد قدمه ليلفت نظرى إلى جمال تقوسها ، بينت له أن ذلك الشكل ينم عن أصل عربى ، وهو أصل يدل عليه أيضا بريق عينيه ورسم حاجبيه ، فأعجب « لامرتين » بفراستى واستنتاجى ، ثم روى لى كيف أن مائة وخمسين عربيا تعرضوا للأسر فى غزة أيام الحروب الصليبية ، وتم ترحيلهم إلى فرنسا واستوطنوا منطقة « ماكونيه » حيث أسسوا قريتين فى تلك المنطقة ، وأقاموا القصر الذى يسكنه « لامرتين » نفسه » .

وعلى أساس هذا النص الوارد فى كتاب « غراميات لامرتين » يؤيد الأديب اللبنانى « حسن باشر » صحة الأصل العربى للشاعر « لامرتين » استنادا إلى ما رواه « لامرتين » نفسه من أن أجداده هم من عرب « غزة » الذين أسرهم الأوروبيون فى الحروب الصايبية .

بقى أمامنا رأى ثالث للأديب « محمد غالب سالم » من مدينة « حلب » حيث يقول عن الأصل العربى للشاعر « لامرتين » :

« يوجد فى غرب مدينة « حلب » بلد صغير اسمه « مرتين » وتكتب باللاتينية « MARTINE » ، أفلا يجوز أن يكون الأسرى العرب الذين ذهبوا إلى فرنسا هم من جنود هذه المدينة ؟ .. ونحن نقول عادة : هؤلاء من بلدة « مرتين » ، ويوجد فى حلب عائلة كبيرة تدعى « آل مرتينى » ، منهم من كان محافظا لمدينة حلب واسمه « نبيه المرتينى » نسبة إلى بلدة « مرتين » ، وباستطاعتنا أن نجد الحقيقة فى أداة التعريف « ال » وهى بالفرنسية « La » عند قولنا : لامرتين » .

هذا هو ما أثير فى حياتنا الأدبية منذ سنوات بعيدة حول الأصل العربى للشاعر الفرنسى العالمى « لامرتين » .

فهل يمكننا أن نخرج من هذا كله بنتيجة محددة ؟

فى اعتقادى أن بإمكاننا أن نخرج بهذه النتيجة ، وهى أن الأصل العربى للشاعر « لامرتين » أمر أقرب إلى الصحة والصواب منه إلى الخطأ والبعد عن الحقيقة .

فنحن – من ناحية – أمام اعتراف صريح من الشاعر نفسه بهذا الأصل ، وحرص من جانبه على تأكيد صحته ، وليس هناك ما يدفع « لامرتين » إلى هذا الاعتراف وهذا الإصرار ، ما لم يكن لأصله العربى أساس من الصدق والحقيقة . فلم تكن البلاد العربية فى عصر لامرتين (١٧٩٠ – ١٨٦٩) أعظم من فرنسا ولا أرقى ، ولم يكن هناك مبرر من المصلحة والمنفعة يمكن أن يدعو شاعرا كبيرا مثل « لامرتين » إلى افتعال ما يجعله منتسبا إلى أصل عربى ، فقد كان « لامرتين » أميرا لشعراء عصره فى فرنسا ، وكان نجما ساطعا من نجوم المجتمع والسياسة فى بلاده ، حتى أنه رشح نفسه لرئاسة الجمهورية سنة ١٨٤٨ ، وتولى رئاسة الدولة بالفعل فى أوائل ذلك العام لفترة قصيرة .

لم يكن « لامرتين » ، وهذا مكانه فى مجتمعه وعصره ، بحاجة إلى الإدعاء بأنه من أصل عربى ، بل ربما كان أقرب إلى المنطق والعقل أن يحاول نفى هذا الأصل العربى ويتمسك بالأصل الفرنسى ، وهو الرجل الذى يعمل بالسياسة ويتصل بالجماهير ويحاول أن يؤثر عليها ويكسب ودها ورضاها ، ولكن « لامرتين » كان إنسانا وفنانا صادقا حساسا ، لا يدخل عالم السياسة من الأبواب الخلفية الملتوية ، بل كان يحرص على دخول هذا العالم من باب القضايا التى تحمس لها ودعا إليها وهى الحرية والعدالة والمساواة . ولم يكن « لامرتين » بحاجة على الإطلاق إلى اختراع أسطورة حول أصله ونسبه ليكسب من وراء ذلك شيئا ما ، خاصة وأن « الأصل العربى » بالنسبة لشخص « لامرتين » ووضعه الاجتماعى والأدبى والسياسى ، لم يكن مما يفيده فى ذلك العصر ، بل ربما جر عليه بعض السخط فى أوساط المتعصبين القوميين من الفرنسيين والأوروبيين بصورة عامة .

إن « لامرتين » كان يحمل فى أعماقه إيماناً راسخاً بأصله العربى ، ويتحول هذا الإيمان فى نفسه الشاعرة إلى عشق للشرق وحرص على زيارته والتعرف عليه ، ولقد جاء إلى الشرق بالفعل فزار سوريا ولبنان وفلسطين ، حيث كان يعتقد

أن أصله من هذه المنطقة ، وتشاء الأقدار أن تموت ابنته الوحيدة فى بيروت خلال هذه الرحلة ، ويقوم « لامرتين » بدفن ابنته الغالية « جوليا » فى لبنان ، ويترك بذلك قطعة من قلبه فى هذه المنطقة التى يؤمن كل الإيمان أن جذوره وأصوله تمتد إليها ، وأن أجداده الأولين نشأوا فيها وخرجوا منها لينشئوا أسرة « لامرتين » فى فرنسا .

ويواصل « لامرتين » رحلته إلى الشرق ، فيسافر إلى تركيا ، ويتصل بالسلطان العثمانى ، فيمنحه السلطان رتبة الباشوية ، ويقدم إليه أموالا كثيرة وأراضى واسعة ، ولكن اللقب والهدايا التى قدمها السلطان العثمانى للشاعر العالمى لا علاقة لها على الإطلاق بحرص « لامرتين » على تأكيد أصله العربى ، فالأصل العربى لم يكن عند العثمانيين شيئا يستحق المكافأة والتقدير ، والبلاد العربية لم تكن سوى مستعمرات تخضع للنفوذ العثمانى ، فاهتمام السلطان العثمانى بالشاعر كان أمرا يعود إلى مكانة « لامرتين » وقيمته وأهميته فى فرنسا وفى أوروبا كلها ، وقد كان اهتمام السلطان العثمانى بالشاعر راجعا – على الأغلب – إلى مكانته السياسية قبل أن يعود إلى مكانته الأدبية .

على أن « لامرتين » عندما يتحدث عن أصله العربى إنما يعتمد فى ذلك على حقيقة تاريخية لاشك فيها ، وهى أن بعض الأسرى العرب « من غزة بالتحديد » قد وقعوا فى يد الصليبيين ، ورحلوا معهم إلى فرنسا ، وعاشوا هناك ، وأندمجوا بالتدريج فى المجتمعات الغربية الجديدة ، فليس فى كلام « لامرتين » عن أصله العربى ما يمكن أن يتناقض مع حقائق التاريخ ، وليس فيه ما يمكن اعتباره نوعا من أنواع الوهم والخيال .

والنقاد الغربيون الذين ينكرون الأصل العربى للشاعر « لامرتين » هم الذين لا يستطيعون أن يتغلبوا على عقدة فى نفوسهم تقول لهم : إن كل ما ليس أوروبيا لا قيمة له ولا أهمية ، وأن العبقرية الإنسانية احتكار لأوروبا ، وليس لغيرها من الشعوب أن تفكر أو تحلم بأن يكون لها نصيب من العبقرية والنبوغ . وتلك عقيدة حضارية كامنة فى عدد من العقول الغربية ، وكان العرب من أكثر الشعوب التى تعرضت للتأثير السلبى لهذه العقيدة ، وذلك لأن العرب كان لهم فضل على أوروبا

لا ينكره علماؤهم المحايدون المخلصون للحقيقة وحدها ، كما أن العرب قد دخلوا فى صراع حضارى شديد العنف مع أوروبا فى أسبانيا ، واستطاعوا أن ينتصروا عليها فى هذا الصراع ، وأقاموا فى الأندلس حضارة مزدهرة استمرت ثمانية قرون متصلة ، وقد دقت الجيوش العربية يوما أبواب فرنسا نفسها ، وذلك عندما التقى العرب والفرنسيون فى جنوب فرنسا ، وفى المعركة الشهيرة التى أسماها الفرنسيون باسم معركة « بلاط الشهداء » سنة ٧٣٢ ميلادية ، ورغم أن العرب قد انهزموا فى هذه المعركة إلاّ أن الذاكرة التاريخية لبعض الكتّاب الأوروبيين ما زالت تحس بالخوف القديم الكامن فى النفوس من أن يعود العرب إلى سابق عهدهم فى يوم من الأيام ، فينهضوا وتكون لهم كلمة مسموعة فى حضارة العالم .

ولكن الذى يعنينا نحن العرب من اهتمام « لامرتين » بالتأكيد على أصوله العربية هو أن ندرك أننا قادرون مثل غيرنا من أبناء الشعوب الحية ، على أن نقدم للإنسانية إضافات حضارية كثيرة وغنية ، وها هو « لامرتين » بكل ما له من عبقرية أصيلة يصر على انتسابه للدم العربى الذى يستطيع أن يفيض على الأنسانية بالخير والنبوغ .



الإعدام .. والتهمة شاعر

كان ذلك سنة ١٩٣٦ ، وفى صيف ذلك العام بالتحديد . وكانت أسبانيا فى تلك الفترة تعيش فى ظل حكم « الجبهة الشعبية » والتى تتكون من الديمقراطيين والاشتراكيين ، أى من دعاة الحرية والعدالة الاجتماعية والدفاع عن حقوق الأغلبية الفقيرة من العمال والفلاحين وصغار الموظفين ، وكل من يأكل لقمة خبزه بعرق جبينه وليس باستغلال غيره من الناس . وكانت الجمهورية الأسبانية فى ذلك الوقت موضع الاحترام والتقدير من الرأى العام والمثقفين الأحرار فى أوروبا وأمريكا ، وكان من هؤلاء المثقفين

المؤيدين للجمهورية الشعبية الأسبانية والمعجبين بها من أصبحوا فيما بعد نجوما ساطعة فى سماء الفن والثقافة فى أوروبا وأمريكا ، فكان من هؤلاء ارنست همنجواى ، أكبر كاتب روائى فى أمريكا فى الخمسينات ، وكان منهم بيكاسو ، الفنان العالمى الأسبانى الذى هاجر إلى باريس وأصبح أكبر فنان تشكيلى فى القرن العشرين . وكان من أنصار الجمهورية الشعبية الأسبانية أيضا اندرية مالرو ، الكاتب الروائى الفرنسى الكبير ، والذى أصبح فى الستينات وزيرا لثقافة فرنسا فى عهد ديجول لمدة عشر سنوات متواصلة (من ١٩٥٩ إلى ١٩٦٩) . وهناك أسماء كثيرة أخرى من كبار الفنانين والمثقفين الذين وقفوا مع الجمهورية الشعبية الأسبانية وأيدوها ، وكانوا يرونها نموذجا حيا للنظام السياسى الذى يجمع بين العدل والحرية أو بين الاشتراكية والديمقراطية .

وقد عاش هؤلاء جميعا فى أسبانيا ، حتى من كان منهم وافدا من أمريكا أو فرنسا أو انجلترا أو أمريكا اللاتينية . جاءوا جميعا من بلادهم ليساعدوا الجمهورية الشعبية الأسبانية مساعدة معنوية ومادية ، لأنهم كانوا يعلمون أن هذه الجمهورية كانت تتعرض لأزمات عنيفة ، وأن أعداءها الكثيرين يعملون على الإطاحة بها والقضاء عليها .

والحقيقة أن الجمهورية الشعبية الأسبانية لم تكن فى أمان ، ففى ذلك الوقت كان هتلر فى ألمانيا وموسولينى فى إيطاليا وكل الأغنياء والرأسماليين فى أوروبا الغربية وأمريكا ... كان هؤلاء جميعا يحاربون الجمهورية الشعبية الأسبانية ، وكانوا يدفعون الأموال ويدبرون المؤامرات للقضاء على هذه الجمهورية . ولم يكن أحد من هؤلاء مستعدا لأن يقبل بقيام جمهورية شعبية فى أسبانيا التى هى جزء ثمين من أوروبا الغربية ، فمعنى انتصار هذه الجمهورية الأسبانية أن تنتقل العدوى إلى جيرانها فى إيطاليا وفرنسا ، ولم يكن أغنياء أوروبا وأمريكا على استعداد لمواجهة سليمة مع دعوة الحرية والعدالة وسيادة الطبقات الشعبية الفقيرة المنتجة ، والتى وصلت إلى السلطة فى أسبانيا . وأصبحت أسبانيا بذلك نموذجا سياسيا بالغ الجاذبية لبقية شعوب أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية .

وبدأت المؤامرات ..

ونجحت هذه المؤامرات ..

وانهارت الجمهورية الشعبية بقيام انقلاب عسكرى تحت قيادة الجنرال الأسبانى « فرانشيسكو فرانكو » فى ١٨ يوليو سنة ١٩٣٦ .

ولكن الجمهورية الشعبية الأسبانية لم تستسلم بسهولة للإنقلاب العسكرى بل قاومته ، ومن هنا بدأت « الحرب الأسبانية الأهلية » التى استمرت ثلاث سنوات ، من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ ، وسالت فيها دماء كثيرة ، وبلغ ضحاياها ما يقرب من مليون من البشر ، وانتهت هذه الحرب بانتصار الجنرال « فرانكو » بمساعدة أساسية من هتلر وموسولينى ، على أن الغريب فى الأمر أن « فرانكو » قد اعتمد على قوة من الجنود المغاربة يبلغ تعدادها خمسين ألف جندى بقيادة ضابط اسمه محمد مزيان ، ظل صديقا لفرانكو ومقربا منه وحارسا له حتى النهاية . وقد حدثنى صديقى الشاعر العراقى الكبير الراحل شفيق الكمالى ، وكان سفيرا للعراق فى أسبانيا فى السبعينات ، أن « فرانكو » قال له بعد تقديم أوراق اعتماده إليه : إن أسبانيا مدينة للعرب مرتين .. المرة الأولى بسبب تلك الحضارة المزدهرة التى انشأها العرب فى أسبانيا وبقيت آثارها العظيمة قائمة إلى اليوم مثل « قصر الحمراء » ، وهذه الآثار الحضارية العربية هى سر إقبال الملايين من السياح كل عام لزيارة أسبانيا ، مما يمثل المورد الأساسى فى الاقتصاد الأسبانى .

أما المرة الثانية التى أنقذ فيها العرب أسبانيا - على حد قول فرانكو - فهى التى تتمثل فى تجربة الحرب الأهلية ، فقد انتصر « فرانكو » فى هذه الحرب ضد « الجمهوريين الأسبان » بفضل مساندة الجنود المغاربة بقيادة محمد مزيان له .

على أن انتصار « فرانكو » النهائى فى إبريل سنة ١٩٣٩ قد أتاح له أن يحكم أسبانيا حكما ديكتاتوريا منذ ذلك التاريخ حتى وفاته سنة ١٩٧٥ ، وكان عمره عند الوفاة ثلاثة وثمانين عاما ، أى أنه حكم أسبانيا ستة وثلاثين عاما متواصلة .

وقد حكم « فرانكو » بلاده من خلال حزب واحد هو حزب « الفالانج » أو حزب « الكتائب » ، وهو نفسه الحزب الذى أراد الزعيم اللبنانى بيير الجميل تقليده ، فأنشأ فى لبنان حزبا باسم « الكتائب » مازال قائما إلى اليوم ، وكان له دور كبير فى المأساه اللبنانية المستمرة حتى الآن . وقد قلد « فرانكو » هتلر وموسولينى فى أنه جعل من نفسه زعيما وأبا لأسبانيا ، وأسمى نفسه باسم

« الكوديللو »أى « زعيم الأمة » كما أسمى هتلر نفسه باسم « الفوهرر » أى الزعيم أيضا ، وكما أسمى موسوليني نفسه باسم « الدوتشى » وهى كلمة إيطالية لاتختلف فى معناها عن كلمة « الفوهرر » الألمانية « والكوديللو » الأسبانية .

وكان المفروض أن ينهار نظام « فرانكو » مع انهيار هتلر وموسوليني بعد الحرب العالمية الثانية ، ولكن « فرانكو » كان شديد الحذر فأعلن « حياد أسبانيا » أثناء الحرب ، وأنقذه ذلك من مصير صديقيه وصاحبى الفضل عليه : هتلر وموسوليني .

على أن نظام « فرانكو » قد ارتبط تاريخيا بعدائه للفن والفكر والثقافة ، منذ اللحظة الأولى للانقلاب العسكرى الذى قام به ضد الجمهورية الأسبانية فى ١٨ يوليو سنة ١٩٣٦ .

وكانت الجريمة الأولى الكبرى التى ارتكبها أنصار « فرانكو » هى قتلهم للشاعر الأسبانى العظيم « لوركا » واسمه الكامل « فردريكو جارسيا لوركا » .

وقد ظلت هذه الجريمة تطارد نظام « فرانكو » حتى النهاية ، ومازالت حتى الآن ، وعند كل المؤرخين الأحرار ، هى بقعة الدم الكبيرة التى تلوث ثوب « فرانكو » ونظامه منذ انتصاره النهائى على الجمهوريين الأسبان سنة ١٩٣٩ وحتى وفاته سنة ١٩٧٥ .

كان الشاعر « لوركا » سنة ١٩٣٦ فى الثامنة والثلاثين من عمره ، فهو من مواليد ١٨٩٨ ، وكان هذا الشاعر قد استولى على قلوب معاصريه ، بجمال شعره وعذوبته وصدقه ، وتميزه بين كافة شعراء عصره بانه يستمد جذوره من الشعر الأسبانى الشعبى ، وليس من المؤثرات الفنية الوافدة من باريس أو لندن أو غيرها من عواصم الغرب .

ويقدم لنا الشاعر التشيلى العظيم بابلونيرودا فى مذكراته - ترجمة الدكتور محمود صبح - وصفا لصديقه الشاعر الأسبانى « لوركا » ، وكانا قد تعرفا على بعضهما فى الأرجنتين سنة ١٩٣٣ ، أى قبل إعدام « لوركا » بثلاث سنوات .

ماذا يقول نيرودا عن صديقه لوركا ؟

إنه يقول :

« لم أر شاعرا مثله اجتمعت فيه اللطافة والعبقرية ، القلب المشتعل والشلال الشفاف ، لقد كان « لوركا » مسرفا فى وحيه وإلهامه ، كان مركزا من مراكز الفرح يشع كالكواكب بسعادة الحياة ، كان نابغة وساخرا خفيف الظل ، كان عالميا إنسانيا ومحليا قرويا فى آن واحد ، كان موسيقيا فذا ، وممثلا رائعا ، كان لامعا ونبيلا ، كان خلاصة عصور أسبانيا المختلفة ، وكان صفوة الازدهار الشعبى فيها ، كان نتاجا عربيا أندلسيا يضىء ويفوح بالعطر مثل حديقة من الياسمين ... كان كل هذا ، ياويلتى ، لقد اختفى ذلك كله ... فآه ثم آه » .

هذا هو ما كتبه بابلونيرودا عن « لوركا » فى مذكراته ، وكان نيرودا عند مقتل « لوركا » يعمل فى أسبانيا وفى عاصمتها مدريد كقنصل لبلده تشيلى .

وقبل أن نتحدث بالتفصيل عن قصة إعدام « لوركا » على يد قوات « فرانكو » نتوقف أمام بعض ملامحه الشخصية والفنية .

ولد « لوركا » فى أسرة ليست بالغة الثراء ولكنها ميسورة ، فقد كان أبوه يملك مزرعة كبيرة فى مدينة « غرناطة » . ولم يكن « لوركا » فى صباه من البارزين فى الدراسة ، وإن كان قد استطاع بعد مشقة أن يحصل على شهادة فى « الحقوق » ، ولكنه منذ شبابه الأول قرر أن يتفرغ للفن وللفن وحده ، وساعده على هذا الاتجاه انه لم يكن محتاجا من الناحية المادية ، فقد كان يعتمد على مساعدات أبيه ، وكانت تكفيه ، لأنه لم يكن يبحث عن حياة مليئة بالترف والرفاهية ، بل كان كل ما يريده هو ألا يضطر للابتعاد عن عمله الفنى . وكانت موهبة « لوركا » الأساسية هى « الشعر » ، ولكنه فى نفس الوقت كان موسيقارا ورساما ، وكان ممثلا من الدرجة الأولى ، وكان فنانا مسرحيا كتب العديد من المسرحيات التى تعتبر الآن من أعظم الأعمال الفنية فى المسرح العالمى المعاصر ، ومن هذه الأعمال المسرحية : « عرس الدم » و « بيت برناردا ألبا » و « يرما » و « ماريانا » وغيرها من المسرحيات الرائعة ، ومعظم هذه

المسرحيات مترجم إلى العربية ، وبعضها قدمته مسارح القاهرة فى الستينات مثل « يرما » و « بيت برناردا ألبا » وغيرهما من الأعمال المسرحية الجميلة .

أنشأ « لوركا » فرقة مسرحية وتجول معها فى شتى أنحاء أسبانيا ، وحقق من خلال فرقته المسرحية التى كان يكتب لها كل أعمالها نجاحا شعبيا عظيما .

وكان من العناصر الأساسية التى حققت التميز الواضح لشخصية « لوركا » الفنية إهتمامه الكبير بالأغانى الشعبية فى جنوب أسبانيا ، وهذه الأغانى هى التراث الباقى من الحضارة العربية الأندلسية ، بالإضافة إلى أغانى الغجر وكل ما انتجته البيئة الأسبانية فى الجنوب من فنون شعبية أصيلة . ومنطقة الجنوب الأسبانى تتميز بانتشار الزراعة فيها وكثرة الفلاحين ، كما أنها بعيدة عن التأثير الأوروبى الوافد من فرنسا وإيطاليا وسائر بلدان أوروبا الغربية ، وهى كذلك قريبة من المغرب العربى ، وقد كانت آخر منطقة تركها العرب فكان تأثيرهم الثقافى والفنى فيها كبيرا ، ومازال قائما إلى الآن . وقد قام « لوركا » بجولة واسعة فى مقاطعات الجنوب ، وذلك لجمع الأغانى الشعبية وتسجيلها على اسطوانات ، لأنه كان يجمع هذه الأغانى من أفواه الفنانين والمنشدين الشعبيين ، فكانت مزيجا رائعا من الشعر والموسيقى والغناء . وكان تأثير هذه الأغانى كبيرا على « لوركا » وأشعاره ، حتى لقد سماه البعض ـ من شدة تأثره بالتراث الأندلسى فى الجنوب الأسبانى ـ باسم « بلبل الأندلس » .

وكان أول ديوان أصدره « لوركا » هو « أغانى الغجر » ، وقد أصدره وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ، أى سنة ١٩٢١ ، ونجح هذا الديوان الجميل نجاحا كبيرا ، وأحبه الناس على نطاق واسع ، ولم يقتصر الإهتمام به على المثقفين والأدباء ، بل امتد تأثيره إلى أفراد الشعب العاديين . وأصبحت أشعار « لوركا » من الأغانى التى يحفظها الكثيرون من الفلاحين فى قرى الأندلس أو جنوب أسبانيا ، ومن بين الذين يحفظون هذه الأشعار أميون لايعرفون القراءة والكتابة ، بل ولا يعرفون أن هذه الأشعار هى من قصائد « لوركا » ، فهى عندهم فن جميل قريب إلى قلوبهم ، رغم أنهم لا يعرفون شيئا عن مؤلفها بل ولا يعرفون اسمه .

وقد تأثر « لوركا »تأثرا واضحا « بالموشحات الأندلسية » المعروفة فى الشعر

العربى ، مما دعا البعض إلى القول بأن فى عروق « لوركا » دماء عربية لاشك فيها .

وكان « لوركا » فى شعره شديد الاهتمام باللون ، فما أكثر الألوان التى عبر عنها واستخدمها فى أشعاره ، ويعود ذلك إلى إنه كان رساما ، وكانت له صداقات حميمة مع كبار الرسامين من أبناء جيله مثل بيكاسو وسلفادور دالى ، فقد كان قريبا من هذين الرسامين العظيمين ، وكان يقضى الكثير من وقته معهما ، وكان دائما موضع التقدير والمحبة والاعجاب من بيكاسو ودالى .

على أن محبته للألوان وعشقه لها كان من ناحية أخرى راجعا إلى اهتمامه بالفلاحين وحبه الكبير للمناطق الزراعية بما فيها من ألوان زاهية جميلة ، وعلى رأسها اللون الأخضر الذى يحتل مكانة أساسية فى أشعار « لوركا » . وبسبب حب « لوركا » للألوان أطلق عليه بعض النقاد صفة طريفة هى « مجنون الألوان » .

هذا الشاعر الجميل النبيل لم يكن مهتما بالسياسة فى معناها المباشر ، ولم يرتبط أبدا بحزب من الأحزاب ، ويقول عنه الناقد الفرنسى أرمان جيبير ، وكان صديقا له وأحد المعجبين بفنه وشخصه : « إن لوركا كان شديد النقاء لايعترف بالأهواء العكرة المتصارعة ، ولم يكن يهتم من قريب أو بعيد بالسياسة ، حتى أن المرء ليبحث دون جدوى فى كل إنتاجه عن إشارة صغيرة إلى روح حزبية ، فلا يعثر أبدا على شىء من ذلك . لم يستطع أحد فى معسكر الذين أعدموه أن يدعى أنه انتسب إلى حزب آخر غير حزب الشعر ، وكان دائما يحتفظ أمام العواصف الكبيرة فى مجتمعه بنظرة الطفل المذهولة والبريئة » (لوركا ـ ترجمة وإعداد كميل داغر) ، ويقول عنه أحد أصدقائه الشعراء الأسبان : « كنا نتبعه جميعا ، لأنه كان العيد بالنسبة لنا وكان الفرح » .

أما آراؤه فى الفن فكانت واضحة وصريحة ومن أقواله : « لايوجد إنسان حقيقى يمكن أن يؤمن بهذه التفاهة المسماة باسم الفن الخاص ، أو « الفن للفن » ، يجب على الفنان أن يبكى ويضحك مع شعبه » .

وإذا كان « لوركا » بعيدا عن السياسة ، فليس معنى ذلك أنه بعيدا عن « الوطنية » ، أو عن محبة الشعب الذى ينتمى إليه وهو شعب أسبانيا . على

العكس من ذلك كان « لوركا » قريبا من الشعب محبا له ، وكانت صلته الروحية بشعبه صلة مباشرة ، أى أنها لم تعتمد على وسائل مثل الأحزاب والمنظمات أو النظريات السياسية . كان متصلا مع شعبه بقلبه وروحه وفطرته وبصورة مباشرة ، وكان يقول عن نفسه : « أنا لن أكون سياسيا أبدا ، أنا ثورى ، ولايوجد شاعر حقيقى إلا إذا كان ثوريا » .

ومن أهم أعماله فى هذا المجال مسرحيته الجميلة « ماريانا » ، وقد ترجمها إلى العربية الدكتور شاكر مصطفى ، و ماريانا هى بطلة أسبانية معروفة مثل جان دارك فى فرنسا ، وقد قتلها جنود الملك فرديناند السابع الذى كان يخوض حربا ضد الأحرار الذين ثاروا عليه سنة ١٨٣١ ، وكانت ماريانا تجلس قرب نافذة منزلها ، تطرز علما للثوار مرسوما عليه بإبرتها شعارات الثورة فى ذلك الزمان وهى « القانون - الحرية - المساواة » . واكتشفها جنود الملك الطاغية وأدركوا أنها مؤيدة للثوار ، فأطلقوا عليها الرصاص وقتلوها وهى تغنى لحبيبها الثائر كما صورها الشاعر « لوركا » بفنه الجميل :

إذا قتلونى

سيجىء حبيبى ليموت إلى جانبى

فهذا هو ما قاله لى ذات مساء

وهو يغمر شعرى بقبلاته

هذا هو « لوركا » الفنان الجميل الساحر البعيد عن العمل السياسى المباشر ، فلماذا قتله جنود « فرانكو » ولماذا أعدموه ؟

كان « لوركا » فى مدريد ، وأصر رغم نصائح بعض أصدقائه على السفر إلى مدينته « غرناطة » حيث يوجد أبوه فى مزرعته . كان يريد أن يرى أباه وأن يكون قريبا منه فى ظروف أسبانيا الصعبة . ووصل « لوركا » إلى غرناطة يوم ١٨ يوليو سنة ١٩٣٦ ، وهو نفس اليوم الذى أعلن فيه « فرانكو » القيام بانقلاب عسكرى ضد الجمهورية الشعبية فى أسبانيا .

وفى يوم ١٩ يوليو ، بعد الانقلاب العسكرى بيوم واحد ، هاجمت قوات « فرانكو » مدينة غرناطة واستولت عليها . وكان عمدة غرناطة هو زوج شقيقة « لوركا » فاعتقله العسكريون وأعدموه .

حتى ذلك الوقت كان « لوركا » يتصور أن أحد لن يستطيع أن يمد يده إليه ، وكان يقول : « أنا شاعر والشعراء لايتعرضون للقتل » .

كان يظن أن ابتعاده عن السياسة واهتمامه بالفن سوف يكفلان له السلامة في هذه الفوضى الكبيرة . وقال أحد الشعراء من أصدقاء « لوركا » مخاطبا والد الشاعر : «إذا كان هناك إنسان واحد لن يمسه لهيب الحرب فهو لوركا » . كان الشاعر مطمئنا لأنه لم يسيء إلى بلاده بل أسعدها . وكان يتصور أنه محبوب من الجميع . وأن الجميع سوف يحرصون عليه . وكانت هذه هى نفسها وجهة نظر بعض أصدقائه . ولكن أصدقاء آخرين كانوا يعرفون أن همجية « فرانكو » لن تفرق بين الشر والخير ، وأنها سوف تكتسح أمامها كل شيء .

وهذا ماحدث .

فقد انقض عدد من جنود « فرانكو » وضباطه على « لوركا » واعتقلوه ، رغم إنه كان قد ترك بيت والده واختفى فى بيت الشاعر لويس روسالس ، وكان روسالس هو وأسرته على صله طيبة بقوات الانقلاب العسكرى وحزب « الكتائب » الذى يرأسه « فرانكو » . ولكن جنود « فرانكو » وضباطه المتوحشين اعتقلوا« لوركا » من بيت صديقه روسالس ، وفشلت محاولات هذا الصديق فى انقاذه من براثن الذئاب . وظل « لوركا » مسجونا منذ يوم ١٦ أغسطس ١٩٣٦ حتى يوم ٢٠ أغسطس ، واتهمه الذين قبضوا عليه بأنه « جاسوس ، وبأن قصائده قد صنعت من الأذى والضرر فى أسبانيا ما لم تصنعه المسدسات والقنابل » .

وفى يوم ٢٠ أغسطس اقتادوه مع عدد من المعتقلين إلى مكان خارج غرناطة ، وهناك أطلقوا عليه الرصاص ، مع المعتقلين الآخرين ، ودفنوا الجميع فى حفرة كانت بمثابة مقبرة جماعية ، ولذلك لم يعثر أحد على جثته ، لأن القتلى كانوا كثيرين وكان من الصعب تمييزه عن الآخرين .

وهكذا تم إعدام « لوركا » وهو فى الثامنة والثلاثين ، وكانت تهمته عند الذئاب البشرية من انصار « فرانكو » : أنه شاعر يحبه الناس ويتأثرون بقصائده .

وقد قال أحد الأدباء من أصدقاء « لوركا » بعد إعدامه : « لقد أسس

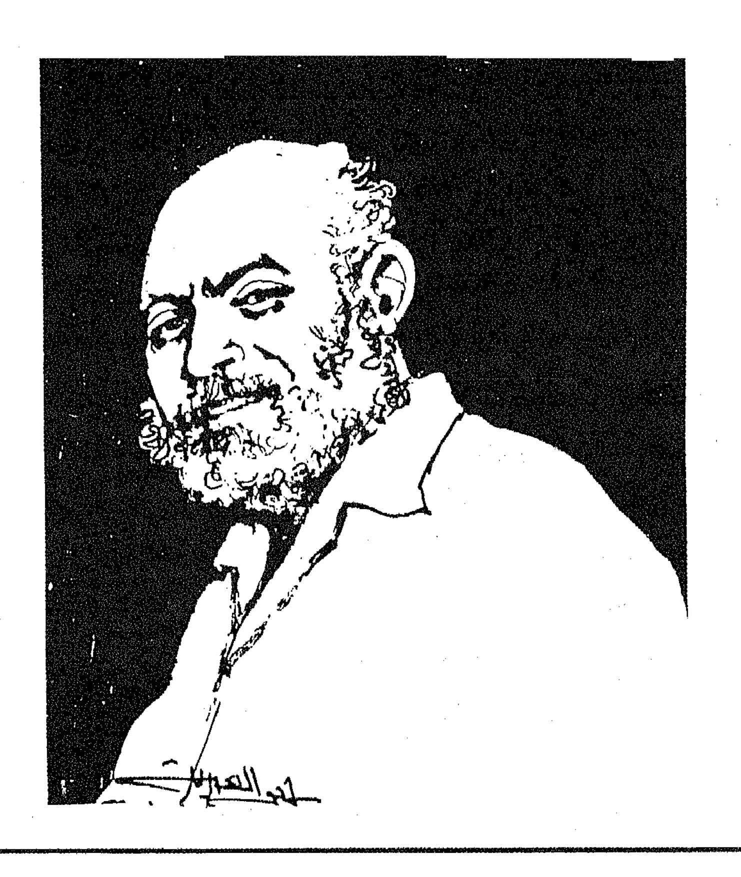
« فرانكو » نظامه على مصرع « لوركا » وهذا ما سيؤدى إلى سقوطه ، فذكرى الشاعر توازى وحدها جيشا كبيرا لابد أن ينتصر » .

والحق أن « فرانكو » ظل يحكم أسبانيا طيلة ستة وثلاثين عاما متصلة ، ولم يسقط نظامه إلا بعد وفاته .

ولكن دم « لوركا » ظل دائما وصمة عار فى جبين « فرانكو » وسيظل كذلك إلى الأبد .

كان « لوركا » فى الشهور الأخيرة يفكر فى كتابة مسرحية غريبة لم يكتبها لأنهم أعدموه . وقد لخص أحداث هذه المسرحية العجيبة لأحد أصدقائه وخلاصتها : أنه كان يعيش فى قرطبة فلاح شاب ميسور ، وكانت لديه بقرة يعطف عليها ويحبها أشد الحب وذات يوم قام والد الفلاح ببيع هذه البقرة لانزعاجه الشديد من حب ابنه لها . وعندما عرف الفلاح الشاب ما فعله والده ذهب إلى السوق ، وعندما رأته البقرة التى كانت محبوسة وراء حاجز ، قفزت إليه ليتلقاها الفلاح ويعود بها إلى القرية ، ورآها والد الفلاح عائدة من جديد فأطلق عليها الرصاص وقتلها ، فما كان من الفلاح إلا أن حمل الفأس فى جنون وقتل أباه .

مأساه غريبة وعنيفة تكشف عما كان يحس به « لوركا » من عوامل الهدم والدمار والجنون وتمزق العواطف والعلاقات الانسانية فى بلده أسبانيا . ولعله من خلال هذه المسرحية التى لم يكتبها كان يفكر فى تقديم عمل شعرى رمزى يصور فيه لحظات الهستيريا التى تعترى الناس فى بعض مراحل التاريخ ، فيعاند الأب ابنه ويؤذيه ويقتل الابن أباه ، وتصبح الدنيا فوضى ، وخالية من الرحمة والجمال والحنان ، وهذا ما حدث بالفعل فى أسبانيا عندما أعدموا « لوركا » النبيل بتهمة واحدة هى أنه شاعر يحبه الناس ، ولولا الفوضى والقسوة والجنون لما استطاع إنسان أن يذبح هذا العصفور الشعرى النادر الجميل .



نموذجان من الجيل الضائع

كانت أمريكا بين الحربين العالميتين (١٩١٨ - ١٩٣٩) مجتمعاً مليئاً بالحيوية ، ولكنه كان فى نفس الوقت مليئاً بالأزمات المتتالية . وكانت أشهر الأزمات هى أزمة سنة ١٩٣٠ ، ففى هذه الأزمة أغلقت مصانع عديدة أبوابها ، وأفلست مؤسسات مالية كبيرة ، وتعرض الملايين من أبناء أمريكا للبطالة والتشرد والجوع ، وأوشك هذا المجتمع الذى كان مليئاً بالثروة والإمكانات الوفيرة أن ينفجر من داخله ، وأن يتحول إلى مأساة كبيرة من مآسى التاريخ ، وفى هذا العصر بالتحديد ظهرت موسيقى « الجاز » الشهيرة ،

وأصبحت هذه الموسيقى العنيفة السريعة ذات الجذور الإفريقية ، علامة من علامات تلك الفترة الصعبة فى أمريكا . وكانت موسيقى « الجاز » الجديدة فى ذلك العصر تنتشر فى كل مكان من الأرض الأمريكية ، وعلى إيقاعات هذه الموسيقى المرتفعة الحادة ، كان الجميع يرقصون فى نشوة بل فى جنون . وفى ضجيج هذه الموسيقى حاول الجميع أن يغرق همومه ، وأن يلتمس نوعاً من العزاء ينسيه أحزانه الخاصة وأحزان المجتمع الذى يعيش فيه .

وفى هذا العصر نفسه ، عصر الجاز والأزمة الاقتصادية الطاحنة ، ظهر جيل جديد من الأدباء فى أمريكا . وقد تأثر هذا الجيل بالظروف المحيطة به ، وهذا أمر طبيعى ، لأن الأدب الحى يكون انعكاساً صادقاً للظروف المادية والروحية التى يمر بها المجتمع . وقد كان أدباء أمريكا الشبان هؤلاء يحسون فى ذلك العصر إحساساً عميقاً بالضياع ، ولا يعرفون لأنفسهم أملاً حقيقياً يتعلقون به ويعبرون عنه ... لم يكن أمامهم سوى الفشل والبطالة والإفلاس الذى يتعرض له الكثيرون ، ولم يكن يلوح فى هذا الظلام شعاع واحد من أشعة الأمل والتفائل .

وقد اندفع عدد كبير من أدباء هذا الجيل للرحيل إلى أوروبا ، وإلى باريس بصورة خاصة ، وكانوا يحلمون أن يجدوا فى باريس المليئة بأضواء الفن والثقافة ، شيئاً من الاستقرار والراحة النفسية ، بعد أن عجزوا عن تحقيق ذلك في وطنهم أمريكا وفى مدنه العديدة . وقد تجمع عدد من هؤلاء الأدباء الشبان الأمريكان فى ذلك الحين ، حول واحدة منهم هى جروترود شتاين ، التى أقامت صالوناً أدبياً لامعاً فى باريس ، كان كل هؤلاء الأدباء الشبان يلتقون فيه ، ويحلمون بأن يلتقطوا من هذا الصالون الشهير أول خيط من خيوط النجاح فى الأدب والحياة . وكانت شتاين أكبر من هؤلاء الأدباء سناً وأكثر منهم خبرة وتجربة ، ولكنها كانت تنتمى إليهم بإحساسها وأفكارها ، فهى أيضاً تشعر بالضياع وفقدان الهدف ، ولم تكن تخدع نفسها أو تخدعهم ، فأطلقت عليهم وعلى نفسها اسم « الجيل الضائع » ، وأصبحت هذه التسمية مشهورة ومعترفاً بها حتى فى كتب التاريخ الأدبى الذى يتناول هذه الفترة بالبحث والدراسة . وكان من نجوم هذا الجيل الضائع اثنان ، أولهما « همنجواى » أما الثانى فهو « سكوت فيتزجيرالد » .

وبالنسبة لـ « همنجواى » ، فقد استطاع أن يقاوم عوامل اليأس والإحباط ، وأن يصمد فى وجه المشاكل والمصاعب ، حتى تجاوز الفترة العصيبة التى كان جيله يمر بها بين الحربين العالميتين . وحقق لنفسه نجاحاً كبيراً فى الفن والحياة ، وأقام أدبه على فكرة « الاحتمال الانسانى » لمتاعب الحياة ، فلا شىء يمكن أن يكسر هذه المتاعب إلا « القدرة على التحمل » والمقاومة المعنوية التى تنبع من روح الانسان وقلبه . وقد مات « همنجواى » سنة ١٩٦١ ، وكان موته انتحاراً أو شيئاً يشبه الانتحار ، فقد انطلقت رصاصة من بندقية كان يحملها فاستقرت فى جسده وقضت عليه . والذى لا شك فيه أن « همنجواى » لم يتخلص أبداً من محنة الجيل الذى ينتسب إليه ، وإن كان قد استطاع أن يقاوم حتى وصل إلى الثالثة والستين من عمره .

أما الأديب الفنان الذى كان تجسيداً كاملاً لمحنة الجيل الأمريكى الضائع فهو « سكوت فيتزجيرالد » . لقد عاش هذا الأديب محنة جيله بصورة كاملة وعنيفة ، وكان ميلاده سنة ١٨٩٦ أما وفاته فكانت سنة ١٩٤٠ ، وعاش سنواته الأربع والأربعين فى عاصفة مستمرة دائمة ، انتهت بالقضاء عليه فى نوبة قلبية أدت إلى موته فى هوليود ، حيث كان يقيم فى سنواته الأخيرة فى عاصمة السينما يلتمس أسباب الرزق فى أعمال تافهة وثانوية مثل مراجعة السيناريوهات وتصحيحها ، مما كان يزيد من إحساسه بالضياع واليأس ، عندما يرى عبقريته الفنية وقد أصبحت بلا قيمة ولا أهمية ، وأنه مضطر للعيش على هامش الفن والحياة معاً .

وقد بدأ « فيتزجيرالد » حياته الأدبية عندما أصدر سنة ١٩٢٠ روايته الأولى واسمها « هذا الجانب من الجنة » ، وكان عمره آنذاك أربعة وعشرين عاما ، ونجحت الرواية ، ووزعت أربعين ألف نسخة فى شهور قليلة ، وأصبح اسم « فيتزجيرالد » بعد هذه الرواية على كل لسان ... وتحقق له النجاح الذى كان يحلم به ، بل وتحقق له أكثر من أحلامه ، فقد كان كل ما يتمناه هو أن يوزع من روايته الأولى عشرين ألف نسخة ، فحقق التوزيع ضعف الرقم الذى كان يشتهيه .

وكسب « فيتزجيرالد » من نجاحه الأول هذا ثمانية عشر ألف دولار ، وكان

المبلغ سنة ١٩٢٠ ، يساوى فى قيمته ما يقرب من ربع مليون دولار الآن ... ثروة كبيرة تهبط على هذا الفنان الشاب فى بداية حياته ، وكان المفروض أن تخرجه من إطار اليأس والإحباط والفوضى وتدفعه إلى تنظيم نفسه وإمكاناته ليحقق المزيد من النجاح والشهرة والكسب المادى ، ولكن « فيتزجيرالد » كان فناناً من نوع خاص .. كان ابناً مخلصاً لعصر الجاز العنيف المندفع الذى لا يعرف لنفسه هدفاً واضحاً محدداً ، وكانت شخصيته مليئة بالقلق والتوتر ، والبحث مع عدم التفكير فى المستقبل ، فالفنان الشاب مثقل بهموم الحاضر ، ولا مجال عنده للتفكير فى الغد .

والتقى « فيتزجيرالد » بفتاة أمريكية من نوعه ، هى زيلدا ساير ، فتزوجها . وكانت زيلدا جميلة مليئة بالحيوية ، وكانت تملك أحلاماً فنية هى الأخرى ، فهى تريد أن تصبح رسامة ، وتريد أن تصبح راقصة باليه . وتصورت زيلدا أنها مع زوجها الفنان الناجح الجديد الذى أصبح اسمه على كل لسان ، سوف يقهران أحزان العصر ، ويقدمان إليه شيئاً جديداً باهراً ، ويخرجان من أزمة المجتمع الأمريكى المضطرب إلى شاطىء ساحر من الأحلام الوردية الناعمة ، حيث يعيشان فى حرية وانطلاق ، ويقدمان للناس نموذجاً لاغتصاب السعادة من ظلام الكآبة والحزن .

وعاشا معاً عدة سنوات حافلة بهذا الانطلاق العنيف ، فلم يكن أحد منهما يفكر فى حرمان نفسه من شىء ، فكانا يفعلان ما يخطر على بالهما ، ويصرفان كل ما يملكان من مال دون حساب ، ويقدمان للناس نموذجاً للاستمتاع بكل لحظة من لحظات الحياة .

يصفهما كولن ويلسن فى تلك الفترة فيقول فى كتابه عن « العقيدة والتمرد » ، والذى صدر بالعربية بعنوان « سقوط الحضارة » ترجمة أنيس حسن - ص ١١٤ ... يقول ويلسن :

« كان كل منهما - فيتزجيرالد وزيلدا - جميل المحيا ، فاتناً ، رشيقاً . وكان الزوج الفنان ينفق بلا حساب ، فكانا يركبان على سطوح سيارات الأجرة ، ويقفزان فى الفسقيات وحول « النافورات العامة » ، ويخلعان بعض ملابسهما فى

المطاعم ، ويدوزان نصف ساعة فى الأبواب الدوارة للفنادق ، ويشربان كميات كبيرة من الويسكى والشمبانيا ، ويذهبان من حفلة إلى حفلة ، ومن مدينة إلى مدينة فى حمى من الحماسة ووسط هالة من إعجاب الناس » .

ثم يروى لنا ويلسن قصصاً أخرى تكشف لنا عن طبيعة هذا الفنان وطبيعة زوجته أيضاً ، ومن هذه القصص « أن « فيتزجيرالد » قال يوماً لجيمس جويس صاحب رواية « يولسيس العظيمة والمعروفة » إنه سوف يقفز من النافذة تعبيراً عن إعجابه بجويس ، واستطاع جويس أن يعيده إلى هدوئه قبل أن يقفز فعلاً ثم قال عنه بعد ذلك بلطف : لا بد أن يكون ذلك الشاب مجنوناً .. إننى أخشى أن يفعل شيئاً بنفسه » . ولقد كان « فيتزجيرالد » ، كثيراً ما يقوم بأعمال شاذة من باب المزاح والمرح ، فقد ألقى مرة بسلة مهملات على سور حديقة أثناء حفلة لم تدعه إليها سيدة من سيدات المجتمع ، وقرر هو وزيلدا يوماً أن ينشرا أحد الخدم إلى نصفين بمنشار ، لا لشىء إلا لإبعاد الكآبة عن روحيهما ! أما زيلدا الزوجة الجميلة فقد ألقت بنفسها يوماً من فوق سلم عال ، حين أعلنت الراقصة الشهيرة ايزادورا يوماً أنها تتلهف إلى معانقة « فيتزجيرالد » .

مجنونان جميلان موهوبان مليئان بالأحلام يعيشان معاً .. « فيتزجيرالد » ، الكاتب الفنان ، وزوجته زيلدا التى لم تحقق أحلامها الفنية الكثيرة فى الرسم أو الرقص كما كانت تتمنى دائماً .

ولم يكن بالإمكان أن تؤدى هذه الطريقة فى الحياة إلى نتائج إيجابية ، فقد انتهت بالزوجين إلى الإفلاس المادى ، بسبب الإسراف المجنون الذى سيطر على حياتهما ، وبسبب آخر مهم ، وهو أن الذوق الأدبى والفنى فى عصر الجاز لم يكن ذوقاً ثابتاً على حال ، فهو يتغير من لحظة إلى أخرى ، ولذلك فإن نجاح « فيتزجيرالد » الذى حققه فى روايته الأولى لم يستمر ، رغم أنه كتب عديداً من الروايات الأخرى كان أهمها روايته « جاتسبى العظيم » التى تعتبر الآن من روائع الأدب الأمريكى ، بل من روائع الأدب العالمى المعاصر . ومع ذلك فإن هذه الرواية التى ظهرت للمرة الأولى سنة ١٩٢٥ ، لم تحقق إلاّ نجاحاً محدوداً عند ظهورها ، وبدأت الموارد المالية للزوجين الشابين تقل إلى حد بعيد ، ولم يستطيعا

أن يواجها الأمر بالحكمة ، بل ازداد اندفاعهما فى الشراب والحياة المجنونة التى كانا يعيشان فيها . وكانت أكبر المشاكل أمامهما فى هذه الظروف الصعبة هى الخلافات الحادة التى بدأت تظهر بينهما ، والتى كان مصدرها إحساس الزوج بالفشل ، وانصراف الناس عن الاهتمام بأدبه ، أما الزوجة فقد كانت تعانى من مشكلة أخرى ، فهى لا تريد أن تكون مجرد تابع لزوجها الموهوب .. إنها موهوبة هى الأخرى وتريد أن تحقق ذاتها ، وتعبر عن نفسها ، وتحقق النجاح لموهبتها الكامنة .. وتوالت المشاكل والخلافات فى حياة الزوجين ، وأدت إلى الانفصال بينهما سنة ١٩٣٦ .

وقضى « فيتزجيرالد » بقية أيامه فى هوليود ، يقوم بعمله التافه الذى لا يتناسب مع مواهبه ، ليكسب قليلاً من المال الذى يمكن أن يعيش منه . أما زيلدا فقد دخلت مستشفى للأمراض العصبية ، مصابة بانهيار لم تستطع أن تحقق الشفاء منه ، حتى ماتت فى حريق إندلع بالمستشفى الصغير الذى كانت تنزل فيه سنة ١٩٤٨ ، وكان « فيتزجيرالد » ، زوجها الفنان ، قد مات بأزمة قلبية حادة سنة ١٩٤٠ .

وقد دفنا إلى جوار بعضهما فى ولاية « فيريلاند » وكالعادة كانت حياتهما - بعد أن انتهت - مصدراً للاهتمام الواسع ، وبدأ نجماهما يسطعان بعد الرحيل ، وحققت قصص « فيتزجيرالد » نجاحاً متزايداً حتى أصبحت الآن فى المقدمة ، أى بعد وفاة « فيتزجيرالد » بحوالى نصف قرن . أما زيلدا فقد كانت موضوعاً لكتابات كثيرة أهمها كتاب ضخم فى أكثر من خمسمائة صفحة ، كتبته الكاتبة الأمريكية نانسى ميلفورد ، وكان فى مقدمة الكتب الناجحة عند صدوره سنة ١٩٧١ ، وما زال من أمتع الكتب وأكثرها رواجاً إلى الآن .

كانا معاً يمثلان نوعاً من العبقرية التى تعرضت للإحباط ، ولم يكونا شخصين متكاملين يعوض كل منهما الآخر ، بل كانا متشابهين تماماً ، ومن هنا وقع الصدام بينهما وتعرضا للانكسار ، فعندما تعيش عبقريتان فى بيت واحد ، ويعمل كل منهما على تحقيق أحلامه العميقة الكامنة فيه دون مراعاة احتياجات الشخص الآخر ، ومشاكله وهمومه ، عندما يحدث ذلك فإن الصدام لا بد أن يقع ، وتصبح الحياة بين الاثنين مستحيلة .

على أن الذى لا شك فيه أن « فيتزجيرالد » وزيلدا قد استطاعا دون أن يقصدا أن يصورا فى مأساتهما ، مشاكل ذلك الجيل الأمريكى الضائع ، الذى ظهر خلال الحربين العالميتين ، وإن كان الأمر قد إنتهى بهما إلى أن يصبحا ضحيتين من ضحايا هذا الجيل ، بل لقد كانا أشهر ضحاياه .

ولقد قامت هوليود التى امتهنت « فيتزجيرالد » أشد الامتهان فى سنواته الأخيرة ، بتقديم فيلمين هامين أولهما عن حياة « فيتزجيرالد » نفسه ، والثانى مستمد من روايته الرائعة « جاتسبى العظيم » .. فهوليود آلة ضخمة ، لا بأس عندها من أن تصنع المأساة ، ثم تجد فى هذه المأساة ما تستثمره بعد ذلك فنياً وتصنع منه الملايين .

وكان الفيلم الذى قدمته هوليود عن « فيتزجيرالد » اسمه « معبودى الخائن » ، وقام ببطولته فنانان كبيران هما جريجورى بيك و ديبورا كير .



حريق الثقافة

كل طاغية يكره الفكر والثقافة وحرية الرأى ، فالطاغية يحس بالخطر الدائم من العقل الحر ، لأن العقل الحر قادر على المعرفة والفهم ، وقادر على التمييز بين الخطأ والصواب ، وقادر على المعارضة والنقد ، والطاغية لا يطيق شيئا من هذا كله ، بل يريد لأوامره أن تكون مطاعة ونافذة ، ولا يحب أن يرى أحدا يراجعه فى رأى أو تصرف . والطغيان يتجسد فى التاريخ على صور متعددة وفنون عجيبة .

لقد كان « نيرون » - وهو طاغية مجنون حكم روما من ٥٤ إلى ٦٨ ميلادية - يضيق بأى رأى مخالف لرأيه حتى لو جاء هذا الرأى من أقرب الناس إليه ، ولذلك فقد قتل نيرون أمه أجريبينا بالسم لأنها عارضته فى بعض تصرفاته وضاقت بجنونه وطغيانه ، وقتل زوجته أوكاتافيا ، وأستاذه الفيلسوف سنيكا لنفس السبب . وبدا له ذات يوم فى نشوة الطغيان والجنون أن مدينة روما ليست مدينة جميلة وأنها لابد أن تزول من الوجود لتحل محلها مدينة أخرى رائعة ، ولذلك قام بإشعال النار فى روما سنة ٦٤ ميلادية ، وبدأ فى بناء المدينة من جديد ليجعلها على الصورة التى كان يحلم بها ، وكان يتصور أنه فنان وشاعر عظيم ، وأنتهى أمره بالقتل وانهيار حكمه وسلطانه . وقد مات وهو يرتعد من الخوف ، مختبئا فى عشة حقيرة كان يحاول أن يهرب فيها من أعدائه ، وكانت آخر كلماته فيما يقول المؤرخون هى : « ما أعظم الفنان الذى سوف يخسره العالم بموتى » !

والصفة المشتركة بين كل الطغاة هى أنهم لا يحبون الفكر ولا المفكرين ، لأن كل فكر حر إنما يؤدى إلى تنوير العقول وتحريض الناس على الفهم والمعرفة وقيادتهم إلى الاعتراض على الانحراف والخطأ .

وقد صور لنا شيكسبير كراهية الطغاة للفكر ، فى مسرحيته المعروفة « يوليوس قيصر » ، حيث جاء فى هذه المسرحية على لسان «قيصر » فى حوار له مع « أنطونيو » .. يقول « قيصر » : « لو كان لقيصر أن يخشى أحدا ويتجنبه فليس هناك أحد أجدر بهذا الأمر من ذلك النحيل كاسيوس : إنه عاكف على القراءة ، ولا يخفى عليه شىء ، وهو كثير التأمل والتفكير فى كل ما يقوم به الناس من أعمال ، كما أنه يكره اللهو ، ولا تكاد الابتسامة تعرف طريقا إلى وجهه ، ومثل هذا الرجل لا يمكن أن يأمن الإنسان جانبه أبدا » ، وهكذا كان « قيصر » يرى الخطر كل الخطر يهب عليه من هذا الرجل النحيل الذى يقرأ كثيرا ويتأمل الناس والأحداث ويرفض العبث واللهو ... أى أن « قيصر » يرى أن مصدر الخطر على طغيانه من الفكر وأهل الفكر قبل أى شىء آخر .

وكان « قيصر » على صواب فيما قال ، فقد أصبح كاسيوس زعيما للمعارضين الذين تآمروا على قيصر وقتلوه ، قبل أن يفرض نفسه ملكا على

الرومان ويلبس التاج فوق رأسه ويخون الديمقراطية .. الرومانية القائمة على قيادة مجلس الشيوخ للبلاد .

على أن أهم نموذج للصراع بين الطغيان من جانب والفكر والثقافة من جانب آخر يتمثل لنا فى العصر الحديث فى شخصية « هتلر » وأعوانه من النازيين الألمان . فقد كان « هتلر » يكره العقل الحر ، والفكر المستنير ، وكان يدعو إلى أن يفكر الألمان جميعا بطريقة واحدة ، لا أختلاف فيها ولا تنوع ، فعليهم أن يرددوا نفس الآراء ويلتزموا بوجهة نظر لا تتغير ولا تتبدل ، أما المصدر الأساسى للفكر والرأى فهو عقل الزعيم الطاغية « هتلر » ؛ لأنه يفكر بالنيابة عن الجميع ، وعلى كل مواطن فى ألمانيا النازية أن يكون فى تفكيره وتصرفاته صورة مصغرة من الزعيم الأوحد للبلاد ، ولذلك فلم يكن هناك مكان لرأى آخر ، أو وجهة نظر مخالفة ، ولم يكن هناك مجال لفن من أى لون ، يمكن أن يعكس رأيا مستقلا للفنان أو وجهة نظر غير تابعة وغير نابعة من فكر الزعيم الأوحد .

لم يكن « هتلر » يخاف من أى شىء مثل خوفه من الفكر الحر المستقل ، وكان أعوانه وعلى رأسهم وزير إعلامه وثقافته جوبلز يؤمنون إيمانا أعمى بهذا المنطق ، ويعملون على أن يصبح فكر الزعيم هو الفكر الوحيد الموجود فى ألمانيا .

وفرض « هتلر » بمساعدة جوبلز وجهة النظر النازية على كل ما كان يصدر فى ألمانيا بعد إستيلاء الحزب الوطنى الاشتراكى - وهو نفسه الحزب النازى - على السلطة (وكلمة « نازى » هى الحروف الأولى من الاسم الكامل لحزب هتلر وهو : حزب العمال الألمان الاشتراكى الوطنى ..) .. ولم يكتف « هتلر » بالسيطره على الفكر فى عصره ، بل قرر أن يحاكم كل ما صدر قبل عصره من كتب وآراء وأفكار ، وكان يرى فى معظم الإنتاج السابق على العصر النازى ، جريمة فكرية كاملة تستحق العقاب والمقاومة . فقد استولى النازيون على السلطة فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ ، وفى شهر فبراير من نفس السنة ، أصدرت الحكومة النازية مرسوما وصفته بأنه « إجراء دفاعى موجه ضد الأعمال الشيوعية التى تهدد الدولة » ، وينص هذا المرسوم على فرض القيود على الحرية الشخصية ،

وعلى الحق فى حرية التعبير عن الرأى ، وحرية الصحافة ، والحق فى الاجتماع وتأليف الجمعيات ، وبالإضافة إلى ذلك فقد نص المرسوم على مراقبة الرسائل والاتصالات التليفونية والبرقية ، كما أباح للسلطة الحق فى تفتيش البيوت بدون أوامر من القضاء أو النيابة ، وكذلك سمح بمصادرة الأملاك ، وفرض القيود عليها دون الحاجة إلى تطبيق الاشتراطات القانونية . أما جورنج وزير داخلية هتلر فى ذلك الحين ـ ١٩٣٣ ـ فقد أعلن بكل صراحة فى خطاب وجهه إلى الألمان :

« أيها المواطنون الألمان ! إن أى إجراء قضائى لن يشل من سلطاتى ، ولا أرى بى حاجة إلى القلق على العدالة فرسالتى هى أن أدمر فقط وأن أبيد ، ولا شيء غير التدمير والإبادة » .

ويمكن معرفة المزيد من تفاصيل المأساة بالرجوع إلى كتاب « تاريخ ألمانيا الهتلرية » ، من تأليف الكاتب الأمريكى وليام شيرر ، وترجمة الأستاذ خيرى حماد ، وهو فى أربعة أجزاء كبيرة ، كما أنه كتاب بالغ الروعة والدقة والجمال .

وجاء العاشر من مايو سنة ١٩٣٣ ، أى بعد حوالى مائة يوم فقط من إستيلاء « هتلر » على السلطة فى ألمانيا ، ففى هذا اليوم وعند منتصف الليل ـ كما يحدثنا وليام شيرر فى كتابه عن ألمانيا الهتلرية ، ص ٤٤٠ ، الجزء الأول من ترجمة خيرى حماد : « .. وصل عرض قام به ألوف من الطلاب يحملون المشاعل عند منتصف الليل إلى ساحة عامة تقع مقابل جامعة برلين فى شارع اونتردن لندن ، وسرعان ما أشتعلت النيران فى كومة هائلة من الكتب وضعت فى الساحة ، ثم بدأ الطلاب يقذفون بالكتب فى النار المشتعلة إلى أن بلغ عدد ما أحرق منها نحو عشرين ألفا ، ووقعت مناظر مماثلة فى عدة مدن أخرى . وهكذا بدأت عمليات إحراق الكتب ، وكان الكثير من هذه الكتب التى التهمتها النيران فى برلين تلك الليلة على مشهد من الطلاب الفرحين ، ومرأى من الدكتور جوبلز « وزير الإعلام النازى » من تأليف عدد من المؤلفين ذوى الشهرة العالمية ، من أمثال توماس مان وهنريخ مان وأرنولد وستيفان زفايج ، وايريك ماريا ريمارك والبرت اينشتاين وغيرهم . ولم يقتصر الإحراق على مؤلفات عشرات من الكتّاب الألمان فحسب بل تعدها إلى كتّاب أجانب من أمثال جاك لندن ، وهيلين كيلر ، وهـ .ج . ويلز

وفرويد ، واندريه جيد وأميل زولا ومارسيل بروست . ويقول البيان الذى أصدره الطلاب : « إن كل كتاب يعمل فى تهديم مستقبلنا أو يضرب بمعاوله جذور ثقافتنا الألمانية ، وبيتنا الألمانى ، وقوى شعبنا المحركة ، مصيره إلى الإحراق » .

أما الدكتور جوبلز وزير الإعلام النازى فقد القى على ضوء لهيب النار المشتعلة فى هذة الكتب خطابا قال فيه :

« فى وسع الروح الألمانية أن تعبر عن نفسها من جديد ، ولا يقتصر عمل هذا اللهيب على إضاءة الخاتمة النهائية لعهد مضى ، بل يضىء أيضا حقبة مقبلة » .

وهكذا شهدت برلين فى العاشر من مايو سنة ١٩٣٣ حادثا فريدا من نوعه فى تاريخ الإنسانية هو حريق الثقافة الذى أقيم ، كأنه احتفال وطنى ، برعاية الدولة النازية وإشرافها . وكان هذا الحريق رمزا لكراهية العقل الحر ، والرفض الكامل للتفكير المستقل ، والدعوة المتعصبة للتخلص من الاختيار الحر الذى تقوم عليه الثقافة الحقيقية العميقة ، والاستسلام للفكرة الواحدة والرأى الواحد ، والتبعية الكاملة لكل ما يدور فى رأس « هتلر » زعيم النازية من آراء وأفكار .

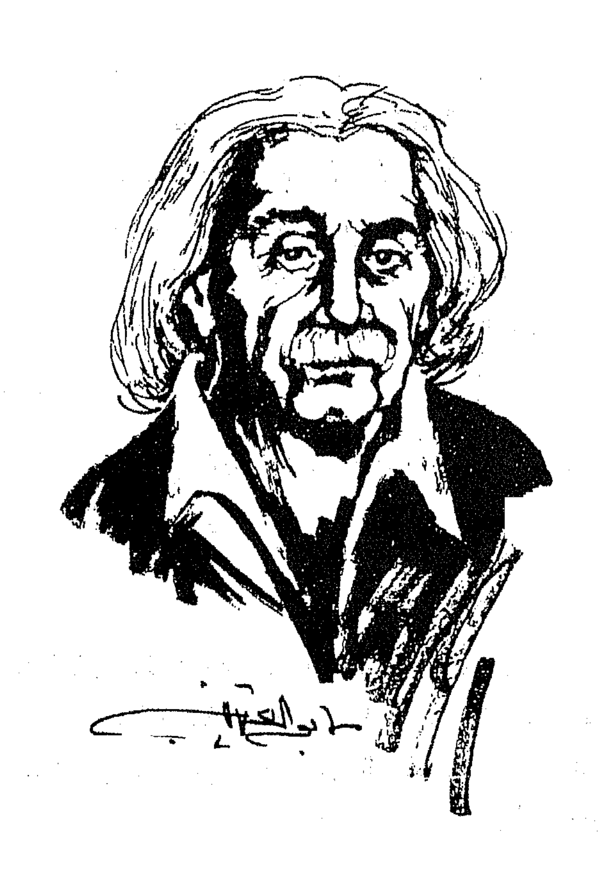
وبذلك أثبت الطغيان بطريقة علنية مباشرة لا مثيل لها فى التاريخ أنه عدو للعقل والثقافة والتفكير .

وأصبح هذا الموقف مثلا حيا لموقف الطغيان من الفكر فى كل عصور التاريخ الإنسانى ، وإن كانت هناك أساليب أخرى متعددة للعدوان على الفكر والثقافة ، تلجأ إلى السرية والغموض ، ولاتستخدم هذا الأسلوب المباشر الذى استخدمه النازيون فى حريق الثقافة ، من أجل تحقيق هدف واحد وهو التمكين للطغيان بالقضاء على الفكر الحر والعقل المستنير ، فكل الطغاة بغير استثناء يكرهون الثقافة ويحاربونها بعنف وقسوة .

ولقد شاع عن جوبلز وزير الإعلام النازى أنه كان يقول : « إننى أحس بالرغبة فى إشهار مسدسى لإطلاق النار كلما أستمعت إلى شخص يتفوه بكلمة الثقافة أمامى » . والحق أن العبارة تمثل الموقف النازى من الثقافة خير تمثيل ،

كما أنها تمثل موقف الطغيان من الثقافة فى كل زمان ومكان . وقد نسب البعض هذه العبارة نفسها إلى جورنج أحد زعماء النازية ، والحقيقة أن هذه العبارة ليست من كلمات جوبلز ولا من كلمات جورنج ، وإن كانت تعبر تمام التعبير عن العقيدة النازية بالنسبة للثقافة ، أما صاحب هذه العبارة وقائلها فهو هانز يوست أحد مساعدى جوبلز . وكان هانز يوست هذا هو المسئول عما يسمى باسم « لجنة المسرح » فى الفترة النازية ، وكان فى الأصل من كتّاب المسرح الذين لا يملكون موهبة حقيقية ، وقد قدم أعمالا مسرحية لاقيمة لها ولا أهمية ، لا من الناحية الفكرية ولا من الناحية الفنية ، ولكنه وصل إلى السلطة والنفوذ فى الحياة الثقافية فى ألمانيا النازية عن طريق ارتمائه في أحضان الحزب النازى ، واستعداده الدائم لتنفيذ تعليمات جوبلز وزير الإعلام النازى ، والوقوف في وجه الكتّاب والمفكرين والفنانين واضطهادهم بكل الوسائل والأساليب لحساب أسياده النازيين .

وقد انتهت النازية إلى « سلة مهملات » التاريخ كما انتهى أنصارها إلى نفس المصير ، وبقيت الحقيقة الناصعة ، وهى أن الفكر الحر والثقافة الرفيعة أقوى من كل الطغاة .. كما أن حريق الثقافة الذى أشعله النازيون فى آلاف الكتب لم يطفىء أسماء المفكرين العظام والفنانين الكبار ، فقد ظل هؤلاء جميعا يؤثرون بكتاباتهم فى حركة الثقافة الإنسانية رغم ما نالهم من اضطهاد ومطاردات . وكان حريق الثقافة عارا على أصحابه ؛ ونورا مضيئا أمام العقل الإنسانى الحر الذى لا يمكن القضاء عليه بمثل هذه الأساليب العدوانية المدمرة .



آينشتين
فكرة رائعة على أنغام البيانو

بعض الناس يتصورون أن هناك فاصلا حاسما بين العلم والفن ، وهذه الفكرة الخاطئة هى التى تدفع الكثيرين من شبابنا الذين يدرسون الطب والهندسة والعلوم إلى الابتعاد عن كل ما يمت إلى الفن بصلة مثل الشعر والقصة والموسيقى والرسم . ولهذا السبب فإن الكثيرين من أبناء الأجيال الجديدة الذين يدخلون الكليات العلمية عندنا يعيشون تناقضا واضحا فى حياتهم فهم شباب متفوقون فى دراستهم ، ولا يمكنهم أن يدخلوا الكليات العلمية إلا إذا كانوا من أذكياء الطلاب ومن أكثرهم جدا واجتهادا وقدرة على الاستيعاب ،

وفى نفس الوقت فإننا نجد هذا الشباب المتفوق الممتاز ضيق الأفق محدود الثقافة لا يعرف شيئا عن الدنيا خارج حدود دراسته . وقد كان من نتيجة هذا التناقض الظاهر بين عمق الدراسة العلمية وسطحية الثقافة العامة أن طلاب الكليات العلمية عندنا هم أكثر شبابنا ميلا إلى التطرف واستعدادا لقبول الأفكار المتعصبة ، والسبب الرئيسى هو إهمال شباب العلماء لثقافتهم العامة بعيدا عما يدرسونه من مواد علمية خالصة . فمعظم هؤلاء الشباب لا يقرأ الأدب ولا يسمع الموسيقى ، ولا يشاهد معرضا من معارض الفن التشكيلى .

وإذا استمر هذا الأسلوب الخاطىء فى الفصل بين العلم والثقافة ، فسوف يخسر شبابنا خسائر فادحة ، وهذه الخسائر سوف تمتد إلى واقع مجتمعنا وتلحق به أفدح الأضرار .

إن الفكرة التى تفصل بين العلم والثقافة فكرة خاطئة تماما ، وجذورها تعود فى مجتمعنا إلى أيام الاستعمار ، عندما كان هناك حرص على خلق متعلمين غير مثقفين ، لأن المتعلم المثقف كان من العناصر الفعالة فى المجتمع ، وكان دائما من دعاة تحرير الوطن والقضاء على أى سيطرة خارجية عليه ، ولذلك رأى الذين يخططون للنفوذ الاستعمارى أن يعملوا بقوة على فصل العلم عن الثقافة ، حتى يخرج علماؤنا من الجامعة وهم بلا رأى سليم ولا موقف ناضج فى أى أمر من أمور الحياة العامة .

وهذه قصة عالم من أكبر علماء الدنيا فى كل العصور ، وهو بلا جدال ، وباعتراف جميع الباحثين والدارسين ، أكبر عالم فى القرن العشرين ، إنه « ألبرت آينشتين » صاحب « نظرية النسبية » التى أدت إلى تفجير الذرة وصناعة القنبلة الذرية ، وما تلا ذلك كله من استخدام « الطاقة النووية » فى مختلف مجالات العلم والحياة فى السلم والحرب ، حتى استطاع إنسان القرن العشرين أن يهبط على القمر ، وأن يغزو الفضاء ، وأن يجعل من الدنيا الواسعة قرية صغيرة ، عن طريق وسائل الاتصال الحديثة وعلى رأسها القمر الصناعى .

إن قصة حياة « آينشتين » تثبت بالدليل القاطع أن النبوغ فى العلم مرتبط أشد

الارتباط باتساع أفكار الإنسان وتنوع ثقافته ، وأن الفن على وجه الخصوص هو من أكبر مصادر الإلهام العلمى فى حياة البشر .

كان « آينشتين » يحب الموسيقى ، وكان عازفا ممتازا على البيانو والكمان ، ومن القصص النادرة ذات المغزى الهام قصة ميلاد نظرية النسبية ، وهى القصة التى روتها زوجة « آينشتين » يوما للفنان العالمى الكبير شارلى شابلن ، وسجلها شابلن فى مذكراته ، ولأهمية هذه القصة فأنا أنقلها هنا بالنص كما جاءت فى مذكرات شابلن (ترجمة الأستاذ صلاح حافظ - الجزء الثانى - صفحة ١٢٠) :

« على مائدة العشاء ذات يوم روت لى زوجة آينشتين قصة الصباح الذى ألهم فيه آينشتين نظرية النسبية .

نزل الدكتور آينشتين فى ثياب النوم كعادته ليتناول الإفطار ، ولكنه لم يلمس شيئا من الطعام . فخيل إلىّ أنه يشكو من شىء ما ، وسألته ماذا به فقال : عزيزتى .. إن عندى فكرة رائعة !

وبعد أن شرب قهوته جلس أمام البيانو وشرع يعزف ، ومن لحظة إلى أخرى كان يتوقف عن العزف ويسجل عدة ملاحظات ثم يكرر :

- لدىَّ فكرة رائعة ! فكرة بديعة !
- إذن فبحق السماء قلها لى ، ولا تدعنى نهب هذا القلق ..

فقال :

- إنها صعبة .. ومازال علىَّ أن أعمل لاستخلاصها .

وقالت زوجة آينشتين إنه ظل يعزف على البيانو ويسجل الملاحظات لمدة نصف ساعة تقريبا ، ثم صعد إلى مكتبه فى الدور الأعلى قائلا إنه لا يريد أن يقاطعه أحد . وبقى هناك أسبوعين ، وكنت أرسل إليه طعامه كل يوم وكان يهبط كل مساء ليتمشى وحده فى الخارج ثم يعود مرة أخرى إلى عمله .. وأخيرا نزل من مكتبه إلىّ ، وقد بدا شاحبا جدا ، ووضع على المائدة فرخين من الورق وهو يقول مرهقا :

- هذه هى !

وهكذا ولدت نظرية النسبية » .

هذا ما رواه شارلى شابلن على لسان زوجة « آينشتين » ، ومعناه بوضوح أن الإلهام الأساسى حول نظرية النسبية والتى هى أخطر نظرية علمية فى القرن العشرين ، قد هبط على ذهن « آينشتين » وهو يعزف على البيانو . وقد اضطر « آينشتين » أن ينتقل إلى أمريكا سنة ١٩٣٣ بعد استيلاء هتلر وحزبه النازى على الحكم فى ألمانيا ، إذ أحس - لأنه يهودى - بأنه لن يكون مستريحا فى ألمانيا النازية وأنه سوف يتعرض لمتاعب فى عمله العلمى ، فهاجر إلى أمريكا حيث نال الجنسية الأمريكية بعد هجرته بسبع سنوات ، أى فى سنة ١٩٤٠ .

وقد قام الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل بزيارة « آينشتين » فى بيته بمدينة برنستون سنة ١٩٥٢ ، وسجل هيكل تفاصيل هذه الزيارة وما دار فيها من أحاديث فى كتابه « زيارة جديدة إلى التاريخ » ، وقد قال « آينشتين » لهيكل عن انتقاله من ألمانيا إلى أمريكا :

« إن الكثيرين يعتقدون أننى جئت إلى أمريكا لاجئا من النازية ، ولم يكن ذلك دقيقا ، لم أكن أحب النازيين ولا أظنهم كانوا يحبوننى ، تفكيرهم كله كان قائما على فكرة الحرب . إنهم لم يتعرضوا لى بشىء أستطيع أن أمسك به دليلا ضدهم ، ولكن الجو المحيط بى كله كان ضاغطا بسبب فكرة الحرب واختلاطها بفكرة الوطنية الضيقة » .

ويصف الأستاذ هيكل بيت « آينشتين » فى برنستون فيقول :

« قاعة كبيرة وراء المدخل تفضى إلى باب مغلق على كل ناحية ، والقاعة الكبيرة تسبح فى الضوء يصل إليها من الحديقة المحيطة بالبيت عبر جدران من النوافذ . الحوائط الأخرى كلها كتب . مائدة عريضة فى طرف القاعة عليها إناء عتيق من المعدن تملؤه مجموعة زهور برية صغيرة متنوعة الألوان . ساعة قديمة كبيرة تقف فى جانب آخر من الغرفة بجوارها مقعد عليه آلة كمان ، وبجوار المقعد حامل عليه نوتة موسيقية » .

وفى جزء آخر من حوار هيكل مع « آينشتين » يقول هيكل :

« دعانى آينشتين إلى الجلوس على مكتبه كى أنقل أوراقه مستريحا . وجلست وأنا أقول له ضاحكا ما معناه : إننى أشعر على مقعده ووراء مكتبه أننى عالِم يستطيع أن يلم بأسرار الكون » .

وقال آينشتين ببساطة : لم تخطر لى فكرة ذات قيمة وأنا جالس إلى مكتبى . . أهم ما خطر على فكرى خطر لى وأنا أمشى بين الشجر » .

هذه صورة من شخصية « آينشتين » وحياته ، فقد ولدت نظرية النسبية فى ذهنه وهو يعزف بعض الألحان على البيانو . وفى بيته يوجد البيانو وتوجد آلة الكمان ، وتوجد النوتة الموسيقية . . كل هذه الأشياء المتصلة أشد الاتصال بالفن توجد جنبا إلى جنب مع الكتب العلمية التى يستخدمها « آينشتين » .

كان « آينشتين » إذن صاحب ثقافة فنية واسعة ، وصاحب ذوق فنى رفيع ، وكان عازفا على البيانو والكمان . وهذا التكامل بين العلم والفن فى شخصية « آينشتين » هو الذى أعطاه القدرة على التفوق والتميز ، وهو الذى سمح لمواهبه أن تظهر وتتفجر وتضيف إلى تاريخ العقل البشرى إضافات ثمينة .

لقد ولدت نظرية النسبية فى ذهنه وهو يعزف على البيانو ، فالموسيقى تحقق للإنسان صفاء الذهن وصفاء النفس ، وفى هذا الجو من الصفاء يمكن للمعلومات الغزيرة المتراكمة أن تتفاعل وتلهم صاحبها أعظم الأفكار .

وقد تعددت جوانب العظمة فى شخصية « آينشتين » بسبب هذا التنوع فى ثقافته بين العلم والفن . فكان من أكبر أنصار السلام بين الشعوب ، ومن أكثر الذين نبهوا إلى خطورة الحروب وخاصة فى العصر النووى على مستقبل الإنسان ، ومن آرائه فى ذلك أن أى حرب عالمية جديدة فى العصر الحديث معناها زوال الحياة على الأرض ، فلن تكون الخسائر فى مثل هذه الحرب ملايين من القتلى كما حدث فى الحروب السابقة بل ستكون هذه الحرب الجديدة إبادة للجنس البشرى كله .

وشخصية « آينشتين » ذات الأبعاد الإنسانية العميقة هى التى دفعته إلى الاعتذار عن رئاسة دولة إسرائيل ، عندما عرض اليهود عليه هذا المنصب بعد

وفاة حاييم وايزمان أول رئيس لهذه الدولة فى نوفمبر سنة ١٩٥٢ . رفض هذا المنصب لأسباب كثيرة كان على رأسها أنه يرى أن بين الزعامات الإسرائيلية من يؤمنون بالعنف ، ومن يتشابهون مع النازيين فى قسوتهم ودمويتهم ، واستعدادهم لقتل الآلاف من الأبرياء دون ندم أو تأنيب ضمير . ومن هؤلاء الدمويين الذين كان « آينشتين » يرفضهم ويعترض عليهم ، مناحم بيجين .

وقد ظل « آينشتين » حتى وفاته يحذر من نشوب حرب عالمية جديدة ، ويحذر من التعصب ، ويحلم بأن يكف شعبه اليهودى عن العنف والاعتداءات المسلحة على عرب فلسطين .

إن « آينشتين » لم يتوقف أبدا عند حدود الاهتمام الضيق بالعلوم المتخصصة ولكنه كان شخصية خصبة متنوعة الجوانب ، وكان صاحب دعوة إنسانية عميقة .

ولاشك أن عبقرية « آينشتين » قد استفادت استفادة كبيرة من تنوع ثقافته ، ومن اهتمامه - على وجه الخصوص - بالموسيقى وحبه لها ، وحرصه على أن يتعلم العزف ويتقنه .

وهذا هو المعنى الكبير فى هذه الشخصية العالمية ، فالعبقرية العلمية لا تزدهر ولا تثمر أعظم الثمار إذا ما عاشت ضمن أسوار حديدية صلبة من الحقائق العلمية المجردة ، فمثل هذه الحقائق مهما كانت كثرتها وقيمتها وندرتها لا تكفى لخلق إنسان يؤثر فى الحياة والبشر ، بل إنها قد تؤدى بأصحابها مهما كانت درجة عبقريتهم إلى نوع من ضيق الأفق والتعصب ، والتحول فى آخر الأمر إلى ما يشبه الإنسان الآلى الخالى من العواطف ، والعاجز عن توجيه نبوغه العلمى إلى وجهة مفيدة للمستقبل البشرى تساعد على البناء والرخاء ، ولا تشارك فى الهدم والتدمير وإشعال نيران الخلافات والصراعات القاتلة بين الشعوب .

العلم ليس أفكارا جافة مجردة ، بل هو فى صورته الصحيحة حقائق لها خلفية قوية من عواطف الإنسان وثقافته الواسعة التى تجعل صاحبها قادرا على الارتقاء بعقله وروحه ونفسه .

ولقد كان « آينشتين » عقلا عظيما .

وكان عازفا حساسا على البيانو والكمان .

وهكذا ينبغى أن يجمع العلماء الحقيقيون بين قوة العقل وقوة الروح ، وبين المعلومات الغزيرة والثقافة الإنسانية الرفيعة القادرة وحدها على تهذيب قوة العلم وتحويل هذه القوة من الشر إلى الخير ، ومن صناعة القنابل الذرية إلى صناعة الخير والعدل والمحبة والسلام .



محنة ڤيڤيان لى

كان من أكبر قصص الحب التى عرفتها الحياة الفنية فى القرن العشرين كله قصة حب الممثل الانجليزى العالمى الكبير « لورانس أوليفييه » والممثلة الانجليزية العالمية أيضا « فيفيان لى » ، وقد تزوج « أوليفييه » من « فيفيان لى » سنة ١٩٤٠ واستمر الزواج بينهما عشرين سنة ، حتى تم الطلاق سنة ١٩٦٠ . وهكذا كان عمر قصة الحب هذه هو عشرين سنة ، قضى منها الحبيبان عشر سنوات فى سعادة كاملة ، ثم جاءت فترة العذاب فى هذه العلاقة فاستمرت عشر سنوات كذلك . وقد تجدد الحديث عن هذه القصة

العاطفية الكبيرة بمناسبة وفاة « لورانس أوليفييه » فى أوائل شهر يوليو سنة ١٩٨٩ عن اثنين وثمانين عاما . وكانت « فيفيان » قد توفيت سنة ١٩٦٧ فى سن الرابعة والخمسين ، بعد مرض طويل قضى عليها وأنهى حياتها فيما يشبه المأساة الكاملة .

لقد ماتت « فيفيان لى » بعد أن تعرضت لمرض نفسى أدى إلى الجنون فى سنوات حياتها الأخيرة ، وكان من أعراض هذا المرض الاكتئاب ، والخوف من الناس والحياة ، وانفجارات الغضب المفاجيء الذى كان يدفع بهذه الممثلة الكبيرة إلى تدمير كل شيء أمامها ، بل ومحاولة تدمير أى إنسان تلقاه فى لحظات الانفجار التى تنتابها ، ووصل بها الأمر إلى محاولات عديدة لتدمير نفسها والقضاء على حياتها بالانتحار ، كما حاولت فى بعض الأحيان أن تقتل زوجها وتقضى عليه .

وقد بدأ نجم « فيفيان لى » يسطع سنة ١٩٣٩ عندما قامت بتمثيل دورها الخالد فى فيلم « ذهب مع الريح » أمام الممثل الكبير كلارك جيبل . وكانت « فيفيان » قبل هذا الفيلم ممثلة ثانوية قليلة الأهمية ، ظهرت فى بعض الأفلام دون أن تلفت النظر إلى مواهبها الكبيرة ، ولكن فيلم « ذهب مع الريح » جعل منها نجمة مشهورة فى كل أنحاء العالم ، ودفع بها إلى مقدمة الصفوف الأولى لنجوم العالم المحبوبين ، والذين يحظون بالتقدير والاحترام فى نفس الوقت ، وكانت « فيفيان » عندما قدمت هذا الدور فى السادسة والعشرين من عمرها ، فقد ولدت فى ٥ نوفمبر سنة ١٩١٣ ، ومن هنا جاءها النجاح الكبير وهى فى قمة شبابها ونضجها . وقد حقق فيلم « ذهب مع الريح » أرباحا عالية جدا ، كانت هى الأولى من نوعها فى تاريخ السينما ، فقد بلغت أرباح هذا الفيلم أربعين مليونا من الدولارات ، وكان هذا الحجم من الأرباح دليلا ساطعا على مدى ما حققه الفيلم من نجاح جماهيرى كبير جعل نجمته الأولى « فيفيان لى » اسما يردده الجميع ، وينتظرون من صاحبته أعمالا فنية أخرى بنفس القيمة والجمال والنجاح . وبالفعل فقد قدمت « فيفيان لى » أعمالا أخرى ناجحة ، ومن هذه الأعمال فيلم « جسر ووترلو » الذى مثلته أمام روبرت تايلور ، وفيلم « عربة اسمها اللذة » ومثلته أمام مارلون براندو .. على أن مجد « فيفيان لى » الأكبر ظل مرتبطا حتى النهاية بدورها فى فيلم « ذهب مع الريح » .

وبعد أن حققت « فيفيان لى » نجاحها وشهرتها الواسعة فى فيلم « ذهب مع الريح » ، بدأت قصة حبها مع « لورانس أوليفييه » الذى كان فى ذلك الوقت - أواخر الثلاثينات - قد أثبت وجوده الساطع فى عالم المسرح ، وأصبح واحدا من أكبر نجومه المعروفين فى انجلترا وأمريكا . وعندما إلتقى « أوليفييه » و « فيفيان » ، اشتعلت بينهماعاطفة قوية جدا ، وسرعان ما اتفقا على الزواج الذى تم بالفعل سنة ١٩٤٠ ، حيث كان « أوليفييه » فى الثالثة والثلاثين من عمره ، وكانت « فيفيان » فى السابعة والعشرين . وقد بدا للجميع فى السنوات الأولى من هذا الزواج ، أنه زواج ناجح ونادر بين الفنانين ، فحياة الفنانين بصورة عامة مليئة بالتوترات والتقلبات والمفاجآت ، مما يجعل الحياة الشخصية للفنانين هدفا للمشاكل الكثيرة والسريعة ، خاصة فى مجال الحب والزواج . ولكن « أوليفييه » و « فيفيان » أعطيا فى المرحلة الأولى من حياتهما المشتركة نموذجا رائعا للاستقرار والتوافق العاطفى الكبير ، والذى يقوم على الحب المشتعل والمتبادل من الجانبين ، وتعلق كل منهما بالآخر ، مما كان يوحى بأن الحب سوف يستمر حتى النهاية ، وسوف يصمد أمام أعاصير الحياة الفنية ومشاكلها العديدة المختلفة . وكان يساعد على تأكيد هذه الصورة الناجحة أن « أوليفييه » كان شخصية جادة مستقيمة ، يعطى وقته كله لفنه ، ويحرص على تطوير إمكانياته ، وتحقيق درجات أعلى من النجاح ، حتى وصل إلى القمة وأصبح واحدا من عمالقة الفن فى القرن العشرين . ولم يكن « أوليفييه » من ذلك النوع الذى يميل إلى المغامرات العاطفية ، أو يفكر فى استثمار نجاحه الفنى فى تجارب نسائية مختلفة . لقد كان مخلصا لهدفه الرئيسى منصرفا إليه بكل إمكاناته ومواهبه وقدراته ، وهذا الهدف هو الفن فى أرفع معانيه وأكثرها عمقا وأصالة . ومثل هذا الفنان الكبير الذى قام بتركيز جهده كله على فنه ، كان من الطبيعى أن يكون قادرا على التركيز فى ميدان الحب والعاطفة أيضا ، ومن هنا كانت عاطفته تجاه زوجته وحبيبته « فيفيان لى » كبيرة وصادقة .

وكانت « فيفيان » من جانبها تبادل زوجها حبا بحب ، وتحس بأن « أوليفييه » يملأ حياتها بعبقريته الفنية ونجاحه الذى يزداد تألقا كل يوم ، ثم بصفاته الإنسانية الكثيرة التى تتجسد فى عواطفه الدافئة وحنانه وإخلاصه لزوجته وميله إلى الحياة

العائلية الهادئة البعيدة كل البعد عن الضجيج والضوضاء ، كذلك فإن « أوليفييه » قد تعود على مساعدة زوجته الجميلة الموهوبة فى أداء أدوارها الفنية المختلفة ، وذلك من خلال خبرته الواسعة كممثل ومخرج كبير . فقد كان يضع هذه الخبرة بأكملها فى خدمة زوجته ، حتى تحقق ما تحبه لنفسها من الوصول إلى أعلى درجة من درجات النجاح الفنى . وبذلك فإن « أوليفييه » لم يقف أبدا فى وجه طموح « فيفيان لى » الفنى ، بل كان عاملا مساعدا لهذا الطموح .

فمن أين إذن جاءت « جرثومة » التعاسة واستطاعت أن تتسلل إلى هذه العلاقة العاطفية الناجحة بين « أوليفييه » وزوجته « فيفيان لى » ؟

لقد بدأت المشكلة حوالى سنة ١٩٥٠ ، أى بعد عشر سنوات من العلاقة المستقرة بين الحبيبين ، فقد أصيبت « فيفيان لى » بالاكتئاب ، وبدأت مظاهر المرض النفسى تظهر عليها بصورة تنذر بالخطر .. كانت تدخل حجرتها وتقضى وقتا طويلا وهى تنخرط فى بكاء متواصل دون أسباب ظاهرة . وقد أقنعها « أوليفييه » بأن تعرض نفسها على طبيب متخصص فى الأمراض العصبية ، وحرص على كتمان هذا الأمر ، حتى لا يؤثر ذلك على سمعتها الفنية ، وبالفعل قام بعرضها على أحد الأطباء ، الذى أكد أنها مصابة بالمرض المعروف باسم « الشيزوفرانيا » أو مرض « انفصام الشخصية » ، وهو مرض يؤدى بصاحبه إلى أن يتوهم أشياء كثيرة لم تقع بالفعل ، ومع ذلك فهو يعانى من الخوف الشديد من هذه الأشياء ويحس بأنها تهدده وتمثل خطرا على حياته . وهذا المرض ينقل صاحبه من الاكتئاب الشديد إلى الابتهاج الشديد دون مقدمات ، مما يجعل تصرفات المريض نوعا من الجنون الصريح .

وقد قرأت الكثير عن هذا المرض ، ولكننى لم استطع فهمه بصورة دقيقة إلا عندما أصيب به صديق لى ، كان واحدا من كتابنا الموهوبين ، وقد أثر عليه هذا المرض وأدى إلى وفاته . وكان من مظاهر مرض هذا الكاتب الراحل ، أنه كان يتخيل فى كثير من الأوقات وجود أشخاص رحلوا عن الحياة ، يأتون إليه ويتحدثون ويتحاورون معه فى كثير من شئون الفكر والأدب والحياة ، وكانوا يطلبون منه أن يقوم ببعض التصرفات ، ولم يكن يتردد فى الاستجابة لما

يطلبونه ، مما جعل سلوكه بين أهله وأصدقائه مصدرا للشك فى قواه العقلية وصحته النفسية . وقد كان هذا الصديق الموهوب المريض يفاجئنى بالزيارة أحيانا فى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ليروى لى قصصا عجيبة عن لقاءات له ، وحوارات جرت بينه بين أشخاص راحلين ، وهو يتصور أن ذلك كله حقيقى ، وأنه قد حدث له بصورة واقعية . وقد أقنعتنى حالة هذا الصديق بأن مرض « انفصام الشخصية » مرض شديد الخطورة ، وأنه يهلك أعصاب صاحبه ويؤدى به إلى الدمار الكامل ، كما حدث مع صديقى الذى أصيب بهذا المرض العجيب ، حيث انتهى به الأمر إلى الاعتكاف الكامل فى بيته ، والامتناع عن رؤية الناس حتى لو كانوا أقرب المقربين ، بل والامتناع عن الطعام لعدة أيام متصلة ، وبعد أن وصل إلى هذه الحالة انتهى به الأمر إلى الموت .

هذا هو المرض النفسى الخطير الذى أصيبت به « فيفيان لى » . وقد روى « أوليفييه » فى مذكراته التى نشرها سنة ١٩٧٧ بعنوان « حياة ممثل » بعض الحوادث الغريبة فى حياة زوجته ، ومنها أنه كان يدخل البيت فيجدها وقد وقفت فى الصالة عارية بصورة كاملة ، ومنها أنه فوجىء ذات ليلة ـ وكان نائما ـ فإذا بها تضربة على وجهه بفوطة مبللة بالماء ضربا شديدا متصلاً وكأنها تريد أن تقتله وتقضى عليه ، وقد استيقظ « أوليفييه » وأخذ يدافع عن نفسه ، ويحاول منعها من إيذائه ، وفى أثناء مطاردته لها ومحاولته السيطرة عليها اصطدمت « فيفيان » بسريرها صدمة عنيفة مما أدى إلى أن تصاب بجرح حاد بالقرب من إحدى عينيها ، وقد ظلت تعالج من هذا الجرح لفترة غير قصيرة . وذات يوم قرر الأطباء ضرورة علاجها فى المستشفى ، وكانت الخطوة الأولى هى أن تنام لمدة ثلاثة أسابيع متصلة ، فاقدة للوعى ، عن طريق التخدير ، كما قرر الأطباء فى فترة أخرى معالجتها بالصدمات الكهربائية . وتوصل الأطباء فى النهاية إلى أنها لن تشفى من مرضها ، وأن ما يستطيعه الطب هو إيقاف المرض عند الحدود التى وصل إليها . وكانت « فيفيان » ـ لسوء حظها ـ تعانى من مرض عضوى آخر هو « التهاب رئوى حاد ومزمن » مما زاد من خطورة مرضها النفسى ، وجعل فرصتها فى الشفاء محدودة .

والذى لا شك فيه أن مثل هذا المرض النفسى الخطير لا ينشأ من فراغ ،

فلابد أن يكون المريض قابلا لهذا النوع من المرض ، وأن تكون لديه فى شخصيته عناصر تجعله فريسة يمكن أن تسقط فى شباك هذا المرض الخطير .

ولكن هذا « الاستعداد الطبيعى » لابد أن يجد أسبابا تثيره وتدفع بالمرض الكامن إلى الظهور .

فما هى الأسباب التى أدت إلى ذلك كله فى حياة « فيفيان لى » ؟
لقد كان « أوليفييه » يقول : « إن حبى لفيفيان هو أكبر قصة حب فى حياتى » .

وكانت « فيفيان » ناجحة ومشهورة ، وكان اسمها يملأ الدنيا بالتقدير والاعجاب . وكانت جميلة جدا ، وكان النقاد والصحفيون يقولون عنها ـ بعد تمثيلها لفيلم « ذهب مع الريح » ـ إنها« جميلة الجميلات » .

لقد أجمع الذين درسوا حياتها على أن مأساتها بدأت من نقطتين : الأولى هى النجاح الساحق الذى حصلت عليه فى فيلم « ذهب مع الريح » ، فقد أدى هذا النجاح إلى رغبة مشتعلة فى داخلها تدفعها إلى إجهاد نفسها فى كل أعمالها الفنية ـ فى المسرح والسينما ـ حتى تحافظ على المستوى الذى حققته أو تتفوق عليه .

أما النقطة الثانية التى قادتها إلى المرض ـ وهى الأهم ـ فهى زواجها من « لورانس أوليفييه » .

كان « لورانس أوليفييه » ممثلا غير عادى ، وقد تزوجته « فيفيان » وهو فى بداية خطواته فوق القمة ، وبعد الزواج ظل يصعد ويصعد حتى تربع على القمة وأصبح أكبر الممثلين فى عصره .

وهنا أصيبت « فيفيان لى » برغبة مجنونة فى أن تصبح فى مستوى « أوليفييه » ، وأن ترتفع بفنها وأدوارها المختلفة إلى القمة التى وصل إليها « أوليفييه » وألا تنزل بمستواها أبدا عن مستوى زوجها العظيم .

لقد نشأ فى نفسها شعور غير عادى بالرغبة فى التفوق ، ومنافسة زوجها ، والصمود أمامه . ويبدو أنها كانت تشعر فى أعماقها أنها لن تستطيع تحقيق هذا

التوازن الفنى بينها وبين زوجها ، واستولى عليها شعور مدمر ، بأنها لن تكون جديرة بهذا الممثل العظيم الذى لا تستطيع أن تلحق به ، مما خلق لديها إحساسا بالقلق ، ودفعها إلى التصور بأن زوجها يمكن أن يتركها وينفصل عنها عندما يحس أنه قد تقدم عليها فنيا وسبقها بخطوات كبيرة جدا ، بينما تأخرت هى عنه بمسافة واسعة .

هذا النوع من القلق ، كان من الأسباب القوية التى أتاحت للمرض النفسى الكامن فى شخصية « فيفيان لى » أن يظهر ويسيطر عليها .

ولقد وصل الأمر بها إلى أنها كانت تتعرض لحالة إغماء عنيفة فى بعض الليالى التى كانت تمثل فيها بعض الأدوار أمام زوجها ، مثل دور « كليوباترا » فى مسرحية « قيصر وكليوباترا » . وقد بذلت « فيفيان » فى هذه المسرحية جهدا خارقا وأجهدت نفسها ، ولكنها كانت تشعر بعدم الرضا ، وبأنها أصغر فنيا من زوجها العظيم ، رغم كل محاولات الزوج أن يبعث بالثقة إلى نفسها ، وأن يطمئنها على نجاحها فى دورها ، وأن يقدم إليها الأدلة على ذلك من إعجاب الجماهير والنقاد ، ولكن المرض النفسى كان قد تمكن منها وشل إرادتها ، وملأ نفسها بالحزن والاكتئاب والمخاوف الحادة .

ولو كانت « فيفيان لى » شخصية طبيعية ، وكانت خالية من الاستعداد للمرض النفسى الذى دمر حياتها ، لما سمحت لنفسها بالوقوع فى ذلك الشعور القاسى بأنها أقل موهبة من زوجها ، وأقل منه نجاحا . فمن الطبيعى أن تشعر المرأة بأن نجاح الرجل هو نجاح لها ، ومادام الرجل قد اختارها لتكون حبيبته وأقرب الناس إليه ومنحها أعلى درجات الإعجاب والتقدير ، فإن نجاح مثل هذا الرجل كان من المفروض أن يبعث الثقة إلى نفس المرأة ، ويعطيها الاطمئنان والإحساس العميق بالأمان .

ولكن « فيفيان لى » دخلت حربا عنيفة ضد نجاح زوجها ، فكانت تريد أن تنافسه وتكون فى مستواه بل وأن ترتفع عن ذلك المستوى ، حتى تقنع نفسها المريضة بأنها ليست أقل منه ، وأنها أمام الآخرين مساوية لزوجها العبقرى أو متفوقة عليه . ومع أن أحدا لم يقارن بينها وبين زوجها ، ولم يشكك فى مواهبها

وعبقريتها الفنية ، إلا أنها كانت خاضعة لهذا الكابوس الخانق من المقارنة بين قدرتها وقدرة الزوج ، وبين عبقريتها وعبقريته .

وجاء يوم اتجهت فيه « فيفيان لى » إلى مواجهة زوجها بأنها لا تحبه وإنما تحب ممثلا آخر كان ناشئا فى ذلك الوقت ـ سنة ١٩٥١ ـ هو بيتر فينش ، وقد أصبح من كبار الممثلين المشهورين بعد ذلك .

ولم يكن إعلانها لهذا الحب الجديد إلاّ تأكيدا لنفسها أنها قادرة على التخلص من هذا الزوج العبقرى ، وأنها قادرة على أن تثق بنفسها وتعتمد على موهبتها الخاصة وحريتها فى التفكير والاختيار والتصرف والعمل . وكان لابد من الطلاق بين الزوجين الحبيبين ، رغم أن « أوليفييه » حاول طويلا وكثيرا أن ينقذ علاقته مع زوجته من الدمار ، لأنه ظل حتى النهاية يحب « فيفيان » ويتمنى لها الشفاء والعودة إلى حياتها الطبيعية وشخصيتها السوية ، ولكن المرض كان قد تغلغل فى أعصاب « فيفيان » فلم تستطع أن تنجو منه ، وظل الكابوس الذى يسيطر عليها هو الرغبة فى التنافس مع زوجها العظيم على خشبة المسرح أو على شاشة السينما ، والشعور بأنها لابد أن تثبت للعالم قدرتها على التفوق الفنى ، والاحتفاظ لنفسها بالمكانة التى وصلت إليها فى دورها الخالد فى فيلم « ذهب مع الريح » . وقد أدت هذه المشاعر المضطربة إلى تدمير حياتها فانتهى بها الأمر إلى الموت وهى فى الرابعة والخمسين من عمرها ، وكان ذلك فى شهر يوليو سنة ١٩٦٧ .

يصف « أوليفييه » حياته مع « فيفيان لى » بقوله :

« كانت حياتنا مثل مصعد سريع اندفع إلى أعلى ثم هبط بسرعة مجنونة إلى الهاوية دون توقف » .

ويفسر « أوليفييه » طلاقه من زوجته وهى فى قمة مرضها فيقول :

« قد تصل بك الحياة إلى مرحلة أشبه ما تكون بالاختيار المرير وأنت فى قارب نجاة لا يتسع إلا لشخص واحد ، عندئذ تندفع إلى انتزاع اليد المتشبثة بالقارب ، وإلاّ هلكت أنت وصاحب تلك اليد فى وقت واحد » .

ومعنى كلام « أوليفييه » ببساطة هو أنه ـ بعد عشرين سنة من الحب

والزواج - لم يكن أمامه اختيار سوى أن ينجو بنفسه أو أن يهلك مع حبيبته المجنونة « فيفيان لى » ، فآثر أن ينجو وأن يترك زوجته وحبيبته إلى مصيرها الأليم ، الذى انتهت إليه بسبب مرضها النفسى الخطير .

وهكذا انتهت حياة مشتركة بين فنان عبقرى وفنانة عبقرية ، ويبقى السؤال : هل من المستحيل أن تعيش عبقريتان مع ، فى بيت واحد ، وتحت سقف واحد ؟

والحقيقة المؤكدة أنه لا يمكن لعبقريتين أن تعيشا فى بيت واحد إلاّ إذا كان بين الاثنين مشاعر قوية من الرحمة والحنان والإحساس بأن كل شخص منهما يكمل الآخر ، أما إذا دخلت مشاعر التنافس والغيرة والرغبة فى التفوق والطموح إلى تحقيق نجاح أكبر ولو على حساب الشخص الآخر ، فإن الحياة المشتركة تتحول إلى حرب أهلية ، وتنتهى كما انتهت حياة « فيفيان لى » بمأساة . وقد استطاع « أوليفييه » أن ينجو بنفسه ويواصل نجاحه الفنى الكبير ، بل واستطاع أن يتزوج من ممثلة أخرى هى جوان بلورايت ، وهى ممثلة ناجحة ، ولكنها كانت شخصية طبيعية ، فمنحت « أوليفييه » الهدوء والاستقرار وثلاثة أولاد ، وعن هذه الزوجة يقول « أوليفييه » :

« لقد وجدت فى جوان بلورايت كل ما أريده من المرأة .. كان حبنا أشبه بالحلم الرائع .. كان شيئا طبيعيا ، وكان أقوى من أى علاقة سابقة لى ، حتى تلك العلاقة التى كنت اعتقد أنها رائعة مع فيفيان لى .. » .

وقد ظلت جوان إلى جانب « أوليفييه » حتى وفاته فى شهر يوليو سنة ١٩٨٩ ، أى منذ زواجهما سنة ١٩٦٠ وحتى سنة ١٩٨٩ .

كان الحب الثانى هو الحب الناجح .

أما الحب الأول فقد بدأ رائعا وانتهى بمأساة .



مى فى مستشفى المجانين

من بين الأسماء اللامعة فى الأدب العربى المعاصر اسم الأديبة المعروفة « مى » وهو اسمها الذى اشتهرت به ، أما اسمها الحقيقى فهو « مارى زيادة » . وقد ولدت « مى » سنة ١٨٨٦ ، وكان أبوها إلياس زيادة لبنانيا أما أمها فكانت فلسطينية من مدينة الناصرة ، واسمها نزهة معمر ، وكانت « مى » هى الإبنة الوحيدة لوالديها . وقد تعلمت « مى » فى إحدى مدارس الراهبات فى لبنان ، ومنذ صباها الأول تميزت بميولها الأدبية وحبها الشديد للمطالعة ، فكانت تقرأ بنهم ، واستطاعت أن تتعلم عدة لغات منها الفرنسية

والانجليزية والايطالية ، وكانت تتقن هذه اللغات جميعا وتقرأ فيها آثار الأدب والثقافة ، حتى قال عنها أحد أساتذتها الأوائل وهو يعقوب صروف صاحب مجلة « المقتطف » المشهورة : « إنها كانت تستشهد فى كلامها معى بأبيات من شيكسبير أو بيرون ، كما تستشهد بالمتنبى والمعرى » .

جاءت « مى » إلى مصر سنة ١٩٠٨ مع والدها ووالدتها ، وكان عمرها فى ذلك الوقت اثنتين وعشرين سنة ، وكانت فتاة ناضجة رشيقة جميلة مليئة بالصحة والعافية . وكان صوتها عذبا رقيقا وصفه طه حسين عندما استمع إليها لأول مرة سنة ١٩١٣ عندما اشتركت فى حفل أدبى لتكريم الشاعر خليل مطران ، وألقت فيه كلمة أعدتها لهذه المناسبة .. قال طه حسين وهو يتحدث عن حفلة تكريم مطران :

« لم يرض الفتى عن شىء مما سمع إلاّ صوتا واحدا سمعه ، كان الصوت نحيلا ضئيلا وكان عذبا رائعا ، وكان لا يبلغ السمع حتى ينفذ إلى القلب . هذا الصوت كان صوت مى » .

وقد جاء إلياس زيادة إلى مصر من لبنان على عادة الكثيرين من الشوام فى تلك الفترة حيث كانوا يجدون فرصا واسعة للعمل والنشاط فى مصر ، واشتغل الوالد بالصحافة ، وكان محررا مسئولا لمجلة « المحروسة » التى كان يملكها أحد الأثرياء المصريين وهو إدريس راغب باشا . وكانت « مى » تساعد والدها فى تحرير المجلة ، وعلى صفحات هذه المجلة بدأ اسمها يلمع كأديبة صاحبة أسلوب عذب جميل ، مليء بالموسيقى الشعرية الهادئة ، وغنى فى نفس الوقت بالأفكار الجديدة الحية .

وأخذ اسم « مى » ينتشر ويلفت إليها الأنظار فى أوساط المثقفين ، وكانت هذه الأوساط تتكون من عدد كبير من الأدباء الشوام الذين استقروا فى القاهرة ، ومن أدباء مصر ومفكريها الذين كانوا مشهورين فى أوائل هذا القرن ، أو الذين لمعت أسماؤهم بعد ذلك ابتداء من نهاية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨ وما تلاها من السنوات ، ومن هؤلاء الأدباء والمفكرين : يعقوب صروف وشبلى شميل ، وولى الدين يكن وانطون الجميل ، وخليل مطران من الشوام - وشوقى وحافظ

وطه حسين ، ومصطفى عبد الرازق والعقاد والرافعى ، والزيات وزكى مبارك ومنصور فهمى من المصريين .

وفى سنة ١٩١٤ أصبحت « مى » نجمة لامعة فى الحياة الأدبية المصرية ، فقد كانت تمثل ظاهرة فريدة وجديدة لم يعرفها الأدباء والمفكرون من قبل : فهى كاتبة موهوبة ، ولكنها بالاضافة إلى ذلك كانت صاحبة شخصية اجتماعية لافتة للنظر ، فكانت تحضر الندوات والمؤتمرات الثقافية ، وتلقى المحاضرات على جمهور المثقفين ، مما لم يكن مألوفا على الإطلاق بالنسبة للمرأة العربية حتى ذلك الوقت .

وفى هذا العام بالتحديد ـ عام ١٩١٤ ـ وكانت قد أصبحت فى الثامنة والعشرين من عمرها ، جعلت « مى » بيتها صالونا ثقافيا يلتقى فيه الأدباء والمفكرون اللامعون يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وقد ظل هذا الصالون مفتوحا بانتظام لمدة عشرين سنة على التقريب ، ولم يتوقف إلاّ عندما تعرضت « مى » لمحنة عنيفة سوف نتحدث عنها بعد قليل ، وكان ذلك حوالى سنة ١٩٣٥ .

وفى هذا الصالون الأدبى ، لم يكن هناك صاحب قلم معروف إلاّ وشارك فيه ، وكان من أكثر المنتظمين فى حضور ندوة الثلاثاء فى بيت « مى » : طه حسين ولطفى السيد والعقاد والزيات ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وخليل مطران وغيرهم .

ولكى تكون لدينا صورة حية عن هذا الصالون الأدبى فى بيت « مى » ، وعن دورها فى هذا الصالون يكفى أن نقرأ هذه السطور التى كتبها العقاد عنه حيث يقول :

« كنا نحو ثلاثين كاتبا وأديباً ووزيرا ، اجتمعنا فى بيت « مى » للاحتفال بالعيد الخمسينى لمجلة المقتطف « سنة ١٩٢٦ » ، وكان اجتماع هذا المجلس عند « مى » إبان المنازعات السياسية التى وصلت بكثير من الكتّاب إلى حد التقاطع والعداء ، فقضينا عندها ساعتين نسينا فيها أن فى البلد أحزاباً أو منازعات ، وذلك بفضل براعتها فى التوفيق بين الآراء والأمزجة ، وقدرتها على توجيه الحديث

إلى أبعد الموضوعات عن الخلاف .. وما أحسب أن أحد غير « مى » قد استطاع الذى استطاعته فى تلك الأيام » .

هذه الصورة التى يرسمها العقاد لندوة « مى » تعطينا فكرة عن الحيوية التى خلقتها « مى » فى الحياة الأدبية والثقافية ، من خلال شخصيتها الجذابة الساحرة ، وعقلها الذكى المتفتح ، وقدرتها الرفيعة على جمع كل هذه النماذج المتناقضة من الرجال حولها .

أما كتاباتها فقد بلغ من أهميتها وقيمتها وجمالها ، أن جريدة « الأهرام » كانت تنشر مقالاتها فى الصفحة الأولى . وكان الأدباء والمثقفون وجماهير القراء يقبلون على هذه الكتابات فى حب وإعجاب لما يجدونه فيها من عذوبة فى التعبير وعمق فى التفكير ، وجرأة خالية من الاستفزاز فى تأييد الأفكار التى تدعو إلى النهضة والتقدم والمساواة وتحرير المجتمع من القيود والتقاليد التى تعوقه عن ملاحقة العصر والحضارة الحديثة .

وكان من أفكارها الأساسية الدعوة إلى تحرير المرأة وتعليمها ، وإتاحة الفرصة لها حتى تخوض الحياة العملية جنبا إلى جنب مع الرجال ، فتنتج وتساهم فى بناء المجتمع مساهمة إيجابية . وكان من أفكارها أيضا الدعوة إلى المساواة الاجتماعية ، ومقاومة الظلم والتفرقة بين الناس على أساس غير عادل ، وقد عبرت عن ذلك فى كتاب كامل لها عنوانه « المساواة » كان من أوائل الكتب التى ظهرت فى الفكر العربى المعاصر ، تدعو إلى هذه القضية فى إيمان وصدق وإخلاص ، وتعبر عنها تعبيرا جميلا قادرا على التأثير الواسع فى العقول والقلوب . ومن القضايا التى اهتمت بها « مى » أيضا دفاعها الصادق المتحمس عن اللغة العربية ، ومن ذلك قولها وهى الأديبة المسيحية : « .. لقد عدت اليونانية واللاتينية فى صف اللغات الميتة منذ سقوط مدنيتيهما ، فما الذى حفظ العربية حية بعد زوال المدنية العربية بقرون سبعة ؟ .. إن الذى كان باعثا على تكوين المدنية العربية هو هو الذى مازال حافظها إلى اليوم : هو القرآن . لذلك ستظل اللغة العربية حية مادام الإسلام حيا ، ومادام فى أنحاء المسكونة ثلاثمائة مليون من البشر يضعون يدهم على القرآن حين يقسمون » .

وعندما كتبت « مى » هذا الكلام عن اللغة العربية كان عدد المسلمين فى العالم ثلاثمائة مليون ، واليوم يبلغ عدد المسلمين فى أنحاء الدنيا ما يقرب من ألف مليون .

وهذا الكلام الذى كتبته « مى » عن اللغة العربية يكشف عن مدى صفاء نفسها وابتعاد روحها وعقلها عن أى معنى من معانى التعصب ، فهى - وإن كانت مسيحية - إنما تعتز بلغتها العربية وتشارك أبناء وطنها من المسلمين حبهم لهذه اللغة واعتزازهم بها ، وتعرف للقرآن مكانته السامية فى التأثير على الأدب واللغة والفكر فى الثقافة العربية .

وقد ظلت « مى » بقلمها الجميل ، وأفكارها الجديدة ، وشخصيتها العذبة الجذابة تصعد فى سماء الحياة الأدبية حتى أصبحت مركزاً أساسيا من مراكز الحركة الأدبية والثقافية فى مصر والعالم العربى ، وأصدرت العديد من الكتب التى تجمع بين التأليف والترجمة والبحث والدراسة والتعبير الوجدانى . ومن كتبها بالاضافة إلى كتاب « المساواة » الذى أشرنا إليه : « ابتسامات ودموع » و « رجوع الموجة » ، و « الصحائف » و « كلمات وإشارات » ، و « ظلمات وأشعة » و « بين الجزر والمد » ، وعدد آخر من الكتب .

وفى قمة هذا المجد الأدبى الذى وصلت إليه « مى » بدأت الأيام تتغير وتفرض عليها تجارب مريرة . وكانت الصدمة الأولى فى حياتها هى وفاة والدها سنة ١٩٣٠ ، ثم توفيت والدتها سنة ١٩٣٢ . ووجدت « مى » نفسها وحيدة لأول مرة فى حياتها ، بعد أن عاشت بين هذين الأبوين المليئين بالحنان ، لا تشعر بالفراغ ، ولا تخاف من المخاطر ، ولا تحس بالخوف .. ولكن وفاة الأب والأم غيرت من حالها ، وبدأت تشعر بأنها كانت تعيش فى حلم سعيد ، وأنها استيقظت من هذا الحلم لتواجه الهموم التى بدأت تغزو قلبها بشدة وعنف .

والغريب أن « مى » عندما مات والدها لم تكن صغيرة ، بل كانت فى الرابعة والأربعين من عمرها ، وماتت أمها بعد ذلك بعامين ، وكانت « مى » فى ذلك الوقت قد وصلت إلى السادسة والأربعين . وكانت بالإضافة إلى نضجها ، وتقدمها فى السن مسلحة بعدة أسلحة كان المفروض أن تنقذها من الاستسلام للمصائب التى

تعرضت لها ، والتى هى مصائب طبيعية فى حياة البشر جميعا . وكان أبواها قد تركا لها ثروة صغيرة بالإضافة إلى ما جمعته هى من خلال كتاباتها ومكانتها الأدبية من المال ، مما كان يحميها من أن تكون عرضة لأى احتياج مادى أو أخطار اقتصادية .

ومع ذلك كله فقد بدأ الحزن يتسلل إلى نفسها وتحيط بها الكآبة من كل جانب ، وأخذت « مى » تحت تأثير هذا التحول النفسى تميل إلى العزلة والابتعاد عن الناس شيئا فشيئا وأغلقت صالونها الأدبى ، وأخذت تعتذر عن عدم استقبال أصدقائها القدماء الذين كانوا يحملون لها أجمل المشاعر ويتمنون لها السعادة والراحة وهدوء البال .

وفى هذه الحالة التى انتابت « مى » فجأة ، تمسك بالقلم وتكتب رسالة إلى ابن عم لها فى لبنان اسمه جوزيف زيادة ، وفى هذه الرسالة تقول :

« إنى اتعذب ياجوزيف ، ولا أدرى السبب ، فأنا أكثر من مريضة ، وينبغى خلق تعبير جديد لتفسير ما أحسه ، إنى لم أتألم فى حياتى كما أتألم اليوم ، ولم أقرأ من الكتب أن فى طاقة إنسان أن يتحمل ما اتحمل . وددت لو علمت السبب على الأقل ، ولكنى لم أسأل أحداً إلاّ وكان جوابه : لا شىء ، إنه وهم شعرى تمكن منى . لا . لا ياجوزيف . إن هناك أمرا يمزق أحشائى ويميتنى فى كل يوم وفى كل دقيقة .. لقد تراكمت علىَّ المصائب فى السنوات الأخيرة وانقضّت علىَّ وحدتى الرهيبة التى هى معنوية أكثر منها جسدية ، فجعلتنى أتسائل كيف يمكن لعقلى أن يقاوم عذابا كهذا ، وكان عزائى الأوحد فى محنتى هذه مكتبتى ووحدتى الشعرية ، فكنت أعمل كالحكومة بالأشغال الشاقة لعلى أنسى فراغ سكنى ، أنسى غصة نفسى ، أنسى كل ذاتى .. إنه ليدهشنى حقا كيف أنى استطعت أن أكتب هذه الرسالة ، ولعل الفضل فى هذا يعود إلى اللفائف (السجائر) التى أدخنها ليل نهار - أنا التى لا عهد لى بذلك - أدخنها لتضعف قلبى ، هذا القلب السليم المتين الذى لا يزال يقاوم . واسلم لابنة عمك » .

هذه هى الرسالة التى كتبتها « مى » إلى ابن عمها المقيم فى لبنان ، والذى لم يكد يتسلم الرسالة حتى جاء إلى مصر ، والتقى بمى . وأقنعها برقة ولطف أن

تكتب له توكيلا ليتصرف فى شئونها ويقوم برعايتها على خير وجه . وفى أزمتها النفسية الحادة استجابت له ، وكتبت التوكيل الذى أملاه عليها ، ثم أقنعها بعد ذلك أنها بحاجة إلى تغيير الهواء وأن ذلك لن يتم إلاّ بسفرها إلى لبنان وقد تخلصت من الهموم والأحزان . وسافرت « مى » مع قريبها بالفعل وكان ذلك سنة ١٩٣٦ .

وتوالت الأحداث العجيبة والأليمة بعد ذلك .

كان قريبها طامعا فى الاستيلاء على ثروتها الصغيرة من مال وحلى ، فاستدرجها إلى لبنان لينفذ خطة بالغة الشر والقسوة .

لقد أشاع أنها مجنونة ، واستطاع أن يقنع بعض من لا يملكون شيئا من الأمانة والشرف ، ومن لا يعرفون قيمة « مى » ومكانتها ، بأن يكتبوا تقريرا طبيا يؤكد أنها مجنونة . وبعد ذلك تمكن من اقتيادها إلى مستشفى المجانين المعروف فى لبنان ، واسمه مستشفى « العصفورية » . وأقام قريبها عليها قضية « حجر » تمنعها من التصرف فى أموالها وممتلكاتها ، واستطاع أن يحصل على قرار بهذا الحجر على « مى » .

وقد حدث هذا كله بعيدا عن العيون ، وظن أصدقاء « مى » أنها تعيش فترة عزلة وانطواء ، أملا فى الراحة والشفاء من أزمتها النفسية التى تعرضت لها فى القاهرة بعد وفاة والديها .

وعاشت « مى » فى مستشفى المجانين ما يقرب من عام ، ذاقت فيه المر ، وأضربت فيه عن الطعام ، فكانوا يغذونها بطرق طبية بعد أن يقيدوها بالقوة والعنف .

ولكن الصحافة الأدبية فى لبنان اكتشفت الأمر أخيرا عن طريق بعض الأدباء الذين أخذوا يبحثون عن « مى » ويحاولون معرفة أخبارها الحقيقية ، وهنا قامت ضجة كبيرة ، دفاعا عن الأديبة الموهوبة المسجونة فى مستشفى المجانين ، وتدخلت السلطات اللبنانية ، وكلفت بعض الأطباء بكتابة تقرير عن أحوال « مى » الحقيقية ، وكتب الأطباء تقريرا يقول إنها ليست مجنونة ولا تعانى من أى مرض عقلى ، ولكنها تعانى من شىء آخر هو ضعف جسدى شديد يقتضيها أن تنتقل إلى إحدى المستشفيات العادية لعلاجها من الضعف الذى تعانيه .

وخرجت « مى » من مستشفى المجانين لتدخل مستشفى عاديا آخر يملكه الدكتور نقولا ربيز ، وتصورت « مى » أنها سوف تتحرر بعد قليل ، ولكنها بقيت فى المستشفى الجديد ما يقرب من عام آخر . ومن هنا عادت إلى موقفها القديم من رفض الطعام والدواء ، لأنها كانت تشعر بأنها مسجونة وليست مريضة . وتحدثنا الأديبة السورية الدكتورة وداد سكاكلانى فى كتابها القيم الشامل عن « مى » ، عما كانت « مى » تفعله فى مستشفى المجانين ، هو نفس ما كررته فى مستشفى الدكتور ربيز فى بيروت .. تقول الدكتورة وداد : « رفضت مى أن تأكل ، ورفضت أن تسرح شعرها أو تقلم أظافرها ، وأغضبها أن ترجو السماح لها بالتدخين فلم يشفق على حرمانها أحد ، ولم يحاول قلب إنسان أن يسعفها برحمة أو معونة أو يستمع لشكواها من إحساسها بهذا الظلم الذى أصابها » .

ومرة أخرى يتجمع أصدقاؤها ، والذين يعرفون فضلها وموهبتها وحقيقة نبوغها وعبقريتها ، ليثيروا ضجة واسعة لإنقاذها مما هى فيه . وتنجح الحملة الجديدة ، وتخرج « مى » لتقيم فى بيت خاص ، وتلقى رعاية من أصدقاء مخلصين كان على رأسهم أديب لبنان الكبير أمين الريحانى الذى أعطاها هو وعائلته كل الحب والحنان والرعاية ، وساعدها على التخلص من سُلطان ابن عمها وسطوته ، وانتهى الأمر برفع الحجر عنها تماما وعودتها إلى حريتها الكاملة ، وحقها فى التصرف فى حياتها وأموالها كما تشاء .

ولكن التجربة المريرة التى عاشتها « مى » كانت قد أثرت على صحتها وملأتها بالشك وعدم الثقة فى الناس . والحقيقة أن مثل هذه التجربة كانت كفيلة بأن تؤدى إلى تدمير أى شخصية مهما كانت قوة هذه الشخصية أو قدرتها على المقاومة .

ورغم أن « مى » حاولت أن تعود إلى حياتها الطبيعية إلا أن التجربة الأليمة كانت قد نالت منها ، فظلت صحتها تتدهور حتى توفيت فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ ودفنت إلى جوار أبوايها ، وكانت فى الخامسة والخمسين من عمرها .

وتظل حياة « مى » مليئة بالأسئلة التى تحتاج إلى إجابة . وأهم هذه الأسئلة هو : لماذا لم تتزوج « مى » ؟ حيث كان باستطاعتها أن تجد إلى جانبها رفيقا يملأ

حياتها ، ويساعدها على تحمل الآلام والمصاعب التى واجهتها وحدها بعد وفاة أبويها . ولم تكن « مى » بالمرأة التى ينقصها الجمال أو الذكاء ، أو النجاح النادر حتى تعجز عن الزواج من رجل يناسبها ويشاركها مسئولية الحياة ؟

لماذا لم تتزوج ؟

الإجابات عديدة عن هذا السؤال ، ومن هذه الإجابات أن « مى » كانت سابقة لعصرها ، ولم يكن هناك من الرجال من يرضى بالزواج منها مع الاحتفاظ لها بشخصيتها الاجتماعية المتحررة ، والتى لم يكن المجتمع العربى ، بما فى ذلك مجتمع مصر ، يحتملها فى ذلك الحين . ومما يؤكد ذلك ما رواه أحد أبناء جيلها ، وهو الأديب الفلسطينى عبد الله مخلص ، حيث قال فى مقال له :

« مما أذكره عن « مى » أننى كنت فى بيت المقدس فى أوائل سنة ١٩٢٣ فجاءته الآنسة « مى » زائرة دارسة ، وراح الأدباء والفضلاء للترحيب بها والتعرف اليها ، وقصدت أنا ورفيق لى لزيارتها فى المنزل الذى نزلت فيه فلم نجدها إذ ذاك ، وفيما نحن عائدون قال لى صاحبى : أتدرى أن عِلم « مى » جنى عليها ؟ فقلت له : افصح عما فى ضميرك ، فيظهر أن للكلام بقية .

فقال : أنا أحد الذين كانوا يرون أن السعادة كل السعادة فى الاقتران بـ « مى » لما وهبها الله من الخلق الجميل والصفات الطيبة ، ولكنى كنت أرى أن مستواها العلمى فوق مستواى فلم أجرأ على طلب يدها .

« والذى قال لى هذا القول لم يكن من عامة الناس بل هو من خريجى الجامعة الأمريكية ومن أصحاب الثروات الطائلة ، ومن الذين أثروا فى الحياة الاجتماعية والمدنية ولكنه كان يرى نفسه دونها فى العلم والفضل ويعترف بذلك .. » .

هذا هو ما كتبه أحد أدباء جيلها فى تفسير « عدم زواجها » ، وهو تفسير ينطبق على البعض ، ولكنه لا ينطبق على كل الذين عرفتهم « مى » وعرفوها ، فقد كان بينهم أدباء نابغون من أصحاب الثقافة الرفيعة والموهبة العالية . وهنا يظهر السبب الآخر الذى أشرنا اليه ، وهو أن الرجال فى عصرها لم يكونوا يستطيعون الزواج من « مى » ، وأن يسمحوا لها فى نفس الوقت بالاحتفاظ

بشخصيتها العامة المتحررة ، فقد كانت سابقة لعصرها متقدمة عليه ، فمن هو الرجل الذى كان يتحمل أن يتزوج من فتاة مثل « مى » وهى فى الثلاثين سنة ١٩١٦ مثلا ، وكانت « مى » تخطب فى النوادى ، وتلقى المحاضرات على جمهور كبير ، وتستقبل الرجال فى بيتها ، وتتبادل معهم الحوار والمناقشة فى سائر أمور الثقافة والحياة والمجتمع ؟

لم يكن هناك من الرجال فى ذلك العصر من يستطيع أن يتحمل « مى » على هذه الصورة ، ولم تكن هى من جانبها تفكر أو تميل إلى تغيير شخصيتها أو التنازل عنها ، فقد كانت تجد نفسها فى حريتها ، وعملها الأدبى ، واختلاطها بالحياة ، وإيمانها بالآراء الجديدة المتطورة .

على أن « مى » رغم تحررها كانت كما شهد لها الجميع بذلك ، على خلق رفيع ، وكانت شديدة التدين ، ولم تقع يوما فى أى سلوك يمكن أن يأخذه أحد ضدها ، لقد كانت صاحبة رسالة فكرية واجتماعية وأدبية ، وكانت عفيفة شريفة نقية السيرة مثالية شديدة الحرص على المبادىء الأخلاقية العالية .

إن محنتها الكبيرة كانت بلا شك ناتجة عن أنها قد جاءت قبل عصرها بنصف قرن على الأقل ، وأنها اهتمت بحياتها العامة على حساب حياتها الخاصة ، ولم تستطع أن تقيم توازنا يتيح لها أن تنجو من الآلام والمنغصات فى اللحظات الصعبة ، ولا أن تجد من يقف إلى جانبها ويتحمل عنها بعض أعباء الحياة .

لقد عاشت وأعطت بسخاء وأضاءت قلوب الناس وعقولهم ، ثم تألمت وعانت ، ودفعت غاليا ثمن ذكائها وتفوقها وسبقها للعصر الذى عاشت فيه .



إنسانيات نجيب محفوظ

لا أريد هنا أن أتحدث عن أدب نجيب محفوظ وما فيه من فن وجمال ومتعة ، فقد كتب النقاد عن هذا الجانب الأدبى دراسات كثيرة متنوعة ، واستطاع أدب نجيب محفوظ أن يصل إلى قاعدة واسعة جدا من القراء وغير القراء ، وأنا أعنى بغير القراء هؤلاء الذين اكتفوا بمشاهدة أفلام السينما ومسلسلات التليفزيون ، فلا يكاد يوجد إنسان فى مصر أو فى الوطن العربى لم يشاهد عملا أو أكثر لنجيب محفوظ على شاشة السينما بالتحديد ، وأصبحت هناك شخصيات شعبية مشهورة من أبطال روايات نجيب محفوظ ، بل

لقد أصبحت هذه الشخصيات أشهر من نجيب محفوظ نفسه ، مثل شخصية « سى السيد » المعروفة للجميع .

لا أريد إذن أن أتحدث هنا عن أدب نجيب محفوظ ، فقد عرفه الجميع ، وتحدث عنه الكثيرون ، واقتنعت به لجنة نوبل العالمية فمنحته جائزتها الرفيعة فى ١٣ أكتوبر ١٩٨٨ .

هناك جانب آخر فى شخصية نجيب محفوظ هو ما أحب أن أتحدث عنه ، وأقصد به الجانب الإنسانى ، فنجيب محفوظ لم يصل إلى القمة التى وصل إليها بموهبته وحدها ، فما أكثر أصحاب المواهب الذين لم يستطيعوا المحافظة على موهبتهم وحمايتها من التدهور والانهيار ، أما نجيب محفوظ فهو يقدم نموذجا حيا للفنان الكبير الذى استطاع أن يحافظ على موهبته بقوة انسانيته وأخلاقه .

بعض أبناء جيل نجيب محفوظ بدأوا الكتابة معه ، وكان فى كتاباتهم فن ونبوغ ، ولكنهم لم يجدوا صدى لكتاباتهم عند الجمهور ، ولم يجدوا فى الانتاج الأدبى أى مكسب مادى ، فاتجهوا بإمكاناتهم إلى مجالات أخرى يكسبون منها ويستمتعون بالحياة ولا يصدعون رؤسهم بهموم الأدب والفكر ، ولكن نجيب محفوظ لم يفعل شيئا من ذلك ، رغم أنه عانى لمدة عشرين سنة على الأقل فى بداية حياته الأدبية تجاهلا كاملا من النقاد ، وعدم اهتمام من الجمهور ، ولكنه مع ذلك لم يستسلم لليأس والإحباط ، بل واصل الكتابة فى صدق وإخلاص واجتهاد لأنه كان يحب الفن ، ولأنه كان يريد أن يصور مشاكل مجتمعه وبلاده فى أدبه ، ليلفت النظر إلى الأخطاء القائمة ، حتى تجد هذه الأخطاء حلا لها ، فيتطور المجتمع ويحقق الإنسان جانبا من السعادة المفقودة .

وهناك أدباء آخرون كانوا يكتبون وعينهم على الشهرة والثروة والتأثير والنفوذ ، وعندما لم يجدوا أن الأدب يوفر لهم ما طلبوه اتجهوا اتجاهات أخرى مثل البحث عن المناصب ، أو الجرى وراء أجهزة الإعلام حتى يثيروا الضجيج حول أنفسهم ويسلطوا الأضواء على أسمائهم ، وكانت النتيجة أن أمثال هؤلاء الأدباء قد انصرفوا عن الانتاج الأدبى الجيد ، بحثا عن النتائج السريعة والمكاسب العاجلة .

ولم يفعل نجيب محفوظ شيئا من هذا كله ، فقد كان يبذل جهده فى عمله الأدبى ، ولا يفكر فى المكاسب والنتائج ، ولا يجرى وراء الأضواء هنا أو هناك ، لأنه نظر إلى الأمر كله نظرة صافية بل نظرة صوفية ... فإن كان الانتاج الأدبى فيه خير ، فسوف تأتى النتائج الطيبة وحدها مهما طال الزمن ، بالإضافة إلى أن رجل الأدب ينبغى أن يكون كريما على نفسه ، وألاّ يجرى وراء الصغائر .

ومن هنا يصح القول بأن شخصية نجيب محفوظ الإنسانية كانت عاملا من العوامل الأساسية فى نبوغه وتفوقه ، وفى الحقيقة أن هذا الجانب الإنسانى عند الفنان الكبير هو جانب لا يقل جمالا وروعة عن انتاجه الفنى والأدبى .

ولنتوقف أمام بعض الملامح الإنسانية الرئيسية لهذا الفنان الكبير ..

إن نجيب محفوظ كان يدرك منذ بداية وعيه قوة الارتباط بين جسم الإنسان وعقله ، فالجسم المريض العليل لابد أن يؤثر فى مشاعر الإنسان وأفكاره ، ولابد أن ينتهى بصاحبه إلى التشاؤم والاكتئاب وكراهية الحياة ، وهذه الحالة النفسية تؤدى بصاحبها إلى أن تكون كتاباته مليئة بالشكوى والمشاكل الشخصية التى تقلل كثيرا من قيمة الأعمال الأدبية . وصحة الجسم لا تتوافر برغبة الإنسان ، فقد تصيبه الظروف بأمراض مختلفة عن طريق الوراثة أو الحظ السيىء ، ولكن المهم أن يدرك الإنسان أن له دورا فى المحافظة على سلامة جسمه ، وأن يبذل فى ذلك جهدا مناسبا حتى لا تفلت منه الأمور . وقد كان نجيب محفوظ فى بداية حياته لاعب كرة شديد المهارة ، وعندما تقدمت به السن ، توقف عن لعب الكرة ، ولكنه لم يتوقف عن رياضة أخرى مازال حريصا عليها بعد أن اقترب من الثمانين ، هذه الرياضة هى « المشى » فهو يستيقظ يوميا فى الصباح الباكر ، ويخرج إلى الشارع فى السادسة والنصف ليمشى مدة ساعة كل يوم . وقد أصيب نجيب محفوظ منذ حوالى عشرين سنة بمرض السكر ، وهو مرض له متاعبه الكثيرة التى يحملها إلى جسم الإنسان ، ولكن نجيب محفوظ واجه هذا المرض بالصبر والدقة والنظام ، واعتمد على إرادته القوية فى الالتزام الكامل بنظام المشى اليومى الذى فرضه على نفسه ، والالتزام إلى جانب ذلك بالغذاء المناسب ، وهو لا يتهاون مع نفسه فى هذا الأمر ، وقد ساعده ذلك فى الانتصار على مرضه ،

ولولا هذه الإرادة القوية لانهزم نجيب محفوظ أمام المرض ، وعجز عن مواصلة حياته الطبيعية فى هدوء وسلام .

وتحتل فضيلة « النظام الدقيق » مكانة هامة فى شخصية نجيب محفوظ ، فهو لا يعرف الفوضى ولا يتحملها ، وبرنامجه اليومى واحد لا يتغير ، ولا يخضع أبدا للإغراءات المفاجئة . وقد أدى به حبه للنظام الشديد إلى كراهية السفر ، لأن السفر يحمل معه كثيرا من الاضطراب فى حياة الإنسان ، ويحرمه من القدرة على الالتزام بنظام محدد ، وكثير من الناس يندهشون عندما يعلمون أن نجيب محفوظ رغم ما وصل إليه من مكانة أدبية عالية ، لم يسافر خارج مصر سوى مرتين ، الأولى كانت إلى يوجوسلافيا والثانية كانت إلى اليمن ، وكان فى الرحلتين معا مرغما ، لأن السفر كان تكليفا فى مهمات رسمية . وقد تلقى نجيب محفوظ دعوات عديدة من شتى أنحاء العالم ، وكانت هذه الدعوات كفيلة بأن تعطيه فرصة واسعة ليرى الدنيا كلها ، شمالا وجنوبا وشرقا وغربا ، ولكنه كان يعتذر على الدوام عن هذه الدعوات ، ويؤثر البقاء فى مصر ، والالتزام ببرنامجه المعتاد .

ولا يشبه نجيب محفوظ فى موضوع « السفر » هذا إلاّ العقاد ، فقد كان العقاد هو الآخر لا يحب السفر ، وقد قضى معظم حياته فى مصر ، ولم يخرج منها إلاّ مرتين ، مرة إلى فلسطين قبل قيام اسرائيل ، ومرة أخرى إلى السودان أثناء الحرب العالمية الثانية .

واعتقد أن نجيب محفوظ قد اتخذ قراره حول السفر بعد أن تجاوز مرحلة الشباب ، ولو أن فرصة السفر كانت متاحة له فى شبابه الأول لما تردد فى الاستفادة منها ، ولكن الفرص التى أتيحت له قد جاءته بعد نضجه وبعد أن حدد لأدبه وحياته خطة عامة رفض أن يخرج عليها أو يعيد النظر فيها .

وعندما تخرج نجيب محفوظ من الجامعة سنة ١٩٣٤ ، كان المفروض أن يسافر فى بعثة إلى فرنسا لأنه كان من المتفوقين ، ولكن الظروف السيئة التى كانت تمر بها مصر فى تلك الأيام قد حرمته من البعثة التى كان يتمناها ، ومن يومها قرر أن يغلق « ملف » السفر فى حياته بصورة نهائية . ويحدثنا نجيب محفوظ عن هذه البعثة الضائعة إلى فرنسا فيقول فى حديث صحفى له :

« ضاعت عليَّ بعثتان لا بعثة واحدة : بعثة فى الفلسفة وبعثة فى اللغة الفرنسية ، والسبب هو أن السراى كانت تضطهد الأقباط ، لأنها كانت ترى أنهم عمد الوفد القديم « الذى كان يعارض الملك دائما » . وقد اشتبهوا فى اسمى ظنا منهم أننى قبطى . وكنت ثانى دفعتى وكان الأول قبطيا فقالوا : يكفى قبطى واحد . وأخذوا الأول والثالث وتخطونى . ولست حزينا على بعثة الفلسفة ، ولكنى كنت أتمنى لو ذهبت إلى فرنسا فى بعثة اللغة الفرنسية . كنت سأتجه بكليتى إلى ما اتجه إليه توفيق الحكيم فى « زهرة العمر » و « عصفور من الشرق » ... ولكن الأقدار شاءت شيئا آخر » .

ومعنى هذا أن نجيب محفوظ كان مستعدا للسفر فى شبابه ، وعندما لم تأته الفرصة فى موعدها تنازل عنها إلى الأبد .

إن حرص نجيب محفوظ على النظام والدقة فى حياته يعتبر مثلا عالد للجميع ، فقد أعطاه ذلك قدرة على الانتاج المنتظم الغزير ، وأعطاه الفرصة الكاملة لإجادة فنه وتقديمة على أرفع مستوى من الجمال والعمق ، ولا شك أن نجيب محفوظ هو أكثر أدباء عصرنا إنتاجا وأكثرهم حرصا على مستوى إنتاجه وقيمته .

على أن شخصية نجيب محفوظ تتميز بصفات إنسانية كثيرة أخرى ، وهى كلها صفات أصيلة فيه وليست مفتعلة ، وعلى رأس هذه الصفات الإنسانية نستطيع أن نضع « التواضع » فى المقدمة . فرغم ماحققه نجيب محفوظ من نجاح محلى وعالمى كبير ، إلا أنه كان على الدوام رجلا بسيطا ، لا يعرف الغرور إلى نفسه سبيلا ، والذين يتعاملون معه يعرفون فيه هذه الصفة النبيلة . والتواضع عنده صفة شاملة ، يشعر بها زملاؤه من الأدباء والمثقفين ، ويشعر بها المواطنون العاديون عندما يتعاملون معه فى أى أمر من الأمور .

ونجيب محفوظ رجل شديد الوفاء لأصدقائه ومعارفه ، حريص على أن يسأل عنهم ويهتم بهم ويقف إلى جانبهم عند الحاجة ويلتقى معهم بصورة منتظمة . وعندما أصبح كاتبا مشهورا وصاحب مكانة رفيعة عالية لم ينفصل عن أصدقائه القدماء أبدا ، والغريب أن من بين هؤلاء الأصدقاء من لا يهتمون بالأدب ،

ولا يعرفون شيئا عن قيمة نجيب محفوظ الأدبية ، وهذا الموقف لم يؤثر فى علاقة نجيب مع هؤلاء الأصدقاء ، فالعلاقة بينه وبينهم علاقة إنسانية ، وهو شديد الحرص على علاقاته الإنسانية المختلفة . ونجيب محفوظ إنسان « محب » يعامل الناس جميعا معاملة طيبة كريمة ، وهو لا يميل أبدا إلى أى نوع من العداء مع الآخرين ، حتى لو أساء إليه هؤلاء الآخرون ... إنه قادر دائما على التحمل والتسامح ، وهو قادر أيضا على أن يلتمس للناس الأعذار والمبررات ، مما يحميه من مشاعر الغضب ويفرض على علاقاته بالناس كثيرا من الرفق والحنان والعواطف الدافئة .

ومن أجمل صفات نجيب محفوظ أنه يحترم آراء الآخرين واستقلال شخصياتهم إلى أبعد الحدود . وبالقدر الذى يحرص فيه على أن يقول آراءه بصدق وصراحة وأمانة ، فإنه يحرص كذلك على أن يكون للآخرين آراؤهم الحرة ومواقفهم الخاصة ، وهو يسعد بذلك حتى لو كان الآخرون معارضين له أو مختلفين معه . وهو يلتزم بهذا الموقف فى الحياة العامة وفى بيته معا ، فمن المعروف عنه أنه لم يفرض على ابنتيه : أم كلثوم وفاطمة أى خطة فى حياتهما لا تتفق مع رغباتهما الخاصة ... إنه يناقشهما ويكشف لهما عن آرائه وتجاربه ويترك لهما بعد ذلك حرية كاملة فى الاختيار .

والحديث عن إنسانيات نجيب محفوظ لا ينتهى . ويكفينا هنا أن نقول إنه واحد من الأدباء النادرين الذين جمعوا بين الموهبة الفنية العالية والصفات الأخلاقية الرفيعة ، ولا شك أن هذا الأمر قد أعطى أدبه مزيدا من القوة والصدق والعمق ، وجعل من نجاحه وفوزه الأخير بجائزة نوبل فرحة كبيرة للجميع ، لأن الجميع يحبونه ويرون فيه إنسانا نادر المثال .



العقاد والأستاذ بيچو

فى حياة كل كاتب وفنان أشياء صغيرة تكشف عن حقيقة شخصيته أكثر مما تكشفها المظاهر الكبيرة الواضحة أمام الناس . وقد كان عباس العقاد يبدو للناس شخصا صارما حازما جادا ، لا يعرف الابتسام أو المرح ، وكان فى نظر الكثيرين رجلا من رجال العقل الذين لا يعرفون العواطف الحقيقية . فقد عاش العقاد حتى سن الخامسة والسبعين دون أن يتزوج ، وقضى حياته الطويلة وعمره الممتد وحيدا فى بيته الذى تحول إلى مكتبة كبيرة ، يعيش فيها العقاد دون أن يشاركه فى ذلك أحد .

وقد ساعد على انتشار هذه الفكرة عن شخصية العقاد أن أسلوبه فى الكتابة يعتبر من الأساليب الصعبة ، ولم يكن من تلك الأساليب السهلة اليسيرة التى لا يجد القارىء صعوبة فى فهمها والاقتراب منها والتعاطف معها ، مثل أسلوب المازنى ، زميل العقاد وأقرب أصدقائه إلى قلبه ، ومثل أسلوب توفيق الحكيم ، فالمازنى والحكيم كانا يعتمدان على الجملة السريعة ، ويختاران الكلمات البسيطة ، ويكتبان كأنهما يتحدثان فى جلسة عائلية حميمة لا تكلّف فيها ، بالإضافة إلى أن المازنى والحكيم كانا يتمتعان بخفة الظل والميل إلى السخرية ، مما كان يعطى لكتاباتهما قدرة على التأثير ويحقق لهما سهولة فى الوصول إلى القلوب والعقول .

ولكن العقاد كان مختلفا ، فقد كان فى كتابته صارما دقيقا يعتمد على تحكيم عقله وثقافته الواسعة ، وقليلا ما كانت الابتسامة تتسلل إلى مقالاته أو كتبه ، مما ساعد فى رسم صورته على أنه إنسان متجهم يعيش حياة شبه عسكرية ، حتى يتمكن من تقديم إنتاجه الغزير والملىء بالعلم والثقافة والقدرة العالية على التحليل .

ولكن هذه الصورة الخشنة للعقاد لم تكن حقيقية ، فقد كانت له صورة أخرى كامنة فيه ، حاول أن يخفيها كثيرا ، ولكنها تظهر بين الحين والحين فى كتاباته وتصرفاته وطريقة حياته . وقد قابلت العقاد مرة واحدة سنة ١٩٥٨ فى بيته بمصر الجديدة ، واستقبلنى مع صديقين آخرين ، فكانت الجلسة محدودة وهادئة ، وقد تصرف معنا « على راحته » تماما ، وكان يلبس « البيجامة » و « الطاقية » ، ويضع حول رقبته « الكوفية » التى كان مشهورا بها ، مثل شهرة توفيق الحكيم بالعصا و « البيريه » ، فقد كان العقاد من أشد الناس حرصا على صحته ، فى ملبسه وطعامه ونظام حياته الدقيق ، حيث كان يرى أن الصحة هى الثروة التى يعتمد عليها فى البحث والدراسة والتفكير ، ولو أن صحته تبددت ، فسوف يتبدد معها الذكاء والنبوغ ، والعلم والثقافة ، والقدرة على الانتاج الغزير ، ومن شدة حرص العقاد على صحته كان يتمسك بلبس « الكوفية » حتى تحميه من أى نزلة برد .

وفى هذا اللقاء جلست مع العقاد نصف ساعة تقريبا ، وكان هو الذى يتحدث معظم الوقت ، وأحسست خلال هذه الزيارة أننى أمام إنسان طيب بسيط ، ولست أمام شخصية طاغية جبارة مخيفة للآخرين ، وأحسست كذلك أن العقاد من

الشخصيات المفتوحة وغير المغلقة أو الغامضة ، وقد أدركت أن العقاد يحتاج فى التعامل معه للاطمئنان إلى حسن نية الآخرين ، وإلى أنهم لا يخفون له عداء أو كراهية ولا ينطوون على المكر والدهاء ... هنا ينطلق العقاد فى الحديث ببساطة ، وأكاد أقول بطفولة شديدة البراءة والنقاء .

أما الجانب الآخر الذى اكتشفته فى العقاد خلال هذا اللقاء السريع فهو أنه ليس رجلا صارما مكتئبا ، بل هو إنسان مرح يضحك من قلبه ، وله فى حديثه ملاحظات تتميز بدرجة عالية من السخرية البديعة التى تجعل الآخرين يضحكون من قلوبهم . وأذكر فى ذلك اللقاء السريع معه أنه أخذ يمثل لنا بصوته القوى بعض النماذج الاجتماعية التى تحاول أن تتظاهر بالعظمة المفتعلة لتفرض نفسها على الناس وتوهمهم بأنها شخصيات ذات شأن خطير ، وكان العقاد فى تمثيله لهذه الشخصيات رائعا ، حتى ظننت أننى أمام الممثل العظيم نجيب الريحانى ، ولست أمام كاتب كبير هو عباس العقاد .

وقد أسعدتنى هذه الصورة الجديدة للعقاد المرح الساخر البسيط صاحب القلب الطيب المفتوح ، واقتنعت بأن شخصية العقاد غنية بالجوانب الانسانية الخفية والتى تختلف عن صورته الصارمة المتجهمة المعروفة للناس . وقد دفعنى ذلك إلى البحث عن هذا الجانب الانسانى فى شخصية العقاد وأدبه .

ووجدت أشياء كثيرة ..

منها قصة حب كبيرة ، فقد كان العقاد فى الأربعينيات يحب ممثلة معروفة ، وذلك قبل أن تصبح ممثلة ، وقبل أن يعرفها الناس . وقد تعذب العقاد فى هذا الحب عذابا شديدا ، لأن فارق السن بين العقاد وبين حبيبته كان كبيرا ، ولم تقتنع الفتاة بمجد العقاد وشهرته ، فقد كانت مليئة بالحيوية والشباب والفتنة والجمال ، وكانت تريد أن تنطلق إلى عالم الفن وتعيش فى قلب الحياة الصاخبة ، وقد نجحت فى تحقيق طموحها الفنى ، وأصبحت من أشهر الممثلات ، ومازالت تعيش بيننا ، متعها الله بالصحة ... ولا شك أن ذكريات حب العقاد لها هى - عندها - من أطيب الذكريات .

فالعقاد صاحب قلب ينبض بعنف وليس من أصحاب القلوب الباردة الميتة .

وهذه القصة ليست هى القصة الوحيدة فى حياة العقاد والتى تثبت قوة عواطفه واندفاعه فى عالم الحب والجمال والعواطف الانسانية إلى مدى بعيد .

فهناك قصص أخرى متعددة أهمها ما أشيع - ولم يثبت حتى الآن - من أن العقاد تزوج سرا من سيدة كانت تخدمه وأنجب منها فتاة اسمها بدرية ، وهى نفسها الفتاة التى انتحرت عندما سمعت بموت العقاد فى مارس ١٩٦٤ فذهبت إلى بيته وأخذت تصرخ قائلة : « بابا ... بابا » ، فردعها بعض أقارب العقاد وطردوها من منزله فعزت عليها نفسها وآثرت الانتحار . وعلاقة الفتاة بدرية بالعقاد والقول بأنها « ابنته » أمر يحتاج إلى برهان دقيق غير موجود ... وإن كانت قصة انتحار الفتاة يوم وفاة العقاد هى قصة حقيقية ثابتة .

على أن أجمل ما وجدته فى كتابات العقاد مما يدل على رقة طبعه ، وعمق إنسانيته وإحساسه الكبير بعاطفة الرحمة ، هى قصته مع كلبه « بيجو » . فلقد كان للعقاد كلب يربيه فى بيته ويحبه أشد الحب . وكان يجد فى هذا الكلب أنيسا له فى وحدته ، وكائنا يملأ عليه حياته الفكرية المنعزلة ، بالحركة والنشاط والحيوية .

وقد كتب العقاد عن هذا الكلب مقالا طويلا مليئا بالدراسة والتحليل ، واستنتج من علاقته الحميمة بكلبه أفكارا كثيرة ، ومن أهم هذه الأفكار . ما قاله العقاد فى آخر مقاله عن كلبه :

« .. والخلاصة أن بيجو مخلوق مفيد ومخلوق أنيس ، وهو أفيد ما يكون فى المكتبة التى يبغضها ويستثقل ظلها ، لأننى استفدت على يديه فوائد جليلة وأنا أقرأ بعض الكتب الحديثة فى علم النفس وعلم الاجتماع .

« يقول علم النفس إن التعاطف فى التربية والتعليم أنفع وأنجح من تبادل الأفكار ، وبيجو يؤكد لى ذلك ، لأننى أرى منه أن الكلاب أسرع تعلما من القردة ، وهى أرفع فى مرتبة التكوين والإدراك . وإنما فاقت الكلاب القردة بسرعة التعلم لأنها عاشرت الإنسان طويلا فاتصلت بينه وبينها العاطفة ، وإن لم يتقارب بينه وبينها تركيب الأعصاب والدماغ .

« ويقول علماء الاجتماع من أنصار « الفاشية » إن الغرائز لا تتبدل ، وإن الحرب والعدوان غريزة فى الإنسان ، فلا فائدة لوعظ الواعظين بالسلام ، ونصح الناصحين بالإخاء والعدل والمساواة ، وبيجو يدحض ذلك ، لأنه قد تحدر من سلالة الذئاب فمازالت به التربية والمصانعة حتى أصبح حارس الأطفال والحملان ، وقد كان قبل ذلك آفة كل طفل من بنى الإنسان ، وكل صغير أو كبير من أبناء الضأن » .

هذا بعض ما كتبه العقاد عن كلبه بيجو ، وقد أنهى مقاله عنه بتقديم التقدير « للأستاذ بيجو ، . . والصديق بيجو ، والزائر الكريم بيجو .. » .

وهكذا خلع العقاد لقب « الأستاذ » « والصديق » و « الزائر الكريم » على كلبه بيجو ، وكشف العقاد بذلك عن تعلقه بهذا الكلب ، وعن عاطفة مليئة بالرحمة والحنان ولين الجانب وسرعة التأثر ، وكلها جوانب جميلة فى شخصية العقاد التى تبدو للناس شخصية صارمة متجهمة .

وقد وصف العقاد وفاء كلبه بيجو ثم مرضه وموته وصفا مؤثرا إلى أبعد الحدود فى مقال آخر له ، ومن الممتع أن نقرأ ما كتبه العقاد بشىء من التفصيل عن هذا الموضوع ، حيث تمتلىء السطور بملامح العقاد الإنسانية فى أفضل صورها وأكثرها قوة وجمالا ، ولو أن هذا الكاتب الكبير كانت له أسرة وأبناء ، لضرب مثلا غير عادى فى الحنان والتعاطف وحسن الرعاية ، لأن الذى يعامل كلبه بهذه الرعاية وهذا الفهم ويحزن عليه كل الحزن ، لابد أن يكون إنسانا قوى العاطفة مليئا بالرحمة والحنان فى علاقاته مع الناس .

يقول العقاد عن كلبه بيجو فى مقال له بمجلة الرسالة ـ ٣ أكتوبر ١٩٣٨ :

« كنا فى الصيف ، وكنت أقضى أياما فى القاهرة وأياما فى الاسكندرية من كل أسبوع ، ولم أصحب بيجو فى الرحلة الأولى ولا فى الرحلة الثانية ولا عزمت على اصطحابه بقية أشهر الصيف ، اكتفاء بأن أراه أيام مقامى فى القاهرة وأن أعود إليه كل اسبوع ، ولكن المخلوق الأمين الوفى أرغمنى على مصاحبته كلما ذهبت إلى الاسكندرية وكلما رجعت منها ، لأنه صام عن الطعام صومة واحدة فى الرحلة الثانية ، وزاده إصرارا على الصيام أننا كنا نتركه فى كفالة الشيخ أحمد حمزة طاهينا القديم الذى يعرفه قراء كتابى « فى عالم السدود والقيود » .

« والشيخ أحمد حمزة كما علم أولئك القراء رجل يكثر من الصلاة والوضوء ، ويعتقد فى نجاسة الكلاب فلا يقربها إلا على مسافة أشبار . وبيجو مخلوق حساس مفرط الإحساس ، ما هو إلاّ أن تبين النفور من الشيخ أحمد حتى قابله بنفور مثله أو أشد وأقسى ، فكنا إذا تعمدنا تخويفه وزجره نادينا « يا شيخ أحمد » فإذا بيجو تحت أقرب كرسى أو سرير ، ثم لا يخرج من مكمنه إلا إذا أيقن أن الشيخ أحمد حمزة بعيد جد بعيد .

« فلما استحال التوفيق بينهما واستحال إقناعه بالعدول عن الصيام فى غيابنا ، أصبح بيجو من ركاب السكة الحديد المعروفين فى الذهاب والإياب ، وأصبح يزاملنا من القاهرة إلى الاسكندرية ، ومن الاسكندرية إلى القاهرة كل أسبوع ، وشاعت له نوادر فى معاكسته للموظفين ومعاكسة الموظفين له يتألف منها تاريخ وجيز ، ثم أصابه فى الاسكندرية ذلك المرض الأليم الذى كان فاشيا فيها واستعصى علاجه على أطباء الحيوان ، فلزمته فى مرضه مخافة عليه من مشقة السفر وعلمت أن الأمل فى شفائه ضعيف ، ولكنى لم أجد مكانا أولى بإيوائه من المكان الذى أراه ويرانى فيه .

« وإنى لفى ظهيرة يوم بين اليقظة والتهويم إذا بهمهمة على باب حجرتى وخدش لا يكاد يبين . ففتحت الباب فرأيت المخلوق المسكين قابعا فى ركنه يرفع إلىّ رأسه بجهد ثقيل .

وينظر إلىّ نظرة قد جمع فيها كل ما تجمعه نظرة عين حيوانية أو إنسانية من معانى الاستعطاف والاستنجاد والاستغفار . أحس المسكين وطأة الموت فتحامل على نفسه ، وخطا من حجرته إلى باب حجرتى وجلس هناك يخدش الباب حتى سمعته ، وفتحت له وهو لا يزيد على النظر والسكوت .

« كان اليوم يوم أحد ، ولكنا بحثنا عن الطبيب فى كل مظنة لوجوده حتى وجدناه ، وشاءت له مروءته الإنسانية أن يفارق صحبه وآله فى ساعة الرياضة ليعمل ما يستطيع من ترفيه وتخفيف عن مريضه الذى تعلق به وعطف عليه ، ولكنه وصل إلى المنزل وبيجو يفارق هذه الدنيا التى لم يصحبها أكثر من سنتين .

« سيبقى من صور الاسكندرية ما يبقى وسيزول منها ما يزول ، ولكنى

لا أحسبنى ناسيا ما حييت نظرة ذلك المخلوق المتخاذل ، يقول بها كل ما تقوله عين خلقها الله ويودعها كل ما نطق به فم بليغ من استنجاد واستغفار ، وكأنه يعلم أنه أقلقنى ولا يحسب ما كان فيه عذرا كافيا لإقلاق صديقه .

« ومن شهد هذا المنظر مرة فى حياته علم أنه لا ينسى ، فإن لم يعلم ذلك فهو أقل الناس من الخلائق الإنسانية ، لأن البعد من العطف على الحيوان لا يجعل المرء بعيدا من الحيوان . بل يقربه منه غاية التقريب ... » .

هذه هى الصورة البديعة الصادقة التى رسمها العقاد لكلبه بيجو ، وهى صورة شاملة ، تكشف أكثر من غيرها عما كان يحمله العقاد فى قلبه من مشاعر رقيقة تدل على نفس طيبة كريمة مليئة بالوفاء والقدرة على التعاطف مع الآخرين ، حتى لو كان بين هؤلاء الآخرين كلب مثل كلبه بيجو . ويكفى أن نتوقف أمام عبارة العقاد التى يقول فيها إنه « لزم كلبه فى مرضه مخافة عليه ـ أى على الكلب ـ من مشقة السفر » ، فهذه العبارة وحدها تؤكد هذا الجانب الإنسانى الكبير فى شخصية العقاد .

وبعد موت بيجو كتب العقاد قصيدة رثاء لكلبه العزيز ، وفيها يتأكد لنا أن عاطفة العقاد تجاه هذا الكلب كانت عميقة ، وأنه حزن على هذا الكلب حزنا ، مما يزيدنا معرفة بالجانب الإنسانى فى شخصية العقاد .

ورثاء العقاد لبيجو فى قصيدته ينطلق بنا إلى آفاق نفسية عجيبة ، فحزن العقاد على كلبه شديد الحرارة ، فهو نوع من اللوعة على فراق هذا الصديق الأليف الوفى ، ويصور لنا العقاد فى قصيدته أنه كان كثيرا ما يستغنى بكلبه عن التماس الأمان والصدق فى الناس ، وكان يجد فيه مؤنسا لوحدته التى فرضها على نفسه ليقرأ ويكتب ويفكر ويتأمل . إن العقاد يتحسر فى قصيدته حسرة حقيقية على كلبه الوفى .

يقول العقاد :

حزنا على بيجو تفيض الدموع
حزنا على بيجو تثور الضلوع
حزنا عليه جهد ما أستطيع

وإن حزنـــا بعـــد ذاك الولـــوع
والله ــ يا بيجو ــ لحـــزن وجيـــع

★ ★

حزنـــا عليـــه كلمـــا لاح لـــى
باللـــيل فـــى ناحيـــة المنـــزل
مسامـــرى حينـــا ومستقبلـــى
وسابقـــى حينـــا إلـــى مدخلـــى
كأنـــه يعلـــم وقت الرجـــوع

★ ★

حزنـــى عليـــه كلمـــا عزنـــى
صدق ذوى الألبـــاب والألسن
وكلمـــا فوجـــئت فـــى مأمنـــى
وكلمـــا أطمـــأننت فـــى مسكنـــى
مستغنيـــا أو غانيـــا بالقنـــوع(*)

★ ★

أبكـــيك ، أبكـــيك ، وقل الجـــزاء
يـــاواهب الـــود بمـــحض السخـــاء
يكـــذب مـــن قـــال طعـــام ومـــاء
لـــو صح هـــذا ما مـــحضت الوفـــاء
لغـــائب عنك وطـــفل رضيـــع(**)

وهكذا استطاع « الأستاذ بيجو » أو كلب العقاد أن يكشف لنا بعض الجوانب الإنسانية الطيبة فى شخصية الكاتب الكبير ، وهى شخصية كانت تبدو للناس عنيفة قاسية شديدة التجهم ، فجاء بيجو ليكشف لنا ينابيع البساطة والرحمة والمشاعر الانسانية الغنية فى هذه الشخصية .

(*) غانيا بالقنوع : أى غنيا بالقناعة .

(**) يعنى العقاد بهذا البيت والبيتين السابقين أن وفاء الكلب ليس مصدره تقديم الطعام والماء له ، وإلاّ لما كان الكلب وفيا لمن يغيب عنه أو للطفل الرضيع الذى لا يقدم إليه ماء ولا طعاما .



المازنى وحبيبته المجهولة

هذه قصة طريفة وقعت فى العشرينات من هذا القرن ، وكان بطل هذه القصة أو ضحيتها أديب من أكبر أدبائنا العرب ، وأكثرهم ذكاء وثقافة وموهبة ، ذلك الأديب هو إبراهيم عبد القادر المازنى . وهذه القصة لها إلى جانب طرافتها مغزى كبير ، لأنها تكشف عن الواقع الاجتماعى والعاطفى الذى كان يعيش فيه الجيل الرائد من أدبائنا الذين ظهروا فى أوائل هذا القرن . فقد كانت المرأة بعيدة عن مجتمع هؤلاء الأدباء الكبار ، فلم يكن المجتمع العربى قد سمح بعد للمرأة بالخروج إلى التعليم والعمل ، ولم يكن قد سمح لها

بالمشاركة العقلية والوجدانية فى حياة المجتمع ، وعندما ظهرت فتاة جريئة واحدة هى « مى » فى الوسط الأدبى المصرى فى أوائل هذا القرن ، كان ذلك ظاهرة شديدة الشذوذ ، وقد ترتب على هذه الظاهرة الشاذة أن كل الأدباء الكبار فى عصر « مى » أحبوها وتعلقوا بها ، وسعدت « مى » بهذه الظاهرة ، وحرصت على ألا تغضب أحدا ، ورضيت بأن تكون ملهمة للجميع ، ولكن ذلك انتهى بها إلى مأساة معروفة ، فقد تعرضت للمرض وللانهيار العصبى ، وانتهت حياتها نهاية بائسة حزينة ، وذلك كله لأنها كانت نموذجا « خارجا » على منطق عصرها ، ولأنها حاولت أن تلغى الجانب الفردى فى حياتها لكى تصبح « حبيبة » الجميع ، وملهمة الجميع ، وانتهى بها الأمر إلى طريق من الألم والعذاب ووقفت على حافة الانهيار العصبى والجنون .

ولا شك أن الجيل الأول من أدبائنا كانوا يعيشون حياة مجدبة جافة من الناحية الوجدانية والعاطفية ، وأن دور المرأة فى حياة هؤلاء كان دورا محدودا إن لم يكن معدوما ، وكانت اللمسات الأنثوية فى الحياة الأدبية والانتاج الأدبى لمسات معدومة أو نادرة ، فلم يكن أحد من هؤلاء الأدباء الكبار يعرف وقع أدبه على قلب المرأة أو عقلها وذلك لأن المرأة لم تكن تشارك فى الحياة العقلية العربية . وحتى الأدباء الذين تزوجوا وعاشوا حياة عائلية هادئة ، لم يعرفوا الحياة الوجدانية الصحيحة ، لأن زواجهم كله كان على الطريقة التقليدية فى الأغلب الأعم ، ولم تكن الزوجة تشارك زوجها فى عمله الفكرى والأدبى ، أى أنها لم تكن تقرأ أو تهتم بما يكتبه الزوج ، لأنها كانت تنظر إلى عمله على أنه مصدر من مصادر « القوت » للأسرة ولا شىء غير ذلك . حتى طه حسين الذى تزوج عن حب كبير ، ولعبت زوجته السيدة الفرنسية « سوزان » دورا هاما فى حياته ، عمليا ووجدانيا ... حتى هذه الزوجة كان هناك حاجز بينها وبين أدب زوجها ، حيث أنها ظلت حتى اللحظة الأخيرة لا تعرف اللغة العربية التى يكتب بها طه حسين ، ونستطيع أن نستنتج هنا أنها لم تقرأ لزوجها إلاّ ما ترجم من أدبه إلى الفرنسية . أما كبار الأدباء الآخرين من جيل طه حسين فلم نعرف لهم حياة وجدانية سليمة ، ولم نعرف لزوجاتهم أثرا مباشرا فى إنتاجهم الأدبى أو الفنى ، اللهم إلاّ إذا كان هذا الأثر عاما شاملا وهو : إخلاص الزوجة لزوجها وتهيئتها له ظروفا مناسبة للعمل ... أما الإلهام والمشاركة العقلية والوجدانية فهى ما لم يكن له وجود إلاّ فى

حالات قليلة نادرة ، مثل حالة العقاد الذى عاش بعض التجارب العاطفية المتفرقة المليئة بالفشل والاضطراب .

وهذه القصة الواقعية التى كان بطلها إبراهيم عبد القادر المازنى تكشف لنا عن المحنة الوجدانية التى كان يعانى منها هذا الجيل معاناة قاسية ، والتى جعلت من عمل هذا الجيل وكفاحه الفكرى والأدبى نوعا من النحت فى الصخور الصلبة . لقد كانوا يعملون بإلهام داخلى نابع من ذاتهم ، لم يجدوا قط من يقول لهم كلمة حب أو كلمة تشجيع ، وأنا أعنى هنا بالطبع دور المرأة بالذات فى حياة الموهوبين ، ولا أعنى ما يلقاه الكاتب من نجاح لدى القراء . فاللمسة التى تضفيها المرأة على الحياة الوجدانية والعقلية هى لمسة ساحرة وخلاقة ، وقد كانت هذه اللمسة ناقصة فى حياة الجيل الأول من أدبائنا وكانوا منها محرومين .

وتبدأ قصة « المازنى » يوم التقى بشاب اسمه عبد الحميد رضا ، وقام عبد الحميد بتسليمه رسالة قال له إنها من إحدى السيدات ، وأنه يعمل عند هذه السيدة خادما لها ، وقدم له بطاقة شخصية تثبت أنه خادم ، وكان المازنى قد كتب مسرحية بعنوان « غريزة المرأة أو حكم الطاعة » ، وكانت هذه السيدة قد قرأت المسرحية فكتبت للمازنى الرسالة التى حملها الخادم إليه . وقرأ المازنى الرسالة فإذا بها رسالة إعجاب وتشجيع ، وكانت الرسالة موقعة باسم « فاخرة » ، وتقول صاحبة الرسالة إنها أرسلتها مع « تابعها » ، والتابع هو الكلمة المهذبة التى تحل عندها محل كلمة خادم .. والرسالة مليئة بكلمات الإعجاب والود نحو المازنى ، كما تقول صاحبة الرسالة إنها أيضا كتبت رواية عن نفس المعنى الذى كتب عنه المازنى مسرحيته « غريزة المرأة » ، وأنها « لم تنشرها على الناس » وأنها تبغى من رسالتها ... « أن تأذن لى بصورة من روايتك وبعض كتب من كتبك آنس بها فى تربية مادة الأدب الذى أعشقه .. فهل تأذن ؟ .. وآية إذنك أن تبعث لى بشىء من آثارك مع « تابعى » ، وقد يكون كتابى هذا ركيكا وغير معبر تماما عن روح الإعجاب الذى ملك علىَّ نفسى وأخذ بتلابيب قلبى ، وقد يكون لى خير من هذا يوم أن نتعرف أجسادا ، وأرجو أن أوفق إلى ما يتناسب وقدرك السامى » ثم وقعت على رسالتها بقولها : « إحداهن واسمها .. فاخرة » .

وكانت هذه الرسالة التى أرسلتها « فاخرة » للمازنى بداية مجموعة ممتازة

من الرسائل التى كتبها المازنى توهما منه أنها تصل إلى هذه السيدة ، وكان تابع السيدة أو خادمها يأتى بالرسائل منها إلى المازنى ويأخذ الرد .

وهذا هو نص الرسالة الأولى التى كتبها المازنى إلى هذه السيدة ، وفيها نشعر أن قلب المازنى سرعان ما نبض للوهم الذى تمثله هذه المرأة المعجبة به ... يقول المازنى فى رسالته :

« سيدتى الفاضلة : تحياتى إليك وشكرى على رسالتك الرقيقة الكريمة ، واعتذارى عن الكتابة بالقلم الرصاص فإنى أولا مريض وثانيا ليس فى بيتى حبر !! وثقى أنى أقدر نبل الإحساس الذى دفعك إلى كتابة هذه الرسالة ولولا أنى مريض متعب ، ويدى ترتعش قليلا من الضعف لحاولت أن أوفيها حقها من الشكر . فهل تقبلين عذرى وتغتفرين لى كل هذه الزلات ؟ أرجو ذلك . ويسرنى أن أبعث اليك بنسخة من كل كتاب توجد منه نسخ فى البيت إجابة لطلبك ، ومن بواعث أسفى أن نسخ الرواية فى مكتبى ، فإذا سمحت بإرسال تابعك يوم السبت إلى المكتب فإنى أكون سعيدا بأن أقدم لك نسخة منها . ولقد شوقتنى إلى روايتك ولكنى لا أجرؤ أن أطمع فى الاطلاع عليها قبل نشرها إلاّ إذا شئت أن تغمرينى بفضلك » . وينهى المازنى رسالته بقوله : « كلا . ليس فى لغتك ركاكة وإنها لسليمة جدا ، ومن أرقى ما عرفت من أساليب الرسائل النسوية ـ أرقى من رسالتى هذه مثلا . وسلامى إليك وشكرى الجزيل وأسفى الشديد . المازنى » .

على أن هذا الخطاب الأول الذى كتبه المازنى كان فاتحة لعدة خطابات أخرى أكثر عمقا وأهمية ، فقد بدأ المازنى يتعلق بهذه المرأة أو بهذا الوهم ، وظن أنه وجد « الإلهام » الذى يتمناه ويحلم به فى حياته الوجدانية المجدبة ، وأنه وجد تلك المرأة الذكية الحساسة التى يمكن أن تطفىء ظمأ قلبه إلى الحب ، والتى يمكن أن تدفعه إلى الإبداع ، وتتذوق أعماله الفنية ، وتسد النقص الوجدانى الذى يعانى منه هو وجيله كله . ولحسن الحظ فإن المازنى كاتب وفنان صادق ، لم يتعود أن يكذب على نفسه أو على الناس ، ومن خلال هذا الصدق كانت رسائله إلى هذه السيدة المجهولة التى داعبت عواطفه نوعا من « التعرية » النفسية الكاملة لحقيقة مشاعر المازنى ، ولحقيقة ما كان يعانيه من جفاف عاطفى مفروض عليه وعلى زملائه بسبب ذلك المجتمع المغلق الذى كانوا يعيشون فيه ، والذى لم تكن تهب

فيه نسمة من نسمات الوجدان الصادق ، أو المشاعر الإنسانية التى كان لابد منها كغذاء أساسى لوجدان هؤلاء الأدباء الحساسين ، ومن هنا فقد عاش هؤلاء الأدباء حياتهم فى فراغ عاطفى أليم .

وقد أحس « المازنى » فى لحظة عابرة أن الحلم الذى يعيشه من خلال رسائل المرأة التى تكتب إليه ، هو حلم خادع يقوم على الوهم ، وأحس فى داخله بالشك فى إمكانية وجود هذه المرأة ، ولكن لأنه صاحب نفس طيبة سرعان ما عدل عن شكه ، ووقع فى حب تلك السيدة المجهولة التى لم يرها قط ولن يراها أبدا ...

ولنقرأ هذه الرسالة الجميلة التى كتبها المازنى إلى هذه السيدة وفيها يعبر عن شكه فيها ، ويعرى نفسه تعرية صادق مؤثرة مليئة بالسخرية الرائعة ، حيث يقول فى هذه الرسالة التى تعتبر نموذجا راقيا لأدب الاعترافات الذاتية الذى يخلو منه أدبنا إلى حد بعيد :

« عزيزتى الآنسة فاخرة هانم : أظن أنك حيرتنى ، حيرتنى جدا إلى حد - لا تضحكى من فضلك - إلى حد أنى بدأت أظن أن الذى يراسلنى ليست آنسة ذكية القلب نافذة البصيرة ، بل هى شاب داهية يكاتبنى باسم آنسة ليتفكه بى ويسخر منى . فما رأيك فى هذا الخاطر ؟ اعترف لك أنه خاطر جرى ببالى من أول يوم وهذا هو السبب فى التحرز الشديد الذى بدا منى فى رسائلى الأولى - على الأقل رسائلى الأولى - ولكنى تساهلت قليلا مع نفسى وأرسلتها على سجيتها إلى حد محدود ، فهل تدرين السبب فى نشوء خاطر كهذا فى رأسى ؟ السبب أننى كنت وما أزال أعتقد أنه ليس فى هذه الدنيا امرأة يمكن فى أى حال من الأحوال أن يعجبها إبراهيم المازنى ، ولست أقول هذا تواضعا أو على سبيل المزاح ، ولكنى أقوله لأنه عقيدة راسخة مخامرة لنفسى مع الأسف ، وقد كانت نتيجة هذه العقيدة أنى كما أخبرتك فى رسالتى الماضية تحاشيت فى حياتى أن أحاول التحبب إلى أية امرأة ولو كانت روحى ستزهق من فرط حبى لها . ذلك أنى لإعتقادى ذلك فى نفسى أخشى أن أتلقى صدمة فتكون النتيجة أن تجرح نفسى فتثور فأتعذب وأعذبها معى .

« لا أدرى كيف يكون رأيك فى رجل هذه حالته النفسية بلا مبالغة ، وأنى أقسم لك بكل ما يحلف به الأبرار أنى لست كاذبا ولا متخيلا وأن هذه هى حقيقة

اعتقادى فى نفسى وحقيقة الواقع - ولا شك أنها حالة شاذة ، ولكن ما حيلتى ؟ وأنا أخسر بسببها كثيرا مما يفوز به الرجال ، وأرى مفاتن الحياة تتخطانى وتقع على سواى بغير سعى منه لها ، فلا أتحسر لأنى رضت نفسى على الحرمان ووطنتها على ألاّ تأسف على شىء .. وما أكثر ما يفوتنى وأحرمه فى دنياى فى كل باب حتى باب المعيشة المادية ، ولكن ماذا أصنع ؟ لا شىء . صرت أتفلسف وأقول إن رياضة النفس على الزهد تتطلب قوة نفسية أكبر وأعظم من القوة التى يحتاج إليها الإقدام على التمتع بملزات الحياة ونعم العيش ، فهل هذا صحيح ؟ لا أدرى ، ولكنى أدرى أننى لم أطق باريس أكثر من ربع ساعة ، ولا لندن أكثر من أسبوع وأحببت الريف والبساطة ، وكنت فى رحلتى أفضل أن أجوب الريف بسيارة صديق أحمل فيها طعامى وأبيت أحيانا كثيرة فيها بعد إغلاق نوافذها . لقد قلت مرة لصاحبة اجتمعت بها على ظهر السفينة :

« يا سيدتى إنك جميلة وحرام أن تلقى بجمالك بين يدى حمار مثلى لا يعجبه إلاّ البرسيم .

« هى مرارة نفسى تطفح أحيانا وتقطر من اللسان أو من القلم ، ولكنى ربما كنت معذورا . ولعلى كنت أكون أسعد فى حياتى لو عشت فى كهف بعيدا عن الناس .. أى نعم . وقد حاولت هذا مرة وقضيت بضعة أسابيع فى جبل المقطم على أثر صفعة قوية تلقيتها من يد القدر - وكنت أشرب الماء بحفنتى وآكل من شبه ماجور من الطين .. فهل تصدقين !

« ونفعنى ذلك فعدت إلى الحياة بعزم جديد ونشاط كان مفقودا . كتبت هذا لأشرح لك جانبا من شخصيتى السخيفة ، ولست أعرف هل هى مزدوجة أو مثلثة ، ولكنى أعرف أنى مثل غازل أعمى جىء له بخيوط وقيل له اغزلها ، فتناول الخيوط وراح يعمل وإنه ليعلم أن للخيط مذهبا ولكنه لا يرى طريقه ، بل يتحسسه ، وقد تثور به الرياح فتفلت الخيوط من كفيه . أنا ذلك الغازل الأعمى الذى جاءت به الحياة وقالت له اغزل ... وقد نظمت قصيدة فى هذا المعنى فلا تقرأيها .

مدهش جدا أن تقولى عن نفسك ما قلت فى خطابك .. أيه جريمة ؟ ماذا فى جوابك مما يمكن أن يسوءنى يا سيدتى ؟ حقا كأنك لا تعرفين أنك أول سيدة جليلة

أولتنى عطفا وظننتنى شيئا يستحق كل هذه العناية . لا يا سيدتى . إنى رجل أحفظ الجميل ولا أكفره ولا أجحد فضل الله وفضلك علىّ ، فإذا كنت قد وجدت فى ردى ما يشعرك أنى تألمت . فأنى آسف جدا ، وأرجو أن تفعلى هذا على محمل المرارة التى فى نفسى ، وهى مرارة طبيعية لا تتأثر بشىء من الخارج أبدا ، فسامحينى بالله واعفى عنى واغفرى لى زلاتى وكونى معى على الدنيا . ألم أقل لك إنى جاهل ؟ بلى . وإنى لأجهل الجهلاء وأبلد البلداء . فهل صح عزمك على أن تتفرجى على هذا الجاهل الغبى وتريه بعينيك يوم الأحد ؟ أم عدلت يا ترى ؟ أرجو أن يكون عزمك مستمرا ، وسلامى وتحياتى وأشواقى وشكرى العميق وما هو فوق الشكر والتحيات والأشواق ، وأبلغ من كل ذلك .

« أين يضعون هذه العلامة : « × » ؟ إنى أضعها فى كل مكان فوق اسمى وتحته وإلى يمينه ويساره ، وفى حبة القلب وتحت كل ضلع وعلى كل عرق نابض ، وفى كل واحدة من مسام الجسد » .

وتستمر رسائل المازنى إلى السيدة المجهولة على هذا الطراز من الحب والصدق والسخرية بالنفس ، بل إنه يزداد بها شغفا وحبا . وقد واصل الخادم الذى يحمل إليه رسائل السيدة المجهولة خداعه ، فقدم إليه صورة زعم له أنها هى صورة السيدة ، وأنها ترسلها إليه كهدية منها ، ثم استرد هذه الصورة بعد ذلك بناء على طلبها .

وهذه عبارات مما ورد فى رسائل المازنى تعبيرا عن حبه الملتهب : « أنا أكتب الآن على عجل كأنى أخاف أن .. لا . لا . لا أخاف شيئا .. بل أتمنى أن أنقلب زفرة .. تنهدة تطير إليك على جناح النسيم وتشعرك بما فى قلبى .. وليت لزفراتى روحا تكشف عن حقيقة أمرى » .

وفى رسالة أخرى يقول المازنى تعليقا على صورة السيدة المجهولة : « فاخرة ، أسأل الله السلامة من كل هذا الحسن .. السلامة وأى أمل فيها ؟ لقد كان ما خفت أن يكون وانتهى الأمر . أحببتك خيالا وهأنذا اليوم أبصرك إنسانة ، حقيقة وقعت ... لا بل رفعنى الله إلى سماء كنت اتخيلها .. إن مثل هذا الحب نعمة يا فاخرة .. ومثل حبى لك مفخرة لى ورفعة لنفسى وسمو .. أنت مازلت

معنى ساميا .. لم تتجسدى قط على الرغم من الصورة .. كل ما أريتنيه الصورة أن ظنى لم يخب .. أن الحقيقة أكبر وأفتن وأسحر من الخيال ... » .

وعندما طلبت منه السيدة المجهولة إعادة صورتها التى حملها الخادم إليه ، قال المازنى فى رسالته التى أعاد معها الصورة : « لقد أعدت الصورة لأنى يجب أن أكون صادق الوعد وأن أتركك مطمئنة ، وأن أطيع رغباتك ولكنها قاسية » . ثم يقول بعد ذلك : « ... إنى مسكين وإنى محتاج إليك .. وإنى معذور إذا جننت ، ولكنى سأحتفظ ببقية عقلى من أجلك .. لتطيريه لى حين تقابلينني » . ثم يقول : « سامحينى ... فإن عقلى ليس معى ، عقلى مع الصورة التى أعيدها إليك وقلبى يتمزق ... لى رجاء صغير .. أعيدى إلىّ الصورة مع كل رسالة منك لأنظر إليها واتزود ثم أعيدها إذا كنت لا تريدين أن أبقيها عندى .. أعيديها إلىّ .. استحلفك بأعز عزيز عليك بأن تعيديها إلىّ لأراها مرة أخرى » .

وهكذا سقط المازنى فى حب امرأة خيالية مجهولة ... وكان هذا الحب العنيف تعبيرا عن الحرمان الوجدانى الذى كان يعانيه ذلك القلب الحساس ، والذى عاناه ولا شك معه كل أبناء جيله من الكتّاب الموهوبين الذين بدأوا الكتابة فى أوائل هذا القرن .. عندما لم يكن للمرأة دور فى الحياة العامة ، ولم يكن هناك سبيل لإطفاء احتياجات الوجدان الظمآن الحساس عند هؤلاء الأدباء .

وبعد شهور من كتابة هذه الرسائل اكتشف المازنى أن الشاب الذى كان يحمل إليه رسائل المرأة المجهولة كان يخدعه .. وأنه هو نفسه ، واسمه عبد الحميد رضا ، هو الذى يكتب تلك الرسائل ، وقد انتهى الأمر إلى أن ذهب هذا الشاب بما حصل عليه من رسائل إلى إحدى المجلات التى كانت تصدر فى الثلاثينات وأعطاها رسائله ورسائل المازنى فنشرتها ، وادعى الشاب أنه كان يريد أن يحصل على رسائل أدبية راقية من المازنى ، عن طريق تحريك عواطفه ، وأنه لم يقصد إيذاء الكاتب الكبير ولا جرح مشاعره .

وتبقى هذه القصة نموذجا يكشف لنا مدى ما كان يعانيه مجتمعنا العربى من ظروف إنسانية قاسية ، ومدى ما كان يعانيه أدباء الجيل الأول من حرمان بالغ وقيود اجتماعية ونفسية قاسية .



أزهرى يطالب بجائزة نوبل

كانت جائزة نوبل قبل أن ينالها نجيب محفوظ فى عام ١٩٨٨ حلما من أحلام الأدباء والمفكرين فى مصر منذ أعوام بعيدة ، وكان هناك كثيرون ممن يهاجمون هذه الجائزة ويحاولون التقليل من شأنها ، لكن حياتنا الفكرية كانت فى أعماقها تتمنى أن ينال الجائزة العالمية واحد من أدباء مصر أو علمائها وأصحاب الأقلام فيها . ويسجل تاريخنا الفكرى المعاصر حقيقة غريبة ، هى أن أول من طالب بجائزة نوبل لنفسه هو شيخ أزهرى معمم صاحب شخصية إنسانية وفكرية عجيبة ولافتة للنظر ، وكان ذلك سنة ١٩٣٨ . أما الشيخ

فهو « طنطاوى جوهرى » وهو اسم غير معروف لأبناء هذا الجيل ، ولكنه كان فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن علما من الأعلام ، وكان اسمه يتردد على ألسنة الكثيرين من قرائه وعارفى فضله ومكانته ، بالإضافة إلى ذلك فإن طنطاوى جوهرى هو من الأسماء المعروفة حتى الآن فى البلاد الإسلامية غير العربية ، وخاصة فى الهند وباكستان وأندونيسيا .

ولكن المؤسف حقا أن هذا الشيخ لم يأخذ حقه من الاهتمام به فى مصر . رغم أنه كان مفكرا نادر المثال ، وقد ترك وراءه أعمالا علمية وفكرية هامة ، على رأسها تفسيره للقرآن ، والذى سماه باسم « الجواهر » وكتبه فى ستة وعشرين جزءا ، وهو تفسير لا مثيل له بين كل تفاسير القرآن المعروفة ، وقد كتبه الشيخ طنطاوى جوهرى بعد أن تجاوز الستين . ويحدثنا هذا العالم الجليل عن تفسيره للقرآن فيقول :

« وبعد أن قطعت زمان الشباب وحل بساحتى المشيب وأنا أزاول مهنة التعليم وتأليف الكتب ، وجاوزت الستين ، أخذت أكتب هذا التفسير وأكببت على العمل سنتين كاملتين أو يزيد ، وكنت أكتب فى اليوم نحو أربعين أو خمسين صفحة ، ومتى انتهيت من ذلك أقوم للرياضة فى الحقول حول القاهرة فأمشى حوالى ستة كيلو مترات كل يوم .. » .

وقد أتم هذا العالم الكبير تفسيره للقرآن حوالى سنة ١٩٣٢ وصدرت الطبعة الأولى منه فى ٦٥٠٠ صفحة .

وقبل صدور هذا التفسير الكبير قدم الشيخ طنطاوى مؤلفات عديدة أخرى منها « ميزان الجواهر فى عجائب الكون الباهر » و « جواهر العلوم » و « نظام العالم والأمم أو الحكمة الإسلامية العليا » و « أين الإنسان ؟ » و « النظام والاسلام » و « جمال العالم » و « نهضة الأمة وحياتها » .

وفى هذه الكتب جميعا كان الشيخ طنطاوى صاحب دعوة إنسانية واسعة ، فكان يدعو إلى « السلام » و « التضامن الإنسانى » الذى يؤدى إلى انتشار العدل وارتقاء البشر جميعا ، وكان فى كتبه يهاجم الدول الكبرى التى تعمل على أن تفرض سياستها بالقوة ، وتحاول أن تحقق مصالحها على حساب الآخرين من أبناء

المجتمعات الإنسانية الضعيفة . وكان يرى أن « الإخاء » الحقيقى بين البشر هو الحل المثالى الصحيح لأزمات الإنسان المختلفة . ولم تكن دعوته لهذه المبادىء الإنسانية سطحية بل كانت عميقة وقائمة على شعور غامر بالمسئولية ، كما أنه كان يشرح دعوته بأسلوب جميل واضح مؤثر ، وكانت كتبه مليئة بالحقائق والمعلومات الواسعة فى سائر مجالات المعرفة الإنسانية .

هذا العالم الكبير وآثاره الهامة تبدو الآن عندنا منسية ومهملة ولا تعرف عنها الأجيال الجديدة شيئا ، وكتبه لا يعاد طبعها بإستثناء تفسير « الجواهر » الذى استولى عليه بعض الناشرين اللبنانيين حيث يقومون بطبعه وتوزيعه فى شتى أنحاء العالم الإسلامى .

ولقد كان فكر طنطاوى جوهرى ، لو اتيح له من يعيد نشره والاهتمام به ، كفيلا بأن يكون قوة كبيرة فى مواجهة الظواهر التى تزعجنا الآن فى مصر وبعض أنحاء العالم الإسلامى ، ومن هذه الظواهر : التعصب والتطرف والانحراف بالفهم الدينى إلى أفكار وآراء لم يدع إليها الإسلام فى يوم من الأيام ، مثل الدعوة إلى محاربة الفن ومظاهر الحضارة الحديثة بناء على فهم خاطىء للإسلام ومعرفة ناقصة بأصوله ومبادئه . والشيخ طنطاوى جوهرى يرد على هذا كله ، ويثبت خطأه ، ويؤكد بالأدلة الثابتة أن الإسلام هو دين العلم والرحمة والحب ، وهو دين الدعوة القوية إلى التأمل فى أسرار الكون ، والكشف عنها والاستفادة الواسعة منها فى تحقيق السعادة للإنسان والمجتمع ، ونشر الجمال والسلام على الأرض .

ونتوقف هنا قليلا لنتسائل من هو الشيخ طنطاوى جوهرى الذى رأى أن يتقدم فى سنة ١٩٣٨ ليطلب لنفسه جائزة نوبل للسلام ، حيث كان يرى ـ بحق وصدق ـ أنه يستحق هذه الجائزة العالمية بما بذله من جهد فكرى واسع فى الدعوة إلى نظام عالمى جديد ، يقوم على السلام والتعاون والرخاء ويرفض القوة والعنف والحروب المدمرة .

ولد الشيخ طنطاوى جوهرى سنة ١٨٧٠ فى قرية « كفر عوض الله حجازى » بمحافظة الشرقية ، وتعلم فى كتّاب القرية ، وكان فى صباه يعمل بالزراعة مع والده إلى جانب دراسته فى الكتّاب . ثم انتقل إلى القاهرة بعد ذلك

ليدرس فى الأزهر ، والتحق بكلية دار العلوم وكان اسمها آنذاك « مدرسة دار العلوم العليا » وتخرج منها سنة ١٨٩٣ ، وكان فى الثالثة والعشرين من عمره . وبعد تخرجه عمل مدرسا بالمدارس الثانوية فى دمنهور وفى المدرسة الخديوية بالقاهرة ، ثم أصبح مدرسا فى كلية دار العلوم التى تخرج منها ، وانتدب سنة ١٩١٢ لتدريس الفلسفة بالجامعة المصرية التى كانت حتى ذلك الحين جامعة أهلية ، حيث لم تتحول هذه الجامعة إلى جامعة رسمية إلاّ فى سنة ١٩٢٥ . ومن خلال محاضرات الفلسفة التى كان الشيخ طنطاوى جوهرى يلقيها فى الجامعة ، قام بتأليف كتابه « أين الإنسان ؟ » ، وفى هذا الكتاب يعالج المشاكل الفلسفية الكثيرة التى يتعرض لها العقل البشرى مع الإشارة إلى جوانب من تاريخ الفلسفة فى الفكر العالمى .

وقد توفى الشيخ طنطاوى جوهرى فى شهر يناير سنة ١٩٤٠ عن سبعين عاما .

هذه هى الخطوط العامة لحياة هذا الشيخ الأزهرى العجيب . وهذه الخطوط العامة لاتكشف لنا بصورة كاملة عن شخصية هذا العالم الكبير وأهميته وقيمته الفريدة فى الفكر العربى المعاصر ، وهى صورة تحتاج إلى مزيد من التحديد والتوضيح .

كان الشيخ طنطاوى بطبيعة دراسته فى الأزهر ودار العلوم القديمة لا يعرف لغة أجنبية ، ولكنه أدرك بفهمه العلمى السديد ، وتطلعه إلى المعرفة ضرورة الاهتمام بإحدى اللغات الأجنبية ، فاتجه إلى اللغة الانجليزية ، ودرسها دراسة واسعة حتى أتقنها معتمدا فى ذلك على جهده الذاتى وإرادته القوية بعد أن استعان فى بداية الأمر ببعض المدرسين ، وقد ساعده اتقانه لهذه اللغة على أن يقوم بترجمة بعض الأشعار والنصوص الأدبية الانجليزية مما يدل على أنه قد وصل فى اتقانه لهذه اللغة إلى درجة جيدة .

وهذا الاهتمام باللغة الانجليزية مفهوم عند مفكر يريد أن يتوسع فى الدراسة والبحث والمعرفة . ولكن الشيخ طنطاوى جوهرى اتجه اتجاها آخر غريبا على الدراسة التى درسها فى الأزهر ودار العلوم ، فقد اهتم اهتماما واسعا بالرياضيات

والعلوم الطبيعية ، واندفع إلى البحث فى هذه المجالات العلمية اندفاعا نادرا ، حتى أصبح على معرفة عميقة بعلوم الرياضة والطبيعة . وقد أثرت عليه هذه الدراسة تأثيرا بالغ القيمة والأهمية ، ويحدثنا الأستاذ أحمد عطية الله الذى كان من تلاميذ الشيخ وأصدقائه عن هذا الجانب فى شخصيته ، وذلك فى دراسة صغيرة قيمة كتبها عن استاذه وصديقه .. يقول أحمد عطية الله :

« كان للرياضيات والطبيعيات جاذبية غريبة عند الشيخ طنطاوى جوهرى ، وقد وضح ذلك فى تفسيره للقرآن والذى يقرر فى ثناياه مثلا أن تعليم الكيمياء من الواجبات والفروض . بل امتد شغفه بالدراسات الطبيعية إلى العلم التطبيقى ، فنراه مثلا فى عام ١٩٣٠ يرفع مذكرة إلى الحكومة المصرية أثناء غارات الجراد التى اجتاحت البلاد يقترح فيها جمع الجراد وبيضه لاستخراج زيت يقول إنه أجود زيت يصلح للطائرات . كذلك امتد شغفه من الرياضيات والطبيعيات إلى الموسيقى ، بإعتبار أنها فرع من فروع الرياضيات ، وكان يقول إن الموسيقى المسموعة باب من أبواب الموسيقى المعقولة « أى التى توجد فى العقل عن طريق المعادلات الرياضية » ، وأورد فى تفسيره للقرآن كثيرا من النوادر والحوادث الشخصية التى كانت الموسيقى فيها حافزا له على إرتياد مواطن جديدة من النشاط الفكرى ، بل إنه عزا توسعه فى تفسير القرآن وهدفه من تضمين هذا التفسير كثيرا من حقائق العلوم الطبيعية إلى حادث من الحوادث الفردية التى لعب فيها « الفونوغراف » دورا فى تطوير أفكاره وشحذ عزيمته » ..

ثم يقول الأستاذ أحمد عطية الله بعد ذلك :

« كان الشيخ طنطاوى جوهرى يتابع ما ينشر فى الصحف والمجلات من إكتشافات علمية ، إرتبطت فى ذهنه بالتطور الحضارى ، لذلك نراه يقرن بين الجمود والتخلف وبين عزوف المسلمين عن العلوم الحديثة ، ومن هنا قاد دعوة إلى الاصلاح الاجتماعى قوامها نشر هذه العلوم ، مؤيدا قوله بالأدلة والأمثلة التى لا حصر لها ، مؤكدا أنه لا جفوة بين القرآن وهو مصدر العقيدة الأول وبين هذه العلوم ، بل إنه أكد القول بأن القرآن يحث المسلم على طلب العلم بمعناه الشامل ، وطريق ذلك فى نظره هو نشر المدارس وإنشاء الجامعات الحديثة ، وعبر عن ذلك فى قصيدة له يقول فى بعض أبياتها :

وابنوا المدارس فى القرى
والجامعات كما يرى
فى كامبردج ولندرا
فزمانها قد حانا .

هذه هى بعض الملامح الشخصية والفكرية العجيبة للشيخ طنطاوى جوهرى كما يرسمها لنا تلميذه الباحث المفكر أحمد عطية الله .

وقد إنعكست هذه الملامح كلها بصورة رائعة فى تفسير « الجواهر » الذى كتبه الشيخ طنطاوى جوهرى للقرآن الكريم فى ستة وعشرين جزءا . فهذا التفسير يقوم على استخدام الدراسات العلمية الواسعة والتفصيلية فى الكيمياء والطبيعة والرياضيات ، وذلك للكشف عن عظمة الكون الذى خلقه الله وأبدعه . والشيخ طنطاوى جوهرى يستخرج ذلك كله من آيات القرآن الكريم ، وهو لا يكتفى بالشرح العلمى النظرى بل يملأ تفسيره للقرآن بالصور والخرائط التى تشرح الآراء الواردة فى التفسير وتقدم الدليل الثابت على صحتها ، فهو ينشر - على سبيل المثال - عدة صور فى تفسيره لسورة الفاتحة التى تثبت معنى الرحمة فى عبارة القرآن ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فالرحمة خلقها الله فى هذا العالم فإمتدت حتى إلى الحيوانات ، ومن الصور التى إستعان بها لتفسير معنى الرحمة فى قوله تعالى ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ صورة للدب الأمريكى الأسمر ، حيث كتب تحت الصورة تعليقا يقول فيه : « ليس الدب الأمريكى الأسمر من الحيوانات المؤذية ولا هو يهاجم الإنسان إلا فى حالتين : الأولى للدفاع عن نفسه والثانية للدفاع عن أطفاله ، وتراه فى الصورة يحمى اثنين من أطفاله وينظر حوله ليتقى ما هو محتمل من خطر قادم » . ويقدم صورة أخرى لحيوان اسمه « الأوبسوم » ويكتب تعليقا عليها : « الأوبسوم حيوان أمريكى برى ، وهو شديد العطف على صغاره يحملها فوق ظهره أينما سار أو حل ، كما تدل على ذلك الصورة المنشورة أعلاه » .

هذه نماذج من الصور التى يستخدمها الشيخ طنطاوى جوهرى فى تفسيره للقرآن ، ثم يقول عن اختياره لهذه الصور إنه اختارها من بعض المجلات العلمية لنتبين من مشاهدتها عجائب الرحمة الإلهية « وكيف يتضح بالمشاهدة قوله ﷺ

ما يفيد فى الحديث الصحيح « إن لله مائة رحمة ادخر منها تسعة وتسعين لعباده في الجنة ، وجعل رحمة واحدة فى الأرض بها يعيش الإنسان والحيوان ، وتعطف الأمهات على ذريتها » ، والصور التى نشاهدها لها آثار فى النفوس ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها** ﴾ **وقال** ﴿ **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم** ﴾ ، وهذا الزمان هو الذى ظهرت فيه آيات الرحمة بطريق أتم ، ومنهج أكمل .. » .

ونقرأ فى تفسير « الجواهر » للشيخ طنطاوى كلمات بالغة الجمال والتأثير ، تنتشر فى صفحات تفسيره الجميل الفريد ، ومن ذلك قوله :

« أرض الجنة يرثها الصالحون لها بالعمل ، وأرض الدنيا يرثها الصالحون لها بالعمل ، والعمل يتقدمه العلم فكل أمة أعرف بهذا العالم فهى أحق به » .

ويقول الشيخ طنطاوى فى جزء آخر من تفسيره :

« لن يعرف المسلمون محامد الله حتى يقرأوا نظام الطبيعة لأنه من أفعاله وآثاره وعجائب صنعه ، فإذا أراد المسلمون أن يحمدوا الله حق حمده فليقرأ عقلاؤهم نظام الطبيعة وليعقلوها وليفهموا دقائق التكوين ، فلا يتركون علما إلاّ درسوه ، ولا فنا إلاّ عرفوه ، وحينئذ يحمدون الله حق حمده » .

ويقول عن نفسه فى مقدمة تفسيره للقرآن :

« خلقت مغرما بالعجائب الكونية ، معجبا بالبدائع الطبيعية ، مشوقا إلى ما فى السماء والأرض من بهاء وكمال ، وآيات بينات وغرائب باهرات .. شمس تدور وبدر يسير ونجم يضىء ، وسحاب يذهب ويجىء ، وبريق يأتلق ، وكهرباء تخترق ، ومعدن بهى ، ونبات سنى ، وطير يطير ، ووحش يسير ، وأنعام تسرى ، وحيوان يجرى ، ومرجان ودر ، وموج يمر ، وكتاب من العجائب مستور ، فى لوح الطبيعة المنشور ، وسقف مرفوع ، إن فى ذلك لبهجة لذوى البصائر ، ونورا وتبصره لصادقى السرائر » .

ثم يفسر اهتمامه بالعلوم هذا الاهتمام الواسع من خلال تفسيره للقرآن بقوله :

« إنى لما تأملت الأمة الإسلامية وتعاليمها الدينية ، ألفيت أكثر العقلاء ،

وبعض أجلّة العلماء ، عن تلك المعانى مُعْرضين وعن التفرج عليها ساهين لاهين ، فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم ، وما أودع فيها من الغرائب » .

وكان هذا الموقف دافعا للشيخ طنطاوى جوهرى حتى يعكف على تأليف تفسيره للقرآن ، بهذه الطريقة الفذة الفريدة ، فيقدم تطورات العلم المختلفة ، ويفسر من خلالها آيات الله الحكيمة ، ويؤكد أن ذلك هو طريق النهوض للمسلمين والتوحيد الحقيقى بينهم ، ويعلن ذلك بوضوح حيث يقول :

« إنى أدعو جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها أن يمعنوا النظر فيما أقول ، وإلاّ فكيف يقول الله تعالى ﴿ **ليظهره على الدين كله** ﴾ وكيف يظهر على الأديان إلاّ بهذه المزية ، وهى أن الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات والإسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين من الأديان ، فإذا أبى المسلمون ما ذكرناه فإنى أنذرهم بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .. فليقرأ المسلمون فى الشرق والغرب جميع العلوم التى برع فيها الأفرنج ، وإذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم فى الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا عليه » . ثم يدعو علماء المسلمين إلى أن يقفوا بين الناس شارحين لهم : « جمال الزهر ، وبهجة القمر ، وبدائع النبات ، وغرائب الطب والمعادن ، وليكثروا من هذا » . ثم يقول : « أو لا يرى علماء المسلمين من سنيين وشيعيين وزيديين وغيرهم أن هذه العلوم التى تتصل بالكون والحياة غذاء ، وأن علوم الشريعة وهى الأحكام الفقهية التى صرفوا فيها أعمارهم دواء وكيف يعيش الإنسان إلاّ بالغذاء ؟ وهو إذا تناول الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فإنما يكون عند إنحراف الصحة » .

هذا ما يقوله الشيخ طنطاوى جوهرى فى مقدمة تفسيره وهو أعجب تفسير للقرآن عرفه الفكر الإسلامى ، فهو تفسير يحض على العلم ، والاكتشاف والمعرفة الواسعة بأسرار هذا الكون ، حتى ينهض المسلمون ويتخلصوا مما هم فيه من تخلف وفقر وسوء حال أمام الحضارة الغربية الحديثة .

إن تفسير « الجواهر » هو تفسير فذ ، ولو أتيح لأجيالنا الجديدة أن تقرأه

وتدرسه لوجدت فيه متعة عالية ، ولخرجت منه بروح دينية جديدة تجاهد من أجل العلم والمعرفة والتقدم .

بقى أن أشير إلى السبب الذى جعل اسم طنطاوى جوهرى معروفا فى البلاد الإسلامية الأسيوية على نطاق واسع ، رغم أنه لا يكاد يكون معروفا فى بلادنا .

إن طنطاوى جوهرى معروف جدا فى هذه المناطق الاسلامية الأسيوية ويسمونه هناك باسم « حكيم الإسلام » ، والسبب فى ذلك أن السلطات الاستعمارية التى كانت قائمة فى كثير من تلك البلاد كانت تمنع دخول الكتب العربية إلى تلك البلاد بإستثناء الكتب الدينية ، وقد دفع هذا بالشيخ طنطاوى جوهرى إلى أن يجعل من كتبه المختلفة ، ومن تفسيره للقرآن على وجه الخصوص ، موسوعة كاملة تضم العلوم العصرية من طبيعية ورياضية واجتماعية مع توضيح ذلك كله بالرسوم والخرائط والصور ، ولهذا إنتشر تفسير « الجواهر » فى البلاد الآسيوية الإسلامية وخاصة أندونيسيا وكان له فى هذه البلاد دور كبير ، حيث ساعد على نهضتها وفتح أمام أبنائها فرصة التعرف على العلوم الحديثة التى كانوا محرومين من معرفتها ودراساتها .

هذا هو الشيخ طنطاوى جوهرى الأزهرى العبقرى الذى جاهد بقلمه وفكره جهادا نادر المثال لإيقاظ المسلمين وتوجيههم نحو العلم الحديث بقوة وأصالة ، وهو الأزهرى الذى وجد فى فكره وعلمه وآرائه الإنسانية ما يؤهله لطلب « جائزة نوبل فى السلام » لنفسه ، وقد كان على حق فيما تصوره . وإن كانت الجائزة العالمية قد فاتته ، فلم يفته التقدير الكبير عند أى باحث منصف يدرس تاريخه ويتعرف على إنتاجه الفكرى والدينى ، ولا يستطيع مثل هذا الباحث المنصف إلا أن يقول : إن طنطاوى جوهرى كان واحدا من أعظم العقول التى عرفها الفكر العربى المعاصر ، بل لقد كان واحدا من أعظم العقول الإنسانية فى هذا العصر ، بالإضافة إلى ما اتصفت به نفسه من نبل وصفاء ، وإخلاص لرسالة الإسلام الحقيقية فى دعوته إلى مبادىء العدل والسلام والعلم والحرية والتقدم » .



شقاوة طه حسين

تلقيت رسالة من القارئة الفاضلة مها محمد الهنداوى من دمياط تقول فيها :

« قرأت لكم ما كتبتموه عن الشيخ طنطاوى جوهرى ، أو الأزهرى الذى طالب بجائزة نوبل ، وأود أن أحيطكم علما بأننى درست هذا العام الجزء الثالث من رائعة « الأيام » لعميد الأدب العربى الدكتور طه حسين ، وفيه يذكر الشيخ طنطاوى بأوصاف قبيحة ، ويصف كيف كان الشيخ مثار سخرية الدكتور طه حسين وزملائه ، وهذا ما قاله طه حسين عن الشيخ طنطاوى فى الجزء الثالث من « الأيام » :

« كان الأستاذ الذى ملأ الجامعة فكاهة ودعابة وملأ الطلاب عبثا به واجتراء عليه ، وملأ بطون الطلاب من طعامه هو الشيخ طنطاوى جوهرى رحمه الله . كان يدرس الفلسفة الإسلامية ، وكان يتكلم كثيرا ولا يقول شيئا ، وكانت كلمات الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق أكثر الكلمات جريانا على لسانه منذ يبدأ الدرس إلى أن يتمه ، وكان لا ينطق بكلمة منها إلاّ مد ألفها فأسرف فى المد ، وربما أخذه شىء من ذهول وهو يمد هذه الألف فيغرق الطلاب فى ضحك يخافت به بعضهم ويجهر به بعضهم الآخر . ويفيق الأستاذ من ذهوله على هذا الضحك ، فيلوم الطلاب لا على ضحكهم بل على أنهم لا يشاركونه فى الاعجاب بجمال الطبيعة وجلال الكون وبهاء القمر حين يرسل ضوءه المشرق على صفحة النيل ، ويمد ياء « النيل » فيسرف فى مدها ويأخذه ذهول يرد الطلاب إلى ضحك متصل . وفى ذات يوم ختم الأستاذ دروس العام وقرر الطلبة قبل الدرس أن يكون الفتى لسانهم فى شكر الأستاذ على دروسه القيمة ، واشترطوا عليه أن يشكر الأستاذ بكلام غير مفهوم ، واشترط عليه الأستاذ إبراهيم مصطفى ألاّ تخلو جملة من حديث الشكر هذا الذى يجب أن يكون طويلا من إحدى هذه الكلمات الست : الجمال والجلال والبهاء والكمال والروعة والإشراق . وقَبِل الفتى هذه الشروط ولكنه لم يقل شيئا ، ورضى الأستاذ كل الرضا وقال للفتى : لا يكافىء هذه الخطبة الرائعة إلاّ ديك رومى ، ولكنك لن تأكله وحدك وإنما يشاركك فيه زملاؤك جميعا ، فإذا كان يوم الجمعة فأنت تعرف أين أقيم » .

وتختتم القارئة مها محمد الهنداوى رسالتها بقولها :

« أرجو من سيادتكم الرد ، فكلامكم أوقعنى فى حيرة شديدة ، فهل الشيخ طنطاوى جوهرى الذى يتحدث عنه الدكتور طه حسين فى الجزء الثالث من كتاب « الأيام » هو نفسه من يتحدث عنه سيادتكم أم أنه شخص آخر ؟ » .

وأحب أن أؤكد للقارئة الفاضلة أن الشيخ طنطاوى الذى تحدثت عنه هو نفسه الشيخ طنطاوى جوهرى الذى يتحدث عنه طه حسين فى الجزء الثالث من كتابه . وبالطبع فإن الصورة التى رسمتها للشيخ طنطاوى جوهرى تختلف عن الصورة التى رسمها طه حسين . فما السبب فى هذا الاختلاف الكبير ؟ .

إننى لم أعرف الشيخ طنطاوى جوهرى معرفة شخصية ، فقد مات هذا العالم الكبير سنة ١٩٤٠ ، وكنت أنا فى السادسة من عمرى ، لا أعرف شيئا من أمور الثقافة أو الحياة . ولذلك اعتمدت فى رسم صورته وتحديد ملامح تفكيره على قراءاتى لكتبه وخاصة كتابه « الجواهر » وهو تفسيره للقرآن الكريم . ومن كتبه الأخرى التى قرأتها كتابه « أين الإنسان ؟ » وهو بحث تقدم به إلى « مؤتمر الأجناس » الذى انعقد فى انجلترا فى شهر يوليو سنة ١٩١١ ، ثم كتابه « القرآن والعلوم العصرية » . وقد تبين لى من كتابات هذا المفكر الكبير أنه رجل غزير العلم ، وأنه صاحب منهج جديد فى النظر إلى الإسلام ، وأنه فوق ذلك كله صاحب رسالة عالية وهى دعوة المسلمين منذ أوائل هذا القرن دعوة قوية صادقة إلى الاهتمام بالعلوم العصرية . وقد بذل الشيخ طنطاوى جهدا كبيرا ناجحا فى أن يثبت أن دعوته مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه الأساسية ، وهو يقول فى هذا المجال إن آيات العلوم فى القرآن الكريم تزيد كثيرا على آيات الفقه ، فبينما تصل آيات العلوم إلى سبعمائة وخمسين آية لا تزيد آيات الفقه الصريح على مائة وخمسين آية . ويخرج من ذلك بالنتيجة التى يتحمس لها ويدعو إليها بقوة وهى أن رجل الدين المسلم العالم بدينه « سوف يكون شارحا للنبات والحيوان أو مديرا للمعمل الكيمياوى ، وهذا من قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد » ، وكما برع آباؤنا فى القضاء والحكم بين الناس ، فلنقم نحن بذلك وندرس علوم العوالم كلها ، باعتبار أن ديننا يأمرنا به ، وإلاّ فما الفرق بين « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » وبين قوله « فصل لربك وانحر » ، وكلاهما أمر ، والأمر للوجوب ، فإذا نحن قرأنا الأحكام الشرعية وقضينا بها ، فلنقرأ العجائب الكونية ولنعمل بها ، فترقى الصناعة والزراعة والتجارة ، وإلاّ فكيف يقول الله تعالى « ليظهره على الدين كله » ، وكيف يظهر على الأديان إلا بهذه المزية ، وهى أن الديانات لا تتعرض لعلوم الكائنات والإسلام يدعو إليها ويأمر بها ، وهذه خاصة به لا يشاركه فيها دين من الأديان » .

ثم يرى الشيخ طنطاوى بناء على منهجه أن هذا المنهج نفسه هو الذى يمكن أن يحقق وحدة المسلمين ، ويمنعهم من الاختلاف والتفرقة ، ويقول الشيخ فى هذا المعنى كلاما رائعا هذا نصه :

« ألا وإن أرباب المذاهب من شيعة وسنة ومالكية وحنابلة وحنفية وشافعية وزيدية كان اختلافهم فى مسائل من الشريعة المطهرة ، فإذا قرأوا علوم الآفاق التى أرشد إليها القرآن لم يكن بينهم اختلاف لأنها مكشوفة ظاهرة . والله هو الذى منحهم إياها . فليقرأ المسلمون فى الشرق والغرب جميع العلوم التى برع فيها الافرنج ، وهى علوم الأنفس والآفاق ، وإذ ذاك يرون أن الخلاف بينهم فى الشريعة يسير جدا بالنسبة لما اتفقوا عليه ، أن علوم الخلق ، من العوالم العلوية والسفلية ، غذاء ، وأن علوم الشريعة ، وهى الأحكام التى صرفوا فيها أعمارهم ، دواء . وكيف يعيش الإنسان إلا بالغذاء ، وهو إذا تعاطى الدواء وحده هلك ، بل الغذاء هو الدائم الطلب ، أما الدواء فإنما يكون عند انحراف الصحة » .

هذه هى نماذج من كلمات طنطاوى جوهرى وأفكاره .

فهل مثل هذا الرجل يمكن أن يكون بالسطحية والسذاجة التى وصفه بها طه حسين فى كتاب « الأيام » ؟ .. إننا عندما نطالع تفسير « الجواهر » للشيخ طنطاوى جوهرى يذهلنا ما فى هذا الكتاب من ثقافة غزيرة متنوعة ، ومن قدرة على الشرح ، والتحليل غير عادية ، وفوق ذلك كله فسوف نجد أنه يكتب بأسلوب سهل جميل شديد التركيز ، ليس فيه استسلام للألفاظ الانشائية الخالية من المعنى والقيمة .

فلماذا إذن صوره طه حسين فى الجزء الثالث من « الأيام » على هذه الصورة التى توحى لنا بأنه كان شخصا سطحيا ساذجا ، خاليا من أى كفاءة أو قدرة على التفكير العميق ، بعيدا كل البعد عن الثقافة والمعرفة الواسعة ؟

السبب فى ذلك يعود إلى طه حسين نفسه ولا يعود - فى تقديرى - إلى الشيخ طنطاوى جوهرى ..

هذا السبب هو أن طه حسين كان يتميز بصفة لا أستطيع أن أسميها إلاّ باسم « الشقاوة » ، وهذه الصفة قد لازمته فى النصف الأول من حياته الطويلة - فقد عاش أربعا وثمانين سنة - بل أكاد أقول إن صفة « الشقاوة » قد لازمته أكثر من نصف حياته ، وأنها ظلت تلازمه فى كل حياته وإن كان قد حاول فى سنواته الأخيرة أن يخفيها ويخفف منها إلى حد كبير .

وكانت « الشقاوة » التى يتميز بها طه حسين تدفعه إلى أن يصدم الناس بآرائه صدمات عنيفه ، لأنه كان فى قرارة نفسه يحس بأن المجتمع المصرى ، والعربى كله ، هو مجتمع راكد « نائم على روحه » ، وأن هذا المجتمع يحتاج إلى من يهزه ويوقظه ولو كان ذلك بأساليب عنيفة من التحدى والاستفزاز .. والشقاوة .

لقد تعلم طه حسين فى المرحلة الأولى من حياته فى الأزهر ، وكان ساخطا أشد السخط على التعليم الأزهرى ، كما كان ساخطا على معظم أساتذته فى الأزهر . وكان كثيرا ما يعاكس أساتذته الأزهريين ، أو يهاجمهم فى مقالاته التى كان ينشرها فى أوائل هذا القرن فى الصحف والمجالات ، حتى لقد اضطر الأزهر إلى التفكير فى فصله نهائيا من الدراسة ، لولا تدخل لطفى السيد وغيره من الأساتذة الذين كانوا يعطفون على طه حسين ويعملون على مساعدته .

وصراع طه حسين مع الأزهر وشيوخ الأزهر يسجله طه حسين نفسه فى الجزءين الثانى والثالث من « الأيام » تسجيلا صريحا واضحا .

يقول طه حسين عن حياته فى الأزهر : « ... فأما تحدث الطلاب كبارا وصغارا عن جهل شيوخهم وتورطهم فى ألوان الخطأ المضحك الذى كان بعضه يتصل بالفهم وبعضه يتصل بالقراءة ، فقد كان أكثر من أن يحصى وأعظم من أن يقدر . ومن أجل هذا كان صاحبنا (أى طه حسين نفسه) سيىء الرأى فى العلماء والطلاب جميعا » .

ويحكى طه حسين فى « الأيام » أيضا أنه ناقش أحد أساتذته بعنف شديد مما جعل الأستاذ ينهى الدرس ويقول لتلاميذه : « انصرفوا فلن استطيع أن أقرأ وفيكم هذا الوقح » .. وكان يشير بكلمة « الوقح » إلى طه حسين .

ويروى طه حسين مرة أخرى أن أحد أساتذته فى الأزهر كان ينهره بقوله « اسكت يا خاسر ، أسكت يا خنزير » ، ومرة أخرى قال أحد أساتذته الأزهريين - وقد طالت المناقشة بينه وبين تلميذه طه حسين - « والله لا نقوم حتى يقتنع هذا المجنون » ، وكانت كلمة « المجنون » إشارة إلى طه حسين . وطرده شيخ أزهرى آخر من بيته قائلا له : « أسكت يا أعمى » . وقال أحد شيوخه فى الأزهر يوما

بعد أن عانى من « مشاغبته » فى الدروس : « ما شاء الله ، ما شاء الله ، فتح الله عليك وأشقاك بتلاميذك ، كما يشقى بك أساتذتك » .

وقد أدى هذا الصراع الدائم بين طه حسين وبين أساتذته فى الأزهر إلى سقوطه فى امتحان « العالمية » ، وقراره الأخير بأن ينصرف تماما عن التعليم الأزهرى . ويقول طه حسين عن نفسه فى تلك الفترة كاتبا وإنسانا :

« إن طول اللسان هو الذى قطع الصلة قطعا حاسما بين صاحبنا (أى طه حسين) وبين الأزهر ، ودفعه دفعا إلى حياته التى أتيحت له ، وعرضته لسخط أى سخط ، وحزن أى حزن ، وعناء أى عناء ، والغريب أنه تلقى السخط والحزن والعناء باسما ، موفور الرضا ، طيب النفس ، فلم تتعلق نفسه قط بالجلوس إلى عمود من أعمدة الأزهر ، ولا بإلقاء الدرس فى حلقة من حلقاته » .

هذه صورة حية لعلاقة طه حسين بأساتذته الأزهريين كما رسمها بنفسه . وقد انتقل طه حسين بعد انقطاعه عن الأزهر إلى الدراسة فى الجامعة المصرية التى كانت قد فتحت أبوابها فى ذلك الحين ، وقد كانت جامعة أهلية ، وظلت كذلك منذ بدايتها سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩٢٥ حيث تحولت إلى جامعة رسمية . وكان طه حسين من أوائل طلاب الجامعة المصرية الأهلية ، وقد دخلها وفى نفسه « عقدته » الكبيرة من الأزهر ومن شيوخ الأزهر .

وفى الجامعة إلتقى طه حسين وهو طالب بأستاذه طنطاوى جوهرى .
وكان طنطاوى جوهرى شيخا أزهريا معمما انتدبته الجامعة لتدريس الفلسفة بها .

فهل كان بالإمكان أن يسلم هذا الشيخ الأزهرى من « شقاوة » طه حسين ؟ .. لقد هرب طه حسين من الأزهر وها هو يلتقى مرة أخرى بشيخ أزهرى يجىء إلى الجامعة للتدريس ، ومن هنا كان لابد أن يصب طه حسين على أستاذه الأزهرى ألوان السخط والسخرية الحادة ، لأنه يذكره بالأزهر وبمشاكله الكثيرة مع شيوخ الأزهر .

ولست أشك فى أن طه حسين ، فى تلك المرحلة من عمره ، وكان فى العشرين على التقريب ، لم يكن مستعدا أن يتقبل أى تعليم على يد أى شيخ أزهرى مهما كانت قيمته أو أهميته . لقد كان يتطلع فى تلك الفترة من عمره إلى العلوم العصرية الوافدة من الغرب ، وكان يحس أن عقله شديد الظمأ إلى الثقافة الحديثة ، ولم يكن قادرا بأى صورة على أن « يسالم » أستاذا أزهريا ، يذكره بهمومه الكثيرة فى الأزهر ، ويعيد إلى ذهنه صورة الأزهر الذى ضاق به وهرب منه ووقع فى صراع حاد مع شيوخه .. هذا هو السبب الرئيسى فى « شقاوة » طه حسين التى استخدمها مع أستاذه طنطاوى جوهرى .

ومع ذلك فلو تأملنا الصورة التى رسمها طه حسين للشيخ طنطاوى لوجدنا فيها ملاحظات تثبت شيئا آخر غير ما قصد طه حسين إلى إثباته :

١ ـ فطه حسين يقول فى أول حديثه عن الشيخ طنطاوى « إنه كان أحد أستاذين أحبهما أشد الحب وعبث بهما أشد العبث ، واستغل سذاجتهما ووداعتهما أشد الاستغلال » .

وهذا الكلام معناه أن طه حسين كان يحب الشيخ طنطاوى ، فعلى أى شىء كان يحبه ، إذا كان الرجل بالتفاهة والسطحية التى يصوره بهما طه حسين ؟

لابد أن الرجل كان فيه شىء جذاب يستحق الحب ، وهو شىء لم يحاول طه حسين أن يكتشفه فى تلك المرحلة من عمره ، وهى مرحلة « الشقاوة » الشديدة فى معاملة أساتذته ، وخاصة من كان له منهم علاقة بالأزهر .

٢ ـ يقول طه حسين إن الشيخ طنطاوى يدعو تلاميذه إلى التفكير والتأمل فى بهاء الكون وروعة الوجود ، وهذه دعوة راقية وليست دعوة تافهة ، وهى تعنى أن الشيخ طنطاوى ، كان من الأساتذة العظام الذين يهدفون فى تعليمهم إلى إيقاظ عقول الطلاب ورفع مستوى وعيهم وذوقهم ، ولم يكن من هؤلاء الذين يهدفون إلى حشو رؤوس التلاميذ بالمعلومات ، فالمعلومات يمكن العثور عليها واكتسابها من قراءة الكتب ، وخاصة فى مادة مثل الفلسفة ، أما المفيد حقا فهو أن يوقظ الأستاذ فى تلاميذه شغفا بالتفكير والتأمل فى مظاهر الكون ومشاكل الحياة .

٣ ـ كان الشيخ ينطق الألفاظ بشكل صحيح من الناحية اللغوية ، وبصورة تحفظ للكلمات جمالها الموسيقى .. وهذا ما كان يسخر منه طه حسين ، وهو مخطىء فى سخريته ، والحقيقة أن طه حسين نفسه كان يتكلم بنفس الطريقة التى يسخر منها ، وقد حضرت له فى الخمسينات محاضراته التى كان يلقيها علينا فى الآداب ، فكان ينتقى ألفاظه وينطقها بعناية شديدة ، ويحرص على أن يكون لها إيقاع موسيقى جميل ، مما كان يدعو كثيرا من الطلاب إلى السخرية منه .. كما كان هو يسخر من أستاذه طنطاوى جوهرى ، لأن هؤلاء الطلاب كان يرون طريقة حديث طه حسين نوعا من الافتعال .

٤ ـ عندما يقول طه حسين إنه خدع أستاذه وألقى خطابا فى نهاية العام الدراسى أمامه ، ولم يكن لهذا الخطاب الذى ألقاه أمام أستاذه قيمة ، فليس لنا أن نصدق طه حسين ، فقد كان طه حسين منذ صباه مجتهدا ذكيا موهوبا لافتا للنظر ، ولست أشك فى أن خطابه الذى ألقاه أمام أستاذه كان خطابا جيدا يدل على ذكائه وموهبته . وقد كان رد فعل الأستاذ أن دعاه على الطعام فى بيته ، وهذا دليل على أن الأستاذ كان حسن التقدير لتلاميذه ، وكان واسع العقل ، رحب الصدر ، يؤمن بأن الصداقة بين الأستاذ والتلميذ وسيلة فعالة لتشجيع الطلاب ورفع مستوى التعليم وخاصة فى الجامعة .

فالقصة التى يرويها طه حسين عن الشيخ طنطاوى جوهرى لا تسىء إلى الأستاذ فى حقيقتها ، ولكنها تكشف عن « شقاوة » التلميذ طه حسين وميله الدائم إلى مشاغبة أساتذته الأزهريين .

والحقيقة أن الشيخ طنطاوى جوهرى لم يكن أزهريا بالمعنى التقليدى ، بل كان عالما عظيما مجددا ، ولو أن طه حسين كان يريد إنصاف أستاذه ، لقرأ كتاباته ، واحترم جهده العلمى الكبير خاصة أن الشيخ طنطاوى عاش حتى سنة ١٩٤٠ ، وكان طه حسين فى الواحدة والخمسين من عمره ، وكان فى قمة مجده ونفوذه الأدبى الكبير .

وإنى على يقين أن طه حسين لو كان قد وجد من يراجعه فى رأيه الذى كتبه حول أستاذه طنطاوى جوهرى ، لأسف على هذا الرأى أسفا شديدا ، ولاعتذر

عنه ، كما اعتذر عن بعض كتاباته القاسية . فقد اعتذر طه حسين وندم أشد الندم عما كتبه عن « المنفلوطى » ، وكان فى أيام « شقاوته » قد شن حملة عنيفة غير منصفة على المنفلوطى ، ثم أدرك أنه كان ظالما ، فاعتذر فى كتابه « الأيام » اعتذارا صادقا مخلصا .

لقد اصطدم طنطاوى جوهرى بشخصيته العلمية والإنسانية النبيلة مع شقاوة طه حسين فى بداية حياته التى كان فيها ثائرا متمردا عنيفا ، قليل الرضا عن أساتذته وعن الحياة فى مصر كلها . وقد تخفف طه حسين من « شقاوته » هذه بعد أن تقدم به العمر ، وبعد نضجه ، وبعد أن ذاق هو نفسه الكثير من « شقاوة » تلاميذه الذين تمردوا عليه وهاجموا كثيرا من آرائه وأفكاره بعنف وقسوة ، مثل : محمود شاكر ونجيب البهبيتى وغيرهما من تلاميذ طه حسين . وهكذا فإن « شقاوة » طه حسين لا ترسم صورة حقيقية للشيخ طنطاوى جوهرى بل تعطينا فكرة عن طه حسين فى شبابه ، أما الصورة الحقيقية لهذا العالم الجليل فترسمها كتبه وعلى رأسها تفسير « الجواهر » الذى أصدره الرجل العظيم فى ستة وعشرين جزءا هى من روائع الفكر والثقافة والتعبير فى المكتبة العربية .



بول كراوس
يهودى غامض فى القاهرة

كان ذلك يوم ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، عندما فوجئت الأوساط العلمية والثقافية بخبر صغير يقول إن « المستشرق اليهودى التشيكى الأصل ، بول كراوس ، قد انتحر بأن شنق نفسه فى حمام منزله بالقاهرة » .

كان « بول كراوس » فى الأربعين من عمره عندما أقدم على الانتحار ، وكان قد قضى فى القاهرة ثمانى سنوات متواصلة ، فقد وصل إليها سنة ١٩٣٦ ، ومنذ

وصوله إلى مصر وحتى يوم انتحاره كان يعمل أستاذا فى كلية الآداب بجامعة القاهرة التى كان اسمها فى ذلك الوقت جامعة فؤاد الأول .

وقد حقق هذا المستشرق اليهودى « بول كراوس » سمعة طيبة بين زملائه وتلاميذه وخاصة فى قسم اللغة العربية وقسم الفلسفة . وكانت سمعته الطيبة تعود إلى شبابه وحيويته وذكائه الحاد ، وقدرته غير العادية على العمل المتصل ليلا ونهارا ، وحرصه على أن تكون علاقاته العلمية بزملائه وتلاميذه قائمة على المودة والمشاعر الإنسانية الطيبة ، فكان يلتقى بهم فى بيته ويساعدهم فى عملهم العلمى إذا ما ظهرت أمامهم صعوبات يحتاجون معها إلى العون والمساعدة . واستطاع « بول كراوس » بهذه الصفات الطيبة فيه ، علميا وإنسانيا ، أن يكسب ثقة واسعة بين الجميع ، وأصبح له تلاميذ لامعون يحبونه أشد الحب ولا يقبلون فيه كلمة نقد أو هجوم من أى نوع ، ومن هؤلاء التلاميذ من أصبحوا فيما بعد أساتذة كبارا ، مثل الدكتور عبد الرحمن بدوى الذى كان أخلص أصدقاء « بول كراوس » وتلاميذه والمتحمسين له والمدافعين عنه .

ويحدثنا الدكتور توفيق الطويل ، وكان من الذين عرفوا هذا المستشرق اليهودى واستمعوا إلى محاضراته فى قسم الفلسفة ، فيقول : « .. أشهد أنه كان بين تلاميذ هذا اليهودى فى ذلك الوقت من كان يسرف فى تقديره ، إلى حد أن بعض طلاب قسم الفلسفة بكلية الآداب اتفقوا بعد موته على أن يذهبوا إلى مثواه الأخير مشيا على الأقدام ليضعوا على قبره باقة ورد تقديرا له وإعجابا بعلمه ... وأشهد ـ وأنا لم أكن من المقربين إليه المحبين له ـ أنه كان يلفت النظر بصغر سنه وحدة ذكائه ، ووفرة نشاطه وغزارة انتاجه ، وسعة علمه بالتراث العربى الإسلامى ، وأن الله قد وهبه ذاكرة قوية يعرف قيمتها المشتغلون بالدراسات العلمية ، فكان إذا سئل عن نص أورده مستشرق مترجما فى كتاب بالفرنجية دون أن يشير إلى مصدره العربى ، بادر كراوس بالعثور على النص فى أصله العربى فى مكتبة الدراسات العربية الشرقية التى كان له وحده فضل إنشائها فى المكتبة العامة بجامعة القاهرة .. » .

هذه هى صورة المستشرق اليهودى « بول كراوس » كما يرسمها لنا الدكتور توفيق الطويل بدقة ووضوح .

فكيف جاء هذا المستشرق إلى مصر ؟ ولماذا انتهت حياته فيها بالانتحار ، وهو في سن الأربعين ؟

ولد « بول كراوس » سنة ١٩٠٤ في براغ عاصمة تشيكوسلوفاكيا ، واهتم منذ شبابه الأول بدراسة اللغات الشرقية وعلى رأسها العربية والعبرية والسيريانية والانجليزية والفرنسية . وقد تبدو المعرفة الواسعة والدقيقة بهذه اللغات جميعا أمرا عسيرا على التصديق ، ولكن ما كان يتميز به « بول كراوس » من ذكاء حاد ، وقدرة على العمل الطويل المتواصل ، وتفرغ كامل للعلم والدراسة منذ شبابه يساعدنا على تفسير هذه المعرفة الواسعة بست لغات في وقت واحد . ومما يساعدنا على تفسير ذلك أيضا أن اللغات الأوروبية الثلاث « الانجليزية والألمانية والفرنسية » بينها وجوه شبه كثيرة ، وفي نفس الوقت فإن اللغات الشرقية الثلاث « العربية والعبرية والسريانية » بينها هي أيضا وجوه شبه كثيرة وقوية إلى أبعد الحدود ، وهذا التشابه بين اللغات الأوروبية والشرقية ، يفتح الباب واسعا لمن يريد أن يدرس هذه اللغات ويجد وقتا لذلك ويصبر على بذل الجهد في سبيله .

وكان « بول كراوس » يريد أن يعرف ، وقد أعطى وقته كله لهذه المعرفة ولم يشغل نفسه بأمر آخر .

وقد انتقل « بول كراوس » في شبابه إلى برلين ليعمل في الميدان الجامعي ، ولكن من الواضح أنه أحس بالخطر القريب منه في عاصمة ألمانيا ، فهو يهودي ، والنازية التي سيطرت على ألمانيا سنة ١٩٣٣ ، وكان لها قبل السيطرة الكاملة نفوذ كبير في المجتمع ... هذه الحركة النازية كانت تضع اليهود على رأس أعدائها ، وترى فيهم خطرا كبيرا على ألمانيا بل وعلى العالم كله ، ولا شك أن النازية كانت تضطهد اليهود وتحاربهم ، وإن كان اليهود بعد ذلك قد بالغوا في حجم هذا الاضطهاد مبالغة غير عادية ، ليستفيدوا من ذلك في كسب العطف العالمي وإقامة دولتهم فوق أرض فلسطين وعلى أشلاء العرب .

لم يستطع « بول كراوس » اليهودي أن يعيش في المانيا ، فاتجه إلى باريس وهناك اشتغل في الجامعات الفرنسية ، وكان عمله العلمي متجها إلى الاستشراق وإلى دراسة الثقافة العربية على وجه الخصوص .

وفى باريس التقى به الدكتور طه حسين ، وكان طه حسين فى الثلاثينات عميدا لكلية الآداب ، وكان من التقاليد القائمة فى هذه الكلية فى تلك الفترة المزدهرة من تاريخها أن تتعاقد مع عدد من المستشرقين الأوروبيين للعمل بها ، وكان طه حسين على التحديد من أكبر أنصار هذه السياسة الثقافية التى تهدف إلى الاستعانة بالمستشرقين الأوروبيين ، وكان الهدف هو الاستفادة مما يملكه هؤلاء المستشرقين من علم وما يعرفونه من مناهج وأساليب جديدة فى البحث والدراسة والتفكير .

التقى طه حسين بالمستشرق اليهودى الشاب « بول كراوس » فى باريس عدة مرات ، وخرج من هذه اللقاءات بصورة جيدة عن ذلك المستشرق وذكائه وسعة علمه ، وتحمس طه حسين لتعيينه فى كلية الآداب . وعاد طه حسين من فرنسا ليحدث زملاءه وتلاميذه عن المستشرق الذى اكتشفه فى باريس ، وسرعان ما جاء هذا المستشرق بالفعل إلى القاهرة ، بعد أن قام طه حسين بتعيينه فى كلية الآداب .

وكان « بول كراوس » من جانبه متحمسا إلى أبعد حد للعمل فى القاهرة ، لأنها تتيح له أن يكون قريبا من المصادر والمراجع الأساسية عن الثقافة العربية التى اتخذها موضوعا لدراساته المختلفة .

وجاء « بول كراوس » إلى القاهرة سنة ١٩٣٦ ، وكان حينذاك فى الثانية والثلاثين من عمره ، لا شك أنه كان أصغر مستشرق أوروبى أتيح له أن يعمل بالجامعة المصرية .

ووجد « بول كراوس » تشجيعا كبيرا من جانب طه حسين ، كما إلتف حوله عدد كبير من التلاميذ النابهين فى الجامعة فى ذلك الحين ومن بينهم ، غير الدكتور عبد الرحمن بدوى ، أسماء لامعة أخرى مثل الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، والدكتور محمد طه الحاجرى والدكتور يحيى الخشاب .

وحقق « بول كراوس » إنجازات علمية لافتة للنظر ، منها نشر « رسائل الجاحظ » ، و « رسائل جابر بن حيان » وغير ذلك مما يتصل بالموضوع الذى اهتم به أشد الاهتمام وهو « الفكر العلمى عند العرب » . وفى كل أعماله كان « بول كراوس » يهتم بالتعاون على نطاق واسع مع تلاميذه ، فكان كثيرا ما يعتمد عليهم

ويتيح لهم فرصة كبيرة للعمل تحت إشرافه . ومن الواجب هنا أن نسجل ملاحظة هامة ، وهى أن البيئة العلمية والثقافية فى مصر قد عاملت « بول كراوس » أحسن المعاملة ، واستقبلته أحسن الاستقبال ، داخل الجامعة وخارجها على السواء ، فبالإضافة إلى رعاية طه حسين له فى الجامعة ، فتح أمامه أحمد أمين صفحات مجلته المعروفة « الثقافة » ليكتب فيها سلسلة مقالاته التى جعل عنوانها « من على منبر الشرق » . وهذه المعاملة الطيبة التى لقيها « بول كراوس » فى مصر تكشف عن روح التسامح وعدم التعصب ، فقد كان هذا المستشرق يهوديا ، وكانت البيئة التى يعمل فيها هى بيئة عربية إسلامية ، ومع ذلك لقى كل العناية والتكريم ، مما يؤكد أن العرب والمسلمين فى مصر لم يحملوا كراهية لليهود ، ولكنهم حملوا كل الكراهية والسخط والغضب ضد الظلم اليهودى للعرب فى فلسطين .

هذه الحياة السعيدة المستقرة التى كان يعيشها ذلك المستشرق اليهودى اللامع فى مصر ، لماذا انتهت فجأة بإنتحاره فى حمام بيته ؟

هناك عدة تفسيرات ..

التفسير الأول هو أنه تورط - كما يقول الدكتور نصار عبد الله فى مقال له - فى فضيحة مالية عندما كلفه الدكتور طه حسين بشراء كمية كبيرة من الكتب لمكتبة كلية الآداب ، فاشترى الكتب وتقاضى أضعاف الثمن من الكلية ، وتأكد طه حسين من أنه اختلس لنفسه مبلغا كبيرا فى هذه الصفقة فغضب عليه أشد الغضب ورفع يديه عن مساعدته ورعايته . وكان ذلك بالنسبة للمستشرق اليهودى كارثة كاملة ، فقد كان يعيش فى ظل طه حسين ويستمد قوته ونجاحه من دعم طه حسين له ، وقد أدى به غضب طه حسين إلى الانتحار .

هذا هو التفسير الأول .

التفسير الثانى يقول إنه كان قد غرق فى قصة عاطفية فاشلة حطمت أعصابه ، ودفعت به إلى اليأس والانهيار فاختار الانتحار حلاً لأزمته وخلاصا من مأساته .

أما التفسير الثالث ، فيقدمه أحد تلاميذه المقربين ، وهو الدكتور محمد طه الحاجرى الذى كان أستاذا لامعا بآداب الاسكندرية وتوفى منذ سنوات قليلة . هذا

التفسير يقول إن المستشرق اليهودى قد تعرض لضغط متصل ، وغير عادى من القوى الصهيونية التى كانت تعمل فى مصر بصورة خفية فى ذلك الحين ، وكان هدف هذا الضغط الصهيونى هو « تجنيد » بول كراوس فى صفوف الحركة الصهيونية ، يخدمها ويتجسس لصالحها ، بل ويتآمر على مصر من أجل الأهداف الصهيونية . ووصلت الضغوط الصهيونية إلى حد تهديده فى حياته وأمنه الشخصى .

كان « بول كراوس » يرفض الصهيونية ، كما كان معارضا لإقامة إسرائيل ، محبا لمصر والعرب . وكان يرى أن حياته فى مصر هى حياة ناجحة ومثالية ، وهى فرصته الكبيرة لتحقيق أحلامه العلمية العالية وأن قيام إسرائيل سوف يخلق مشكلة عسيرة وحادة بين العرب واليهود ، مما يجعل حياة اليهود فى المجتمعات العربية مستحيلة ، وقد أدت هذه الضغوط الصهيونية إلى أزمة نفسية حادة ، انتهت بانتحار « بول كراوس » .

هذه هى التفسيرات الثلاثة لانتحار « بول كراوس » ، وكل تفسير منها له أنصاره والمدافعون عنه .

وفى رأيى أن هذه التفسيرات الثلاثة ليست متناقضة ، ولكنها تحتاج إلى ما يربط بينها جميعا فى « مفتاح واحد » .. وهذا المفتاح موجود وغير بعيد .

فالأصل فى مشكلة « بول كراوس » ـ كما أتصور ـ هو الضغوط الصهيونية التى كانت تريد منه أن يكون جاسوسا على مصر ، وتريد منه أن يخدم أهداف الحركة الصهيونية ، و « بول كراوس » محب لمصر ومعارض صادق للأهداف الصهيونية .

وفى ظنى أن الحركة الصهيونية قد ورطته بطريق ما فى تلك الفضيحة المالية التى أدت إلى غضب طه حسين منه .

وهذه الضغوط الصهيونية نفسها هى التى « دست » عليه تلك المرأة التى « شاغلته » فأحبها ، وهو الرجل المخلص الحساس المنصرف إلى حياته العلمية ، وقد تخلت عنه هذه المرأة فجأة .

وكان عليه بعد ذلك أن يستسلم للضغط الصهيونى ، حتى تخلصه الصهيونية من المأزق المالى الذى وقع فيه ، وحتى تعيد إليه حبيبته التى تنكرت له .

ولم يستطع « بول كراوس » أن يخون نفسه إلى هذا الحد وينتمى إلى الحركة الصهيونية ، وينصرف عن عمله العلمى الأصلى الذى يعشقه ويعشق مصر من أجله ، بالإضافة إلى أنه لا يؤمن أبدا بالأهداف الصهيونية التى أرادوا له أن يعمل من أجلها أعمالا تتناقض كل التناقض مع طبيعته ومعتقداته .

ولم يجد حلا لمواجهة الضغوط الصهيونية ، ولم يجد حلا لمأزقه المالى ، أو مأزقه العاطفى إلا فى إطار الاستسلام الكامل للصهيونية .

وكان الخلاص من هذا كله هو الانتحار ، فأقدم عليه وأنهى حياته بيديه .

هذا هو التفسير الذى أميل إليه فى مأساة هذا المستشرق اليهودى اللامع ، وذلك من خلال الحقائق القليلة المتوافرة عن مأساته ، والتى مازالت بحاجة إلى من يكشف غموضها بوثائق أكثر ومعلومات أدق .



الشـــاعـر الـديـــب

الشاعر

« عبد الحميد الديب » شاعر موهوب ، تكشف قصائده المبعثرة على صفحات الصحف والمجلات عن إمكانيات فنية كبيرة ، ولو أتيح لهذا الشاعر فرصة تنمية موهبته بالثقافة ، وحماية حياته بشىء من الاستقرار المادى الذى لم يحصل عليه أبدا ، ولو تخلص من داء الإدمان الذى أنشب أظافره فى جسمه وأعصابه ، لكن له شأن كبير فى تاريخنا الأدبى المعاصر ، ولأصبح بغير شك واحدا من أكبر شعراء العرب فى القرن العشرين .

ولكن هذا الشاعر للأسف عاش حياة لا يمكن وصفها إلاّ بأنها حياة مأساوية

سيطر عليها البؤس والضياع ، وعانى الشاعر من هذا الوضع المتدهور معظم سنوات حياته التى إمتدت خمسة وأربعين عاما ، حيث ولد سنة ١٨٩٨ وتوفى سنة ١٩٤٣ .

وعبد الحميد الديب هو صاحب أشهر قصيدة بذيئة فى الشعر العربى المعاصر ، وهى قصيدة يحفظها بعض الأدباء المعاصرين له ، وقد حفظها عن طريقهم بعض أدباء الجيل التالى لهم ، ولكن هذه القصيدة توشك أن تندثر وتضيع ، لأن الذين يحفظونها أصبحوا قليلين جدا ، ولم يستطع أحد أن ينشرها فى دراسة عن الشاعر ، بل إن أحدا لم يعكف على جمع قصائده الأخرى فى ديوان كامل ، وحتى لو قام أديب بجمع ديوان الديب فإن التقاليد والقيم الأخلاقية لم تعد تسمح بنشر مثل هذه القصيدة ، كل ذلك رغم أن الأدب العربى فى مراحله القديمة السابقة لم يكن يجد حرجا فى تسجيل مثل هذه النصوص ، فكتاب « الأغانى » وكتاب « يتيمة الدهر » ، وغيرها من الموسوعات الأدبية الكبيرة كانت تسجل مثل هذه النصوص دون تردد ، وحتى سنوات قريبة كان هناك من يحرصون على تسجيل النصوص الكاملة ، مثلما فعل الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، وهو من أدباء الجيل الماضى الكبار ومن شيوخ الأزهر ، وذلك فى شرحه لديوان المتنبى ، فقد أثبت فى الديوان قصيدة « ضبة » المعروفة ، وبرر موقفه فى ذلك بأن الأمانة العلمية والأدبية تفرض عليه ألاّ يحذف شيئا من ديوان المتنبى ، خاصة وأن قصيدة « ضبة » هذه كانت - فى رأى البعض - سببا فى مقتل المتنبى ، وقد لا يكون ذلك صحيحا بصورة قاطعة ، ولكنه يظل احتمالا من الاحتمالات القوية التى تفسر مقتل الشاعر الكبير .

كذلك فعل الدكتور حسين نصار عندما نشر منذ سنوات تحقيقا كاملا لديوان « ابن الرومى » ، فقد حرص على أن ينشر - لأول مرة - كل نصوص الديوان بما فيها من قصائد شديدة البذاءة ، على أساس أن هذه « البذاءة الشعرية » تصور جانبا من شخصية الشاعر وجانبا من حياة المجتمع فى عصره .

نحن لا ندافع هنا عن بذائة الشعراء ، أو عن قصائدهم الخارجة على الذوق الاجتماعى والأخلاقى فهذا شىء لا يمكن الدفاع عنه ، ولكن ما أحب الإشارة إليه هو أن هذه « النصوص البذيئة » تستحق أن تكون مادة للدراسة العلمية المحدودة ،

لأنها تكشف ربما أكثر من غيرها ، ما تعرض له أصحابها من انهيار وخروج كامل على حدود المجتمع الذى كانوا يعيشون فيه .

ولا يوجد فى القصيدة البذيئة التى أشير إليها لعبد الحميد الديب سوى القليل مما يمكن نشره مثل قول الشاعر :

وهام بى الأسى والبؤس حتى كأنى عبلة والبؤس عنتر
كأنى حائط كتبوا عليه هنا يا أيها المزنوق (....)

واللفظة الأخيرة فى البيتين لا يمكن كتابتها ونشرها على الرأى العام . والقصيدة كلها هجاء للمجتمع وللظروف التى كان يعانيها الشاعر ، وفيها تصوير فاحش لأحوال الشاعر نفسه وتجاربه وصدامه الحاد مع الناس والحياة .

على أن عبد الحميد الديب لم يعرف له أحد سوى هذه القصيدة المليئة بالألفاظ والصور البذيئة ، وإن كانت له أشعار أخرى متفرقة تتضمن هجاء عنيفا لبعض رجال الأدب والصحافة فى عصره ، مما يصور سخطه الشديد على وضعه البائس وإهمال المجتمع والناس له ، ومن ذلك بيته المشهور الذى يقول فيه :

يا رجال الشعر والفن الرصين لعن الله أباكم أجمعين !!

ومن ذلك أيضا قوله عن جبرائيل تقلا صاحب جريدة الأهرام :

أموت بحسرة إن ضاع عمرى ولم أظفر بجبرائيل تقلا
ولم أنج البلاد ومن عليها من « الشوّام » تشريدا وقتلا

ومن الواضح أن سخط الديب على صاحب الأهرام وغيره من « الشوام » - بضم الواو وتشديد الواو - راجع إلى أنهم كانوا فى عصره يملكون أهم المؤسسات الصحفية فى مصر ومنها الأهرام ودار الهلال والمقطم ، ولم يستطع الديب أن يجد لنفسه عملا فى تلك المؤسسات ، فثار وعبر عن سخطه على هؤلاء الشوام الذين كانوا لا يهتمون بأمثاله من الأدباء الفقراء الذين ليس لهم مكانة اجتماعية محترمة . ولم يعترف الديب بما كان لعدد كبير من هؤلاء الشوام من الفضل على النهضة الثقافية والصحفية والفنية فى مصر ، فقد شغلته مأساته الشخصية عن إنصاف من يستحقون الإنصاف من هؤلاء الشوام .

نعود بعد ذلك إلى جذور المأساة التى سيطرت على حياة الشاعر الديب من البداية حتى النهاية ..

لقد ولد الشاعر فى قرية كمشيش بمحافظة المنوفية فى دلتا مصر ، وكانت أسرته فقيرة ، ولكن والده كان من علماء الدين المعروفين فى قريته ، فحاول تهيئة ابنه للدراسة فى الأزهر ، فتعلم الابن فى كتّاب القرية كما هى العادة عند أهل الريف ، ثم نزح إلى القاهرة ليتلقى تعليمه فى الأزهر ، ولكنه لم يستطع أن يكمل تعليمه ، بسبب فقره الشديد ، فانقطع عن التعليم وظل بعيدا عنه حتى نهاية حياته .

فالفقر الشديد هو العلة الأولى فى مأساة الشاعر الديب . وقد كان الشاعر يظن أن موهبته وحدها قادرة على أن تنتشله من هذا الفقر وتدفع به إلى طريق السعادة والنجاح ، وقد كان ذلك ممكنا لو أن الديب ظهر فى مجتمع يعتبر الشعر « وظيفة » حضارية واجتماعية جديرة بالاحترام ، ويمكن لصاحبها إذا كان موهوبا أن يعتمد عليها فى حياته ويحقق من ورائها الاستقرار والكرامة ، ولكن عصر الديب ومجتمعه لم يكونا يعترفان بشىء من ذلك على الإطلاق .

وهنا تظهر عوامل أخرى تكشف لنا عن الأسباب التى أدت إلى تعطيل موهبة الشاعر عن الوصول به إلى ما كان يستحقه ويريده لنفسه ..

فقد كانت مصر فى عصر الشاعر الديب خاضعة للاستعمار الانجليزى ، وهذا الاستعمار كان يضغط على البلاد ضغطا عنيفا ، ويفرض عليها الأزمات الاقتصادية المختلفة ، بالإضافة إلى ما كان يفرضه من قيود ثقيلة على الحريات السياسية والفكرية فى البلاد . وقد عانت مصر فى الفترة التى عاشها الشاعر ، بالإضافة إلى الاستعمار ، من الحربين العالميتين : الأولى والثانية ، وكانت أثار هاتين الحربين على البلاد شديدة الوطأة والقسوة ، وعانت الطبقات الشعبية ، والتى تتكون منها الغالبية العظمى من أبناء مصر ، معاناة شديدة فى حياتها وخبزها اليومى ، بسبب هذه الظروف القاسية ، وكان الشاعر عبد الحميد الديب من أبناء الشعب الفقراء ، فلم يرث شيئا عن أهله ، وكان من الطبيعى أن تضيق أمامه فرص الحياة ضيقا شديدا ، فى ذلك العصر الملىء بالأزمات والعواصف .

وفى مجتمع مصر الخاضع للاستعمار الانجليزى لم يكن هناك وسائل معترف بها لحماية المواهب ومساعدتها ، وفتح الطريق أمامها ، بل كان على كل صاحب موهبة أن يجاهد بطريقته الخاصة لمواجهة مشاكله وإفساح طريق مناسب له فى الحياة .

وهنا يأتى العنصر الحاسم فى مأساة الديب ، وهو العنصر الذى يتمثل فى تكوينه الشخصى الخاص ، فمن الواضح أنه لم يكن من الشخصيات القوية صاحبة الإرادة والعزيمة ، وصاحبة الحيلة الواسعة فى مواجهة الحياة ، فكان لا يجيد شيئا فى حياته غير كتابة الشعر ، وكان من الشخصيات التى لا تستطيع الاعتماد على نفسها ، والتى كانت بحاجة دائمة إلى توجيه الآخرين ومساعدتهم ورعايتهم والاعتماد عليهم .

لقد عاش الشاعر الديب فى نفس الجيل الذى عاش فيه طه حسين والعقاد والمازنى وزكى مبارك وغيرهم من الرواد ، ولا يوجد بين الديب وبين هؤلاء إلاّ فارق محدود فى السن لا يتجاوز بضع سنوات قليلة ، وقد نشأ معظم هؤلاء الرواد فى نفس الطبقة الشعبية الفقيرة التى نشأ فيها الديب ، وبعضهم لم يستطع إتمام تعليمه ، فالعقاد لم يحصل إلاّ على الشهادة الابتدائية ، ويقول البعض إنه لم يحصل حتى على هذه الشهادة المتواضعة ، أما طه حسين فقد كان ضريرا وفقيرا فى آن واحد ، واجتمعت عليه عقبة طبيعية هى فقدان البصر ، إلى جانب العقبة الاجتماعية وهى الفقر ، مع ذلك فقد جاهد العقاد وطه حسين وغيرهما من أبناء جيلهما جهادا شاقا عنيفا للتغلب على الظروف والعقبات التى وقفت فى وجه هؤلاء جميعا ، فنالوا من الثقافة العربية درجة عالية رفيعة ، ودرسوا اللغات الأجنبية بدقة وعناية ، وتعرفوا على الآداب الأوروبية بصورة جعلت منهم روادا كبارا فى مجال تطوير الثقافة العربية ، وتنوير العقول بما فى العصر الحديث من أفكار وآراء وآفاق جديدة .

لم يستسلم هؤلاء - فى معظمهم - لظروفهم الصعبة القاسية ، ولم يستسلموا لظروف المجتمع ، وما كان يتعرض له من ضغوط كبيرة فرضها الاستعمار وأعوانه على البلاد والناس .

وكان من الجوانب الهامة التى إلتفت إليها هؤلاء الأدباء الكبار ، أن معظمهم ارتبط بالأحزاب السياسية التى نشأت فى مصر فى ذلك العصر ، واستفادوا من ذلك فائدة واسعة ، فقد وقفت هذه الأحزاب على إختلاف إتجاهاتها إلى جانب هؤلاء الأدباء وساعدتهم ، وأفسحت لهم مجال العمل فى صحفها المختلفة ، وكان التنافس كبيرا بين الأحزاب المصرية على اجتذاب الأدباء وأصحاب الأقلام .

فأين كان عبد الحميد الديب من هذه الحركة السياسية الكبيرة فى مصر ؟ .. لقد حاول هذه المحاولة ، ولكن لم ينجح . فعبد الحميد الديب كان صاحب فطرة بسيطة تلقائية خالية من أى قدرة على التحايل وإخفاء المشاعر . فقد كان فى أعماقه مقتنعا بأن الأحزاب المصرية تتصارع فى كثير من الأحيان على المصالح لا على المبادىء ، ولم يكن قادرا على أن يخفى مشاعره أو يتحمل دون سخط سخافات الأحزاب والحزبيين ، فكان يطلق لسانه بالنقد والاعتراض على هذه الأحزاب ، وسرعان ما تضيق به تلك الأحزاب ورجالها فيرفضونه ويتنكرون له . وما كان أقرب الشعر إلى عبد الحميد الديب عندما يغضب أو ينفعل ، وقد كتب قصيدة هجائية عنيفة فى الأحزاب المصرية ورجالها يقول فيها :

برامكة وليس لهم رشيد	وأقيال وكلهم عبيد
مدحتهم فما شرفوا بشعرى	لخستهم ، وما شرف القصيد
وصغت هجاءهم فإذا الأهاجى	على الأفواه لحن أو نشيد

وحاول عبد الحميد الديب محاولتين معروفتين فى مجال الاتصال بالأحزاب وإنتهت كلتا المحاولتين بالفشل . وكانت المحاولة الأولى هى الاتصال بحزب الوفد القديم الذى كان يرأسه فى ذلك الحين مصطفى النحاس ، وكان زعيما وطنيا شعبيا محبوبا . أما الحزب الثانى فهو حزب مصر الفتاة الذى أنشأه فى الثلاثينات أحمد حسين ، وكان حزبا يعتمد على الشباب ، ويقلد الحزب النازى فى ألمانيا والحزب الفاشى فى إيطاليا قبل الحرب العالمية الثانية ، ولم تكن سمعة النازية والفاشية قد انهارت كما حدث بعد الحرب وهزيمة ألمانيا وإيطاليا .

ولم تطل علاقة الشاعر الديب بحزب الوفد ، وإن كانت قد طالت فترة من الوقت مع حزب مصر الفتاة ، ويعود فشل علاقته بالحزبين إلى إحساسه العميق

بأن تلك الأحزاب لم تكن تقدم خيرا حقيقيا للبلاد ، مع عدم قدرة الشاعر على « مسايرة » الأوضاع ، وكتمان آرائه فى صدره . فقد كان « قلبه على لسانه » كما يقول التعبير الشعبى ، مما أفقد رجال الحزبين ثقتهم فيه واطمئنانهم إليه ، فنفضوا أيديهم منه وتخلوا عن تقديم أى معونة له .

وعاد عبد الحميد الديب إلى حياة التشرد والصعلكة من جديد ، بعد فترة قصيرة قضاها فى رعاية رجال السياسة الحزبية فى مصر . وآثر الشاعر أن يستسلم لما أصابه من البؤس ، وواصل موقفه فى السخط على كل شىء حتى على نفسه ، واكتفى بأن يبكى حظه ويشكو ما أصابته به الأيام فى مثل قوله :

حظى هو الأيكة الخرساء ذابلة ... هو النسيم سموما غير خفاق
هو السحاب جهاما ، والندى أسنا ... هو الضياء به موتى وإحراقى
كأنــه أذرع شلاّء راحتهـــا ... أو أنه أعين من غير أحداق

ويقول فى قصيدة أخرى :

يقولون : موهوب على عبقرية ... فهل عبقرى من يعيش بجوعى ؟
ولم أدر ماحظ الألى يهدموننى ... سوى أنهم يبغون ذبح صريع
وأسمعت أبراج السماء شكايتى ... وللأرض لم أظفر بأى سميع
إذا رمت عيشى عاملا فكأننى ... رجوت يهوذا رحمة بـيسوع
فأقدمت للعيش الكفاف مجندا ... مواهب لم تخلق لغير رفيع

وقد وصل به سوء الحال إلى أن يعبر عن نفسه بقوله :

وقد ساء ظنى بالعباد جميعهم ... فأجمعت أمرى فى العداء وأجمعوا

وهكذا استسلم الشاعر الديب لظروفه الصعبة ، ولم يحاول أن يستخدم ذكاءه وموهبته فى مواجهة الحياة ، فكان مصيره هو البؤس الذى لم يفارقه حتى نهاية أيامه .

على أن ضعف الإرادة عند الديب قد أدى به إلى إدمان مخدر « الكوكايين » الذى أهلك جسمه ودمر أعصابه ، وذهب بالبقية من صحته النفسية والعقلية . وقد انتهى به هذا المخدر إلى السجن ، وإلى مستشفى المجانين ، ولكنه لم يستطع أبدا

أن يتخلص من سطوة هذا الداء ، لا عن طريق السجن ولا عن طريق المستشفى .

وهذا المخدر هو العنصر الأساسى الحاسم الذى قضى على الشاعر الديب بالبؤس الأبدى الذى عاش فيه طيلة حياته ، فقد كان يصرف كل قرش يصل إلى يديه على المخدر ، وكان دخوله السجن عائقا « رسميا » فى سبيل حصوله على أى وظيفة مناسبة ، فبالإضافة إلى أنه لا يملك مؤهلا علميا ، فإن السجن يعنى أنه لا يستطيع الحصول على شهادة بما يسمى « حسن السير والسلوك » ، وهى شهادة أساسية فى كافة وظائف الدولة ، أما الوظائف الحرة التى لا تطلب مثل هذه المؤهلات الرسمية ، فقد كان من الصعب عليه أن ينالها لسوء سمعته ، ورثاثة ملبسه ومظهره ، ثم قبل ذلك كله بسبب حالة « التخدير » و « الانسطال » التى كان يستسلم لها فى معظم أوقات ليلة أو نهاره . فلقد كان الجميع غير قادرين على الثقة به ، والاطمئنان إليه وحسن الظن بقدرته على الالتزام بأى عمل من الأعمال .

والذى لا شك فيه من متابعة حياة الشاعر الديب أنه وصل إلى حالة من « الرضا الخفى » بمصيره البائس ، فقد أصبح مشهورا بين المشتغلين بالأدب والصحافة فى عصره بهذه الشخصية الخاصة ، التى تعيش فى بؤس وتشرد ، وتجد فى ذلك مصدرا للإلهام الشعرى ، حيث كان الكثيرون يستمعون إلى قصائده ويتخاطفونها ، وينتظرون منه دائما أن يكتب فى هذا الموضوع الواحد والأساسى وهو « البؤس والشكوى من الناس والحياة » ، وبهذا أصبح الديب يمثل دورا نجح فيه كل النجاح ، وأصبح الناس لا يتصورونه فى غير هذا الدور الناجح المحدد ، والذين كانوا يساعدونه ببعض المال آثروا أن تكون مساعدتهم قليلة ومحسوبة ، حتى لو كانوا قادرين على أكثر من ذلك بكثير ، وكان السبب الكامن وراء قلة المساعدات هو أن يبقى الشعر فى دوره المرسوم له ، وهو دور البائس الضائع التعيس ، فتلك هى الصورة التى يرضاها الناس ويستمتعون بها ، وذلك هو الدور الذى استسلم له الشاعر وأتقنه حتى أصبح علامة عليه ، ومصدرا لتفرده بين شعراء عصره وأدبائه .

وهذه الحالة العجيبة من الرضا والتمسك بهذا الدور السيىء للشاعر ، إنما تدل على ما كان فى الحياة الأدبية فى عصر الديب من قسوة بالغة ، وابتعاد عن

الإحساس السليم بالمسئولية الإنسانية . ولا يمكن إعفاء الشاعر نفسه من المشاركة في هذه التمثيلية الدامية التي جعل من نفسه ضحية لها ، حتى يتسلى الآخرون ويستمتعوا ، بينما هو ينزف دما ويتلاشى ويضيع .

ولم يكن الشاعر الديب في لحظات يقظته وانتباهه لمأساته يجد وسيلة للرد على هذا الوضع الذى يعانيه إلاّ أن يشتد في هجاء أهله ومجتمعه ، ويحاول أن يقنع نفسه بأنه « ضحية » للحسد والحقد والمؤامرات المستمرة التي كان يتصور أنها تحاك ضده وضد عبقريته ومجده الأدبى . بل كان في بعض الأحيان القليلة ، يحاول أن ينكر إدمانه لمخدر الكوكايين ويقول إنها تهمة ملفقة له للإساءة إليه ، ولكنه لم يكرر هذا الدفاع الكاذب عن نفسه كثيرا ، لأنه يعلم علم اليقين أنه مستسلم للمخدر خاضع لسطوته ، غير قادر على أن يتخلص منه ويبدأ حياة كريمة خالية من « عبوديته » الشديدة للكوكايين .

ومن أقواله فى الدفاع الكاذب عن نفسه أبيات قالها ، يخاطب فيها امرأة اسمها فاطمة ، يقول عنها صديقه ومؤرخ حياته ، عبد الرحمن عثمان ، إنها كانت تشاركه إدمانه للمخدر فى حى الزهار الذى كان مركزا من مراكز توزيع المخدرات بالقاهرة فى عصر الديب .. يقول الشاعر فى هذه الأبيات :

أفاطم إن الناس قد مزقوا عرضى ... وصرت لعينا فى السماء وفى الأرض
يقولون شمام وماشم معطسى ... سوى الروضة الفيحاء والنرجس الغض
أليس بياض « الكوكايين » مبشرا ... بأسود عيش فى غياهبه أقضى ؟

ولكن الديب هنا كان كاذبا فى دفاعه عن نفسه ، ولعل ما فى هذه الأبيات من جمال يعود إلى صدق الاحساس الذى صدرت عنه ، وهو إحساس الشاعر بحاجته للدفاع عن نفسه وكرامته وسمعته . ويا ليت هذا الإحساس كان مقترنا بعزيمة حقيقية تدفعه إلى ترك المخدرات وتغيير أسلوبه فى الحياة ، بالصورة التى تحفظ عليه موهبته الحقيقية الكبيرة ، وتبتعد به عن ذلك الدور الذى استسلم له ، وهو دور البائس العاجز عن الحصول على أبسط حقوق الإنسان من مأكل وملبس ومسكن .

وسوف نجد بين أشعار الديب ، وحوادث حياته المتفرقة ما يثبت أنه كان

يتمتع بخفة ظل ونزعة واضحة إلى السخرية حتى من نفسه . ولا شك أن هذه الروح الساخرة المرحة الكامنة فى شخصية الديب كانت عاملا من عوامل التخفيف من كابوس الأزمات المتصلة فى حياته . ومن أبياته الساخرة الضاحكة ما قاله فى حلاق له ، كان يتعاطف معه ويحلق له شعره مجانا ، بل وكان يعطيه أحيانا بعض القروش القليلة التى كان الشاعر يستعين بها فى حياته البائسة المضطربة .. يقول الديب فى هذا الحلاق :

أخى وجارى وحلاقى وديّانى   وممسكى إن أمال الدهر ميزانى
مقصه حالق للشيب يمحقه   وحالق بالحديث الغث أحزانى !

لقد كان الشاعر الديب فى نهاية الأمر ثمرة لسوء الأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأدبية فى عصره ، وقد إمتزجت هذه الأحوال السيئة بضعف شخصيته وإرادته وهمته ، واستسلامه لحالة الضياع والبؤس التى كان يعانى منها بصورة لا مثيل فيما نعرفه من قصص الأدباء المعاصرين ، ويكفى دليلا على ذلك أنه كان ينام على أرصفة الطرقات وفى المساجد والحدائق العامة ، حيث قضى معظم سنوات عمره بلا مأوى ، وكانت ملابسه كلها مما يتبرع به أصحابه والمتعاطفون معه والمحسنون إليه .

والشىء الذى يثير عطفنا على هذا الشاعر إلى جانب موهبته المتميزة ، هو أنه فيما يبدو لم يكن قادرا على أن يقوم بأى عمل آخر فى الحياة سوى كتابة الشعر ، وهو أمر لم يكن مفهوما فى عصره ولم يكن مقبولا من أحد .

وقبل وفاة الديب بشهور قليلة ، عطف عليه وزير محب للأدب هو عبد الحميد عبد الحق الذى كان يشغل منصب وزير الشئون الاجتماعية فى مصر بين ١٩٤٢ و ١٩٤٤ ، فاتخذ قرارا بتعيين الشاعر فى وظيفة صغيرة كان أجرها أربعة جنيهات فى الشهر ، وكانت وظيفة شكلية وغير أساسية مما جعل الديب يقول عنها وعن نفسه ساخرا :

بالأمس كنت مشردا أهليا   واليوم صرت مشردا رسميا !

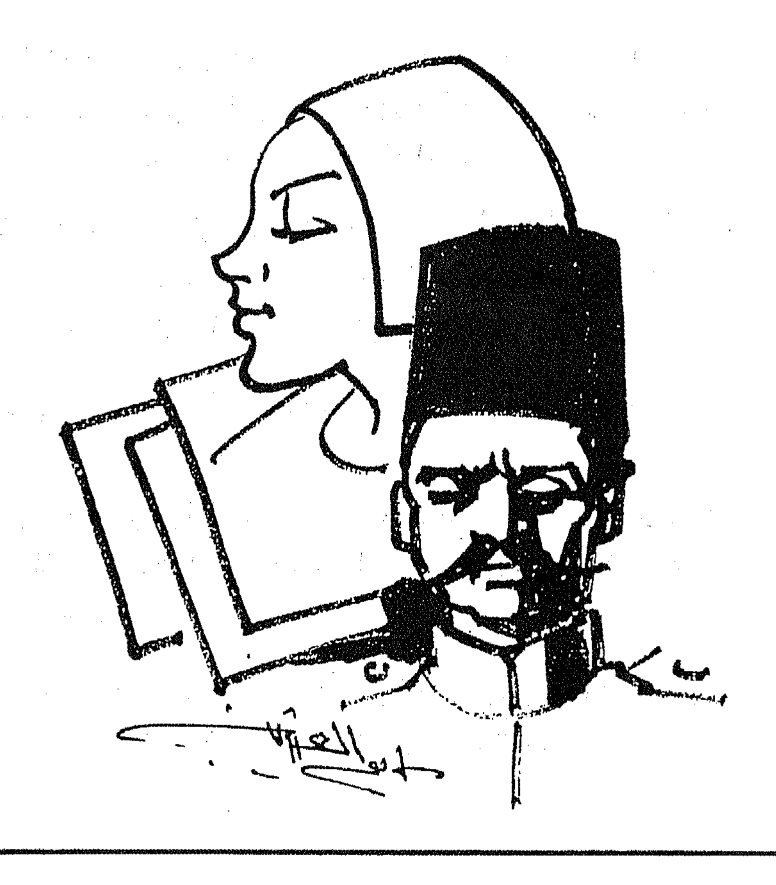
وكان من الطريف فى هذه الوظيفة أن رئيس الشاعر كان بطلا رياضيا معروفا هو سيد نصير ، وكان الشاعر عليلا ضعيف الجسم والصحة ، كان يشعر

بالارتعاد والخوف من أى محاولة للاعتداء البدنى عليه ، لذلك كانت علاقته برئيسه البطل الرياضى مصدرا للسخرية من الجميع ، حتى من الشاعر نفسه .

ولم تمض شهور قليلة على الديب فى وظيفته تلك حتى توفى هذا الشاعر البائس - كما يقول صديقه عبد الرحمن عثمان : « فى مستشفى قصر العينى أثر انفجار فى الشرايين لم يمهله إلاّ بضع ساعات أسلم بعدها روحه إلى خالقها ، وحمله أهله إلى قريته (كمشيش) ليجد فى ترابها الراحة النى عزت عليه زمانا طويلا . وهكذا عرف الشاعر يومه فى المنية « ٣٠ ابريل سنة ١٩٤٣ » بعد أن تساءل عنه فى لهفة تطالعنا فى قوله :

ويارب ما يومى ؟ وأين منيتى ؟ أما لى حتى فى المنية موعد » .

وهنا تنتهى قصة هذا الشاعر الموهوب الحساس ، الذى أضاعه عصره ومجتمعه ، كما أضاعته نفسه المضطربة وقلة حيلته وضعف إرادته . والشاعر الديب يثبت لنا فى قصة حياته وبؤسه أن الفن الحقيقى إنما يحتاج إلى شخصية ناضجة وإرادة قوية تستطيع أن تواجه الظروف والتحديات وتصمد أمامها وتقاومها ، ولا يمكن للفنان أن يعتمد على موهبته وحدها ، فالشخصية والإرادة هما الضمان للموهبة ، وبدونهما يضيع الفن والفنان فى دوامة من العواصف والأعاصير .



قصيدة تمنع الطلاق

فى رواية « سيرانو دى برجراك » المعروفة تحب البطلة فتاها لأنه يقول لها شعرا جميلا ، ثم تكتشف بعد ذلك أن الذى يقول الشعر هو صديق للشاب الذى يحبها ، ولذلك فهى تترك الحبيب الأول وتنتقل بقلبها وعواطفها كلها إلى « سيرانو » الشاعر الذى كان يقول فيها أجمل القصائد ، فقد كانت أشعار « سيرانو » هى الطريق إلى قلب المرأة ، وهى العطر الجميل الذى جعل الفتاة تحب وتعيش فى أحلام الهوى الرائع . ورغم أن « سيرانو » كان قبيحا ذا أنف كبير ، إلاّ أن أشعاره جعلته فى عين فتاته أجمل الرجال .

وفى مسرحية شيكسبير المشهورة « روميو وجولييت » ، يقف « روميو » تحت شباك « جولييت » فى ضوء القمر ليغنى لحبيبته أجمل الأشعار .. وتزداد فتنة « جولييت » بحبيبها .. بعد أن سمعت منه هذه الأشعار الجميلة .

وأحيانا نتساءل : هل يمكن أن تكون قصيدة الشعر طريقا إلى قلب الرجل أو المرأة ؟ أو هذا هو ما تقوله الروايات والمسرحيات فقط ، بينما يعتمد واقع الحياة على أشياء أخرى لا علاقة لها بكلام الكتب ؟

هذا السؤال تجيب عنه قصة واقعية حدثت فى بلادنا فى أوائل الثلاثينات من هذا القرن ..

إنها قصة طريفة حقا ، ولكنها إلى جانب طرافتها تؤكد أن قصائد الشعر يمكن أن تكون وسيلة « واقعية » فعالة للحب والسعادة الزوجية ، ويمكن أن تمنع كثيرا عن المشاكل وعلى رأسها الطلاق ..

إنها قصة سيدة مصرية كانت متزوجة من ضابط بوليس كبير ، ولكن الزوج هجر زوجته فجأة وابتعد عنها وأخذ يفكر فى الطلاق منها وإنهاء حياته الزوجية معها .

كان ذلك سنة ١٩٣٤ ..

وفكرت السيدة التى كانت تحب زوجها أشد الحب . ماذا تفعل فى هذه المحنة التى تواجهها ، هل تنتظر حتى تتلقى ورقة من زوجها تقول لها : انت طالق ؟ هل تكتفى بالبكاء والدموع ، ومواجهة المصيبة بموقف سلبى ؟ لقد كان هذا هو الحل الشائع ، وخاصة فى تلك الفترة المبكرة من حياتنا الاجتماعية ، حيث كانت المرأة لا تزال أسيرة للظروف الصعبة التى كان مجتمعنا يعانى منها فى تلك الأيام : لم يكن باب التعليم قد انفتح أمام المرأة إلاّ على نطاق محدود ضيق ، وفى تلك السنة بالذات - سنة ١٩٣٤ - تخرجت أول دفعة من فتياتنا فى الجامعة ، وكان عدد أفراد هذه الدفعة لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة .

ولم يكن أمام المرأة فرصة واضحة للعمل والاستقلال الاقتصادى ، كان الزواج مازال هو « المأوى الاقتصادى » الأساسى للمرأة ، وكان هو « المأوى العاطفى » الوحيد أيضا .. كان الرجل هو « ديكتاتور » العلاقة بين المرأة

والرجل ، فكلمته هى كل شىء فى حياة المرأة .. عليها أن تسمع وتطيع وليس لها أن تناقش أو تعترض .

هكذا كان الوضع فى مجتمعنا فى تلك الفترة ، عندما واجهت السيدة التى نتحدث عنها واسمها « منيرة توفيق » مشكلة هجران زوجها لها تمهيدا للطلاق .

وكانت هذه السيدة مثقفة ، تقرأ بكثرة ، وكانت شاعرة تكتب الشعر لنفسها ، وإن لم تكن تنشر هذا الشعر ، فظروفها الاجتماعية لم تكن تسمح بذلك على الإطلاق .

وعندما واجهتها المحنة ، وهجرها زوجها ، وأصبحت على حافة الطلاق فكرت فى سلاح تقف به فى وجه هذه الظروف الصعبة .

وقررت أن تستخدم سلاح الشعر ..

قررت أن تكتب قصيدة تستميل بها قلب زوجها وتناقشه فيها وتدعوه للعودة إليها ، فهى حبيبته التى أخلصت له ومنحته حياتها وقلبها ، ومازالت تفكر فيه بكل عواطفها .. رغم البعد والهجران .

وأرسلت الشاعرة هذه القصيدة إلى إحدى المجلات الأدبية الكبرى التى كانت تصدر فى مصر فى ذلك الحين ، ووقعت القصيدة باسمها الكامل وهو : « منيرة توفيق حرم الصاغ محمد ماهر رشدى مأمور بندر الزقازيق » .

وجعلت الشاعرة عنوان القصيدة صريحا لا لف فيه ولا دوران ، وكان هذا العنوان هو : « إلى زوجى الفاضل » .

ونشرت المجلة الأدبية هذه القصيدة بعد أن وصفتها بأنها « قصيدة طريفة من الأدب النسوى الجميل » .

ولم تلجأ « منيرة » فى هذه القصيدة إلى أى رمز أو إخفاء لمشكلتها ، بل عرضت هذه المشكلة بشكل صريح مباشر ، وبدأت قصيدتها بوصف حالة الحزن والقلق التى تعيش فيها بسبب هجران زوجها الحبيب فقالت :

طـال السهـاد وأرقت عينى الكوارث والنوازل

لما جفانـى مـن أحب | وراح تشغلـه الشواغل
وطـوى صحيفة حبنـا | وأصاخ سمعا للعـواذل

وبعد هذه الأبيات التى سجلت فيها إحساسها بالحزن ، وموقف زوجها الذى انشغل عنها ونسى حبها واستجاب « للعواذل » ، توجهت إلى الزوج نفسه بالحديث والمناقشة ، لعله يتذكر ما كان بينهما من أيام سعيدة ولحظات جميلة رائعة :

يا أيها الـزوج الكريـم | وأيها الـحب المواصل
مالـى أراك معانـدى | ومعذبى من غير طائل
لم ترع لى صلة الهوى | وهجرانى والهجر قاتل
هل رمت أن تغدو طليقا | لا يحول هواك حـائل
أو رمت غيرى زوجة ؟ | يا لـلأسى مما تحـاول

ثم تتقدم الشاعرة خطوة أخرى فى مناقشة زوجها ، فتسأله : ماذا تريد من غيرى ؟ أتريد المال أم الجمال أم الأصل والنسب ؟ .. وتناقش زوجها بشىء من العنف الرقيق ، وتنبهه إلى خطأ موقفه ، وتشير إلى فضائلها التى كان ينبغى أن يحرص عليها ويسعد بها :

إن تبـغ مـالا فالـذى | تدريه أن المال زائل
أو تبـغ أصلا فالتـى | قاطعتها بنت الأمـاثل
أو تبغ حسنا فالمحاسن | جمـة عنـدى مـواثل
أو تبغ آدابا فأشعـارى | علـى أدبـى دلائل
أنا ما حفظت سوى الوفاء | ولا ادخرت سوى الفضائل
وأنا ، ولى شرف العفاف | أعـد مفخـرة المنـازل
فجزيتنـى شر الجـزاء | وكنت فيه غير عادل

ثم تنتقل الشاعرة بعد ذلك لتذكر زوجها بما كان يفعله قبل الزواج ، حيد كان يقول لها أحلى الكلام ، ويكتب إليها أجمل الرسائل ، ويمنيها بأجمل أحلا المستقبل ، ويغريها بالوعود الكثيرة الرائعة .. حتى استجابت له وصدقته . واستيقظت فيها عاطفة الحب بعد أن كانت نائمة ، وظنت إنها حصلت على الحلم الكبير بالسعادة فى ظل رجل يحبها بصدق ويحنو عليها ويريد أن يحملها إلى جنة عاطفية بديعة .

وهذه هى طريقة بعض الرجال حقا .. يبذل الرجل جهده فى البداية ، ويمنح الوعود والعهود حتى يوقظ عاطفة المرأة ، ويلهب خيالها ، ثم يرتاح بعد ذلك ويهدأ ليبدأ جهد المرأة فى المحافظة عليه ، بينما يكون الرجل قد أحس أن دوره انتهى وأنه أصبح يملك المرأة إلى الأبد .

وقد كان حظ الشاعرة منيرة توفيق هو أن تلتقى برجل من هذا النوع ، ولذلك فهى تحاول فى قصيدتها أن تجعل زوجها يتذكر الأيام الأولى لحبهما ، وما كان يفعله فى هذه الأيام لعله يحس بالمسئولية من جديد :

أنسيت عهدا قد مضى	حلو التواصل والتراسل
أيام تبذل من وسائل	أو تنمق من رسائل
وتبث معسول المنى	وتمد أسباب التحايل
ولبثت تغرينى بما	تبديه من غر الشمائل
فحسبت أن الدهر أنصفنى	وأن السعد ماثل
ظنا بأنك لم تكن	لا بالعقوق ولا المخاتل

إن الزوج بعد هذه البداية التى بذل فيها كل هذا الجهد ، وكل هذه الاغراءات ، وكل هذه الوعود الحلوة ، يتنكر للبداية الجميلة .. ولكن بعد أن صدقته الشاعرة وارتبطت به وأحبته ، وهنا تشتد لهجة الشاعرة فى العتاب والنقد واللوم العنيف ، فتناقش زوجها فى أسباب تغيره وهجره لها ، ولا تخفى عليه عيوبه ، ولا تجامله ، بل تضع يده بوضوح على هذه العيوب وتكشفها أمامه فتقول له :

ماذا جرى فهجرتنى	والحب شيمته التساهل
عاشرت أهل السوء	فاقتنصوك فى شر الحبائل
ومضيت تطلب بينهم	عيش المقيد بالسلاسل
ورضيت هجر خليلة	لما تزل خير الحلائل
والله ما فكرت يوما	فى جفاك ولم أحاول
فجفوت يا قاسى الطباع	ولم تدار ولم تجامل

وفى آخر القصيدة تعود الشاعرة بعد هذا اللوم العنيف لزوجها ولسلوكه إلى طبيعتها الأنثوية الرقيقة ، فتؤكد له أن موقفه سوف يقتلها ويقضى عليها .. لأنها رغم كل شىء تحبه وتريد منه أن يترك أخطاءه ويعود إليها كما كان :

فاعلـــم بـــأنك قاتلـــى	والموت فيما أنت فاعل
أين المسائل والمواصل	فى العشى وفى الأصائل
أين المودة فى الهوى	بينى وبينك « بالتبادل »
أين الحديث العذب منك	وأين ولى سحر بـابل
إنى أسائل أين عهدك	فى الهوى إنــى أسائل
أعلمت ما فـعل النـوى	بـــــى ، أم أنت ذاهل

وفى آخر القصيدة تخاطب الزوجة زوجها فى نداء صريح واضح ملهوف فتقول :

فاربـأ بنــفسك وانههـــا	وارجع إلى زين العقائل

وهكذا تستغل هذه السيدة المثقفة فنها فى « تقويم » زوجها والتعبير عن مشكلتها ، وتحاول أن تستغل « سحر » الفن ، بدلا من سحر الأنوثة فى معالجة هذا الزوج الهاجر ، وهى تفعل ذلك علنا أمام الرأى العام ، فتنشر القصيدة فى مجلة أسبوعية ، معروفة ، وتنشر اسمها واسم زوجها فى عنوان القصيدة ، وتعبر عن المشكلة بصراحة ووضوح كاملين . وقد كان هذا الموقف من جانب هذه السيدة ولا شك نوعا من الجرأة شجعها عليه أن الفن له حقه الخاص ، وله قيمته ، فالفن يرفع مشاكل الإنسان إلى مستوى أعلى ، ويجعل هذه المشاكل مقبولة لدى الناس ، بدلا من أن تكون مشاكل شخصية خاصة لا تهم إلاّ صاحبها .. إن الفن يعطى للمشكلة « الخاصة » عمومية لدى الناس جميعا .

وهذا ما حدث .. فبعد نشر قصيدة منيرة توفيق ، تعاطف معها الرأى العام أشد التعاطف ، وكتب إليها عدد كبير من نساء مصر يساندنها عاطفيا ومعنويا ، ويقدمن لها كل مواساة ممكنة وكان من مظاهر هذا التعاطف أن المجلة التى نشرت هذه القصيدة قد عادت فى الأسبوع التالى مباشرة فنشرت قصيدتين لآنستين مصريتين كل منهما تساند السيدة منيرة توفيق أشد المساندة ، وكانت الأولى للآنسة « خيرية أحمد » .. وقصيدة الشاعرة خيرية قصيدة رقيقة تناقش قضية الزوجة الشاعرة ، وتعبر عن اعتراضها على موقف الزوج وثقتها بأنه سوف يعود بكل تأكيد إلى زوجته الفنانة الممتازة .

تبدأ « خيرية » قصيدتها بتصوير حال الزوجة الفنانة فتقول :

ناحت مطوقة فـاشجت كل طير فى الخمائل
وبكت لها مقل السحاب بأدمع تجرى هـواطل
شكت الحنين إلى الحليل من الجوى والوجد ماثل
صدق الهوى بفؤادهـا فبكت وصدق الحب قاتل

ثم تخاطب « خيرية » الزوجة الحزينة ، وتوكد لها أنها لو كانت قد عاشت فى عصر من العصور السابقة القديمة لكانت مفخرة تلك العصور ، ولكننا فى عصر لا يقدر الفضائل كما ينبغى وتؤكد لها أنها تأثرت لأحزانها أشد التأثير .

زين العقائل والفضائل فى المنازل والمحـافل
أخت الفصاحة والسماحة والرجاحة فى الشمـائل
لو كنت فى عصر الأوائل كنت مفخـــرة الأوائل
زفرات اختك قد علت لأساك تغلى كالمراجل

ثم تتحدث « خيرية » بعد ذلك عن الزوج الهاجر ، فتنتقده وتناقشه فى موقفه الخاطىء فتقول :

عجبى لزوجك كيف غير عهده بعـد التــواصل
وأدال من حكم الهوى والحب خصم لا ينازل

ثم تصرخ خيرية قائلة :

هل فى البرية للوفية والحبيبة من معـادل ؟
هل للخلال الباهـرات وللفضائل مـن ممـاثل
ولرب رأى قــد رآه الزوج حقا وهو خاتل

ثم تتجه « خيرية » بعد ذلك إلى مناقشة موضوع « تعدد الزوجات » ، لأنها أحست من موقف الزوج اتجاهه إلى ترك زوجته بحثا عن زوجة جديدة ، أو اتجاهه إلى الزواج مرة أخرى مع الإبقاء على الزوجة الأولى .. تقول « خيرية » :

وتعدد الزوجـات فـــى الأسرات مهزلة المهازل
أصل العداوة والشقـاق وباب مشكلة المشاكل

وأخيرا فإنها تهدىء من حزن الزوجة الفنانة وتقول لها أن زوجها سوف يعود قطعا إليها ، وأن ما حدث إن هو إلا نوع من الأحلام الكئيبة العابرة :

وأخـال أنك تحلميــن | وأن هـذا الحلـم زائل
سيعـود زوجك للوئــام | وليس عند الخلف طائل

هذه هى قصيدة خيرية أحمد التى تعبر عن رفض الرأى العام النسائى لموقف الزوج .. أما الشاعرة الأخرى « ناهد محمد فهمى » فتكتب قصيدة قصيرة تعبر فيها أيضا عن رفض موقف الزوج ، وتؤيد الزوجة ، ولكنها تنصحها بأن تتساهل مع زوجها وألاّ تلومه بعنف وأن تصبر وتتحمل ، فهذا هو الطريق الصحيح لحل المشكلة :

وترفقــى فــى لومـــه | فالرفق من شيم الأماثل
وتساهلــى فيمــا جنــى | لا شيء ينفع كالتساهل
وتذرعــى بالصبــر فــى | كل الكوارث والنـوازل
كم من ضحايا للرجال | وكم نعانى من رذائل

وهكذا وقف الرأى العام النسائى إلى جانب الزوجة الشاعرة ، وعبر عن رفضه لموقف الزوج وتأييده للزوجة تأييدا كاملا .

على أن القصة ، بعد ما حدث تنتهى نهاية سعيدة ، فقد عاد الزوج الصاغ « محمد ماهر رشدى » مأمور بندر الزقازيق إلى زوجته الشاعرة « منيرة توفيق » وذلك بعد أن قرأ قصيدتها الشاكية الحزينة ، التى تمتلىء بالنقد له والعتاب عليه ، وتنصحه بأن يعود إلى زوجته وحبيبته الجميلة المخلصة الوفية ، وأن يبتعد عن رفاق السوء وطريق الخطيئة .

عاد الزوج إلى زوجته بعد أن قرأ قصيدتها .. ولعله تأثر أيضا بالضغط المعنوى الذى مارسه الرأى العام ضده فى القصائد الأخرى التى نشرها أصحابها تأييدا للزوجة وهجوما على الزوج ، وربما كان نشر قصيدة الزوجة سببا فى أن الكثيرين من أصدقاء الزوج قد تعاطفوا معها وهاجموه وأحرجوه وأعادوه إلى طريق الصواب .

المهم أن القصيدة التى كتبتها الزوجة منعت الطلاق بين الزوجين وأعادت الصفاء والسعادة إلى البيت الذى كاد ينهدم .. أما الزوجة الشاعرة فقد عادت وكتبت قصيدة جديدة بعنوان « الحمد لله » تسجل فيها عودة زوجها إليها ، وتشكر الذين وقفوا إلى جانبها من الفتيات ، وخاصة الشاعرتين « خيرية أحمد » و « ناهد محمد فهمى » :

فتيات مصر تحية	أنتن ربات العزائم
إنى أدين بعطفكن	وشكركن علىَّ لازم
شكرى إلى « خيرية »	و « لناهد » ذات المكارم

وتشير الشاعرة بعد ذلك إلى ما فعلته الشاعرتان الآنستان فى قصيدتيهما بزوجها الضابط :

سرب الظبا شهر الظُبى	فى وجه جندى الملاحم

و « الظبا » الأولى معناها « الظباء » أى الغزلان ، أما « الظبى » الثانية فهى « السهام والسيوف » .. وتقول الزوجة الشاعرة عن زوجها بعد ذلك :

وهناك حين رأى الوغى	ألقى السلاح ولم يقاوم
فأتى إلىّ يمد كف	مصافح سمح مسالم
ومضى يجدد عهدنا الماضى	وصفو العيش قائم
والحر يرجع حين يعلم	أنه فى الحق آثم
يا سيداتى الفضليات	لكنَّ حق الشكر دائم
قد عاد لى زوجى الكريم	وجاء يقرع سن نادم
من بعد ما قدرت أن	رجوعه أضغاث حالم
وليهنأ النيل العظيم	بما لديه من كرائم
أنتن ذخر النيل فى	يوم العزائم العظائم
والله يشكر سعيكن	لرد أنواع المظالم

وهكذا عادت السعادة والحياة الزوجية الطبيعية إلى الأسرة التى كانت مهددة بالتمزق والطلاق .. وكان الفضل فى ذلك لقصيدة كتبتها الزوجة المهددة بالطلاق .

سحر الشعر .. هزم الشر وقضى عليه ، وأتاح لسحر الأنوثة أن يلعب دوره ويهنأ بعشه .

بقى أن نسجل ملاحظتين حول هذه القصة ، والملاحظة الأولى هى أن السيدة منيرة توفيق لم تنشر شعرا باسمها غير هذه القصيدة التى وجهتها إلى زوجها « الصاغ محمد ماهر رشدى مأمور بندر الزقازيق » ، ولو أن هذه السيدة كانت شاعرة فلماذا توقفت عن كتابة الشعر ونشره واختفت تماما من الحياة الأدبية بعد هذه القصيدة اليتيمة ؟ ربما يكون السبب هو أنها انشغلت بحياتها الخاصة التى إبتعدت بها عن الأدب والفن ، وربما يكون هناك سبب آخر هو أنها ليست شاعرة أصلا ، ولكنها متذوقة للأدب ، وأنها عندما تعرضت للطلاق لجأت إلى أحد أقاربها أو معارف أسرتها ممن كانت تعرف عنه أنه يكتب الشعر ، فشرحت له حالتها وطلبت منه أن يكتب هذه القصيدة بلسانها ، فكتب لها القصيدة ونشرها باسمها ، وكان لها تأثيرها الكبير فى نفس الزوج فأعاد زوجته وتراجع عن الطلاق .

هذا احتمال لا مفر من التفكير فيه ، وهو احتمال لا يجوز استبعادة ، فمن الصعب أن نصدق أن هذه السيدة كتبت قصيدة واحدة ثم سكتت بعد ذلك إلى الأبد .

والملاحظة الثانية هى أن الشاعرتين اللتين أيدتا السيدة منيرة فى موقفها ، وهما « خيرية أحمد » و « ناهد محمد فهمى » لم تكتبا بعد ذلك شيئا من الشعر أو النثر ، وإختفى الاسمان تماما من الحياة الأدبية بعد هذه الواقعة ، وهنا يظهر أمامنا إحتمال آخر هو أن الشاعرتين ليستا إلاّ اسمين مستعارين لبعض شعراء تلك الفترة ، ممن أرادوا أن يساندوا السيدة منيرة فى موقفها تحت أسماء نسائية مستعارة وغير حقيقية .

إلاّ أن هاتين الملاحظتين لا تغيران من جوهر القضية شيئا ، فقد وقع الطلاق بين السيدة منيرة وزوجها ضابط الشرطة ، واستطاعت القصيدة التى نشرتها الزوجة باسمها أن تغير موقف الزوج وتعيد إلى الأسرة صفاءها ، وتحقق السعادة لها بعد أن كانت هذه الأسرة مهددة بالطلاق والانفصال النهائى بين الزوجين ، وهكذا يبقى للشعر سحره وقدرته الكبيرة على التأثير فى نفوس الناس ومواقفهم المختلفة .



شاعرة مصرية مجهولة

فى أواخر الأربعينات ، ظهرت على صفحات مجلة « الرسالة » ، وعدد آخر من الصحف اليومية مثل « الأهرام » و « البلاغ » شاعرة جديدة كانت توقع شعرها باسم مستعار يتكون من ثلاثة حروف هى « ن . ط . ع . » . وفى يوليو ١٩٥٠ نعت الصحف فتاة اسمها « ناهد طه عبد البر » ، وإذا بهذه الفتاة التى توفيت فى مقتبل حياتها هى نفسها الشاعرة « ن . ط . ع » ، ويبدو أنه كان من الضرورى أن تموت هذه الفتاة المسكينة ، حتى يصبح من الجائز لها أن تعلن اسمها الصريح ..

لقد عاشت هذه الفتاة الشاعرة فى مأساة حقيقية ، وكانت هذه المأساة نموذجا حادا وحيا لما عانته الكثيرات من بنات جيلها فى مجتمع مصر بل وفى المجتمع العربى كله ، حيث تعرضن لأشد أنواع السجن ، وهو سجن التقاليد القاسية الصارمة . وقد كانت « ناهد » فتاة موهوبة متفتحة للحياة والمعرفة والعلم ، ولكنها وجدت سدودا كثيرة تقف فى طريقها ، فامتلأت نفسها بالأسى والحزن والمرارة ، وإنتهى بها الأمر إلى المرض المفاجىء الذى أدى إلى موتها وهى فى الثلاثين من عمرها ..

وكنت قد قرأت لناهد بعض قصائدها المتفرقة وأنا أراجع بعض الصحف والمجلات القديمة ، فلفت نظرى ما فى شعرها من حرارة العاطفة وصدق التعبير ولوعة النفس ، وحاولت أن أعرف عنها شيئا واضحا ، وأن أعرف مصير شعرها الذى كتبته ، وهل نشرته أم بقى فى أوراقها شعرا غير منشور ، وبعد محاولات عديدة استطعت أن أتصل ببعض صديقاتها ومعارفها وبعض أفراد أسرتها ، ثم حصلت على خطوط عامة تكوّن بعض الملامح الرئيسية لهذه الشاعرة الفنانة ..

والحقيقة أن العمر لم يطل بهذه الشاعرة لتنضج شعرها بما فيه الكفاية ، كما أن القيود الكثيرة التى فرضت عليها قد حالت بينها وبين تزويد نفسها بوسائل المعرفة الواسعة والثقافة الفنية التى تناسب موهبتها وترفع من قيمة هذه الموهبة ، ومع ذلك فقد كان شعرها على ما فيه من نقص فى النضج الفنى مليئا بالعاطفة الحارة ، والتصوير الصادق للمأساة التى عانتها هذه الفتاة الموهوبة ، التى هى مأساة الكثيرات فى المجتمع العربى من بنات جيلها ، وربما من بنات الجيل اللاحق ..

ولدت ناهد فى ٢٠ يناير سنة ١٩٢٠ ، وكان أبوها استاذا للغة والدين فى كلية « دار العلوم » وهو الأستاذ طه عبد البر . وكانت له مؤلفات مختلفة فى اللغة وتفسير القرآن ، وكان من العلماء البارزين المعروفين فى عصره وفى ميدانه ، وكانت مكتبة بيته زاخرة بالكتب الأدبية وخاصة كتب الأدب العربى القديم وسائر الكتب التى تتصل بالتراث العربى ، على أن هذا العالم الكبير على ما هو مشهود له بالفضل والثقافة والخلق كان رجلا شديد المحافظة والتمسك بالتقاليد ، وقد

فرض أسلوبه فى الحياة على أسرته ، وكان من هذه التقاليد ألاّ تدخل المرأة إلى معهد يقدم تعليما مشتركا مع الشبان بأى صورة من الصور ، ولذلك فقد كان مسموحا لناهد ولأى فتاة غيرها من فتيات الأسرة أن تكمل تعليمها الثانوى ، ثم بعد ذلك عليها أن تبقى فى بيتها لا تخرج منه إلا إذا تزوجت فتنتقل من بيت الأب إلى بيت الزوج . وهذا هو ما حدث لناهد ، فقد أتمت تعليمها الثانوى حوالى ١٩٣٥ أو بعدها بقليل وذلك فى « مدرسة الأميرة فوقية للبنات » ، وكانت تلميذة نابهة متفوقة ، كما أنها كانت قد بدأت تكتب الشعر وتتكشف شخصيتها عن موهبة فنية حقيقية ، وكان المفروض بعد أن أتمت ناهد تعليمها الثانوى أن تدخل الجامعة ، وكانت الجامعة فى ذلك الوقت قد سمحت بدخول المرأة إليها وخاصة فى كلية الآداب التى كانت تفكر فيها ناهد ، وقد تم ذلك بفضل كفاح عميد كلية الآداب فى ذلك الحين وهو الدكتور طه حسين ، وكانت الدفعة الأولى للطالبات الجامعيات قد تخرجت من كلية الآداب سنة ١٩٣٤ . وقد أثار دخول « المرأة » الجامعة ضجة عنيفة فى المجتمع المصرى ، وتعرض طه حسين بسبب قراره إلى هجوم حاد ، بل لقد طردته الحكومة من الجامعة سنة ١٩٣٢ ، وكان من أسباب قرار الطرد أنه تجرأ على تقرير مبدأ دخول الفتاة الجامعة ، ودخلت الفتيات الجامعة بالفعل ، ولقد كان عدد هؤلاء الفتيات قليلا ، وكان منهن الدكتورة سهير القلماوى ، وغيرها من الأسماء المعروفة اليوم . على أن الحكومة التى طردت طه حسين من كلية الآداب لأسباب من بينها جرأته على فتح أبواب الجامعة للفتيات لم تجرؤ على التراجع عن المبدأ الذى قرره طه حسين ، واستمرت المرأة تزحف إلى الجامعة عاما بعد عام ، واستطاعت المرأة أن تفتح كل المجالات العلمية التى كانت مغلقة فى وجهها .

ولقد كان المفروض أن تستفيد ناهد طه عبد البر من هذه الفرصة الحضارية الكبيرة التى فتحها طه حسين أمام المرأة المصرية ، وهذا هو ما كانت تحلم به ، وتتمناه فى عنف وحرارة ، ولكن الأسرة رفضت هذه الرغبة ، باسم التقاليد ... وهنا نتوقف لنتساءل فى دهشة : كيف يرفض والدها الأستاذ والعالم الكبير أن يسمح لابنته بإكمال تعليمها فى الجامعة ؟ كيف يجمع هذا الرجل بين فضيلة الثقافة وعقم التقاليد ؟ ... لقد كان والدها أستاذا فى دار العلوم كما سبقت الإشارة ، وقد توفى سنة ١٩٤٨ ، ولو أنه عاش عدة سنوات أخرى لرأى دار العلوم نفسها تصبح

كلية من كليات جامعة القاهرة ، ولرأى أن هذه الكلية تستقبل الفتيات إلى جانب الشبان ، يجلسون معا فى طلب العلم ، دون أن يكون فى ذلك ما يناقض القيم السليمة ، بل إن ذلك من أسباب رفع مستوى السلوك عند الشبان من الجنسين معا ، ولو عاش هذا الأستاذ العالم بضع سنوات أخرى بعد عام وفاته ، سنة ١٩٤٨ ، لكان مضطرا أن يلقى دروسه على الطلبة والطالبات معا ، ولوجد أنه جنى على ابنته الموهوبة بغير حق .

ومن الغريب أيضا أن أسرة ناهد كانت على صلة طيبة بالدكتور طه حسين نفسه ، وكان طه حسين يساعد ناهد فى أواخر حياتها على نشر إنتاجها الشعرى فى الصحف والمجلات ، وظل يرعاها حتى توفيت . وقد اتفقت معه على أن يكتب لها مقدمة ديوانها الذى لم يظهر حتى اليوم . وهنا يحس الإنسان بالدهشة : كيف أن طه حسين لم يؤثر على أسرة ناهد لتسمح لها بإكمال تعليمها ؟ .. لعل طه حسين حاول وفشل أمام صرامة التقاليد التى تعيش فيها هذه الأسرة ، ويبدو أن أصل الأسرة من صعيد مصر حيث تشتد التقاليد وتفرض سلطانها الحاد الرهيب .

لم تستطع ناهد إذن أن تدخل الجامعة ، مما سبب لها ألما رهيبا ، وقد عبرت ناهد عن محنتها فى رسالة أرسلتها إلى الناقد المصرى الراحل أنور المعداوى تحت توقيع « شاعرة حائرة » ، وقد نشر المعداوى هذه الرسالة فى مجلة الرسالة التى كان يكتب فيها أسبوعيا ، وأشار إلى الاسم الصريح لصاحبة الرسالة فى كتابه الأول « نماذج فنية من الأدب والنقد » ، وفى هذه الرسالة تقول ناهد ، وكانت الرسالة تعليقا على مقال للمعداوى عنوانه « حول الفن والحياة » !

« .... إذا كان إنتاج الأستاذ الحكيم قد تأثر - فى رأيك - بسبب انطوائه على نفسه وابتعاده عن الحياة ، وإغلاقه تلك النافذة المفتوحة والتى كان يطل منها على ميدان الحياة الفسيح المترامى أمام عينيه ، إذا كان قد حدث مع الأستاذ الحكيم فكيف آمل أن أكون شاعرة ناجحة ؟ أنا ربيبة الإنطواء المرير والعزلة الطويلة ، أنا التى لم أر العالم ولم أعرف المجتمع إلاّ عن طريق الصحف والكتب والخيال ... لقد كان أملى أن أتعلم إلى آخر مرحلة من مراحل التعليم ، ولكنى حين أتممت تعليمى الثانوى فوجئت بوحش ضار اعترض طريقى إلى الجامعة وقال بصوته الرهيب : إلى أين أيتها الحالمة ؟ قلت : إلى الجامعة . قال : حذار ،

وإلاّ أشقيت أسرتك ، ألا تعلمين أن سلطانى عليهم عظيم ، وأننى سأقلق مضاجعكم جميعا إذا لم تتبعونى ؟ وسألته واجفة خاشعة : ومن أنت أيها السلطان الجبار ؟ قال أنا سلطان التقاليد . تفقدت الوجوه الواجمة من حولى وعز على وجومها ، وقلت لن ألتحق بالجامعة لأكن كبش الفداء ... وما أنا بأول ضحية من ضحايا التقاليد ، ولم تثن المحنة عزيمتى وداومت على القراءة ليلا ونهارا ... وأخيرا أخذت الغيوم تنقشع عن سمائى ، وأذن لى بنشر شعرى بالجرائد اليومية ، ولكننى ما كدت أشعر بالسعادة وبأن حلم حياتى قد تحقق حتى هب الكثيرون والكثيرات يهيبون بى أن أترك انطوائى وعزلتى ، وأن أخرج إلى المجتمع ، وأن أتردد على زيد وعبيد من كبار الكتاب والشعراء ، وقيل لى إن لم تفعلى ذلك فسوف ينحط إنتاجك وينضب معينك . ومما زاد فى شقوتى وارتباكى وكاد يطيح بى إلى هوة سحيقة من اليأس القاتل ما أقرؤه لك حول هذا المعنى فى هذه الأيام . فهل من المحال أن يكون الأديب أو الشاعر قديرا ناجحا مادام منطويا على نفسه ، بعيدا عن دنيا الناس ؟ وهل الكتب لا تكفى ولا يمكن أن تكفى ليكون الإنسان مثقفا كما يقول الدكتور مندور ؟ إذا كانت هذه هى الحقيقة فسلام علىّ وفى ذمة الله آمالى وأحلامى ومستقبلى الأدبى الذى حلمت به السنين الطوال » .

هذه هى الصورة التى رسمتها ناهد لمحنتها كما كتبتها فى رسالتها للمعداوى . وهى صورة واقعية لم تستطع ناهد أن تتغلب عليها حتى نهاية حياتها . فقد ظلت حبيسة بيتها ، تكتب وتقرأ ، ولكنها لا تخرج إلاّ مع أفراد الأسرة وفى أضيق الحدود ، وقد قال لى أحد أقاربها إنها بعد أن اضطرت إلى الاحتجاب فى البيت ، أخذ يتوافد عليها الخطّاب الذين يطلبون الزواج منها بالطريقة التقليدية المعروفة على إعتبارها ابنة عائلة كريمة ، ولكنها كما قال لى هذا القريب : « كانت تردهم جميعا لأنها كانت تحلم بالإنسان الذى يفهمها ويقدّر شعرها ولا يحرمها من موهبتها » .

على أن ناهد لم تكد تبلغ الثلاثين من عمرها ، سنة ١٩٥٠ ، حتى فاجأها مرض غريب قال عنه الأطباء أنه يصيب واحدا فى المليون ، وهذا المرض هو « إلتهاب الأوردة المتنقل » ، ويقال إنه نوع من سرطان الدم . وقد حاول الأطباء إنقاذها ، وكان يشاركهم فى هذه المحاولة شقيقها الدكتور سيد طه عبد البر ، وكان

من الأطباء الكبار فى مصر ، وقد توفى منذ سنوات قليلة .. حاول الدكتور سيد مع زملائه إنقاذ شقيقته ناهد ففشلت كل المحاولات ، وإنتهى الأمر إلى وفاتها فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٥٠ ، وكانت قبل الوفاة قد تعرضت لإغماءة طويلة ثم استيقظت لحظة من هذه الإغماءة لتطلب ممن حولها أن يدفنوها إلى جانب والدها الذى كانت تحبه كل الحب رغم ما أصابها على يديه من حرمان ، كذلك قالت فى كلمتها الأخيرة أيضا : أرجو أن تنشروا ديوانى . وقد قالت لى إحدى صديقات الشاعرة إن شقيقها الكبير الدكتور سيد طه عبد البر كان يبكى بمرارة أمام قبرها ، وأنه ـ وقد سيطر الأسى عليه ـ أخذ يصرخ قائلا ما معناه إنها لو عادت إلى الحياة لأتاح لها ما تريده من تعليم جامعى وحياة فنية حرة طليقة .

ولكن كيف تعود ناهد من الموت ؟ لقد رحلت تحت ضغط آلامها الكبيرة ، ولست أشك فى أن هذه الآلام النفسية كانت سببا أساسيا من أسباب المرض الذى أدى بها إلى الموت ، فإن آلام النفوس الحساسة تمهد دائما للأمراض القاتلة ، إن لم تكن هى نفسها مرضا من أفتك الأمراض .

ولقد تمكنت بعد جهد كبير من أن أحصل على ديوان ناهد المخطوط من أهلها ، وهو الديوان الذى تمنت أن تنشره فى حياتها ، وأوصت بنشره وهى تلفظ أنفاسها ، ولكنه لسوء الحظ لم ينشر حتى الآن . وقد أسمت ناهد ديوانها باسم يكشف عن مأساتها الخاصة التى نبعت من الظروف الاجتماعية الصعبة التى كانت تعانى منها ، واسم الديوان هو « من وحى الألم » ، وقد كتبت ناهد تحت العنوان « إلى ضحايا التقاليد » . وسوف نجد فى هذا الديوان تفاوتا فى التعبير بين قصيدة وأخرى ، وذلك لأنها ضمت فى الديوان معظم قصائدها منذ أن بدأت تكتب الشعر فى صباها الأول ، على أننا نلاحظ عموما ، أن الجمال فى شعر ناهد يعود إلى صدقها ومشاعرها العنيفة ، وإحساسها الحاد بمأساتها ومأساة الفتاة العربية فى جيلها ، وهذا ما يعطى لشعرها أهمية وقيمة ، فهو ليس عملا فنيا فقط ، ولكنه أكثر من ذلك وثيقة اجتماعية هامة .

والظاهرة العامة أن شعر ناهد يصدر عن نفس حزينة مليئة بالأسى واليأس ، وأحيانا تنتفض هذه النفس فتعبر عن إحساس عابر بالأمل وتحاول أن تتشبث ببصيص من شعاع الحياة ، على أن هذا الأمل ما يلبث أن ينطفىء فى نفس

الشاعرة الحساسة ، فتعود إلى حزنها الذى أصبحت تألفه بل وتصادقه وتحبه ، لأنه رفيق حياتها الوحيد . وحتى عندما تتحدث عن الطبيعة فقد كانت تعكس آلامها وأحزانها على مظاهر الطبيعة المختلفة ، فتصبح الطبيعة صورة من نفسها المتألمة الحزينة .

على أن ناهد كانت بحاجة إلى مزيد من الصقل لصياغتها الشعرية ، وهو ما لم يتح لها بسبب ظروفها وعمرها القصير . ولقد كانت قادرة ولا شك على أن تحقق هذا الصقل المنشود خاصة وأنها كانت مثقفة ، كثيرة القراءة ، وأنها كانت تنمو فنيا بسرعة غريبة ، مما يؤكد أنها لم تصل إلى استخدام كل ما كان مدخرا وكامنا فى شخصيتها الفنية .

فى قصيدة بعنوان « أمل ضائع » تقول ناهد فى مقدمتها : « نظمت هذه القطعة عقب إتمام دراستى الثانوية وحرمانى من دخول الجامعة الذى يتنافى مع تقاليد العائلة» ، وفى هذه القصيدة تقول متمنية الموت :

رباه رفقا واستمع لندائى
لا تبقنى بسفينة الأحياء
إنى يئست من الحياة وظلمها
وشديد ما ألقى من البرحاء
نفسى معذبة وحظى عاثر
رباه لا أقوى على الأنواء
من عاش مثلى فى الحياة مقيدا
بالله كيف يعد فى الأحياء
من لم يجد حرية فى عيشه
فحياته عبث ومحض هباء

وفى قصيدة أخرى بعنوان « ضحية التقاليد » تقول ناهد :

يالائمى فى جوى نفسى وتنهيدى
تعال واعجب لأفعال التقاليد
أقضى النهار يكاد الضيق يقتلنى
يومى كأمسى لا أحظى بتجديد

يا لائمى بعد هذا تبتغى أملا
لى فى الحياة وحظا غير منكود ؟!

وتتناول ناهد بعد ذلك كل ظواهر الحياة الحزينة مما تسمعه أو تراه ، فالحزن فى نفسها عميق ، وهو يجذبها إلى كل مظاهر الأسى الواقعية فى هذه الدنيا ، وأهم مظاهر الحزن فى هذه الدنيا هو الموت ، والموت فى ديوانها يحتل مكانا بارزا . وكثير من قصائد الديوان تتناول الموت فى صوره المختلفة ، بل لقد كانت أول قصيدة لها هى رثاء لأختها « أمينة » ثم كتبت بعد ذلك رثاء لأبيها وأمها ، وكتبت رثاء لبعض صديقاتها اللاتى توفين فى شبابهن . ثم ترجمت إلى الشعر المنظر الأخير من رواية « غادة الكاميليا » لألكسندر دوماس الابن ، وفى هذا المنظر تستلقى « مرجريت » على فراش الموت ، وتلتقى فى اللحظات الأخيرة بحبيبها « أرمان » . وهكذا تسيطر فكرة الموت على الشاعرة بسبب ما كانت تحسه من أن حياتها نوع من الموت ، ولأنها كانت تشعر فى أعماقها بأنها قريبة من عالم الفناء .

على أننا نجد فى شعر ناهد عددا من الموضوعات التى تنبض بالأمل والتمرد فى قصائدها بين الحين والحين ، تعبيرا عن ثورتها على وضعها بدلا من الاستسلام له ولما يقود إليه من الحزن واليأس ، ففى قصيدة أهدتها « على لسان الفتاة المصرية » إلى قاسم أمين نصير المرأة ومحررها الأول .. تقول ناهد :

ويح الفؤاد من التقاليد التى
شلّت يراعى وانثنت بجنانى
لا تصدح الأطيار فى أقفاصها
لكنها تشدو على الأفنان
والغصن يورق فى الفضاء إذا نما
طلقا ويذبل داخل الجدران
نضب المعين فكيف أنظم بعد ما
عقدت تقاليد البلاد لسانى
أأظل وقفا للرثاء وللبكا
أأظل مثل النادبات زمانى

من لى بأجواء القريض وصفوه

فعساى أنظم ما يروق بيانــى

من لى بإشراق الحياة وصحوها

صدىء اليراع وخاننى تبيانـى

من لى بوحى للقريض فقدته ؟

أتــراه ملَّ تحفظــى فجفانـــى

وكانت ناهد تكتب عن الحب أحيانا ، ولكنها كانت تكتب عن حبيب خيالى أو حب خيالى ، ففى قصيدة بعنوان « إلى مثلى الأعلى » تقول فى مقدمتها : « إلى ذلك المخلوق الذى أعيش معه محلقة فى دنيا المثل ، وكلما اصطدمت بالحقائق أهيب به أن يتجسم وينقذنى » ، ثم تقول فى القصيدة نفسها بعد ذلك :

أين من وادى الأمانى ما أرى

يا أميرى قف لقد طال الطريق

فى الذى صرنا إليه ما ترى

ثـارت الدنيـا علينـا يا رفيــق

يا أميرى قدتنـا نحـو السمــاء

وإتخذنا قصرنـا فـوق النجـوم

وفى وصفها للطبيعة ترى الأسى فى كل مظاهرها ، فهى تقول فى قصيدة بعنوان « آمال تحطمت » ، وقد كتبتها فى الاسكندرية « على شاطىء كثير الصخور » :

يا صخور أرحمى الموج من ذا العذاب

جاء يبغى المنى ، والأمانى العذاب

جـــاء مستــبشرا ، وجهـــه مشرق

وانثنـــى عــابسا ، بــالأسى غــــارق

لقد كانت فتاة حساسة وشاعرة واعدة ، لم يمهلها العمر ، ولم تساعدها الظروف على إنضاج موهبتها ، ولكنها مع ذلك جسدت مأساة الفتاة العربية التى يمكن أن تقسو عليها الظروف الاجتماعية أشد القسوة فتحطم حياتها بصورة كاملة .



إغتيال غسان كنفانى

فى الساعة العاشرة والدقيقة الخمسين من صباح يوم السبت ٨ يوليو ١٩٧٢ ، كان الفنان والمفكر والمناضل الفلسطينى « غسان كنفانى » يفتح باب سيارته « أوستن ١١٠٠ » والتى كانت تقف أمام باب منزله فى منطقة الحازمية فى بيروت ، بينما كانت تقف أمام الباب الثانى للسيارة ابنة أخته « لميس حسين نجم » وعمرها ١٨ عاما ، وقد أصرت لميس على أن تخرج مع خالها غسان لتصاحبه فى طريقه إلى مكتبه بمجلة « الهدف » التى كان يرأس تحريرها ، وبعد ذلك يخرجان إلى أسواق المدينة لتشترى لميس ما تحتاج إليه ،

ولم يكد غسان يدير محرك السيارة حتى إنفجرت السيارة إنفجارا عنيفا مدويا ، واشتعلت فيها النيران ، وأحدث الانفجار فجوة كبيرة فى المكان الذى كانت تقف فيه السيارة ، كما تحطمت كل نوافذ العمارة التى كان يسكن فيها غسان مع زوجته الدانمركية « آنى » وولديه فايز « ١٠ سنوات » وليلى « ٦ سنوات » ، وكانت تقيم معه فى نفس المنزل أخته « فايزة » والتى جاءت لزيارته من الكويت حيث تعمل بالتدريس هناك ، وصحبت معها أولادها فى هذه الزيارة ، وكان من بينهم ابنتها لميس التى لقيت مصرعها فى حادث إنفجار السيارة .

وأذاعت وكالات الأنباء التى أسرعت إلى مكان الحادث أن المحققين عثروا فى موقع الإنفجار على قصاصة ورق عليها شعار إسرائيل ، وهو نجمة داود السداسية ، وفوق القصاصة عبارة تقول « مع تحيات سفارة إسرائيل فى كوبنهاجن » ، وكانت الإشارة إلى « كوبنهاجن » بالتحديد مقصودا بها السخرية من زواج غسان من فتاة دانمركية ، وكأن الذين دبروا هذه الجريمة يقولون إن « كوبنهاجن » عاصمة الدانمرك التى أعطته زوجته وشريكة حياته « آنى » ، هى نفسها التى حكمت عليه بالموت وقضت على حياته .

وكان من نتائج هذا الإنفجار أن تمزقت جثة غسان إلى أشلاء صغيرة تطايرت خارج السيارة وتناثرت فى مساحة واسعة فى مكان الحادث ، وسقط الجزء الأكبر من هذه الأشلاء فى حديقة مجاورة ، كما عثر رجال الأمن على إحدى يدى غسان فوق سطح منزل مجاور .

وقد تبين من التحقيق أن الإنفجار كان ناتجا عن كمية كبيرة من الديناميت بلغ وزنها خمسة كيلو جرامات ، وقد تم وضع قنبلة من البلاستيك فوق ماسورة العادم بالسيارة ، وهذه الماسورة هى ما نسميه فى مصر باسم « الشاكمان » ، بحيث تنفجر القنبلة والديناميت بمجرد إدارة محرك السيارة ، وقال خبير المتفجرات الذى حقق فى الجريمة إنه لو كانت السيارة موجودة داخل « جراج » العمارة التى يسكن فيها غسان لكانت كمية الديناميت كافية لنسف المبنى كله .

وكان السبب الظاهر لهذه الجريمة هو العملية الفدائية التى تمت قبل اغتيال غسان بفترة قصيرة فى مطار « اللد » داخل إسرائيل ، وهى العملية التى اشترك

فيها عدد من اليابانيين ، وقتل فيها بعض الإسرائيليين ، وقد أعلنت « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » مسئوليتها عن العملية الفدائية ، وكان غسان من زعماء الجبهة المعروفين ، كما كان رئيسا لتحرير مجلتها الناطقة باسمها وهى مجلة « الهدف » ، وقد أرادت إسرائيل كعادتها أن ترد على هذه العملية الفدائية بإنتقام حاد وعنيف تحقيقا لشعار صهيونى معروف يقول « كل يهودى بمائة عربى » ، ومن هنا قام اليهود بهجوم كبير على جنوب لبنان ، ثم تلا ذلك جريمة قتل غسان كنفانى الذى كان من ألمع الرموز الفلسطينية المعبرة بقوة فى مواقفها وكتاباتها المختلفة عن ضرورة تحرير فلسطين من الإحتلال الصهيونى بأسلوب المقاومة المسلحة وليس بأسلوب آخر ، وكما يقول غسان فى بعض كتاباته : « كن رجلا تصل إلى عكا فى غمضة عين ، أما إذا كنت لاجئا فقط فلن تراها أنت ولن يراها حتى أحفادك » .

وعن حادثة إغتيال غسان كنفانى يذكر صديقه وجاره فى نفس العمارة « مضر الدادا » أنه فى ليلة الحادث كان يقف فى شرفة منزله ، ورأى شبحين يتحركان فى الظلام قرب العمارة التى يسكن فيها غسان ، ويقول جار غسان وصديقه : « أخذ كلبى يعوى بشدة ، وظننت أن الشبحين جاءا يسرقان « طاسات » السيارة ، وصرخت فيهما فابتعدا » ، ثم قال : « ما أشد عذابى . لماذا لم يخطر ببالى غسان فى هذه اللحظة » .

وهذه الشهادة من جار غسان تشير بوضوح إلى أن الجريمة التى دبرتها إسرائيل ، قد قام بتنفيذها عملاء محليون ، يملكون حرية الحركة داخل مدينة بيروت .

ومن المعروف أن غسان كنفانى قد تلقى قبل اغتياله بفترة العديد من التهديدات التليفونية والمكتوبة بالقتل ، ولكنه لم يأبه بالأمر ، فى الوقت الذى احتاط فيه الكثيرون من زعماء « الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين » واختفوا عن الأنظار وابتعدوا عن منازلهم ذات العناوين المعروفة ، وإكتفى غسان بأن يحمل مسدسا معه ، ولعله كان يتصور أن المعركة سوف تكون بينه وبين عدوه وجها لوجه ، ولن يكون فيها تدبير لئيم فى الظلام ، على أن غسان ولا شك كان معذورا فى

موقفه من عدم الأخذ بأى تدابير احتياطية ، فقد كانت حادثة تفجير سيارته هى الأولى من نوعها ، ولم تكن ظاهرة « السيارات الملغومة » قد انتشرت فى لبنان كما هو الحال الآن ، فكان من الصعب أن يحتاط غسان من هذا الشيء المجهول الذى لم يكن لديه فكرة عنه ، بالإضافة إلى ذلك فإن نوع العمل الذى كان يقوم به غسان لم يكن يتيح له فرصة الاختفاء والتمويه ، فعمله الأساسى هو الصحافة والكتابة ، وكان عمله الصحفى بالتحديد يفرض عليه الحركة والحضور اليومى إلى مقر عمله بمجلة « الهدف » التى كان يرأس تحريرها ، ولم يكن باستطاعته أن يؤدى هذا العمل أو يديره من مقر سرى . لقد كانت العلانية فى التصرف والحركة والعمل قدرا مكتوبا على غسان كنفانى ، بالإضافة إلى أن هذه العلانية كانت جزءا من طبيعته ، فقد كان فنانا مشتعل العقل والقلب ، وكان محبا للمواجهة والحوار والاختلاط الواسع بالناس ، وكان صاحب شخصية جذابة محبوبة ، ونتيجة لذلك كله فقد كان على الدوام محاطا بالكثيرين من محبيه فى معظم ساعات الليل والنهار ، ومثل هذه الشخصية كان من الصعب عليها أن تحيط نفسها بالغموض والأسرار ، وأن تختفى عن الأنظار أو تتصرف فى حذر وارتياب .

وقد أتيح لى أن أتعرف على غسان كنفانى سنة ١٩٥٩ ، وكان ذلك فى دمشق ، وفى مقهى « الهافانا » المعروف هناك ، وكان غسان فى تلك الفترة يعمل بالتدريس والصحافة فى الكويت ، ولم يكن قد حقق الشهرة الواسعة التى حصل عليها فيما بعد ، ولكنه مع ذلك كان معروفا فى أوساط المثقفين والأدباء . وعندما التقيت به لأول مرة فى ذلك الصيف منذ ثلاثين سنة ، كان فى الثالثة والعشرين من عمره ، وكنت أنا فى الخامسة والعشرين ، وقد أحسست منذ لحظة لقائنا الأولى بما في شخصية غسان من حيوية وجاذبية وذكاء وثقافة وموهبة . وكان على صغر سنة آنذاك يجمع حوله الكثيرين من شباب الأدب والمناضلين السياسيين الذين يبحثون لأنفسهم عن طريق للعمل والمساهمة فى تحرير أمتهم العربية من كل ظروف القهر والاستعمار .

والتقيت بعد ذلك بغسان كثيرا ، فقد نشأت بينه وبينى صداقة عزيزة استمرت إلى يوم رحيله ، وأذكر أننى عندما زرت بيروت لأول مرة سنة ١٩٦٣ أنه كان أول شخص اتصل به بعد وصولى إلى الفندق فى مساء يوم من أيام مايو من ذلك

العام ، وكان تقديرى أنه سوف يرجىء لقاءه معى إلى صباح اليوم التالى ، ولكنه قال لى فى التليفون بطريقته الجاسمة القاطعة : انتظرنى فى الفندق وسوف أحضر إليك على الفور ، وبالفعل جاء بعد فترة قصيرة وصحبنى إلى منزله ،.وفى المنزل وجدت غرفة الصالون وكأنها قاعة محاضرات فى إحدى الجامعات ، فقد كان هناك عدد من الأدباء والمفكرين والصحفيين وأساتذة الجامعة والمشتغلين بالسياسة ، وكان غسان وسط هذا الجمع الكبير هو مركز المحاورات والمناقشات ، وهو المحرك للأفكار والآراء المختلفة . وكانت معظم لقاءاتنا الأخرى تتم فى هذا الجو الحاشد من أصدقائة ومحبيه ، ومن الذين جذبتهم هذه الشخصية العجيبة المليئة بالدفء والحرارة إلى دائرتها الإنسانية .

وكان غسان منذ شبابه الأول مريضا بالسكر ، ولم تكن درجة المرض خفيفة أو معتدلة ، بل كانت عنيفة إلى أبعد حد ، وكان هذا الأمر مما يثير العجب فى شخصية غسان ، فالمرض الحاد الذى يعانى منه كان يفرض عليه أن يلتزم بنظام دقيق فى الحركة والنشاط ، وأن يكون أقرب إلى الإنطواء والإعتكاف ، منه إلى الحركة المستمرة والعمل الدائب ، ولكن غسان كان يرفض الاستسلام لمرضه ، بل كان يعانده.ويتحداه ، وإن كان قد ظل مدى حياته ، طبيبا رغم أنفه ، فقد كان يحقن نفسه كل يوم بحقنة الإنسولين التى لم يكن يستطيع أن يعيش بدونها ، فإذا لم يفعل ذلك تعرض للإغماء ، وظل فى هذه الحالة حتى يتم حقنه بالإنسولين . وكان يعلق على مرضه بقوله إنه يعرف جيدا أنه سوف يموت فى سن مبكر ، ولذلك فإنه يعمل بأقصى جهده.لكى يعبر عما فى عقله وقلبه من أفكار ومشاعر كثيرة تلح عليه بعنف وشدة ، وكان يقول :

« أشعر دائما بالإعياء والتعب ، ولكننى لا أذهب إلى الفراش ، فهناك شعور خفى يقول لى بأن الذين يقعدون الآن لن يقوموا أبدا » .

على أن مرض غسان لم يدفعه إلى أن يكون شخصية مكتئبة أو متشائمة ، كما يحدث كثيرا عند من يصابون بأمراض لا شفاء منها ، بل على العكس تماما من ذلك كان غسان كنفانى مقبلا على الحياة محبا لها . ولم يكن فى شخصيته أى ميل إلى الاكتئاب والعزلة والإنطواء على الذات .

وحياة غسان لم تكن حياة يسيرة سهلة ، بل كانت عسيرة وقاسية ، وكان ميلاده فى عكا فى ٩ أبريل سنة ١٩٣٦ ، وبعد مولده بأيام قليلة إندلعت الثورة الفلسطينية المعروفة فى عام ميلاده ، ويمكننا أن نسمى ثورة ١٩٣٦ باسم « الانتفاضة الفلسطينية الأولى » فقد كانت هذه الثورة صورة حية من الانتفاضة القائمة الآن فى غزة والضفة الغربية . وقد كانت ثورة ١٩٣٦ موجهة ضد الانجليز الذين أخلوا بإلتزاماتهم نحو فلسطين ، وفتحوا الباب على مصراعيه لتدفق المهاجرين اليهود ، وكان الانجليز قد تعهدوا مرارا بتقليل الهجرة اليهودية والحد منها ، ولكنهم لم يلتزموا بذلك ، بل كان التزامهم الحقيقى هو العمل على إنشاء وطن قومى لليهود فوق أرض فلسطين كما جاء فى وعد وزير الخارجية الانجليزية « بلفور » سنة ١٩١٧ ، فقد كان الانجليز مصممين على إقامة الدولة الصهيونية على أشلاء عرب فلسطين ، وكانت مصالحهم البعيدة والمرتبطة باليهود أهم عندهم من مصالح عرب فلسطين ، ومن هنا قامت ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦ ، وقدمت تضحيات كبيرة ، وهزت سلطة الانتداب البريطانى بعنف ، وإن كانت النتائج النهائية للثورة قد عجزت عن تحقيق الأهداف العربية الكاملة فى ذلك الوقت ، بسبب التآمر الواسع ضد هذه الثورة من كل القوى والاتجاهات .

فى هذا العام المشتعل بالعنف والثورة الشاملة ولد غسان كنفانى فى عكا وانتقل إلى يافا ، حيث اتم تعليمه الابتدائى فى مدرسة من مدارس الإرساليات الفرنسية . وفى عام ١٩٤٨ ، وهو العام الذى قامت فيه إسرائيل بصورة رسمية ، خرج غسان إلى صيدا فى جنوب لبنان مع أسرته المكونة من أبوين وسبعة أشقاء بالإضافة إلى غسان نفسه ، ثم انتقلت الأسرة بعد ذلك إلى دمشق وواصل غسان تعليمه فى المدارس المسائية حتى نال الشهادة الثانوية سنة ١٩٥٤ . وكان فى أثناء دراسته يعمل لمساعدة أسرته فى بعض المصانع والمطابع وفى التدريس فى مخيمات اللاجئين ، وكانت حياته فى هذه الفترة بالغة الصعوبة والقسوة ، ولعل هذه المرحلة فى حياته هى التى أدت به إلى المرض المبكر . وفى سنة ١٩٥٦ انتقل غسان إلى العمل فى الكويت ، وهناك احترف التدريس والصحافة ، وظل فى الكويت حتى سنة ١٩٦٠ ، حيث استقر فى بيروت وعمل فى مجلة « الحرية » وصحيفتى « الأنوار » و « المحرر » ، ثم أنشأ مجلة « الهدف » التى مات وهو رئيس لتحريرها .

وقد تزوج غسان من السيدة « آنى » وهى دانمركية ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك ، وقد تعرف عليها غسان عندما جاءت إلى سوريا لدراسة أحوال اللاجئين ، والتقت بغسان وطلبت منه أن يساعدها على معرفة الحقيقة داخل مخيمات اللاجئين ، وقال لها غسان : « لابد أولا أن تعرفى القضية الفلسطينية ، فاللاجئون فى المخيمات ليسوا حيوانات معروضة فى حديقة للفرجة فقط ، ولكنهم ثمرة ورمز لقضية كبيرة ، ولا يمكن فهم أحوال اللاجئين بدون فهم القضية الأصلية » .

وقد تحمست « آنى » للقضية الفلسطينية ، وفهمتها فهما دقيقا ، وعندما عرض عليها غسان الزواج قبلت على الفور . وقد لعبت « آنى » دورا جيدا فى الدعوة للقضية الفلسطينية فى أوروبا الغربية ، وفى الدانمرك على وجه الخصوص منذ أن ارتبطت بغسان ، وقد بذلت جهدا متميزا فى وقت مبكر للحصول عن طريق أوروبا على نصوص أدب المقاومة العربية فى الأرض المحتلة ، مما ساعد غسان على إصدار أول كتاب عربى عن « أدب المقاومة فى فلسطين المحتلة » ، وقد ظهر هذا الكتاب سنة ١٩٦٦ وحمل على صفحاته أول إشارة إلى أسماء محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد وغيرهم من أدباء الأرض المحتلة ، والذين لم يكونوا معروفين فى الوطن العربى حتى ذلك الوقت .

وقد تعرض غسان كنفانى فى أواسط الستينات لتجربة عاطفية عنيفة جدا ، وكان الطرف الآخر فى هذه التجربة أديبة عربية معروفة ، لا أحب أن أشير إلى اسمها فقد أصبحت زوجة وأما ، وكادت هذه التجربة العاطفية الحادة أن تعصف بغسان عصفا شديدا ، ولكنه واجه التجربة الصعبة فى صبر وشجاعة ، حتى انتهت بسلام . وما كنت لأشير إلى هذه التجربة لولا أنها تركت أثرا أدبيا فى حياته ، فقد كتب غسان عن تجربته تلك عشرات المقالات الوجدانية المليئة بالحرارة والصدق ، وكان ذلك فى ملحق أسبوعى تصدره جريدة « الأنوار » اللبنانية ، وكان غسان يكتب هذه الفصول الوجدانية باسم مستعار هو « فارس فارس » . وهذه الفصول الجميلة التى تصور عواطفه المشتعلة ووجدانه العاشق لم يقم أحد بجمعها فى كتاب حتى الآن ، فيما أعلم ، رغم أنها تستحق ذلك ، فهى تمثل لونا من الأدب الذاتى الجميل الصادق ، وهو لون غير معروف فى أدب غسان ، فقد حرص غسان فى أدبه على « الموضوعية » أى الابتعاد عن التجارب

الشخصية المباشرة والتركيز على القضية الفلسطينية بجوانبها المختلفة . ولم يستسلم للتعبير عن مشاعره الخاصة إلاّ فى تلك الفصول الوجدانية التى أشرت إليها .

وهذه الفصول الوجدانية من ناحية أخرى تكشف عن الشاعرية الكامنة فى قلبه وموهبته الأدبية ، رغم أن غسان حاول أن ينفى عن نفسه أنه كتب الشعر أو اهتم بكتابته ، وفى ذلك يقول :

« إننى أحب الشعر فهو يطربنى ويهزنى ، ولكننى لم أحاول أن أكون شاعرا إلاّ عندما كنت صغيرا ، حيث كتبت قصيدة غزل لا أذكرها ، ولكننى أتصور أنها كانت مرعبة ، فقد أفقدتنى الفتاة التى قرأتها لها وكتبتها من أجلها » .

ورغم هذا الاعتراف من جانب غسان ، فإن الروح الشعرية ، تبدو قوية واضحة ، فى تلك الفصول الوجدانية التى كتبها بتوقيع « فارس فارس » خلال تجربته العاطفية العنيفة التى عاشها فى الستينات .

كان غسان كنفانى شخصية خصبة متنوعة ، وكان غزير الانتاج بصورة لافتة للنظر ، فكان صحفيا ناجحا ونشيطاً ، وكان كاتب مقال وقصة قصيرة ومسرحية ، واستطاع أن يكون فى مقدمة كتّاب الرواية العربية ، ولعله بموهبته وسلامة رؤيته وعمق تفكيره ، يكون حتى اليوم هو الروائى الفلسطينى الأول ، من حيث القيمة والأهمية . وكان بالإضافة إلى ذلك كله رساما ، ولعل الكثيرين لا يعرفون أنه رسم بريشته معظم أعماله الأدبية ، وأنه هو صاحب الفضل فى تقديم الفنان الفلسطينى الكبير « ناجى العلى » إلى الحياة الثقافية والصحفية فى الوطن العربى ، وكان ذلك على صفحات مجلة « الحرية » التى كان غسان يشرف على تحريرها فى أوائل الستينات . وكانت رسوم ناجى العلى فى مجلة « الحرية » بتشجيع من غسان كنفانى ، هى بداية الانطلاق لناجى ، حتى وصل إلى قمة النجاح والتأثير ، وإن كان الأمر قد انتهى باغتيال ناجى سنة ١٩٨٧ فى لندن ، وبذلك يكون ناجى شريكا لغسان فى المصير ومأساة النهاية .

وحول التنوع الكبير فى انتاج غسان ، من الصحافة إلى الرسم إلى القصة القصيرة والرواية والمسرح ، يكتب غسان شهادة لها قيمة فى هذا المجال فيقول :

« تشتد نصائح الأصدقاء لى بألاّ أولى الصحافة كل هذا الاهتمام ، فهى فى النهاية ـ كما يقولون ـ ستقضى على إمكانياتى الفنية لكتابة القصة ، وأنا بصراحة لا أفهم هذا المنطق ، فهو منطق النصائح التى كنت أسمعها وأنا فى المدرسة الثانوية : « اترك السياسة وأهتم بدروسك » . وهى نفس النصائح التى سمعتها بعد ذلك فى الكويت : « أترك الكتابة واهتم بصحتك » .. فهل كان عندى حقا خيار بين المدرسة والسياسة ، أو بين الكتابة والصحة ، حتى يكون عندى الآن خيار بين الصحافة والقصة ؟ ... أنا أريد أن أقول شيئا ، أحيانا أستطيع قوله بكتابة الخبر الرئيسى فى صحيفة الغد ، وأحيانا بصياغة الافتتاحية ، أو صياغة خبر صغير فى صفحة المجتمع . فى أحيان أخرى لا أستطيع أن أقول ما أريده إلاّ بالقصة . الاختيار الذى يتحدثون عنه ليس له وجود . وهو يذكرنى بأحد معلمى اللغة العربية الذى كان يطلب مع بداية كل عام من تلاميذه كتابة موضوع إنشائى مفضل عند هذا المدرس وهو : « أيهما تفضل ، حياة القرية ، أو حياة المدينة ؟ » .. ولم ينتبه هذا المدرس أبدا إلى أن معظم تلاميذه كانوا يعيشون فى المخيمات ، لا فى القرية ولا المدينة » .

هذا هو ما قاله غسان كنفانى فى تفسير التنوع الشديد فى نشاطه الفكرى والفنى ، وغسان هنا صادق فى تفسيره لموقفه ، فهو صاحب قضية كبيرة وحية وغنية بأحداثها اليومية المتواصلة ، ولم تكن قضيته التى يعبر عنها ويعتبر نفسه جزءا منها وثمرة لها قضية ذهنية ، يمكن أن يعتكف من أجل التعبير عنها بأسلوب محدد أو شكل فنى واحد . كانت القضية هى الأصل عند غسان . أما التعبير عنها فتتعدد أدواته ، وكل ما يفيد فى هذا المجال فهو مطلوب ونافع . كان غسان مثل قائد فى معركة عسكرية كبيرة ، يستخدم كل الأسلحة الجوية والبحرية والبرية للانتصار فى معركته وتحقيق أهدافه الكاملة .

ومن المؤكد أن هذا التنوع الكبير فى نشاط غسان الفكرى والفنى قد أدى أحيانا إلى شىء من السرعة والخفة فى بعض إنتاجه الأدبى ، وقد لاحظ بعض النقاد ذلك ، وبخاصة فى مجموعته القصصية التى صدرت سنة ١٩٦٨ بعنوان « عن الرجال والبنادق » ، على أن أى ملاحظة حول ضعف بعض إنتاج غسان كنفانى لا تغير من الحقيقة الأساسية شيئا ، وهذه الحقيقة هى أن معظم إنتاج غسان الأدبى

كان يتسم بالعمق والموهبة الحقيقية والأصيلة ، بالإضافة إلى إلتزامه الصادق المخلص بالتعبير عن القضية الفلسطينية وعن مأساة الإنسان الفلسطينى فى المخيمات ، وفى الأرض المحتلة ، وفى المنفى حيث يبحث الإنسان الفلسطينى عن رزقه فى ظروف بالغة القسوة والمشقة والصعوبة بعيدا عن أرضه ووطنه .

وفى أدب غسان كنفانى ثلاث روايات رئيسية تعتبر من روائع الأدب العربى المعاصر هى : « رجال فى الشمس » و « ما تبقى لكم » و « عائد إلى حيفا » . وفى هذه الروايات تتجلى موهبة غسان فى رسم الشخصيات والمواقف وخلق جو قصصى بالغ الحيوية والجمال ، وفى هذه الروايات أيضا يقدم غسان حلا ناجحا وبديعا لمشكلتين أساسيتين :

الأولى هى الإلتزام بقضية عامة دون التضحية بجمال الفن وجاذبيته ، والثانية هى خلق تفاعل بالغ الحيوية بين الواقعية والرمزية . وإذا أخذنا روايته الرائعة « رجال فى الشمس » كنموذج لتحقيق التوازن الصحيح بين القضية والفن ، وبين الواقع والرمز ، فسوف نجد فى هذه الرواية تطبيقا دقيقا لكل الجوانب المنشودة فى العمل الفنى الناجح ، فالرواية تصور الواقع الفلسطينى تصويرا قاسيا وصادقا وجارحا ، كما أن الرواية تهتم برسم التفاصيل الواقعية الدقيقة للمحنة ، وتشير فى رمزية راقية إلى أن المصير الفلسطينى لن يتغير إذا استسلم الإنسان الفلسطينى لآلامه ، وتعايش معها أو تصالح ، وإذا لم يقم الفلسطينيون ، الذين كانوا فى رواية « رجال فى الشمس » يحاولون دخول الكويت فى خزان إحدى السيارات ، بالدق على جدران الخزان ، ليعلنوا عن وجودهم بدلا من أن يموتوا داخل الخزان من شدة الحرارة دون أن ينطقوا بكلمة . فالرواية تروى حكاية ثلاثة فلسطينيين كانوا يحاولون دخول الكويت من البصرة داخل خزان سيارة خوفا من منعهم على الحدود لأنهم لم يكونوا يملكون تأشيرة دخول إلى الكويت ، وكان هؤلاء الفلسطينيون يحلمون بالحصول على عمل فى الكويت يعيشون منه وينفقون على عائلاتهم التى تركوها وراءهم فى بعض المخيمات ، ولكن سائق السيارة تأخر فى إنهاء إجراءات الدخول على الحدود عن الوقت المحسوب ، مما أدى إلى احتراق الفلسطينيين الثلاثة داخل خزان السيارة من شدة الحرارة . وكانت صرخة السائق عندما اكتشف المأساة هى : لماذا لم تدقوا باب الخزان ؟ .. لماذا ؟ لماذا ؟ ، وهى

نفسها صرخة غسان الذى كان فى أدبه كله رافضا للسلبية والاستكانة ، داعيا بقوة للإيجابية والدق على أبواب كل خزانات الأرض من أجل الخلاص والتحرر .

ومن أهم أعمال غسان فى القصة القصيرة مجموعتان هما : « موت سرير رقم ١٣ » وقد صدرت سنة ١٩٦٢ ، و « أرض البرتقال الحزين » وقد صدرت سنة ١٩٦٣ . أما فى مجال المسرح فله عدة أعمال أهمها مسرحية « الباب » وقد صدرت حوالى سنة ١٩٦٤ ، ومسرحية « القبعة والنبى » وقد كتبها سنة ١٩٦٧ ولكنها لم تنشر إلا بعد استشهاده .

أما دراساته الأدبية فأهمها كتابه عن شعر الأرض المحتلة ، وكتابه عن الأدب الصهيونى ، وهو فيما أعلم أول دراسة تعرفها المكتبة العربية فى هذا الميدان .

إن غسان كنفانى يمثل شخصية إنسانية وأدبية بالغة العمق والحيوية ، ورغم أنه عاش حياة قصيرة لم تتجاوز ستة وثلاثين سنة ، فإنه عاش هذه الحياة مشتعلا بالألم والفرح ، والنضال والإبداع ، وكان تأثيره كبيرا فى عصره ، وسوف يمتد هذا التأثير عن طريق أعماله الفنية الناضجة إلى عصور أخرى وأجيال جديدة .

رقم الإيداع

١٩٩٠ / ٥٠٦٨

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر